

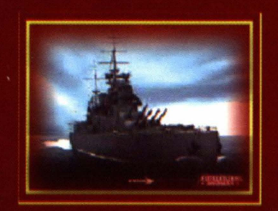
التاريخ الحربى عبر عصور التاريخ



حصاد ٢٠

مؤتمر عقده اتحاد المؤرخين العرب بمقره بالقاهرة

١٤٣٤ هـ ــــ ٢٠١٢ م






al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

التاريخ الحربي عبر عصور التاريخ

حصــاد ٢٠

مؤتمر عقده

اتحاد المؤرخين العرب

بمقره بالقاهرة

١٤٣٤ هـ ـ ٢٠١٢ م

هـــذا العـــدد

١ ــ هذا العـــدد خاص بالمؤتمر السنوي لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.

٢ ــ يستهدف العدد إظهار الحقيقة التاريخية لموضوع محدد صافية نقية، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية.

٣ ــ البحوث التي تنشر فيها محكمة، تعبر عن وجهة نظر أصحابها، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد من آراء علمية.

٤ ــ تصدر مؤقتاً سنوياً في أكتوبر من كل عام، علي أن تصلها البحوث المقدمة للنشر في كل عدد في موعد غايته نهاية شهر فبراير من نفس العام.

٥ ــ لا يزيد البحث المقدم للنشر عن خمسة وعشرون صفحة، مكتوب علي الكمبيوتر ويقدم من نسختين ورقيتين ونسخة أخري علي الاسطوانة CD.

٦ ــ تعد الخرائط والرسوم وغيرها من الإيضاحات بالحبر الصيني علي ورق الرسم، قابلة للاستنساخ المباشر.

٧ ــ يشترط ألا يكون العمل المقدم قد سبق نشره، أو قدم للنشر في أية جهة أخري، ويكتب الباحث تعهداً بعدم تقديمه للنشر في أي جهة أخري بعد قبوله للنشر بالمجلة.

٨ ــ لا ترد أصول الأعمال المقدمة سواء قبلت للنشر أو لم تقبل.

٩ ــ يرد عنوان البحث في رأس الصفحة الأولي، متبوعاً بإسم المؤلف مقروناً بوظيفته وجهة عمله.

١٠ــ ترتب الهوامش والتعقيبات التفصيلية بترقيم موحد في نهاية العمل.

١١ــ يراعي في إعداد قائمة المراجع ما يلي :

(أ) تسجيل أسماء المؤلفين أو المحققين أو المترجمين أو المراجعين، متبوعة بعنوان الكتاب ثم مكان النشر ثم اسم الناشر، ثم تاريخ النشر، مع بيان الطبعة.

(ب) مقالات الدوريات تبدأ باسم صاحب المقال، ثم عنوان المقال، ثم اسم الدورية، ثم رقم المجلد والعدد والمجلة وتاريخه، ثم أرقام الصفحات التي يقع فيها المقال.

(جـ) الرسائل الجامعية يتم تسـجيل اسم صاحب الرسالة، وعنوانها، والجامعة التي أجازتها، واسم المشرف، وتاريخ الإجازة.



لقطات سريعة من المؤتمر









المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

عقد اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة مؤتمراً كعادته كل عام بعنوان: **تاريخ الوطن العربي عبر العصور (التاريخ الحربي)** في يومي الأربعاء والخميس ٢٨-٢٩ المحرم سنة ١٤٣٤هـ/١٢-١٣ ديسمبر ٢٠١٢، وشارك في فعاليات المؤتمر وأنشطته حوالي مئتين وخمسين عضواً من أعضاء الاتحاد، قدموا من مختلف أنحاء الوطن العربي. وتم عرض أكثر من ثلاثين بحثا في ست جلسات فضلاً عن الجلسة الأولي والجلسة الختامية.

ويحتوي هذا العدد من حصاد المؤتمر علي مجموعة منتقاة من البحوث والدراسات التاريخية التي ألقيت في المؤتمر وتمت مناقشتها، وأجازها الأساتذة المحكمون، في موضوعات متنوعة من التاريخ الحربي. فيجد الباحث في التاريخ دراسات وبحوث في الفتوحات الإسلامية لبعض البلدان، واستخدام الحيل الحربية والعيون والجواسيس منذ العهد النبوي، والتكتيكات الحربية وفنون القتال في العصر العباسي، واستخدام النار الإغريقية عند محاربة البيزنطيين، والتدريبات العسكرية في عصر سلاطين المماليك، فضلا عن صفحات من التاريخ العسكري للدولتين السعوديتين الأولي والثانية، ولمحة من تاريخ المعارك بين الأسبان والمغاربة في القرن العشرين، وغير ذلك من الموضوعات المهمة في تاريخنا القومي، كتبها زملاء من مختلف الجامعات ومراكز البحوث التاريخية، وقام بتحكيمها صفوة من الأساتذة المتخصصين في الدراسات التاريخية، ضمانا للجودة وتحقيقاً لأهداف اتحاد المؤرخين العرب.

ويسعد اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة نشر هذه الباقة من البحوث المجازة في مجال التاريخ الحربي لفتح الطريق أمام الباحثين العرب وغيرهم، لبحث المزيد من الموضوعات الجديدة المتميزة التي تثري الدراسات التاريخية وتلقي الأضواء علي صفحات مجيدة من صفحات التاريخ العربي، وتحافظ علي الهوية العربية، وتعمل علي تأصيلها وتعميق جذورها.

وفقنا الله جميعا لرفع شأن الدراسات التاريخية في الوطن العربي، والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير.

أ.د. حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

أستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة

عضو مجمع اللغة العربية والمجمع العلمي المصري

برنامج مؤتمر التاريخ الحربى عبر عصور التاريخ

اليوم الأول الأربعاء ٢٨ محرم ١٤٢٤هـ الموافق ١٢ ديسمبر ٢٠١٢م

الجلسة الأولى : ١٠,٠٠ صباحاً – ١٢,٣٠ ظهراً

- كلمة أ.د. حسنين محمد ربيع رئيس الاتحاد ورئيس الندوة
- كلمة أ.د. عبد الله بن يوسف الشبل نائب رئيس الاتحاد
- كلمة أ.د. حامد زيان غانم أمين الصندوق

* التقرير المالي وإقرار الميزانية العمومية والحساب الختامي وتعيين مراقب الحسابات .
* تكريم نخبة من شوامخ المؤرخين العرب.
* انتخاب ٥ أعضاء لعضوية مجلس الإدارة(أربعة أعضاء من الزملاء العرب وعضو من الزملاء المصريين)

استراحة وتناول الشاي ١٢,٣٠ – ١,٠٠ ظهراً

الجلسة الثانية:١,٠٠ – ٣,٠٠ عصراً رئيس الجلسة : أ.د. أحمد بن عمر الزيلعي

أ.د. حسنين محمد ربيع	تدريب الفارس المملوكي
أ.د. محمد بهجت قبيسي	أسماء الجيوش والسرايا والقادة العسكريين ووسائل الدفاع في النقوش الكنعانية والآرامية
أ.د. أحمد دياب	دور قوة دفاع السودان في تحرير ليبيا وارتريا في الحرب الأوربية الثانية من الاستعمار الإيطالي ١٩٣٨-١٩٤٥) دراسة في الأوضاع السودانية
أ.د. عبد الباري محمد الطاهر	غزوة مؤتة ٨ هـ قراءة تاريخية تربوية استراتيجية
د. محمد فوزي رحيلي	التشريعات الأولية المنظمة لهيئة الفرسان الداوية وأثرها في الحرب مع المسلمين ٥٢٣-٥٨٣هـ/١١٢٩-١١٨٧

دعــوة الغــداء ٣,٠٠ – ٤,٠٠ عصراً

الجلسة الثالثة : ٤,٠٠ – ٥,٣٠ مساء رئيس الجلسة : أ.د. محمد عيسي الحريري

أ.د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم	معركة أنوال بين الأسبان والمغاربة عام ١٩٢١م
أ.د. محمود سعيد عمران	مدونة سقوط مدينة شلب في أيدي الصليبيين عام ١١٨٩م
أ.د. كمال عنانى إسماعيل	الابتكارات الأندلسية في العمارة الحربية
أ.د. محمد حوتية	العيون الاستطلاعية للسياسية الاستعمارية الفرنسية بالصحراء الإفريقية
د. عبير زكريا سليمان بيومي	معركة إستجه (٦٧٣هـ-١٣٥٥م) ودورها في الجهاد الإسلامي في الأندلس
د. عبد الله بن عثمان الخراشي	الأسلحة القتالية في العهد النبوي

اليوم الثاني الخميس ٢٩ محرم ١٤٣٤هـ الموافق ١٣ ديسمبر ٢٠١٢م

الجلسة الرابعة : ١٠ر٠٠ صباحا – ١٢ر٠٠ ظهراً رئيس الجلسة: أ.د. عبد الله علي الزيدان

أ.د. أسامة عبدالرحمن الأمين	الدلالات التاريخية والعسكرية لموقعة عمورية
أ.د. محمد بركات البيلي	معركة بكة وفتح الأندلس
أ.د. حامد زيان غانم	النار الاغريقية بين المسلمين والروم
د. عمرو عبد العزيز منير	الفتح الإسلامي لصعيد مصر (قراءة في مخطوط فتوح البهنسا الغراء)
د. راوية عبدالحميد حسانين شافع	عبقرية الخطط الحربية في تاريخ السيرة النبوية في ضوء سيرة ابن هشام
أ.د. عبد الله صالح العثيمين	التاريخ العسكري للدولتين السعوديتين الأولي والثانية
د. حجازى عبد المنعم سليمان	معارك حمص الثلاث بين المماليك والمغول

استراحة وتناول الشاي ١٢ر٠٠ – ١٢ر٣٠ ظهراً

الجلسة الخامسة : ١٢ر٣٠ – ٢ر٣٠ ظهرا رئيس الجلسة: أ.د. زبيدة محمد عطا

د. فاتن محمد البنداري الشيخ	التكتيكات العسكرية وفنون القتال في مصر في العصر العباسي
د. آمال حامد زيان غانم	الحيل الحربية والتكتيك العسكري للسلطان نور الدين محمود
أ.د. صلاح أحمد هريدي علي	التاريخ العسكري لمصر في عهد عباس باشا الأول (١٨٤٩-١٨٥٤م)
د. طارق أبو الوفا محمد	الحيل الحربية والعيون والجواسيس في العهد النبوي من (١ إلى ١١هـ)
د. شاهندة سعيد محمود منصور	الحيل الحربية في بلاد المغرب في الفترة من بداية الفتح العربي حتى قيام دولة الأغالبة
د. صلاح سليم طايع	الجنود المرتزقة في الأندلس

دعوة الغداء ٢ر٣٠ – ٣ر٣٠ عصراً

الجلسة السادسة : ٣ر٣٠ – ٤ر٣٠ مساء رئيس الجلسة : أ.د. محمد بهجت القبيسي

د. مرفت أسعد عطا الله يوسف	سياسة بريطانيا إزاء مصر من العدوان الثلاثي ١٩٥٦ إلي قيام الحرب المصرية الإسرائيلية ١٩٦٧
د. عبدالعزيز محمد موسى أسحق	أسلحة القتال في الدويلات السودانية خلال الفترة ١٥٠٦-١٨٩٨
د. البيومي إسماعيل الشربيني	نشأة وظيفة المشير ومهامه في تاريخ مصر الإسلامية
د. عبد الحليم علي رمضان	خطة الفكاكة في الأندلس

الجلسة الختامية: ٤ر٣٠ – ٥ر٣٠ مساء رئيس الجلسة : أ.د. حسنين محمد ربيع

- توصيات المؤتمر
- اقتراح موضوع المؤتمر القادم.

الرواد المكرمون من نوابغ المؤرخين
في احتفالية اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
يوم الأربعاء ٢٨ محرم ١٤٣٤هـ الموافق ١٢ ديسمبر ٢٠١٢م

م	الاســـــم	الجنسية	الوظيفـــة
١	أ.د. حسـنين محمـد ربيـع	مصري	أستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة
٢	أ.د. محمد جبر جبر أبو سعدة	مصري	أستاذ بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر
٣	أ.د. محمد سالم شديد العوفي	سعودي	أستاذ وأمين عام مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
٤	أ.د. شكران عبدالرحمن خربوطلي	سورية	أستاذ بكلية الآداب جامعة دمشق
٥	أ.د. فيصل عبد الله الكندري	كويتي	أستاذ بكلية الآداب جامعة الكويت

أسماء الجيوش والسرايا والقادة العسكريين ووسائل الدفاع في النقوش الكتابية الكنعانية والآرامية

د. محمد بهجت قبيسي (*)

سيتطرّق البحث إلى أسماء الجيوش، والسرايا، والقادة، والمنشآت العسكرية: كالحصون، والقلاع والخنادق.

وفي هذا الملخص سنعطي أمثلة مختصرة عمّا ذكرناه آنفاً:

١- الجيش: في العربية الآرامية: [مِحنَه]

هـ ن ح م

٢- قائد سرية: [رب مئة]

هـ أ م ب ر

٣- القلعة: [حِسنْ] = حصن.

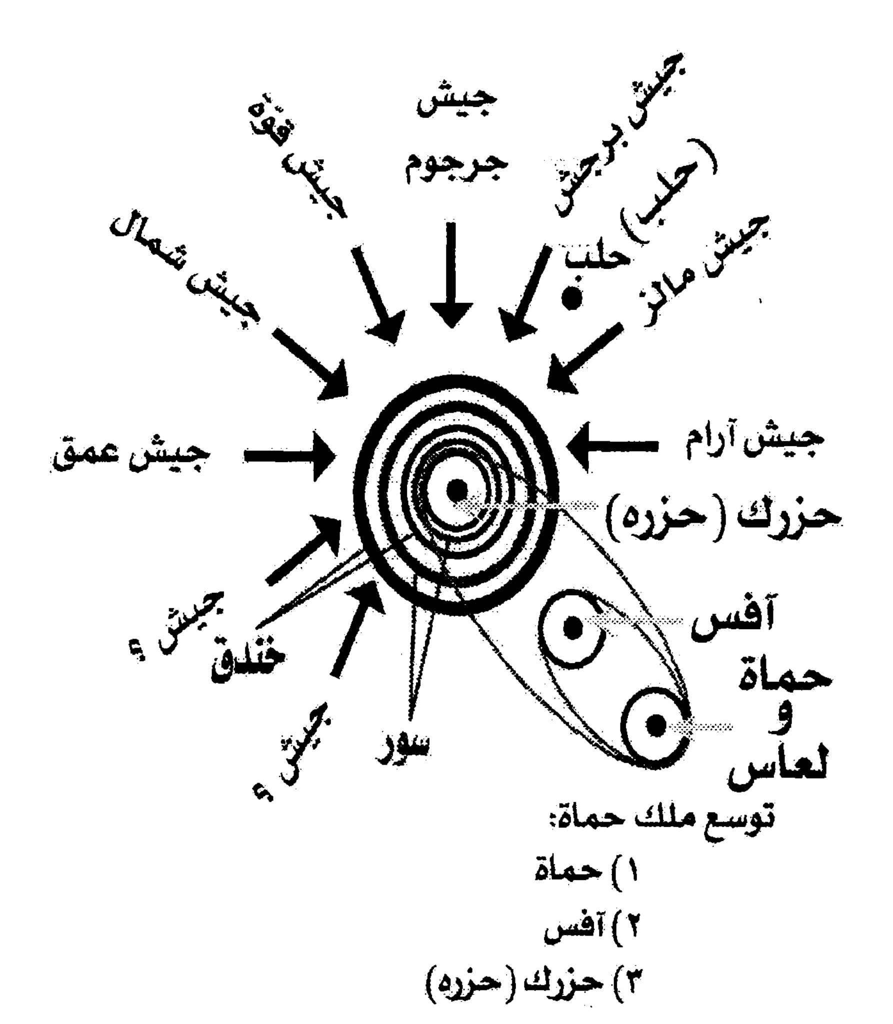
٤- الخندق: [حِرصْ].

ورد في نقش الملك زكّور ملك حماة ولعاسي (ملك حماة والعاصي)، في القرن الثامن قبل الميلاد: أنّه كان متمترساً في مدينة حزرك (جانب مدينة إدلب اليوم)، والتي اغتصبها من ملك حلب، فاجتمع عليه ستّة عشرة ملكاً آرامياً لخرقه اتّفاقاً كان بين الممالك ألاّ يعتدي ملكٌ على أراضي ملكٍ آخر.

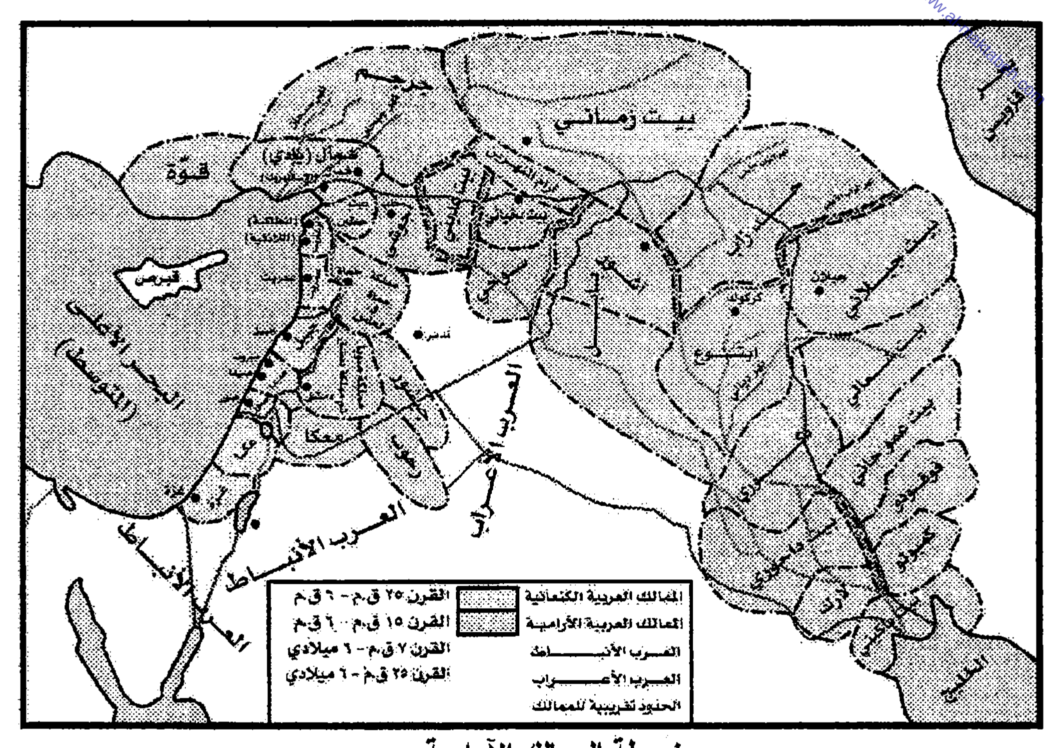
وكان زكّور قد بنى سوراً لمدينة حزرك وعزّزه بخندق خارج السور، فما كان من الملوك إلاّ أن اتّبعوا مبدأً قتالياً آخراً، فأقاموا بعد الخندق سوراً أعلى من سور حزرك، وحفروا خندقاً أعمق من خندق حزرك.

وهذا النقش له دلالته العسكرية والتاريخية، حيث يكشف أنّ فكرة حفر الخنادق (غزوة الخندق على سبيل المثال)، هي فكرة عربية آرامية وليست فارسية كما يُدّعى.

(*) أستاذ محاضر في جامعات حلب وتشرين والقاهرة سابقاً، رئيس مؤسسة دار شمأل للدراسات اللغوية والتاريخية.



توسع ملك حماة:
١) حماة
٢) آفس
٣) حزرك (حزره)



خريطة الممالك الآرامية

تبدّلت أسماء الممالك حسب الحُقب، فمملكة بيت حطين أخذت اسم مملكة عمق، ومملكة دمشق أخذت اسم مملكة آرام، ومملكة جرجم أخذت اسم مملكة مالز

ورد في اللفظ العربي الآرامي:

وها وحّد عليّ بر هدد بر حزائيل ملك آرام ستة عشر ملكين

أي: وها (قد) وحّد عليّ ابن هدد بن حزائيل ملك آرام ستة عشر ملكاً

وهم: بر هدد ومحنته وملك قوة ومحنته وملك عمق ومحنته

أي: ابن هدد وجيشه وملك قوة وجيشه وملك وادي العمق وجيشه

ثم يقول: وها رمّوا سور من سور حزرك

أي: وها (قد) رفعوا سوراً (أعلى) من سور حزرك

ثم يقول: وها عمّقوا حرص من حرصها

أي: وها (قد) عمّقوا خندقاً أعمق من خندقها.

راجع الملحق حيث نجد النقش بالحرف الكنعاني الآرامي.

وسيرد في المحاضرة عدداً لا بأس به من المصطلحات العربية الآرامية والعربية الكنعانية، وسيلاحظ المتابع أهم ملامح اللهجات العربيات الكنعانية والآرامية؛ بأنّ تصريف الفعل في هاتين اللهجتين يتساوى مع تصريف الفعل في اللهجة العربية العدنانية (أي الفصحى). فأجد فعل [كتب] (وهي كلمة كنعانية وآرامية كما في العدنانية) أنّه يتصرّف بـــ: كتب – أكتب – نكتب – يكتب – تكتب،

وهذا التصريف لا أجده لا في العبرية، ولا في السريانية، ولا بلهجة معلولا اليوم.

كلمات من قاموس اللهجة العربية الكنعانية:

آ ن ي ت	آنية، آنيات	سفينة، سُفن (وردت في نقش البرازيل) وجاء في نقش البرازيل، السطر /٤/: وننسع عم آنيات عشرة. أي: وتقنفنا الرياح مع عشرة آنيات (سفن). النسع: رياح خاصّة بالإبحار، من أسماء رياح الشمال لدقّة مهبّها (لسان العرب).	كنعاني
ن ق ب هـ	نقبه	نقبه، ثقب، فتحة، نفق، ومنها صحراء النقب (الحاوية على أنفاق المياه). مثل: شجرة – شجر، ثمرة – ثمر، نقبة – نقب.	كنعاني
ر ب م أ ت	رب مئة	رب مئة، سيّد المائة، رب المائة، قائد سرية.	كنعاني
ر ب م ح ن ت	رب محنة	قائد الجيش، قائد المعسكر، القنصل	كنعاني
ش ب ر	سَبَرَ، شبر	سَبَرَ، هَشَّمَ، هَدَّ، حطَّمَ، كَسَّرَ، كَسَرَ	كنعاني

ش ر	شار	الذي يشير(اسم بصيغة الفعل)، أمير. بالأكادية شار: ملك، مشير.	كنعاني
ق ر	قر - قار	قَر من المقر، قلعة، مدينة، حائط قار يونس = قلعة يونس	كنعاني
م ج ن	مجن	كما في العدنانية تماماً: مجنّ، درع، ترس جَنَّ = ستَرَ (والمجنّ يستر الجسم.	كنعاني
ر ز ن	رزين	رزين، أمير، من الأكابر، منصب ذو جاه، وجيه	كنعاني
م س ت ر	مُستَِرْ	مُستَِرْ، مخبأ، ملجأ.	كنعاني
ح ر س ت	حارسات	حارسات، حرستا (الحارسة) آرامية.	كنعاني
ح م ت	حماة	تحصين، معسكر، جدار منيع، سور، حصن، حامية، حماة	كنعاني
ح م ي ت	حامية، حمية	تحصين، جدار منيع، سور، حصن	كنعاني
ح ر س	حارس	حارس - حرستا (الحارسة)	كنعاني
هـ ر ج	هرج	أمات، قتل	كنعاني
ي س ع	يسع	يسوع، ينقذ، منقذ، أنقذ من	كنعاني
م ج د ل	مجدل	مجد + ئيل = مجدل، برج	كنعاني
م ت	موت	موت	كنعاني

م و ت	موت	موت	كنعاني
ادر خ م ش م	آدر خمشيم	قادر الخمسين، قائد الخمسين	كنعاني
ا ز ر ت	إزرة	مؤازرة، طاقم، فريق المساعدة	كنعاني
ا م ف ر ع ط ر	أمفرعطور	أم: فرع طور = إمبراطور وهي تركيب لكلمتي فرعون + إمبراطور = فرعطور – أمفرعطور، أم فرعطور أي أم الإمبراطور الفرعون (كركلا) وهي جوليا دومنا الحمصية التي تزوجها سبطيم سفير العربي (سبتميوس سيفيروس أرابيكوس) (١٩٣ – ٢١٢ م).	كنعاني
د ق	دق	سحق ، دق	كنعاني
م ر ا س	مرأس	مرأس،غطاء الرأس، قلنسوة	كنعاني

كلمات من قاموس اللهجة العربية الآرامية:

ح ز ي	حازي	حازي – رائي – مستطلع = حادي[١]. ومنها حادي القافلة	آرامي
ح ي ل	حيل	جيش (ما فيه حيل)	آرامي

(١) حادي القافلة في العدنانية هو مستطلع الطريق وعارفه.

وردت كلمة [حيل] لتعني [جيش] في نقش السفيرة الآرامي، القرن ١٢ ق.م، السطر ٢٨/ + ٢٩ + ٣١/ ما يلي:

النص الآرامي: وهن شقرت بعوديا زي بسفرا زنّه وهن يأته حد ملكين ويسبنني(٢)

أي: وإن غدرت بالعهود هذه، (الواردة) بهذا السفر وإن يأته أحد الملوك ويحاصرني

تتمة النص الآرامي: يأته حيلك إلي مع كل بعل حصيا وكل ما هو فوقك وتقف يقفي وتحمل لي

أي: يأته جيشك إليّ مع كل قائد (رمي) بالحجارة (الحصي) وكل ما هو فوقك وتقف موقفي وتحمل لي (ليس ضدي)

تتمة النص الآرامي: وهن بيوم زي إلهين مرحيا لا تأته بحيلك وأتُم لا تأتون بحيلكم لشجب بيتي

أي: وإن باليوم الذي تكافئني فيه الآلهة تأته بجيشك وأنتم لا تأتون بجيشكم لحماية بيتي

الحيل: القوة، والحول في العدنانية: القوة. ومن صفات الجيش القوة، لذا سُمّيَ بـ الحيل.

وفي فقه اللغة: علم القوى يسمّى علم الحيل، وللحصول على الحيل (القوة) اتبع مثلاً تغيير مركز القوة فتزيد القوة، ومن هذا المعنى المادي اتى المعنى المعنوي، وهو الحيلة والحيل، لأنّ الحيل تحتاج إلى قوة في الذكاء.

راجع الملحق حيث تجد النقش بالحرف (الكنعاني / الآرامي).

𐡇𐡑𐡍	حثن –	حصن	آرامي

(2) سبن: حاصر، واسم إسبانيا ليس اسماً لاتينياً، ولا يونانياً، ولا جرمانياً، إنّما هو اسمٌ كنعانيٌّ (راجع تسيركين يولي كوفينتش ، الحضارة الفينيقية في إسبانيا، ترجمة يوسف أبي فاضل، دار جروس برس، لبنان، ط١، ١٩٨٨، ص١٠). إذن، اسم إسبانيا اسم طبيعي، حيث إنّها محاصرة من كافّة جهاتها بالمياه، عدا الشمال منها فهي محاصرة بجبال البيرينيه. وفي الأكادية: المسبينة هي السفينة [راجع: مرعي عيد، اللسان الأكادي موجز في تاريخ اللغة الأكادية وقواعدها، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠١٢، ص ٢٥٣]. والسبينة هي الأصل الإيتومولوجي للكلمة لأنّ السبينة محاصرة من كافّة جوانبها بالمياه، ونجد إبدالات كثيرة في أدوات الإبحار لدى الكنعانيين فـ(الموصلة) أصبحت (بوصلة)، و(المنارة) أصبحت (فنار).

ح ث ن س	حثن – حسن	حصن	آرامي
ح ر ب	حرب	حربة، سيف، حرب، مجزرة. حربا، حربه (سيف) أداة قتال	آرامي
ح ر ص	حرص	خندق، حفرة، قناة. حرص = حريصا (مدلول). فلانٌ حريصٌ على ماله، أي: أمين على ماله. الحرص = المأمن.	آرامي
ي ق ف	يوقف	يطوّق، يحاصرَ. يوقف.	آرامي
م ح ن ت	محنة	معسكر، جيش، مدلول (عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان)، والجيش في الامتحان يكرم أو يهان.	آرامي
م ل ا ك	ملاك	رسول	آرامي
م ث ج ر هـ	مثجرة، مسجرة	في العنانية مزجرة (مدلول لمعنى السجن الذي فيه الزجر.	آرامي
م ص ر	مِصَرّ، مِصرْ	حصار. مِصَرّ (صَرّ). وسُمّيت [مصر] لأنّها مصرورة على النيل.	آرامي
ن ج د	ناجد	(الذي يُنجد). قائد، زعيم، ضابط، نَجَدَ.	آرامي
ن ص ر	نَصَرَ	حمى، حرسَ، نصر	آرامي
س (و) س	سَوَس أو سُوس	فرس، حصان. مدلول من السايس (الراعي للحصان). ومنها (كفر سوسا) قرية الحصان، وقد تأتي كفر العثة السوسه.	آرامي

ث ب ن	سبب = سبن	حاصرَ، طوّق. نظن أنها خطأ إملائي (راجع كلمة سبنني في النقوش الآرامية	آرامي
س ك ن	ساكن	مراقب (أكدية). من صفة المراقب السكون. [نقش حماه: آدم ساكن بيت ملكه أو (مرئه)] أي: آدم مراقب (حارس) بيت سيده.	آرامي
ع ز ز	عزّز	عزّز، قوّى.	آرامي
غ ل ل	غلل	تغلّل. اقتحمَ، دخلَ. غلل أو قد تقرأ غلل وتغلغل = اقتحم = دخل.	آرامي
ف ت ح	فتح	فتح	آرامي
س ع و هـ	سعوة	سعوة: شمعةٌ. سعوة وفي كتابات أخرى ثَغوَه بمعنى شمعة، وكذلك عند ابن منظور السعوة: الشمعة التي يُسعى بها ليلاً (مدلول). ولها اسم عربي آخر حيث تسمّى (الطوّافة).	آرامي
ق س ت	قُوسة	قوسٌ، سهم.بل قوسات وقوسة	آرامي
س ب ي	سبي	سبى، أجلى.	آرامي
س (و) ر	سور	سور. جمع النكرة لـ سور = سورين، وجمع المعرفة سوريّا. وها رمّو سور من سور حزرك، أي: وها (قد) رفعوا (رمّموا) بنوا سوراً أعلى من سور حزرك.	آرامي
	شَلَحَ	أرسلَ، مدّ. ومنها: شلاح = سلاح	آرامي

ش ل ح		وردت في التعرفة الجمركية التدمرية: شلاح، أي: سلاح.	
س ل م	سلام	سلام. السلام والراحة. سلم وتلفظ سلام.	آرامي
كطل = ق ت ل	كطل = قتل	كطل = قتل.	آرامي

كلمات من قاموس اللهجة العربية الكنعانية / الأجريتية:

مقدمة:

تُعتبر الأجريتية من الكنعانية، وأحياناً يعتبرونها خليطا من العمورية والكنعانية. فصلناها عن الكنعانية لسببٍ واه، ألا وهو اختلاف نمط الخط، حيث كُتبت بالأبجدية المسمارية، وهي أقدم أبجدية في العالم، ترقى إلى ١٨٣٠ ق.م. ولو أنّ الأبجدية موجودة في الهيروغليفية؛ إلاّ أنّها استُعملت كخليط مع المقطعية الهيروغليفية.

الكلمة في النقش	اللفظ	المعنى	اللهجة
ṯryn	ثريان	درع	أجريتي
ṭrd	طرد	كما في العدنانية تحمل معنى الطرد والأبعاد.	أجريتي
ḥṣn	حصن	يقول GORDON انه اسم علم. ونقول أنه يقرأ: حصان وحصن والحصان من الحصن من الناحية الايتومولوجية (الأصول التاريخية اللغوية).	أجريتي
ḫym	خيّم	من عملية نصب الخيام.	أجريتي
ḫmt	خيمة	خيمة. وتلفظ كما في عاميتنا:خِيْمَة (ياء ممالة)	أجريتي
qbʿt	قبعة	قبعة غطاء رأس	أجريتي

رب مئات	= قائد الكتائب
رب محنة	= رب الجيش (قائد الجيش)
رب حيل	= رب الجيش (قائد الجيش)
ربة ممالك	= هي مدينة صور أم الممالك الكنعانية في البحر الكنعاني (المتوسط اليوم)
أم ممالك	= أيضاً هي مدينة صور
آدر خمشيم بإزرات ها شم	= قادر الخمسين (قائد الخمسين) = (بالعبرية) بقدرات الاسم [ألا وهو ئيل = الله]

وأخيراً، وخروجاً عن موضوع المحاضرة حول الأسماء، إلاّ أنّنا نودّ أن نتكلّم عن الأفعال. يلاحظ القارئ من النصوص أنّ الفعل يصرّف كما يصرّف بالعدنانية (العربية الفصحى)، سواء كان ذلك بالكنعانية، أو الآرامية، أو الأجريتية.

وهنا نودّ الإشارة للأفعال كما وردت في النصوص المعروضة بهذه المحاضرة:

وَحَّدَ:	بمعنى التوحيد المادي (جمع)	فعل ماضي
رمّوا:	رفعوا – رمّموا – بنوا	فعل ماضي بصيغة الجمع
عمّقوا:	عمّقوا (من العمق)	فعل ماضي بصيغة الجمع
شَقَرْتَ:	غدرت، في رسالة الغفران للمعرّي (شقر) بمعنى (كذب)، والغدر فيه الكذب. على كلٍّ، ما يهمّنا صيغة الفعل: (غدرتَ أنت)	فعل ماضي
يأته:	أتى – يأتي	فعل مضارع
لا تأته:	لا تأته	فعل مضارع(صيغة الأمر)
يسبنني:	يحاصرني (راجع الحاشية حول اسم إسبانيا)، ويجب ملاحظة نون الوقاية في نهاية الفعل.	فعل مضارع

تقف:	تقف	فعل مضارع
تحمل:	تحمل	فعل مضارع

أخيراً، نودّ الإشارة أنّنا نعلّم الآرامية في عشرة أيام للناطقين بالعدنانية (العربية الفصحى).

وفي الإعادة إفادة، أنّ فكرة الخندق (للدفاع الحربي) هي فكرة عربية آرامية[٣] وليست فارسية.



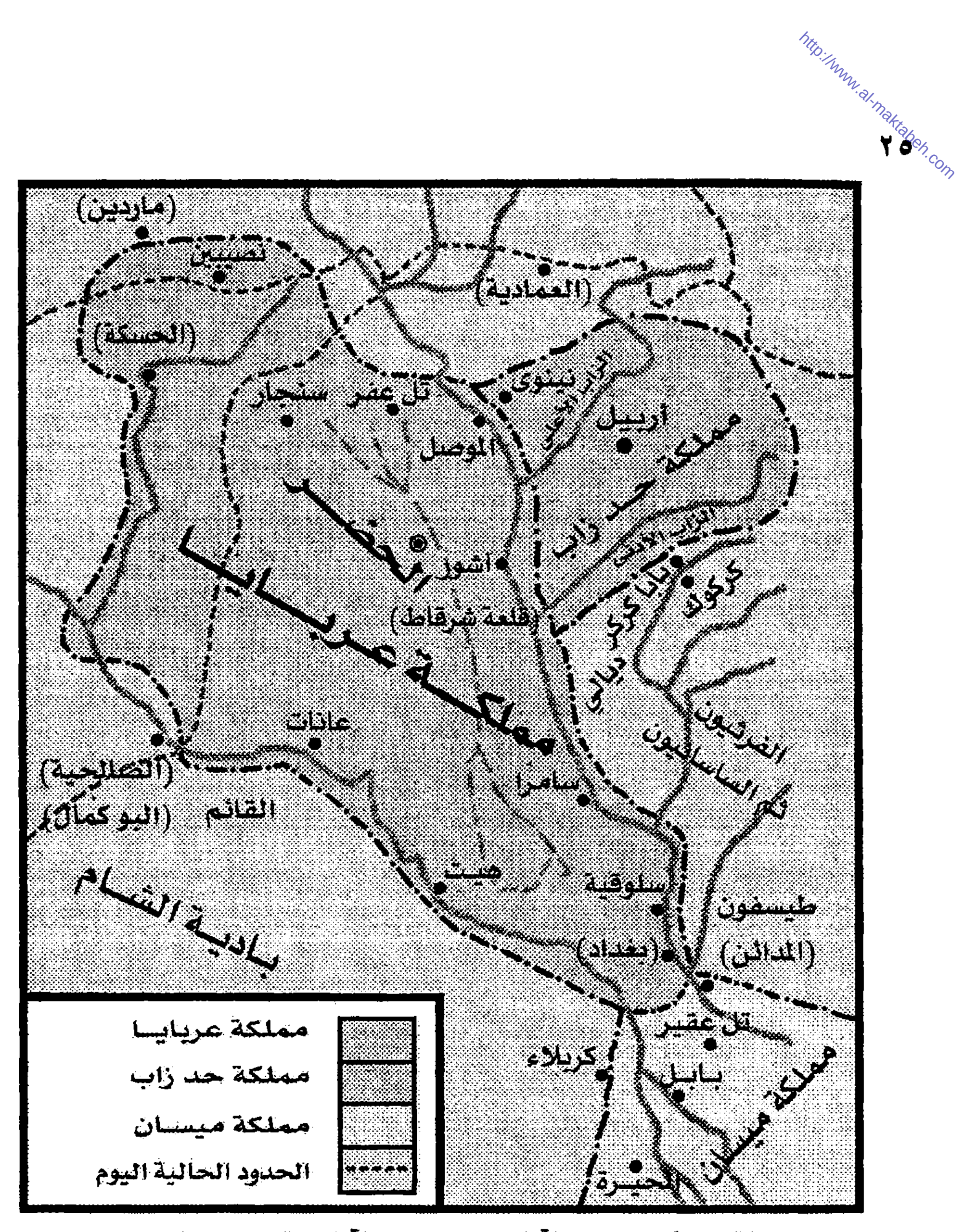
(³) نعم، لقد سمّى الآراميون أنفسهم عرباً، فهذه مملكة عربايا، فباللهجة الآرامية تعني [العرب] حيث جمع كلمة [عرب] هو [عربين]، وتعريف [عربين] بإضافة الألف بآخر الكلمة تصبح [عربينا]، لكنّ الألف تُلغي النون مثل:

حصب – حاصبين – حاصبيّا.

دار – دارين – داريّا.

راش – راشين – رشيّا.

عرب – عربين – عربايا.



خريطة مملكة عربايا الآرامية عربايا بالآرامية تعني العـــرب

الملحـــق

من نقش آفس (زكّور) الآرامي:

السطر(٤): [illegible]

بخط الجزم: [ح]ز ر ك ، و هـ و ح د ، ع ل ي، ب ر هـ د د ، ب ر ، ح ز ا ل، م ل ك، أ ر م ، س[ت]

تفريق الكلمات: حـزرك، وهـوحد، علـي، برهـدد، بر ، حـزأل، ملك ، آرام ، ستـا

اللفظ المقترح: حـزرك، و هـا وحّد ، علـيّ: برهـدد، بر ، حزائيل ، ملك ، آرام ، ستّـا

التفسيـر: (مدينة)حزرك،وها(قد)وحّد، علـيّ (من الملوك): بـن هـدد، بـن، حزائيل، ملك، آرام، ستـة

السطر(٥): [illegible]

بخط الجزم: ع ش ر ، م ل ك ن، ب ر هـ د د ، و م ح ن ت هـ و ب ر ج ش ، و م ح ن ت هـ و[م ل ك]

تفريق الكلمات: عشْر، ملكن ، برهـدد، و محنتـــه ،و برجش ،و محنتـــه، و ملـك

اللفظ المقترح: عشْر، ملكين: برهـدد، و محنتـــه ،و برجش ،و محنتـــه، و ملـك

التفسيـر: عشر، ملكاً : بن هدد، وجيشـــه ،و برجش ،و جيشـــه، و ملـك

السطر(٦): [illegible]

بخط الجزم: ق و هـ و م ح ن ت هـ و م ل ك، ع م ق ، و م ح ن ت هـ و م ل ك، ج ر ج [م]

تفريق الكلمات: قـوه[4]، و محنتـــه، و ملك ، عمـق، و محنتـــه ، و ملـك، جرجـم

اللفظ المقترح: قـوّة،و محنتـــه، و ملك ، عمـق، و محنتـــه ، و ملـك، جرجـم

التفسيـر: قـوّة،و جيشـــه ، وملك (وادي)العمق، و جيشــه ، و ملـك، جرجـم

السطر(٧): [illegible]

بخط الجزم: [و م ح]ن ت هـ و م ل ك ،ش م أ ل، و م[ح ن ت]هـ و م ل ك ، م ل ز، [و م]ح[ن ت هـ]،[و م ل ك]

تفريق الكلمات: ومحنتـــه،وملـك، شمـأل ، ومحنتــه،وملـك، مالـز ، و محنتـــه ، و ملـك

اللفظ: ومحنتـــه،وملـك، شمـأل ، ومحنتــه،وملـك، مالـز ، و محنتـــه ، و ملـك

---

(4) راجع خريطة الممالك الآرامية وابحث عن مملكة «قوّة» الواقعة في الأراضي التركية اليوم، وكذلك بقيّة الممالك المشار إليها بهذا النقش.

المقترح:

التفسيــر: وجيشــه، وملـك، شمـأل ، وجيشـــه ،وملـك، مـالز ، و جيشـــه ، و ملـك

السطــر(٨): [illegible]

بخط الجزم: [ــ ، و م ح ن ت هـ ، و م ل ك ، ــ ، و م ح ن ت هـ ، و] س ب ع [ت ، أ خ ر ن]

تفريق الكلمات: ـــ ، و محنتـــه ، وملـك، ـــ ، ومحنتـــــه، و سبعـــة ، أخـرن ،

اللفظ المقترح: ـــ ، و محنتـــه ، وملـك، ـــ ، ومحنتـــــه، و سبعـــة ، آخريـن ،

التفسيــر: ـــ ، و جيشـــه ، وملـك، ـــ ، وجيشـــه ، و سبعـــة ، آخريـن ،

السطـر(١٠) [illegible]

بخط الجزم: و هـ ر م و ، س ر ، م ن، س ر، ح ز ر ك، و هـ ع م ق و، ح ر ص، م ن، ح ر [ص هـ]

تفريق الكلمات: و هـا رمـو ، سر، من ، سر ، حــزرك، و ها عمقــو، حـرص، من ، حـرصـه،

اللفظ المقترح: و هـا رمّـوا،سـور، من ، سور، حـزرك، و ها عمقـوا، حَرص، من ، حـرصها ،

التفسيــر: وهـا(قد)أقاموا،سـوراً(أعلى)مـن سور حزرك، و ها(قد)عمّقوا، خندقـاً(أعمق) من خندقها،

من نقش السفيرة الآرامي:

السطـر(٢٨): [illegible]

بخـط الـجزم: [و هـ ن ر ت ب ع د] ي ا ز ي ب س فـ ر ا ز ن هـ و هـ ن ي أ ت هـ ح د م ل ك ن و ي س ب ن [ي] ي أ ت هـ ح [ي ل ك]

تفريق الكلمات: و هن شقرت بعوديا زي بسفرا زنه وهن يأته حد ملكين ويسبنني يأته حيلك

اللفـظ المقترح: وهن شقرت بعوديا زي بسفرا زنـه وهن يأته حد ملكين ويسبنني يأته حيلك

التفسيـــر: وإن غدرت بالعهود هذه (الواردة) بهذا السفر) وإن يأته أحد الملوك ويحاصرني (يأته جيشك)

السطـر(٢٩): [illegible]

بخـط الـجزم: [أ ل ي ع م] ك ل [ب ع ل] ح ص ي ا و ك ل م هـ فـ ـ ك و ت ق فـ ي ق فـ ي و ت ن ت ع ل ي هـ [.....]

تفريق الكلمات: إلي مع كل بعل حصيا وكل ما هو فوقك وتقف يقفي وتحمل لي

اللفظ المقترح: إليّ مع كل بعل حصيا وكل ما هو فوقك وتقف يقفي وتحمل لي

التفسيـــر: إليّ مع كل قائد (رمي) بالحجارة (الحصي) وكل ما هو فوقك وتقف موقفي وتحمل لي (ليس ضدّي)

السطر(٣١):

بخط الجزم: [....] م و هـ ن ب ي و م ز ي أ ل هـ ن .... م ر ح ي ا ل ت أ ت هـ ب ح ي ل ك و أ

تفريق الكلمات: وهن بيوم زي إلهين مرحيا لا تأته بحيلك وأتم

اللفظ المقترح: وهن بيوم زي إلهين مرحيا لا تأته بحيلك وأتّم

التفسيـــر: وإن باليوم الذي تكافئني فيه الآلهة لا تأته بجيشك وأنتم

السطر(٣٢):

بخط الجزم: [ت م ل ت أ] ت و ن ب ح ي ل ك م ل ش ج ب ب [ي] ت ي [و هـ ن ع ق] [ر] [ك ل] ي أ ت هـ ل ش ج ب أ ي ت ع ق ر

تفريق الكلمات: لا تأتون بحيلكم لشجب بيتي وهن عقرك لا يأته لشجب آيات عقري

اللفظ المقترح: لا تأتون بحيلكم لشجب بيتي وهن عقرك لا يأته لشجب آيات عقري

التفسيـــر: لا تأتون بجيشكم لحماية بيتي وإن ذريتك لا يأتي لحماية آيات نسلي



المصادر والمراجع

- نقش السفيرة، محفوظ في متحف دمشق الوطني:

Fitzmyer. J. A, 1967, The Aramaic Inscriptions Of Sefire Biblical, Et Orientalia, 19, Rome. + Wendering Aramean, Michigan.

- نقش آفس، محفوظ في متحف اللوفر بباريز:

Gibson J. C., 1971, 1975: Textbook Of Syrian Semitic Inscriptions, p.p. 8 – 12, Oxford.

- قبيسي – محمد بهجت: حضارة واحدة أم حضارات في الوطن العربي القديم، جار طلاس – دار شمأل، ط٢، دمشق، ٢٠٠٨.
- تسيركين – يولي كوفينتش: الحضارة الفينيقية في إسبانيا، ترجمة يوسف أبي فاضل، دار جروس برس، لبنان، ط١، ١٩٨٨.
- GORDON CURUS H., UGARITIC TEXT BOOK, ROMA, 1965.
- إسماعيل – فاروق: اللغة الآرامية القديمة، جامعة حلب، ١٩٩٧.
- قبيسي – محمد بهجت: تعليم الآرامية في عشرة أيام للناطقين بالعدنانية (العربية الفصحى)، دار شمأل، ط١، دمشق، ٢٠١٠.
- قبيسي – محمد بهجت: الكنعانيون والآراميون العرب في الإمبراطورية الرومانية، دار طلاس – دار شمأل، ط٣، دمشق، ٢٠١١.
- قبيسي – محمد بهجت: ملامح في فقه اللهجات العربيات من الأكادية والكنعانية وحتى السبئية والعدنانية، دار شمأل: ط٢، دمشق، ٢٠٠٠.
- مرعي – عيـــد: اللسان الأكادي موجز في تاريخ اللغة الأكادية وقواعدها، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠١٢.


http://www.al-maktabeh.com

الحيل الحربية والعيون والجواسيس في العهد النبوي من ١-١١هـ/٦٢٢-٦٣٣م

د. طارق أبو الوفا محمد (*)

مقدمـــة

تعد الكتابة في موضوع الحيل الحربية والعيون والجواسيس من الموضوعات التي تجعل القارى يشعر بعظمة الانتماء إلى حضارتنا الإسلامية، ومما لاشك فيه أن دراسة هذا الموضوع قد إكتنفه شيء من الصعوبة في الفترة المبكرة التي وقع اختياري عليها، ولذا فقد قسمت البحث إلى تمهيد وثلاثة عناصر :

وفي التمهيد يتم الإشاره إلى تعريف المصطلحات اللغوية ومنها : الحيل – الخدع – المكائد – الكمائن – التمويه – التورية – العيون – الربيئة – الجواسيس .

اما ثلاثة المحاور فهى :

أولا : الحيل الحربية في العهد النبوي وتتضمن استخدام الشمس،الماء،الطبيعة الجغرافية لأرض المعركة،الأفكار غير التقليدية مثل الحفاظ على القائد واللواء واستخدام الأدلاء، تنظيم الهجوم (فكرة الصفوف) الأساليب الدفاعية، التمويه مثل إخفاء خط سير الجيش وتغيير مواضع الجنود،والحرب النفسيه مثل استخدام النار واستعراض الجيوش

ثانيا: العيون وتتضمن شخصية العين وسماته، مهمته، أساليب العيون. انواع العيون: عين مقيمة،بصاصين،استطلاع واستكشاف وحظر،الربيئة، إبلاغ التقارير للقائد وهو "الرسول "صلى الله عليه وسلم""

ثالثا:الجواسيس: التجسس، حكمه، حالات التجسس في العهد النبوي، مهمتهم مصير الجواسيس

ثم الخاتمة وقائمة المصادر والمراجع .

تمهيـــد

يجدر الإشارة إلى المصطلحات التي سيتم استخدامها في ثنايا هذا البحث وهي خاصة بالألفاظ الحربية، وفيما يلى سوف نعرض للتعريف اللغوى للمصطلحات التالية :

(*) باحث حاصل علي درجة الدكتوراة.

(الحيل) جمع حيلة، و اسم من الاحتيال(١) وتحايل علي الرجل ، أو الشيء :سلك معه مسلك الحذف يبلغ منه مأربه(٢).

(الخداع) "خَدَعَهُ " ختله وأراد به المكروه من حيث لا يعلم، وقوله تعالى ﴿يخادعون الله﴾(٣) أي يخادعون أولياء الله(٤).

(الكيد) وهو المكر(٥) وفى القرآن الكريم :﴿إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا﴾(٦).

(كمن) أى اختفى ومنه الكمين في الحرب(٧) واستخدم المسلمون نوعاً من أنواع الحيل فى قتالهم وهو التمويه.

(التمويه) وأصله مَوَهُ بالتحريك لأن جمعه "أَمْواه" ـ فـي القلة و"ميـاُه" فـي الكثـرة و"مَوَّه"الشيء "تمويها" طلاه بفضة أو ذهب وتحت ذلك نحاس أو حديد، ومنه التمويه وهو التلبيس(٨).

(التورية) و(وراه تورية) أخفاه، وتوارى: أستتر(٩).
(العين). والعين الديدبان والجاسوس(١٠).

(الربيئة) ربأ أي يربو، أي أشرف على القوم، وهو عين للقوم من على شرف، واستشرف يأتي بالخبر دون علم العدو، وربيئة القوم عينهم(١١).

(الجاسوس): العين يتجسس الأخبار ثم يأتي بها(١٣) وقيل التجسس بالجيم أن يطلبه لغيره، وبالحاء أن يطلبه لنفسه دليل، بالجيم: البحث عن العورات وبالحاء الاستماع(١٤).

الحيل والعيون والجواسيس في القرآن والأحاديث النبوية :
(الحيل):ومنها المكر والكيد، أما المكر فجاء فى قوله تعالى : "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبوتك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين"(١٥).
المكيدة فى قوله تعالى:
﴿قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾(١٦).
(العيون) ومنها التحسس كما فى قوله تعالى : ﴿يبني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيئسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾(١٧).
(الجاسوس) وقد ورد لفظ الجاسوس في القرآن، بقوله ﴿يأيها الذين ءامنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا﴾(١٨).
وهذه المصطلحات قد فقد تناولتها أيضا الأحاديث النبوية، فنجد مصطلح :
(الحيل) فعن جابر يقول : قال رسول الله ﷺ (الحرب خدعة)(١٩).

(العيون) عن أنس قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم "عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله"(٢٠)

(التجسس) فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" " إياكم والظـن" . فإن الظن أكذب الحديث . ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تناقشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا (٢١)

وفيما يلى نتناول المحور الاول :

أولا : الحيـل الحربيـة:

شخصية القائد:

وإذا ما قمنا باستعراض شخصية القائد في جيشه بين جنوده نجد أنه هو الشخص الذي يعول عليه الأمل في تحقيق النصر حتى إنه إذا انتصر الجيش وقتل قائده أصبح لدى المهزوم يقين بأنه حقق نصراً لكونه قتل قائد الجيش المنتصر لذلك كان لزاما علـى كـل جيش أن يحمي قائده، وقد قام الصحابة رضوان الله عليهم بحماية الرسـول "صـلى الله عليه وسلم"، أعدوا له عريش يوم (بدر) ووقفوا على بابـه يـدافعون عنـه(٢٢) وهـذا العريش هو أشبه بغرفة قيادة العمليات في الجيوش الحديثة (٢٣) ومن هنا يكـون لهـم قصب السبق في هذا المجال.

الدروع البشرية: استخدم المسلمون في غزوة أحد أجسامهم كدروع بشرية للدفاع عن حياة الرسول "صلى الله عليه وسلم" قبل أن يعرفها العالم الحديث، ومن أمثال ذلك ما ذكرته المصادر من أن أبا دجانة قد ترس رسول الله "صلى الله عليه وسلم" بنفسه فكـان يقع النبل في ظهره وهو منحني عليه(٢٤) لم يكن المشركون أقل حرصا على قادتهم مـن المسلمين، فقد جعلوا عمرو بن هشام "أبو جهل" يوم غزوة بدر فى مثـل الحرجـة (٢٥) وقالوا : أبو الحكم لا يخلص إليه.(٢٦) وكانت حيلتهم في ذلك أن ألبسوا بيضته لشخص قتله المسلمون ظننا منهم أنه أبو جهل ؛ فألبسوها لآخر فقتله المسلمون أيضا ظننا مـنهم أنه أبو جهل ؛ وعندما عرضوها على الثالث رفض قائلاً : إنها مشؤومة ؛ فلبـسها أبـو جهل فقتله المسلمون (٢٧).

التخلص من القادة داخل الميدان وخارجه:

أسلفنا القول أن القائد هو المحرك الأساسي للجيش لذا كانت حياته عرضة للقتـل في الميدان وخارجه، و قد تمكن المشركون في الميدان من الوصول إلى شـخص رسـول الله "صلى الله عليه وسلم" و جرحه في غزوة أحد(٢٨)، وكذلك تمكن المسلمون من قتـل أبي جهل قائد المشركين في غزوة بدر وقيادات أخرى(٢٩).

أما خارج الميدان فكان للمؤامرات دور كبير في السعي حثيثا فـي إنهـاء حيـاة القادة، فقد فشل اليهود فى محاولة سعوا فيها للتخلص من حياة الرسول "صلى الله عليـه

وسلم" في غزوة بني النضير، حيث قاموا بإلقاء صخرة عليه من فوق أحد المنازل التي كان يجلس تحتها إلا أن جبريل (عليه السلام) أخبره بذلك فقام منصرفا قبل وقوع الصخرة.(٣٠)

كما قامت زينب بنت الحارس بوضع سم في ذراع شاة ثم قدمتها للرسول "صلى الله عليه وسلم" في يوم خيبر لطعمها بأنه يحبها فأكل منها هو وأحد الصحابة إلا أن الشاة أخبرته بأنها مسمومة.(٣١)

أما المشركون فقد سعوا للتخلص من الرسول "صلى الله عليه وسلم" خارج الميدان فأرسلوا إليه عمير بن وهب ومعه سيف مسموم فدخل على النبي في مسجده إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل.(٣٢)

و قد دلل المشركون على أهمية قتل القادة خارج الميدان و عدوها بمثابة غزوة لا تقل عن الحرب في الميدان بقول صفوان بن أمية لأهل قريش بعد اتفاقه مع عمير بن وهب على قتل الرسول "صلى الله عليه وسلم" (أبشروا بوقعة تأتيكم الآن تنسيكم وقعة بدر).(٣٣) كما تمكن أحد مشركي الأعراب (ويدعي دعثور بنً الحارث) من الوصول إلى الرسول صلى الله عليه و سلم وهو نائم تحت شجرة معلقا سيفه فتناوله و قال من يمنعك مني يا محمد ؟ فقال الرسول "صلى الله عليه و سلم" : الله ، و دفعه جبريل في صدره فسقط السيف من يده فتناوله الرسول صلى الله عليه و سلم و قال لدعثور: من يمنعك مني، فقال: لا أحد، ثم أسلم(٣٤) لم يكن المسلمون بعيدين عن هذا الشأن فقد أرسل الرسول صلى الله عليه و سلم بسرية فدائية بقيادة عمرو بن أمية الضمري إلى مكة كانت مهمتها قتل أبي سفيان إلا أنها لم تحقق هدفها(٣٥)

وكذا فعل الرسول "صلى الله عليه وسلم" مع زعماء اليهود في المدينة، فقد كلف "صلى الله عليه وسلم" محمد بن مسلمة بقتل كعب بن الأشرف(٣٦) ووجه سرية لقتل عصماء بنت مروان(٣٧) كما تتبع الرسول "صلى الله عليه وسلم" أعداءه من اليهود في خارج المدينة فأرسل عبد الله بن رواحة لقتل أسير بن زارم ونجحت هذه السرية في مهمتها(٣٨) وسرية عبدالله بن عتيك لقتل أبي رافع في خيبر، وكانت حيلتهم أن قدموه لكونه يعرف لغتهم ويرطن بها، وأشارت عليهم أمه بأن يقولوا إنهم آتين لإبي رافع بهدية وتمكنوا من قتله.(٣٩) هكذا كان للقائد دوره في الميدان وخارجه وكان أنصاره يحافظون على حياته ويصنعون الحيل في ذلك ويتخلصون من قادة الأعداء سواء كان ذلك في الميدان أو خارجه.

الحفاظ على اللواء أو الراية :

كان للواء طبيعته التي أدركها كل المتصارعين في ساحات القتال ولذلك يخاطب أبو سفيان قومه يوم أحد عن ذلك قائلا: يا بني عبد الدار نحن نعرف أنكم أحق باللواء منا ! إنا إنما أوتينا يوم بدر من اللواء ، وإنما يؤتى القوم من قبل لوائهم ، فالزموا لواءكم

وحافظوا عليه، وخلوا بيننا وبينه، فإنا قوم مستميتون موتورون، نطلب ثأرا حديث العهد.(٤٠) وكذا حافظ المسلمون على اللواء لأخر رمق.

من ذلك موقف جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤته الذي أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل مدرجا في دمائه دون أن يسقط اللواء فقد رفعه أحد المسلمين عاليا(٤١).

الأدلاء :

وهم الماهرون بالطرق والذين يمكنون الجند من الوصول إلى أرض المعركة من أقصر طرق ممكنة حتى لا يصلوا إلى المعركة منهكي القوى فلا يقوون على القتال، وكان الرسول "صلى الله عليه وسلم" يوصي قواده بذلك، ومن أمثلة ذلك قوله "صلى الله عليه وسلم" لأسامة بن زيد في غزوته : سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش، فأغر صباحا على أهل أبني وأسرع السير تسبق الأخبار، فإن ظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك.(٤٢) هكذا نجد وصايا الرسول "صلي الله عليه وسلم" لأسامة تدل على خبرته "صلى الله عليه وسلم" بالشؤون العسكرية وكانت قريش هي الأخرى تبحث عن الأدلاء لأهميتهم، فنرى صفوان بن أمية بعد غزوة بدر يبحث عن دليل يسلك به طريقاً بعيداً عن صحابة الرسول "صلى الله عليه وسلم"، فأشار عليه الأسود بن المطلب أن يسلك طريق العراق، فقال صفوان لست بها عارفا، فدله أبو زمعة على فرات بن حيان العجلي وأنه يسلكها مغمض العينين، فأرسل إليه فأتاه و أخبره بأن هذه الأرض لا يطؤها أصحاب محمد لأنها أرض نجد وفيافي(٤٣) وقد تمكن المسلمون من الظفر بعير كان يقودها فرات بن حيان العجلي وكان ذلك في سرية زيد بن حارثة إلى العيص في جمادى الأولى سنة ست(٤٤).

الأفكار غير التقليدية في القتال: إبتكر الرسول "صلى الله عليه وسلم" في القتال حيلا لم تكن معروفة في عصره، فقد قام بإدخال حيل هجومية تتمثل في الآتي: صف الجنود في صفوف، فقد ذكرت المصادر عنه يوم بدر أنه : دعى عتبة إلى المبارزة ورسول الله صلى الله عليه سلم في العريش وأصحابه على صفوفهم، وقال خفاف بن أيماء رأيت أصحاب النبي "صلى الله عليه وسلم" يوم بدر وقد تصاف الناس وتزاحفوا ورأيت أصحاب النبي "صلى الله عليه وسلم" لا يسلون السيوف(٤٥) وقد أنبضوا القسي وقد ترس بعضهم عن بعض بصفوف متقاربة لا فرج بينها والآخرون قد سلوا السيوف حين طلعوا(٤٦) كما أمر رسول الله "صلى الله عليه وسلم" القوم بقوله إن إكتنفكم القوم فإنضحوهم عنكم بالنبل(٤٧).

ووضحت فكرة الصفوف في أن المقاتل عندما يقاتل وحده جماعة تهن قوته ومن الممكن أن يلتف صف خلف العدو فيطوقهم فتخور معنوياتهم فتسهل هزيمتهم. وكانت فكرة النضح بالنبل لتفريق جموع مقاتلي المشركين وكان سل السيوف هو الحل الأخير، لأن الرسول "صلى الله عليه وسلم" كان يريد حتى في أحرج لحظات القتال تجنب إزهاق الأرواح، لأنه "صلى الله عليه وسلم" كان يأمل في دخول كافة البشر في دين الله.

الحيل الهجومية: كان في فكر رسول الله صلي الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم حيل لم يسبق أن عرفها رجال عصرهم، ومنها استخدام الماء كسلاح استراتيجي في المعركة، حيث قام الرسول "صلى الله عليه وسلم" باتخاذ منزل للمعسكر فجاء إليه الحباب بن المنذر وسأله إن كان هذا المنزل عن وحي فلا نملك أن نتكلم أم هي الحرب والخدعة والمكيدة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل الحرب والخدعة والمكيدة، فقال الحباب أرى أن ننزل عن القليب فنشرب ولا يشرب القوم(٤٨).

ومما سبق يتضح لنا مدى أهمية الماء وكيف إستخدمه المسلمون الأوائل في حروبهم كسلاح استراتيجي له قيمته وتأثيره على الجند في أحرج لحظات المعركة.

كما استخدم المسلمون الشمس في تأثيرهم على العدو في المعركة، فيذكر الواقدي(٤٩) أن النبي "صلى الله عليه وسلم" جعل عينين خلف ظهره، واستدبر الشمس واستقبلها المشركون.

هكذا وضح كيف استخدم الرسول حيلة الشمس في التأثير على عيون العدو مما يجعل المقاتل في حالة عدم اتزان لكونه لا يستطيع فتح عينيه بحرية كاملة.

الحيلة في تعلم الأسلحة الجديدة: كان للرسول "صلى الله عليه وسلم" إحاطة بأخبار الحروب ويأمر صحابته بتعلم كل ما هو جديد، وظهر ذلك حينما أوفد عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة إلى جرش(٥٠) يتعلمان عمل الدبابات والمنجنيق والعرادات ثم قدم بعد ذلك لينصباه على حصن الطائف.(٥١)

حيل المسلمين في الدفاع: ابتكر المسلمون حيلا جديدة في الدفاع، مثل حيلتهم في يوم أحد حين استخدم الرسول "صلى الله عليه وسلم" الرماة ليحموا ظهر المسلمين، وقال: قوموا على مصافكم هذا فاحمو ظهورنا فإن رأيتم قد غنمنا فلا تشركونا وإن رأيتم نقتل فلا تنصرونا(٥٢).

الخنادق: أسلوب دفاعي أخذه العرب عن الفرس(٥٣).

وقد أشار به على الرسول صلى الله عليه و سلم سلمان الفارسي في غزوة الأحزاب، فقال سلمان: يا رسول الله إنا إذ كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين، وذكروا حين دعاهم النبي صلى الله عليه و سلم يوم أحد أن يقيموا ولا يخرجوا، فكره المسلمون الخروج وأحبوا الثبات فى المدينة(٥٤).

الكمائن: ابتكر المسلمون أسلوب الكمائن وهو أن يكمن الشخص أو الفرقة لتفاجئ عدوها على حين غرة فتربكه وتحقق النصر عليه، وقد استخدم المسلمون هذه الحيلة في سرية الخرار(٥٥) بقيادة سعد بن أبي وقاص في ذي القعدة من السنة الأولى من الهجرة، ويقول سعد: فخرجت في عشرين رجلا أو أحد وعشرين على أقدامنا، فكنا نكمن النهار ونسير الليل(٥٦).

وقد تقوم الجيوش الكبيرة بإعداد كمائن لها وتبعث الجيوش من يستطلع ذلك كما فعلت قريش مع المسلمين في غزوة بدر(٥٧).

أما أشهر الكمائن الفردية التي كمنها المشركون للمسلمين فهو ذلك الكمين المروع الذي قام به وحشي لحمزة بن عبد المطلب وقتله في غزوة أحد، وقد حدّث هو عن ذلك بقوله: فكمنت إلى صخرة وهو مقبل له كثيب فاعترض له سباع بن أم أنمار، فقال له حمزة: وأنت أيضا يا ابن مقطعة البذور ممن يكثر علينا هلمّ إليّ فاحتمله حتى إذا بركت قدماه رمى به فبرك عليه فشحطه شحط الشاة، ثم أقبل إليّ حين رآني فلما بلغ المسيل وطأ على جرف فذلت قدمه فهززت حربتي حين رضيت منها فأضرب بها في خاصرته حتى خرجت من مثانته.(٥٨)

التمويه وإخفاء وجهة سير الجيش حتى عن قائد السرية :

حدثنا أمير السرية عبد الله بن جحش عن ذلك بقوله: دعاني رسول الله "صلى الله عليه وسلم" حين صلى العشاء فقال لي: وافي مع الصبح، معك سلاحك، أبعثك وجهه، قال: فوافيت الصبح وعليّ سيفي وقوسي وجعبتي ومعي درقتي، فصلى النبي "صلى الله عليه وسلم" بالناس الصبح ثم انصرف، فوجدني قد سبقته واقفا عند بابه مع نفر من قريش، فدعى رسول الله "صلى الله عليه وسلم" أبي بن كعب فدخل عليه، فأمره الرسول أن يكتب كتابا ، ثم دعاني فأعطاني صحيفة من آديم خولاني فقال: قد استعملتك على هؤلاء النفر، فأمضي حتى إذا سرت ليلتين فانشر كتابي ثم أمضي لما فيه. ومما سبق يتضح أن الرسول "صلى الله عليه وسلم" لم يحدد له الوجهة إمعانا في السرية حتى لا يتسرب الخبر إلى الأعداء فيؤخذون حذرهم، وفتح عبد الله خطاب الرسول وعلم وجهته.(٥٩) وهذه الرسائل يقول عنها العسكريون في عصرنا الحديث الرسائل المكتومة.(٦٠)

ولم تكن تلك السرية الوحيدة التي فعل فيها الرسول "صلى الله عليه وسلم" تمويها بل فعل في أكثر من سرية وغزوة. وأفضل ما فعله توجهه لغزو بني لحيان في مئتي رجل ومعهم عشرون فرسا، فنزل بمضرب القبلة من ناحية الجرف،(٦١) فعسكر في أول نهاره ، وهو يظهر أنه يريد الشام ثم بلغ بطن غران، فسمعت به بنو لحيان فانصرفوا في رؤوس الجبال وبعث السرايا في كل ناحية ثم خرج حتى أتى عسفان، وقال: إن قريشا قد بلغهم مسيري وأني قد وردت عسفان(٦٢) وهم يهابون أن آتيهم فأخرج إليهم عشرة فوارس فخرجوا حتى أتوا الغميم(٦٣) ثم رجعوا إلى رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ولم يلقوا أحداً، فقال رسول الله "صلى الله عليه وسلم": إن هذا يبلغ قريشا فيذعرهم.(٦٤)

تطويق الجيش:

وهذه حيلة قد فعلها خالد بن الوليد في غزوة أحد حين كر على رماة المسلمين؛ فيذكر الواقدي ذلك بقوله: فلما إنصرف الرماة وبقي من بقي نظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله، فكر بالخيل وتبعه عكرمة ، فانطلق إلى بعض الرماة فحملوا عليه، فرمى

القوم حتى أصيبوا ورمى عبد الله بن جبير حتى فنيت نبله، ثم طعن بالرمح حتى انكسر، ثم كسر جفن سيفه، فقاتلهم حتي قتل رضي الله عنه.(٦٥)

الانسحاب المنظم :

عندما يُقتَل قواد الجيش ويكون العدو منتصرا لكثرة عدده وعتاده يجب على القائد أن يخرج من المعركة بأقل خسائر ممكنة،وذلك ما فعله خالد بن الوليد في غزوة مؤتة ٨هـ فتذكر المصادر أنه لما قُتِل ابن رواحة مساء بات خالد بن الوليد فلما أصبح غدا، وجعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيأتهم وقالوا قد جاءهم مدد فرُعِبوا فانكشفوا منهزمين فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم.(٦٦)

الحرب النفسية والشؤون المعنوية:

قد يدهش البعض من استخدام هذا الإصطلاح في البحث الذي يؤرخ لفترة متقدمة جدا من حقب التاريخ الإسلامي، ولكن لا غرو فقد كان العرب أصحاب حضارة ضاربة في القدم وكان لهم مظاهر في استخدام ذلك المصطلح في حروبهم، واستخدم الرسول صلي الله عليه وسلم الحرب النفسية والتوجيه المعنوي للتأثير على نفسية ومعنوية الجنود قبل وأثناء وبعد المعركة، ومن أمثلة هذه المظاهر: الشعر، ويعد الشاعر لسان حال قبيلته وإعلاميها في ذلك العصر المبكر، فكان للقصائد أثرها في تحميس الجند وشحذهم معنويا قبل المعركة وإثارة حماسهم أثناءها والفخر ببطولات القوم بعد المعركة ورثاء القتلى من الأبطال، واستخدم الرسول صلي الله عليه وسلم بعض الشعراء في ذلك منهم: حسان بن ثابت الذي إمتلأت كتب السيرة بشعره في مواطن مختلفة(٦٧) وعلي بن أبي طالب(٦٨) وعبد الله بن رواحة، وكان رسول الله معجبا بشعره حتى أنه قال له في غزوة خيبر: ألا تحرك بنا الركب، فنزل عبد الله عن راحلته فقال:

والله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام ان لاقينا

و المشركون قد بغوا علينا(٦٩) وكذا كان للمشركين شعراء مثل أبي عزة(٧٠) وكان لليهود أيضا شعراء قرضوا الشعر في الحروب مثل كعب بن الأشرف(٧١) ومرحب الذي قال يوم خيبر:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب

أضرب أحيانا وحينا أضرب(٧٢)

الشائعات: الشائعات في الحرب من الأشياء التي تنزل بنفسية الجندي في المعركة إلى درجة مذرية و عادة ما يستخدمها العدو حتى يحدث حالة من الفوضى والارتباك في صفوف الجيش المنافس، وقد تعرض المسلمون لذلك في غزوة أحد حين أشاع المشركون أن النبي "صلى الله عليه وسلم" قد قتل. وكان الذي أشاع ذلك ابن قميئة(٧٣) وسرت هذه الشائعة في جيش المسلمين سريان النار في الهشيم حتى أن مصعبا حين استشهد كان يقرأ قوله تعالى(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل)(٧٤) وكان الذي قطع يده هو ابن قميئة، فقطع يده اليمنى واليسرى،وعندما احتضن الراية قتله(٧٥) وقد اثر الخبر على الصحابة وأخذ منهم كل مأخذ وسادت الفوضى في الجيش، وكان أول من عرف رسول الله "صلى الله عليه وسلم" كعب بن مالك قال: فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله حي لم يقتل، فأشار عليه "انصت"فلما عرفه المسلمون نهضوا نحو الشعب(٧٦) هكذا كان وقع الخبر على المسلمين وفرحهم عندما علموا أن الرسول "صلى الله عليه وسلم" حي.

أما المشركون فلم يكن لديهم ثقة في هذه الشائعة التي أطلقها ابن قميئة، وعن ذلك يقول أبو سفيان: ما نرى مصرع محمد، ولو كان قتلهُ لرأيناه، كَذب ابن قميئة(٧٧) ونراه في نهاية المعركة يقول: أفي القوم محمد؟ ثلاثا. فقال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" لا تجيبوه. ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ ثلاثا؟ ثم قال: أفي القوم عمر بن الخطاب؟ ثلاثا. ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا. فقال عمر كذبت أي عدو الله قد أبق الله لك ما يخزيك. فقال في نهاية الحوار يسأل عمر (أناشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ؟. قال عمر: اللهم لا وإنه ليسمع كلامك. فقال أنت أصدق من ابن قميئة).(٧٨) ومما سبق يتضح مدى تأثير الشائعات في نفسية الفريقين.

التخذيل: استخدم المسلمون ذلك الأسلوب في الفتك بأحد قادة اليهود وهو كعب بن الأشرف، حيث ذهب إليه محمد بن مسلمة أبو نائلة وكان أخوه في الرضاعة، فقال له: إن قدوم هذا الرجل "يعني النبي "صلى الله عليه وسلم"" قد جهدنا ونريد أن نأخذ منك بعض التمر ونرهنك شيئا، فقال: ترهنوني نساءكم وأبناءكم، فقال أبو نائله إنك تريد أن تكشف أمرنا بين العرب، ولكن نرهنك السلاح، وذلك حتى إذا جاءوه بسلاحهم ليقتلوه ظنه الرهن المتفق عليه، وقد جاءوه فقتلوه(٧٩). وكذلك استخدم المسلمون هذه الحيلة باقتدار في غزوة الخندق عندما أسلم نعيم بن مسعود الذى أتى رسول الله "صلى الله عليه وسلم" وقال إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت يا رسول الله قال: إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة(٨٠) فاستأذن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" أن يقول، فقال: قل فأنت في حِل(٨١) فذهب إلى بنى قريظة مخبرا إياهم أنهم لا

طاقة لهم بمحمد وإن أرادوا أن يستوثقوا من عهد قريش فليأخذوا منهم رهنا، وذهب لقريش وأخبرهم أن يهود قد ندموا على ما فعلوا ويريدون أن يأخذوا أشراف قريش فيسلموهم لمحمد، وكذا فعل مع غطفان(٨٢) وهيئ الله بتلك الحيلة النصر والتخذيل بين الأحزاب في تلك المعركة.

أما عن الحرب النفسية التي استخدمها المسلمون في العهد النبوى كحيلة من حيلهم الحربية فكانت إشعال النار للرهبة في نفوس أعدائهم، وأول ما فعل المسلمون ذلك كان في غزوة حمراء الأسد في اليوم التالي لغزوة أحد، فقالوا كان رسول الله "صلى الله عليه وسلم" يأمرنا أن نحتطب نهارا ونوقد النيران، فيوقد كل رجل نارا،فلقد كنا تلك الليالي خمسمائة نار.(٨٣) ولم تك تلك النيران التي أوقدوها مصادفة بل عرفوا تأثير ذلك على نفسية العدو ففعلوا ذلك في فتح مكة،ويقول أبو سفيان عن ذلك : ما رأيت نيرانا قط أكثر من هذه. فقدم به العباس فأردفه خلفه على بغلة رسول الله "صلى الله عليه وسلم" فكلما مرت بنار من نيران المسلمين يقولون عم رسول الله على بغلة رسول الله حتى مررت بنار عمر بن الخطاب(٨٤) ومن تلك العبارة يستدل على استخدام المسلمين النار في حروبهم لإنزال الرعب في نفسية الأعداء.

العرض العسكري لجيش الرسول وأثره في نفسية الأعداء: استخدم الرسول "صلى الله عليه وسلم" ذلك يوم فتحه لمكة، فتشير المصادر إلى قول رسول الله "صلى الله عليه وسلم" للعباس: احبس أبا سفيان عند حطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين، فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان، فمرت كتيبة فقال يا عباس من هذه؟ قال: هذه غفار، قال: ما لي وغفار، ثم مرت جهينة فقال: مثل ذلك، ثم مرت سعد بن هزيم فقال مثل ذلك، ومرت سليم فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها قال من هذه قال : هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية(٨٥) حتى مر رسول الله "صلى الله عليه وسلم" فى كتيبته الخضراء مقنعين في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق، فقال : من هؤلاء ؟ فقلت : هذا رسول الله "صلى الله عليه وسلم" في المهاجرين والأنصار. فقال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما، فقلت : ويحك إنها النبوة.(٨٦)

هكذا استخدم العباس بأمر من الرسول "صلى الله عليه وسلم" سياسة إرهاب أبى سفيان نفسيا كي يحذر من خلفه، وقد نجحت هذه السياسة، ونلمح ذلك من قوله: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة.

ثانيا: العيون: أسلفنا القول إلى كثير من حيل المسلمين وغيرهم في العهد النبوي وما كان لحرب أ تقوم إلا بناء على من يتقدم ويخترق صفوف الاعداء ليعرف أشياء عن هذه الحرب فكانت العيون، والعيون هي ما يعادل في أيامنا هذه المخابرات الحربية.

شخصية العين وسماته: ليس كل جندي مقاتل يصلح أن يكون عينا لجيشه،فالرجال العيون لهم شخصيات وسمات تميزهم عن غيرهم،و منها:

(١) **سرعة البديهة و حسن التصرف** :

وذلك مثل ما فعله حذيفة بن اليمان عندما كلفه رسول الله "صلى الله عليه وسلم" في غزوة الخندق بالذهاب إلى معسكر المشركين والإتيان بخبرهم فيقول: فأقبلت فجلست على نار مع قوم، فقام أبو سفيان فقال: احذروا الجواسيس والعيون، ولينظر كل رجل جليسه. قال: فالتفت إلى عمرو بن العاص فقلت: من أنت؟ وهو عن يميني. فقال: عمرو بن العاص. والتفت إلى معاوية بن أبي سفيان فقلت من أنت؟ فقال: معاوية بن أبي سفيان.(٨٧) ويعلق ابن سيد الناس(٨٨) على ذلك الموقف بقوله: وقد فعل ذلك خشية أن يفطن له فبادرهم بالسؤال.

(٢)**حدة النظر للتعرف على عدد الجند**، وأنواع الأسلحة، وطرق سير الجيش واقتفاء أثرهم: من أصدق من قاموا بذلك الدور عمير بن وهب في غزوة بدر الذي استجال بفرسه حول معسكر المسلمين وصوب في الوادي وصعد، يقول عسى أن يكون لهم مدد أو كمين. ثم رجع فقال لا مدد ولا كمين، القوم ثلاثمائة إن زادوا قليلا، ومعهم سبعون بعيرا و فرسان(٨٩) أما مقتفي الأثر فكان من المشركين نبيه بن الحجاج وكان رجلا يبصر الأثر.(٩٠)

(٣) **إلمامه بلغة القوم الذين يرسل إليهم للوقوف على كافة التفاصيل**، كان الرسول "صلى الله عليه وسلم" يدرك أهمية أن يكون المرء عارفا بلغة القوم المرسل إليهم لذلك أرسل عبد الله بن عتيك في سرية لقتل أبي رافع، لأن عبد الله كانت أمه يهودية وكان يرطن بها.(٩١)

(٤) **يتمتع رجل العيون بالدراية بأحوال المنطقة التي ينزلها**.مثل ما قام به عمرو بن العاص في غزوته لذات السلاسل حيث كان عمرو ذا رحم من بلي وكانت أم العاص بن وائل بلوية،(٩٢) وسار عمرو حتى وطئ بلاد بلي ودوخها.(٩٣) وما كان لعمرو أن يفعل ذلك إلا لمعرفته بتلك البلاد جيدا.

(٥) **الأمانة المطلقة، والولاء الكامل لمرسليه**. مثل ما فعله خبيب بن عدي الذي كان من بين أصحاب الرجيع فيتجلى ذلك الموقف عندما قاموا بوضعه على خشبة لينهوا حياته، فقالوا له: ارجع عن الإسلام نخلي سبيلك! قال لا والله ما أحب أني رجعت عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعا! قالوا فتحب أن محمدا في مكانك وأنت جالس في بيتك؟ قال: والله ما أحب أن يشاك محمد بشوكة وأنا جالس في بيتي(٩٤) هكذا كان خبيب ثابت الجنان رابط الجأش ورفض حتى إظهار رجوعه عن الإسلام حتى يتمكن من الإفلات بحياته.

مهمات العيون و أسلوبهم: يمكن إجمال مهمات العيون و أسلوبهم في تنفيذ ما يكلّفون به في النقاط الآتية:

(١) جمع أكبر قدرممكن من المعلومات عن الجيش المعادي.

(٢) الإلمام بدقائق الأمور و رصدها،

(٣) ابلاغها كما هي دون قيد أوشرط، فلكل معلومة مهما كان صغرها أو كبرها قيمتها في الحرب. أما عامة أسلوبهم فالقدرة على التخفي في أي زي وتغيير هيئتهم وأشكالهم.

أنـــواع العيون:

مما لاشك فيه أن طبيعة كل مهمة تحتاج لشخص معين يقوم بأدائها وكان جهـاز عيون الرسول "صلى الله عليه وسلم" يتكون من عدة فكان منهم :

<u>العيون المقيمة داخل بلاد العدو:</u> كما تفعل أجهزة المخابرات في عصرنا انها تزرع عيوناً لها في البلد التي تريد أن تعرف أخبارها فعل الرسول "صلى الله عليـه وسـلم"، فكـان العباس مقيما في مكة، فتذكر المصادر اثناء العرض غزوة أحد أن المسلمين لما أجمعـوا المسير كتب العباس بن عبد المطلب كتابا وختمه واستأجر رجلا من بني غفـار وأشـترط عليه أن يسير ثلاثا إلى رسول الله "صلى الله عليه وسلم" يخبره أن قريشا قـد أجمعـت المسير إليك، فما كنت صانعا إذا حلوا بك فاصنعه. وقد توجهوا إليـك وهـم ثلاثـة آلاف وقادوا مئتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير وأوعبوا مـن الـسلاح. فقـدم الغفاري فلم يجد رسول الله "صلى الله عليه وسلم" بالمدينة ووجـده بقبـاء فـدفع إليـه الكتاب.(٩٥) ومما سبق يتضح لنا التالي:

(١) أن العباس ختم كتابه مما يشير إلى وجود علامة متفق عليها بينه وبـين الرسـول صلى الله عليه سلم حتى لا يقلد أحد ما يكتب للرسول

(٢) أن العباس حدد في كتابه عدد الجيش وعدد الفرسان والأسلحة

(٣) أن العباس أخبره بالخبر جملة وتفصيلا

(٤) حرص العباس على سرعة وصول الخبر للرسول ليتدبر أمره قبل مسير قريش إليه. وهذا يدلل على أن العباس رجل الرسول الأول وعينه المقيمة بين ظهراني قريش، وممـا يؤكد ذلك موقف الحجاج بن علاط السلمي حيث قدم مكة بعد انتصار الرسول "صـلى الله عليه وسلم" في خيبر وقد أشاع أنه قتل، فلقيه العباس وسأله عن ذلك، وإتفقا على عـدم إظهار الحقيقة إلا بعد أن يخرج الحجاج بماله.(٩٦)

العيون الراصدة : وهي العيون التي ترصد المعلومات وترسلها إلى الرسول "صلى الله عليه وسلم" ليتدبر أمره، وهي منتشرة عبر الوديان والصحاري والطرق، وحرص الرسول "صلى الله عليه وسلم" على إخفائها فهي بمثابة البصاصين، وقد أشارت إليهم المصادر وتحدثت عنهم في أكثر من موضع، حيث نجد في المصادر عبارة :بلغ رسول الله "صلى الله عليه وسلم" أن أناساً من بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار(٩٧) وتارة ما تذكر المصادر عبارة: أن جمعاً من كذا وتذكر القبيلة.(٩٨) وتارة ما تكون المعلومات عن الغزوات الكبرى، ففي غزوة الخندق تشير المصادر إلى ذلك بقولها : فلما بلغ رسول الله "صلى الله عليه وسلم" – فصولهم من مكة ندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في أمرهم(٩٩) وتارة تذكر المصادر عن هذه الغزوة قولها فلما سمع رسول الله "صلى الله عليه وسلم" بخبر... (١٠٠) هكذا يظهر لنا أن هنالك رجالاً مرتبين يبلغون الرسول بكل ما يحدث في أرجاء الجزيرة العربية وخارجها حتى أنهم حملوا إليه خبر تحرك الروم،وأن هرقل قد دفع لجنده مرتب عام ليشحذ هممهم ويجمعهم لقتال الرسول "صلى الله عليه وسلم"(١٠١) وتارة ما تذكر تلك العيون أمر من يقطعون الطريق على المسلمين(١٠٢) إذن كانت مهمة هذا القسم من العيون تأمين المسلمين وتأمين طرق سيرهم أيضا، وربما يكون هذا القسم هو بداية ما يعرف بجهاز أمن الدولة الآن.

الاستطلاع: يعد سلاح الاستطلاع من الأجهزة التي تعتمد عليها المخابرات في عصرنا الحديث وكان لهذا الجهاز دوره في العهد النبوي حيث كان هناك من عيون الرسول "صلى الله عليه وسلم" يعرف بالاستطلاع الحربي وهو يختص بجمع المعلومات الحربية عن العدو ويقابل في أيامنا هذه المخابرات الحربية، ولأهمية ذلك الدور فقد كان الرسول "صلى الله عليه وسلم" يخرج بنفسه لجمع المعلومات عن العدو مثل ما فعله في غزوة بدر؛ عندما خرج يستطلع خبر المشركين فلقي سفيان الضمري فقال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" :من الرجل؟ فقال الضمري: بلى من أنتم؟ فقال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" : فأخبرنا ونخبرك ! قال الضمري: وذاك بذاك ؟؟ قال النبي "صلى الله عليه وسلم" : نعم ! قال الضمري: فسلوا عما شئتم ! فقال النبي "صلى الله عليه وسلم": أخبرنا عن قريش. قال الضمري: بلغني أنهم خرجوا يوم كذا وكذا من مكة، فإن كان الذي أخبرني صادقا فإنهم بجنب هذا الوادي . قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" : فأخبرنا عن محمد وأصحابه . قال : خبرت أنهم خرجوا من يثرب يوم كذا وكذا، فإن كان الذي خبرني صادقا فهم بجانب هذا الوادي. قال الضمري: فمن أنتم ؟ قال النبي "صلى الله عليه وسلم" : نحن من ماء .. وأشار بيده نحو العراق . فقال الضمري: من ماء العراق ! و تركه و انصرف(١٠٣)، وتارة ما كان يرسل نفرا يثق بهم وينتظرهم ليعرف منهم الخبر مثل ما ذكره ابن سعد(١٠٤) عن غزوة قرارة الكدر، حيث قال (وأرسل الرسول "صلى الله عليه وسلم" نفراً من أصحابه في أعلى الوادي واستقبلهم رسول الله "صلى الله عليه وسلم" في بطن الوادي).

ولم يكن المشركون أقل ذكاء ودهاء من المسلمين ؛ فقد قدر أبو سفيان زعيم مكة وقائدها مدى ذكاء رجال مخابرات وعيون الرسول "صلى الله عليه وسلم"، فنجده يتحسس الخبر بنفسه؛ إذ أصبح أبو سفيان ببدر خائفا من الرصد، فقال يا مجدي: هل أحسست أحدا؟ تعلم والله ما بمكة من قريشي ولا قريشية إلا وله نَش في هذه العير، فإن كتمتَ عنّا أمراً يصالحك رجل من قريش ما بل بحرٌ صوفة، فقال مجدي: ما رأيت أحدا أنكره ولا بينك وبين يثرب من عدو؛ ولو كان بينك وبينها عدو لم يخف علينا؛ وما كنت لأخفيه عليك إلا أني قد رأيت راكبين أتيا إلى هذا المكان، فأشار إلى مناخ عدي وبسبس، فأناخا به ثم استقيا باسقيتهما ثم إنصرفا، فجاء أبو سفيان مناخهما فاخذ أبعارا من بعيرهما ففته فإذا فيه نوى، فقال:هذه والله علائف يثرب،هذه عيون محمد وأصحابه ما أرى القوم إلا قريبا، فضرب وجه عيره، فساحل بها وترك بدر يسارا وانطلق سريعا عنهم لينجي عيره منهم(١٠٥) وذكرت لنا المصادر أسماء بعض عيون النبي "صلى الله عليه وسلم" في هذا الشأن، وأوردت لنا خبرهم وأنهم عرفوا المعلومات التي كلفهم الرسول "صلى الله عليه وسلم" بها ثم حملوا الخبر إليه، ومنهم بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء.(١٠٦)

وكان من أقسام العيون التي يرسلها الرسول صلى الله عليه وسلم العيون الحذرة، وكان منهم عمار بن ياسر وابن مسعود اللذان طافا بالقوم في غزوة بدر ثم رجعا إلى النبي "صلى الله عليه وسلم" فقالا: يا رسول الله القوم مذعورون فزعون، إن الفرس ليريد أن يصهل فيّضرب وجهه مع أن السماء تسح عليهم(١٠٧).

وكان لليهود أيضا عيون استخدموها في ذلك العهد، فنرى كنانة ابن أبي الحقيق قد أستأجر أعرابيا ثم كلفه بمهمة إبلاغ أهل المدينة أن يهود خيبر قد جمعوا جموعًا كثيرة ليفت ذلك في عضد المسلمين ويوهن من قوتهم ووقع الإعرابي في يد عباد بن بشر أحد طلائع الرسول "صلى الله عليه وسلم" في مقدمة جيشه السائر إلى خيبر فرفعه إلى النبي "صلى الله عليه وسلم" فأوثقه ثلاثة أيام ثم أسلم ففك وثاقه.(١٠٨)

<u>الربيئة</u>: والربيئة هي الحرس الذي يقوم بالحراسة، ومهمته الحفاظ على ما بين يديه من معلومات تدل على معسكر قومه وينفذ أي شيء يكلف به، ومن أمثلة ذلك في ذلك العهد: ما وقع في غزوة ذات الرقاع حيث قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" في المساء: (من رجل يكلؤنا الليلة؟ فقام رجلان: عمار بن ياسر وعباد بن بشر، فقالا نحن يا رسول الله نكلؤك. وجعلت الريح لا تسكن وجلس الرجلان على فم الشعب، قال أحدهما لصاحبه أي الليل أحب أليك أن أكفيك أوله فتكفيني آخره؟ قال أكفني أوله، فنام عمار بن ياسر وقام عباد بن بشر يصلي، وأقبل عدو الله يطلب غرة وقد سكنت الريح فلما رأى سواده من قريب قال: يعلم الله إن هذا لربيئة القوم! ففوق له سهما فوضعه فيه، فانتزعه فوضعه، ثم رماه بآخر فوضعه فيه، فانتزعه فوضعه ثم رماه الثالث فوضعه فيه فلما غلب عليه الدم ركع وسجد، ثم قال لصاحبه إجلس فقد أتيت، فجلس عمار فلما رأى الأعرابي أن عمار قد

قام علم أنه قد نذروا به.(١٠٩) ومن خلال ما ذكرته المصادر عن هذه الرواية يتضح لنا أن الربيئة يحرس قومه، وأنه يمتاز بالثبات وعليه الدفاع عن معسكره في أحرج اللحظات.

وتارة يكون الربيئة في الاستطلاع أيضا يتحين لهم وقت الهجوم، مثل جندب بن مكيث الجهني الذي كان ربيئة للمسلمين في سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح حيث رُمي بسهمين أولهما بين عينيه والآخر في منكبه، ولم يتحرك أيضا.(١١٠) هكذا كان لفظ الربيئة يأتي بمعنى الحرس أو الطليعة أحيانا.

لم تكن بطبيعة الحال كل مهمات العيون التي يرسلها الرسول تأتي ثمارها، فقد كانت هناك عيون لقي أصحابها القتل مثل ما حدث في غزوة حمراء الأسد، حيث بعث رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ثلاثة نفر من اسلم طليعة في أثر القوم، وهم: سليط ونعمان ابني سفيان بن خالد بن عوف بن دارم من بني سهم وثالث من بني عوير فأبطأ الثالث عنهما ولحق القوم بحمراء الأسد ولهم زجل وهم يأتمرون بالرجوع وصفوان ينهاهم عن الرجوع، فبصروا بالرجلين فعطفوا عليهما فأصابوهما، فانتهى المسلمون إلى مصرعهما بحمراء الأسد فعسكروا وقبروهما في قبر واحد.(١١١)

حرب العيون: كان لرجالات العيون من الفريقين حروب مثل مافعله الفريقان في غزوة حمراء الأسد: فبعد أن حلت الهزيمة بالمسلمين في أحد أتجه الرسول "صلى الله عليه وسلم" وخرج لقتال المشركين بحمراء الأسد، وفي أثناء ذلك لقيه معبد بن أبي معبد الخزاعي وهو يومئذ مشرك، وكانت خزاعة مسالمة لرسول الله "صلى الله عليه وسلم"، فقال معبد يا محمد قد عز علينا ما أصابك من أصحابك ولوددنا أن الله أعلى كعبك وأن المصيبة كانت بغيرك، ثم مضى فوجد أبا سفيان وقريشا بالروحاء وهم يقولون لا محمدا أصبتم ولا الكواعب أردفتم فبئس ما صنعتم فهم مجمعون على الرجوع، ويقول أحدهم أصبنا أشرافهم ورجعنا قبل أن نستأصلهم، فجاء معبد فقال لجمع قريش: تركت محمدا وأصحابه خلفي يتحركون لهم بمثل النيران وقد أجمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوا بهم فيثأروا منكم وغضبوا لقومهم غضبا شديدا ولمن أصبتم من أشرافهم(١١٢) هذا ما فعله معبد وقامت قريش بالرد على هذه الرسالة التي تحمل تخويفها، فتشير المصادر أنه مر بأبي سفيان رجل من بني عبد القيس يريد المدينة فقال أبو سفيان هل أنتم مبلغو محمدًا عني شيئا وأملأن لكم جمالكم تمرا حينما تردون عكاظ: حيثما لقيتم محمدًا وأصحابه فأخبروه أنا قد أجمعنا الرجعة إليهم، فأخبرهم الرجل ما قاله أبو سفيان(١١٣) هكذا بدأت حرب العيون بين الفريقين.

ثالثا: الجواسيس: بينا فيما سبق أن الله حرم التجسس، ونهى عنه الرسول "صلى الله عليه وسلم"، وعده الإمام الذهبي من الكبائر(١١٤) وقال عن حكم الجاسوس "إذا ترتب على جسه وهن على الإسلام وأهله وقتل أو سبي و نهب أو شيء من ذلك، فهذا ممن سعى في الأرض فسادا وأهلك الحرث والنسل، فيتعين قتله وحق عليه العذاب"(١١٥) فالجاسوس واحد من إثنين : إما خائن، وإما بطل. والتجسس عمل مذموم سواء كان

موجها ضد فرد، أو جماعة أو دولة، جريمة لا تغتفر إذا كانت الدولة المجني عليها هي الوطن.(١١٦)

إذًا فالتجسس عملية فطرية تهدف لجمع المعلومات وكشف الأسرار مدنية كانت أو عسكرية عن طريق : البحث، والتقصي، والملاحظة، والتحري، والاستعلام.(١١٧)

وإذا ما حاولنا تتبع أخبار الجواسيس وحالات التجسس التى وقعت فى العهد النبوى نجد أن أول حالة وقعت كانت في غزوة أحد حيث دخل الرسول "صلى الله عليه وسلم" منزل سعد بن الربيع فقال: أفي البيت أحد؟ فقال سعد: لا، فتكلم بحاجتك .فأخبره الرسول بكتاب العباس بن عبد المطلب، وجعل سعد يقول يا رسول الله، إني لأرجو أن يكون في ذلك خير، وقد أرجفت يهود المدينة وقالوا ما جاء محمدًا شيء يحبه، فانصرف رسول الله "صلى الله عليه وسلم" إلى المدينة واستكتم سعدا الخبر. فلما خرج رسول الله "صلى الله عليه وسلم" خرجت امرأة سعد ابن الربيع إليه فقالت: ما قال لك رسول الله؟ فقال: ما لك ولذلك لا أم لك ؟ قالت قد كنت أسمع عليك، وأخبرت سعد الخبر، فاسترجع وقال: لا أراك تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله "صلى الله عليه وسلم" تكلم بحاجتك، فأخذ يجمع لبتها ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله "صلى الله عليه وسلم" بالجسر، قال: يا رسول الله إن إمرأتي سألتني عما قلت فكتمتها فقالت : قد سمعت قول رسول الله فجاءت بالحديث كله، فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك شيء فتظن أني أفشيت سرك. فقال رسول الله "صلى الله عليه وسلم": خل سبيلها. وشاع الخبر في الناس بمسير قريش.(١١٨) وهكذا كانت أول حالة استماع على رسول الله، ونرى سعد يتجه بزوجته للرسول "صلى الله عليه وسلم" ليستبرأ مما حدث حتى لا يتهم بإفشاء أسرار الرسول "صلى الله عليه وسلم".

أما ثاني حالات التجسس فقد وقعت أحداثها أثناء حصار رسول الله صلى لله عليه وسلم ليهود بني قريظة، فتشير المصادر ان بني قريظة أرسلت إلى رسول الله "صلى الله عليه وسلم" يسألونه أن يرسل أبا لبابة بن عبد المنذر إليهم،فقال أبو لبابة دعاني رسول الله "صلى الله عليه وسلم" فقال: اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس. قال: فدخلت عليهم وقد اشتد عليهم الحصار، فقالوا: يا أبا لبابة نحن مواليك دون الناس كلهم، فقام كعب بن أسد فقال: أبا بشير، قد علمت ما صنعنا في أمرك وأمر قومك يوم الحدائق وبعاث،(١١٩) وكل حرب كنتم فيها. وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا، ومحمد يأبى أن يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه . فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر، ولا نطأ له حرا أبدا، ولا نكثر عليه جمعا أبدا. ثم قال كعب: ما ترى، فإنا قد إخترناك على غيرك، إن محمدا قد أبى إلا أن ننزل على حكمه، أفننزل؟ قال: نعم، فانزلوا -وأومأ إلى حلقه، هو الذبح. قال فندمت فإسترجعت فقال لي كعب: ما لك يا أبا لبابة؟ فقلت: خنت الله ورسوله. فنزلت وإن لحيتي لمبتلة من الدموع، والناس ينتظرون رجوعي إليهم، حتى

أخذت من وراء الحصن طريقا آخر فجئت إلى المسجد ولم أرتبط إلى الأسطوانة المخلقة التي تقال أسطوانة التوبة-إنما أرتبطت إلى إسطوانة كانت تجاه المنبر عند باب أم سلمة زوج النبي "صلى الله عليه وسلم" وبلغ رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ذهابي وما صنعت، فقال: دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء. لو كان جاءني استغفرت له، فأما إذا لم يأتني وذهب فدعوه ! قال أبو لبابة: فكنت في أمر عظيم خمس عشرة ليلة، وكان رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قد استعمل أبا لبابة على قتالهم، فلما أحدث ما أحدث عزله واستعمل أسيد بن حضير وظل هكذا حتى فكه رسول الله "صلى الله عليه وسلم"(١٢٠) وأنزل فيه قرآن يتلى إلى يوم القيامة: (يا أيها الذين ءامنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون)(١٢١) وهذه أول رواية تذكر لنا ذلل صحابي وإفشائه لسر من اسرار الحرب للرسول "صلى الله عليه وسلم"، وبينت كيف كان حازما مع نفسه وكيف ندم وتاب فقبل الله توبته.

أما حالة التجسس الثالثة والتي بين أيدينا فقد وقعت أحداثها في العام الثامن الهجري في أثناء فتح مكة عندما هم الرسول "صلى الله عليه وسلم" بذلك، إذ بحاطب بن أبي بلتعة يرسل إمرأة تسمى كنود وجعل لها دينارا على أن تبلغ الكتاب إلى صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن ابي جهل، وأمرها ألا تسير على الطرق وأمرها أن تخفي الكتاب ففعلت، فأخبر الله رسوله الخبر فأرسل عليا والزبير، وقال أدركا إمرأة من مزينة قد كتب معها حاطب كتابا يحذر قريشا، فخرجا فأدركاها فاستنزلاها فالتمساه في رحلها فلم يجدا شيئا، فقالا لها: إنا نحلف بالله ما كذب رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ولا كذبنا ولتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك فلما رأت منهم الجد قالت: أعرضا عني فأعرضا عنها، فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب فدفعته إليهما، فجاءا به رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، فدعا رسول الله "صلى الله عليه وسلم" حاطبا فقال: ما حملك على هذا ؟ فقال: يا رسول الله، إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت! ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم أهل وولد فصانعتهم. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قاتلك الله ! ترى رسول الله يأخذ بالأنقاب وتكتب الكتب إلى قريش تحذرهم؟ دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد نافق! فقال رسول الله "صلى الله عليه وسلم": وما يدريك يا عمر؟ لعل الله قد اطلع يوم بدر على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم!(١٢٢) وأنزل الله عز وجل في حاطب : "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وإبتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلوا سواء السبيل"(١٢٣) وهذه هي المرة الأولى التي تتوفر فيها الحيلة والتخطيط، فقد أرسل حاطب جارية ووعدها ثمنا وعين لها طريقها ولمن تسلم الكتاب، ولكن أيمانه نجاه، ونرى عمر يريد قتله ولكن الرسول ينهاه لكونه بدريا.

وتذكر المصادر أن الحكم بن العاص قام بالتنصت والتجسس على شخص رسول الله "صلى الله عليه وسلم" فأمر الرسول بنفيه من المدينة(١٢٤)، كما توجد لدينا حالة فريدة من نوعها حيث قامت دولة أخرى بعيدة عن المدينة بتتبع أخر أخبار الرسول "صلى الله عليه وسلم" وصحابته وذلك في العام العاشر من الهجرة بعد عودة الرسول "صلى الله عليه وسلم" من تبوك(١٢٥) وسؤاله عن المتخلفين عن الغزوة وكان منهم كعب بن مالك الذي صدق في حديثه مع رسول الله "صلى الله عليه وسلم" بأنه لم يكن له عذر في تخلفه عن الغزو فعاقبه الرسول بعدم كلامه حتى يرى الله فيه أمرا، نجد كعبا يتحدث عن تلك الحادثة بقوله: ثم غدوت إلى السوق فبينا أنا أمشي بالسوق فإذا نبطي من نبط الشام مما قدم بالطعام يبيعه بالسوق، يسأل عني يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فجعل الناس يشيرون له، فدفع إليّ كتابا من ملك غسان، فإذا في كتابه: أما بعد: فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. قال كعب: فقلت حين قرأته: وهذا من البلاء أيضا، قد بلغ مني ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجال من أهل الشرك. فذهبت بها إلى تنور فسجرته بها.(١٢٦) هذه عملية أختراق صريحة لعيون ملك غسان الذي كان يرسلهم في شكل تجار ويحملون الطعام ويعودون بالأخبار وهذه أيضا أول عرض للجوء السياسي في الإسلام .(١٢٧) مما يؤكد أن دولة الرسول الفتية كان لها أعداء يحرصون على تتبع أخبارها حتى وإن بعدت حدود بلادهم عنها.

مصير الجواسيس: عادة ما كانت تنتهي حياة جواسيس المشركين بالقتل(١٢٨) وأحيانا آخري يتم دخول الجاسوس في الإسلام فيعفى عنه مثل ما فعله الرسول "صلى الله عليه وسلم" مع الأعرابى الذى إستأجره كنانة إبن أبي الحقيق ليبلغ يهود المدينة أن يهود خيبر قد تحركوا لحرب الرسول "صلى الله عليه وسلم" ثم أسلم(١٢٩) وأحيانا يقوم الجاسوس بالدل على عورات جيش قومه فيعفى عنه(١٣٠) وقد قام الرسول "صلى الله عليه وسلم" بتطبيق قتل الجاسوس الذي ينقض عهده ويشترك في الحرب ضد المسلمين أكثر من مرة.(١٣١) وهو ما يعرف في أيامنا هذه بمجرم الحرب، ويتم معاقبته بالقتل .



الخاتمـــة.

بعد أن وصل البحث إلى منتهاه نجد أن الموضوع الذى قمنا بعرضه أوضـــح لنـــا عدة نتائج يمكن أجمالها فيما يلي:

- أن الحضارة الإسلامية في عهد الرسول "صلى الله عليه وسلم" كانت مرحلة تأسيسية في حضارة امتنا ولكنها نشأت عملاقة.
- إختصت تلك الحضارة بسمات كان منها سمات عسكرية برع فيها الرسول وصحابته.
- إتسمت الحضارة العسكرية الإسلامية بمصطلحات دلت على سعة أفق مستخدمي اللغة التي دللت على مفاهيم بعينها تستخدم في الدلالة علـــى الحيلـــة والحـــرب والعيـــون والجواسيس.
- أشار القرآن إلى بعض تلك الألفاظ والمصطلحات.
- وقفت الدراسة على بعض الأحاديث التي وردت في هذا الشأن.
- أكدت الدراسة على أن الله عز وجل وقف مؤيدا لرسوله "صلى الله عليه وسلم".
- أشارت الدراسة إلى استخدام المسلمين فكرة الحفاظ على حياة قادتهم والـــزود عـــنهم في ساحات الوغى وخارجها.
- بينت الدراسة ضرورة الحفاظ على الرمز "العلم" وعدم سقوطه من يد حامله حتى وإن فقد حياته.
- ثبت من البحث إبداع المسلمين في التفكير الحربي وإتيـــانهم بأفكـــار غيـــر تقليديـــة استخدموها ضد أعدائهم مثل استخدامهم الماء والشمس والدروع البشرية والخنـــادق والإنسحاب التكتيكى المنظم وغيرها.
- برهنت الدراسة على تقدم المسلمين في أنشائهم لجهاز مخابرات سابق لعصره وكـــان يجمع المعلومات العسكرية ويبلغها للرسول "صلى الله عليه وسلم".
- بينت الدراسة صفات لابد من توافرها في شخصية العين مثل سرعة البديهة وتحـــدث اللغات الأجنبية والحدة في النظر وغيرها.
- أشارات الدراسة لاستخدام المسلمين لربيئة القوم من اعدائهم وتجنيده لصالحهم.
- بينت الدراسة أن العباس كان رجل المخابرات الأول للرسول "صلى الله عليه وســـلم" وأنه كان مقيما في مكة يمده باخبار المشركين.
- وضحت الدراسة خطورة مهمة الجواسيس وحكم التجسس، وعقاب الجاسوس،
- كما بينت أمثلة من جواسيس اليهود، وبينت مصائر الجواسيس في تلك الفترة.

وختاما كان العهد النبوي غرة في جبين حضارتنا الإسلامية بما حواه مـــن قـــيم أصيلة وتعليمات خالدة، وأفكار غير تقليدية دلت على أن هؤلاء العـــرب أصـــحاب عقـــل وعقيدة سامية وخالدة على مر الزمان.

الهوامــش

١- ابن منظور: محمد بن مكرم: لسان العرب المحيط، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، ج٢، ص ١٠٥٥، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، طبعة مدققة كاملة التـشكيل، مكتبة لبنان، ١٩٨٧م، ص ٦٨،

٢- ابن منظور: لسان العرب المحيط، ج٢، ص١٠٥٥، المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربيـة- القاهرة، ٢٠٠٤ م ، ص ١٨٢.

٣- القرآن الكريم: سورة البقرة، آية ٩.

٤- الرازي : مختار الصحاح،ص٧٢.

٥- الرازي: المصدر نفسه، ص٢٤٤

٦- القرآن الكريم : سورة الطارق، آيه ١٦،

٧- الرازي: مختار الصحاح، ص٢٤١

٨- الرازي: المصدر نفسه، ص٢٦٧

٩- الرازي: المصدر نفسه، ص٢٩٩

١٠- ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص ٣١٩٧،

١١- ابن منظور: المصدر نفسه، ج٣، ص ١٥٤٥،

١٢- ابن منظور: المصدر نفسه، ج٣، ص ١٥٤٦.

١٣- ابن منظور : المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٢٣- ٦٢٤

١٤- ابن منظور : المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٢٤

١٥- القرآن الكريم : سورة الأنفال، اية ٣٠ .

١٦- القرآن الكريم : سورة يوسف، اية ٥ .

١٧- القرآن الكريم : سورة يوسف، آية ٨٧ .

١٨- القرآن الكريم : سورة الحجرات، آية ١٢ .

١٩- مسلم : الصحيح طبعة مخرجة من صحيح البخاري وبترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث " محمد فؤاد عبد الباقي " مع فهارس لأطراف الأحاديث والآثار دار آفاق العربية القاهرة (١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م) كتاب الجهاد والسير، ص ٧٤٩ باب جواز الخداع فـي الحـرب، حـديث رقـم ١٣٦١، ١٣٦٢

٢٠- البغدادي : تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج ٣، ص ٦٢٥ .

٢١- الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، حققه وخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي: مكتبةابن تيمية، القاهرة، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، ج٣، ص ٨٣

٢٢- عن العريش في غزوة بدر انظر:الواقدي: المغازي تحقيق مارسدن جونس عالم الكتب، بيروت، ط٣ (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م)، ج١، ص ٥٥، ابن هشام :سيره النبي صلى الله عليه وسلم ،النور الإسلامية،القاهرة د.ت ،ج٢،ص٢١١، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق عبادة كحيلة : الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة، ٢٠٠٧ م، تتمة الجزء الثانى، ج٢، قسم ٢، ص ٢٠.

٢٣- طارق أبو الوفا محمد: الواقدي ومنهجه في كتابه مغازي رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ص ١٢٠.

٢٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبى الفداء عبد الله القاضي:دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م) ج٢، ص ٤٩/٥٠.

٢٥- الحرجة : بكسر الراء وفتحها، أي مكان ضيق كثير الشجر، الرازي : مختار الصحاح، ص٥٥

٢٦- الواقدي: المغازي، ج١ ص٨٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم:، دار المعارف، القاهرة، (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م). ج٢، ص ٤٥٤

٢٧- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص٨٦/٨٧.

٢٨- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص٢٤٤، البخاري:الصحيح،بحاشية السندي، تحقيق: عماد زكى البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، ج٣، ص ٨٥، كتاب المغازي، ما أصاب النبي "صلى الله عليه وسلم" من الجراح يوم أحد أحاديث رقم ٤٠٧٣_٤٠٧٧، مسلم: الصحيح، ص ٧٧٤ باب غزوة أحد أحاديث رقم ١٧٩٠_١٧٩٢، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٥١٤/٥١٥.

٢٩- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٨٦،٨٧، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٢، ص ٤٥٤/٤٥٦.

٣٠- الواقدي : المصدر نفسه ج١، ص ٣٦٤، ٣٦٥، ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازي و الشمائل و السير ، دار الجيل ،بيروت،ط٢،(١٩٧٤م). ج٢، ٤٨، محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار السلام، طبعة ١١ :١٩٩١، ص ١٩٠

٣١- الواقدي : المغازي، ج٢، ص ٦٧٧/٦٧٩، البخاري : الصحيح، ، ج٣، ص ٨٥، كتاب المغازي، باب الشاة التي سمّت النبي (ص) بخيبر، حديث رقم ٤٢٤٩، الذهبي : تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير و الأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري : دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الأولي :ج١، ١٤٠٧-١٩٨٧، صفحة ٤٣٥ - ٤٣٩.

٣٢- الواقدي : المصدر نفسه، ج١، ص ١٢٥ - ١٢٧، الذهبي : المصدر نفسه، ج ١، ص٧١-٧٢

٣٣- الواقدي : المصدر نفسه، ج١، ص ١٢٧، الذهبي : المصدر نفسه، ج١، ص ٧٣

٣٤- الواقدي : المصدر نفسه، ج١، ص ١٩٥، الذهبي : المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٤

٣٥- ابن سعد : الطبقات الكبري، تحقيق وتعليق حمزة النشرتي،الشيخ عبد الحفيظ فرغلي ،د/عبد الحميد مصطفى،المكتبة القيمة،القاهرة،د.ت. ج٢، ص ١٣٥، محمود شيت خطاب : قادة النبي "صلى الله عليه وسلم"،-، دار القلم، بيروت، الطبعة الثانية : ١٤٢٠ه - ١٩٩٩، ص ٣٥٠ - ٣٥٢

٣٦- الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٤/١٩٣، ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ج١، ص ٢٩٨/٣٠١، الذهبي: تاريخ الإسلام ج١،ص ١٥٧/١٦٥. .

٣٧- الواقدي: المصدر نفسه ج١، ص ١٧٢/١٧٣، ابن سيد الناس: المصدر نفسه ج١ ص ٢٩٣، الذهبي: المصدر نفسه ج١، ١٣٦/١٣٧.

٣٨- الواقدي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٦٦/٥٦٧، الذهبي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣٦١، محمود شيت خطاب: قادة النبي، ص ٣١٣/٣١٤.

٣٩- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣٩١/٣٩٣، الذهبي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣٤٣

٤٠- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٢٢٠/٢٢١.

٤١- ابن هشام سيرة النبي، ج٣، ص ٤٣٤، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ٤٩٢،محمود شيت خطاب : قادة النبي صلي الله عليه وسلم، ص ٤٣٣.

٤٢- ابن سعد : الطبقات الكبرى ،ج٢ ص ٢٦٩

٤٣- الواقدي: المغازي، ج١ ص١٩٧/١٩٨.

٤٤- الواقدي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٥٣/٥٥٤.

٤٥- السيف: ويعد من أكثر الأسلحة شيوعا في الاستعمال بين الجند في القتال، وقد إختلفت أنواع السيوف تبعا لجودتها وأماكن صناعتها عن ذلك انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ج٣، ص١١.

الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب مطبعة القاهرة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، ص ٢٢٥،٢٢٤ / لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الإبياري: حسن كامل الصيرفي: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ص ١٦٦. ابن المجاور تاريخ المستبصر القسم الأول ص٤١.

عبد الرحمن زكي: السيوف العربية، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة الأولى جمادى الثانية١٣٩٥هـ/يونية ١٩٧٥م، ص٤٨.

٤٦- الواقدي: المغازي: ج١، ص٦٧/٦٨

٤٧- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٢، ص ٢٣.

٤٨- الواقدي: المغازي، ج١، ص: ٥٣،٥٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٩،٢٠، محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، ص ١٥٧.

٤٩- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٢٢٠.

٥٠- جرش بالضم ثم الفتح و شين معجمة من مخاليف اليمن من جهة مكة و هي بلدة مشهورة شمال صعدة . انظر ياقوت معجم البلدان دار صادر، بيروت، د . ت، ج٢، ص١٢٦، محمد بن أحمد الحجري مجموع بلدان اليمن و قبائلها ج١، ص١٨٤، اسماعيل بن علي الأكوع البلدان اليمنيه عند ياقوت الحموي ص ٧٥ .

٥١- الواقدي: المغازي، ج٣،ص ٩٢٤، ٩٦٠، الذهبي: تاريخ الإسلام ج١، ص ٥٩٢.

٥٢- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٢١٩/٢٢٠،الذهبي: المصدر نفسه /ج١، ص ١٧٠، محمود شيت خطاب قادة النبي "صلى الله عليه وسلم" ص ١٩٨

٥٣- المباركفوري الرحيق المختوم، ص٢٤١. طارق أبو الوفا محمد: تاريخ صنعاء منذ فجر الإسلام حتى أواخر القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،، ٢٠٠٩م، ص ١٥٣.

٥٤- الواقدي : المغازي ج٢، ص ٤٤٥، إبن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج٢، صفحة ٧٠.

٥٥- الخرار موضع بالحجاز قرب الجُحفة، ياقوت معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٥٠ .

٥٦- الواقدي: المغازي، ج١، ص ١١،.

٥٧- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٦٢،.

٥٨- الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٨٥/٢٨٦. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨١،١٨٢، محمود شيت خطاب: قادة النبي "صلى الله عليه وسلم"، ص ٥٩/٦٠.

٥٩- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ١٣، إبن هشام : سيرة النبي، ج٢، ص ١٩٣، محمود شيت خطاب: المرجع نفسه: ص ٩٠/٩١.

٦٠- محمود شيت خطاب:المرجع نفسه، ص٩٠.

٦١- الجرف: بالضم ثم السكون موضع على ثلاثة أميال من مدينة نحو الشام ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ص ١٢٨

٦٢- عسفان: بفتح اوله و كسر ثانيه ثم فاء و أخره نون على وزن فعلان سميت عسفان لتعسيف السيل فيها و عسفان على مرحلتين من مكه على طريق المدينه ياقوت : المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢١، ١٢٢ .

٦٣- الغميم: بفتح أوله و كسر ثانيه ثم ياء مثناه من تحت و ميم أخرى و هو الكلاء الاخضر تحت اليابس و هو كراع الغميم ياقوت : المصدر نفسه، ج٤، ص ٢١٤

٦٤- الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٥٣٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ :، ج٢، ص ٧٨، ابن كثير : السيرة النبوية تحقيق أحمد عبد الشافي: دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.ج١، ص، ٦١٧.

٦٥- الواقدي: المصذر نفسه، ج١، ص ٢٣٢،ابن الاثير :المصدر نفسه ،ج٢ ،ص٤٨،المبار كفوري: الرحيق المختوم، ص٢٠٨

٦٦- الواقدي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٧٦٤، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ٤٨٦، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص ١٣٧.

٦٧- عن شعر حسان انظر: الواقدي : المصدر نفسه ج ١، ص ١٧٤، ١٨٦،١٨٧، ٣٠٥،٣٥٣، ٣٩٠، ٣٩٦، ج٢، ص ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٣٩، ج٣، ص ٨٣١، ٨٣٥، ٨٤٧، ٨٤٨، ٩٧٨.طارق أبو الوفا محمد: الواقدي ومنهجه في كتابه مغازي رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، ص ١٧١.

٦٨- الواقدي: اصدر نفسه، ج١، ص ٢٨٩

٦٩- الواقدي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٣٩، محمود شيت خطاب: قادة النبي صلي الله عليه وسلم، ص ٣١٤.

٧٠- الواقدي: المصدر نفسه :، ج١،ص٢٠١ طارق أبو الوفا محمد: الواقدي ومنهجه في كتابه مغازي رسول الله صلى الله عليه و سلم، ص١٧٢

٧١- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ١٨٥،١٨٦، طارق أبو الوفا محمد: المرجع نفسه، ص ١٧٢.

٧٢- الواقدي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٥٤،٦٥٥، طارق أبو الوفا محمد: المرجع نفسه، ص ١٧٢.

٧٣- الواقدي: المالمصدر نفسه، ج١، ص ٢٣٦،ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبرج٢، قسم٢، ص ٢٦،

٧٤- القران الكريم :سوره ال عمران ، ايه ١٤٤.

٧٥- الواقدي المغازي، ج١، ص ٢٣٩،

٧٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٥١،

٧٧- الواقدي:المغازي، ج١،ص ٢٣٧.
٧٨- ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج٢، ص ٥٣.
٧٩- الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٨، البخاري: الصحيح، ج٣، ص ١٩، ٢٠،باب قتل كعب بن الأشرف،رقم الحديث ٤٠٣٧/ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٦١/١٦٢، ابن كثير: السيرة النبوية، ج١، ص٥٤٠،٥٤١.
٨٠-ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٧٣، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ٢٩٣، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٢، قسم ٢، ص ٣٠/٣١.
٨١- الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٤٨١.
٨٢- الواقدي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٨١،٤٨٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٧٣،٧٤، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ٢٩٣،٢٩٤،
٨٣- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣٣٨، ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢، ص ٣٨.
٨٤- البخاري: الصحيح، ج٣، ص ٦٢/٦٣، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي "صلى الله عليه وسلم" الراية يوم الفتح، حديث رقم ٤٢٨٠، ابن الأثير:الكامل في التاريخ، ج٢، ص ١٢١،، ابن سيد الناس: المصدر نفسه، ج٢، ص ١٦٨.
٨٥- البخاري: الصحيح، ج٣، ص ٦٣ كتاب المغازي، باب أين ركز النبي "صلى الله عليه وسلم" الراية يوم الفتح، حديث رقم ٤٢٨٠
٨٦- ابن الأثير:الكامل في التاريخ، ج٢، ص ١٢٢، ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص ١٧٠، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٢، قسم٢، ص ٤٣، صفى الرحمن المباركفورى : الرحيق المختوم، ص٣٢٤ .
٨٧- الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٤٨٩، ابن الأثير: المصدر نفسه، ج٢، ص ٧٤، محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، ص ٢١٧.
٨٨- ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص ٦٦.
٨٩- الواقدي: المغازي، ج١، ص ٦٢، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ٥٥.
٩٠- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٥٤.
٩١- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣٩٢، ابن سعد: الطبقات الكبر، ج٢، ص ١٣٠، محمود شيت خطاب: قادة النبي "صلى الله عليه وسلم"، ص ٣٠٠.
٩٢- الواقدي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٧٧٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ١١،
٩٣- ابن سيد الناس عيون الأثر:، ج٢، ص ١٥٨.
٩٤- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣٦٠، ابن سيد الناس: المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٣، المباركفوري: الرحيق المختوم، ص ٢٣٢.
٩٥- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٢٠٣/٢٠٤، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٤٩/٥٠، ابن سيد الناس: المصدر نفسه، ج٢، ص ٣،٢.
٩٦- الواقدي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٧٠٤،٧٠٥، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١،ص ٤٣٩، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص ١٠٦،١٠٧.

٩٧- ابن هشام: سيرة النبي، ج٣، ص ٢١٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٨١، ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص ٩١.
٩٨- الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩٤، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٤٦، ص ١٧٢.
٩٩- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٩٣/٩٢،
١٠٠- ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٧٠، ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص ٥٥، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ٢٨٥، ابن كثير: السيرة النبوية، ج ١،، ص ٦٣٠.
١٠١-الواقدي: المغازي، ج٣، ص ٩٩٠، ابن سعد: ج٢، ص ٢٣٤.
١٠٢-الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٤٠٣، ابن سعد: المصدر نفسه، ج٢، ص٨٦، ابن سيد الناس: عيون الأثر: ج٢، ص ٥٤، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ٢٥٧.
١٠٣ -الواقدي : المصدر نفسه، ج ١ ، ص ٥٠.
١٠٤ - محمد ابن سعد - الطبقات الكبرى ج ٢، ص ٤٢.

١٠٥- الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤١/٤٠، ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١، ص ٢٥٠، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٠٤.
١٠٦- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٤٠، ابن سيد الناس: المصدر نفسه، ج١، ص ٢٥٠، الذهبي: المصدر نفسه، ج١، ص ١٠٤.
١٠٧-الواقدي: المصدر نفسه :، ج١ص ٣٢، ص ٥٤، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٢، قسم ٢، ص ٢٠/١٩.
١٠٨- الواقدي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٤١/٦٤٠.
١٠٩- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣٩٧، ابن هشام: سيرة النبي "صلى الله عليه وسلم"، ج٣، ص١٤٠.
١١٠- الواقدي: المصدر نفسه: ج٢، ص ٧٥٢/٧٥٠، ابن سيد الناس: عيون الأثر: ج٢، ص ١٥١/١٥٠، محمود شيت خطاب: قادة النبي "صلى الله عليه وسلم"، ص ٣٩١/٣٩٠.
١١١- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣٣٧، ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢، ص ٣٨.
١١٢- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣٣٨/ ٣٣٩،ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٥٧، ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص ٣٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ٢٢٥ :،
١١٣- الواقدي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣٤٠، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ٢٢٦
١١٤- الذهبي: كتاب الكبائر، ضبط وتحقيق وشرح وتعليق السيد الجميلي: دار ابن زيدون، بيروت، ط١، ١٤٠٦/١٩٨٦م، ص ٣٠٤/٣٠٣.
١١٥-الذهبي: المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

١١٦- جمال الكاشف: أخطر الجواسيس عبر التاريخ، دار الطلائع، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٠.

١١٧ – جمال الكاشف: المرجع نفسهى،ص٣.
١١٨ – الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٠٤/٢٠٥.
١١٩ – بعاث: بالضم وأخره ثاء مثلثه موضع في نواحي المدينة كانت به وقائع بين الأوس و الخزرج في الجاهليه و هو على ليلتين منها ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥١ ،
١٢٠ – الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٥٠٦/٥٠٧، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٧٥، ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢، ص ٧٠.
١٢١ –القرآن الكريم: سورة الأنفال، آية ٢٧.
١٢٢ –الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٧٩٧/ ٧٩٩، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ١١٨/ ١١٩، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص ٥٢٥/ ٥٢٧، كتاب الكبائر، ص ٣٠٣، محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة مع موجز تاريخ الخلافة الراشدة، ص ٢٧٠/٢٧٢.
١٢٣ – القرآن الكريم: سورة الممتحنة، آية ١.
١٢٤ – ذهبت روايات إلى أن الحكم قام بالتجسس على غرفة النبي "صلى الله عليه وسلم" أثناء وجوده مع السيدة عائشة رضي الله عنها، وقيل أنه كان يتخلج عليه ويحاكيه في مشيته وحديثه. عن ذلك انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ج٢، ص ٩٥/٩٦،ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج٢، ص ٢٨/٢٩، الزركلي: الأعلام،دار العلم للملاين.بيروت ط٤، ١٩٧٩م، ج٢، ص ٢٦٦.
١٢٥ – تبوك: موضع بين وادي القرى و الشام و بين الحجر و الشام على أربع مراحل من الحجر نصف طريق الشام و بين تبوك و المدينة أثنتا عشر مرحلـه ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ١٤، ١٥
١٢٦ – الواقدي: المغازي، ج٣، ص ١٠٥١/ ١٠٥٢، الذهبي: تاريخ الإسلام،ج١، ص ٦٥٦.
١٢٧ – طارق ابو الوفا محمد: الواقدي ومنهجه في كتابه مغازي رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، ص ١٧٠.
١٢٨ – الواقدي: المغازي، ج١، ص١٤٢
١٢٩ – الواقدي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٤٠/٦٤١

---

١٣٠ – الواقدي: المصدر نفسه، ج١ ص ١٩٤ ، ج٢، ص ٦٤٠/٦٤١.
١٣١ –الواقدي: المصدر نفسه،، ج١، ص ٣٠٨/٣٠٩.



قائمة المصادر والمراجع:

اولا: الكتب المقدسة :

١ - القرآن الكريم.

ثانيا: المصادر المنشورة:

ابن الاثيـــــر :

عز الدين ابو الحسن على بن محمد الجزرى(٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

٢- الكامل فى التاريخ(١١جزءا): تحقيق ابي الفداء عبدالله القاضي: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعه الاولي ١٤٠٧ هـ -١٩٨٧ م

البخارى: ابو عبدالله .اسماعيل بن ابراهيم الجعفى(ت٢٥٦هـ/٨٦٩م).

٣- الصحيح، بحاشية السندى، (٤اجزاء) تحقيق: عماد ذكى البارودى..المكتبة التوفقية، القاهرة، د.ت، البغدادى: الخطيب ابوبكر احمد بن على بن ثابت(ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م).

٤-تاريخ بغداد (١٤جزاء)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت٤٢٩ هـ/١٠٣٧م)

٥- ثمار القلوب في المضاف والمنصوب مطبعة القاهرة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.

٦- لطائف المعارف" تحقيق إبراهيم الأبياري" وحسن كامل الصيرفي، دار إحياء الكتب العربيـــة (١٣٧٩هـ/١٩٦٠م).

الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م)

٧- "البيان والتبيين" ٣ أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

ابن حجر: شهاب الدين احمد بن على بن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م).

٨- الإصابة في تمييز الصحابة(٨اجزاء)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

ابن خلدون:عبد الرحمن بن محمد(٨٠٨هـ/١٠٤٥م).

٩- العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،(٧اجزاء) تحقيق عبادة كحيلة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

الذهبى:شمس الدين أبو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان(ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م).

١٠-تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى،(٣٥جزاء)، دار الكتاب العربى، بيروت عــام (١٤١١هـ/١٩٩١م).

١١- كتاب الكبائر، ضبط وتحقيق وشرح وتعليق السيد الجميلي: دار ابن زيدون، بيــروت، ط١، (هـ١٤٠٦/١٩٨٦م).

الرازى:محمدبن ابى بكر بن عبد القادر الرازى،ت بعد(٦٦٦هـ/١٢٦٨م).

١٢-مختار الصحاح طبعة مدققة كاملة التشكيل، مكتبة لبنان،١٩٨٧م.

ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الهاشمى، ت(٢٣٠هـ/٨٤٤م).

١٣-الطبقات الكبرى(٨اجزاء)، تحقيق وتعليق حمزه النشرتى، الشيخ عبد الحفيظ فرغلى، د. عبد الحميد مصطفى، المكتبة القيمة، القاهرة، د.ت.

ابن سيد الناس: ابو الفتح محمد بن محمد (ت٩١١هـ/١٥٠٥م).

١٤-عيون الاثر فى فنون المغازل والشمائل والسير، (جزءان)، دار الجيل، بيروت، ط٢، (١٩٧٤م).

الطبرانى: ابوالقاسم سليمان بن احمد الطبرانى(٣٦٠هـ/٩٧٠م).

١٥- الطبراني المعجم الكبير،(٢٥جزء) حققه وخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)

الطبري: ابو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)

١٦- تاريخ الرسل والملوك، (١١جزءا) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: دار المعارف، القاهرة، (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

ابن كثير: ابو الفداء اسماعيل بن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م).

١٧- السيرة النبوية، (جزئين) تحقيق أحمد عبد الشافي: دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
ابن المجاور: يوسف بن يعقوب بن محمد بن علي بن المجاور، ت (٦٩٠هـ/١٢٩١م)

١٨- "صفة بلاد اليمن مكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر"، راجعه ووضع هوامشه ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٦م.

تاريخ المستبصر القسم الأول

مسلم: مسلم بن الحجاج (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م).

١٩- الصحيح طبعة مخرجه من صحيح البخاري وبترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث " محمد فؤاد عبد الباقي " مع فهارس لأطراف الأحاديث والآثار دار أفاق العربية القاهرة (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

ابن منظور: محمد بن مكوم المعروف بابن منظور (ت٧١١هـ/١٣١١م).

٢٠- لسان العرب المحيط، (٦اجزاء)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.

ابن هشام: ابو محمد عبد الملك بن هشام، ت(٢١٨هـ/٨٣٣م).

٢١- سيرة النبى "صلى الله عليه وسلم"، (٤اجزاء) الناشر النور الإسلامية، القاهرة، د.ت.

٢٢-المغازى، (٣اجزاء)، تحقيق د. مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط٣،(١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

ياقوت: شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى، ت(٦٢٦هـ/١٢٢٩م).

٢٣-معجم البلدان، (٥اجزاء) دار صادر، بيروت، د.ت.

ثالثا:المراجع العربية والدوريات:

إسماعيل علي الأكوع :

٢٤- اللبلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، مؤسسة رسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ /988م).

جمال الكاشف:

٢٥- أخطر الجواسيس عبر التاريخ، دار الطلائع، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٠

طارق أبو الوفا محمد (الدكتور):

٢٦-لواقدي ومنهجه في كتابه مغازي رسول الله "صلى الله عليه وسلم".

٢٧-تاريخ صنعاء منذ فجر الإسلام حتى أواخر القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م،

عبد الرحمن زكي(الدكتور):

٢٨-السيوف العربية، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة الأولى جمادى الثانية١٣٩٥هـ/يونية ١٩٧٥م.

المباركفوري- صفي الرحمن المباركفوري:

٢٩-الرحيق المختوم، مكتبة المورد للنشر والتوزيع القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦ م

محمد بن أحمد الحجري:

٣٠- مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ٤أجزاء، تحقيق وتصحيح ومراجعة إسماعيل بن علي الأكوع، دار الحكمة اليمانية، الطبعة الثانية، (١٤١٦هـ/1996م).

محمد سعيد رمضان البوطي:

٣١- فقة السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار السلام، طبعة١١ :١٩٩١، ص١٩٠

محمود شيت خطاب :

٣٢-قادة النبي "صلى الله عليه وسلم"، دار القلم، بيروت.



الفتح الإسلامي لصعيد مصر في الوعي المصري الشعبي
قراءة في مخطوط فتوح البهنسا الغراء

د. عمرو عبدالعزيز منير (*)

كنت كثيرًا ما أتساءل عن سر خلو فترة الفتح الإسلامي لمصر من قصص شعبية؛ تسجل البطولات والمعارك التي خاضها أصحاب الدعوة الجديدة، وهم يواجهون في مصر أهم معاقل الروم ــ ثانية القوتين العالمتين اللتين كانتا تسيطران على العالم المعروف آنذاك. لقد سجل الأدب الشعبي معارك العرب مع الفرس في سيرة حمزة البهلوان، وفي سيرة عنترة بن شداد، كما سجل أيضًا معارك العرب مع الروم في المشرق في سيرة الأميرة ذات الهمة. وسجل معارك العرب مع الأحباش في سيرة سيف بن ذي يزن، كما سجل معارك المسلمين مع الصليبيين في سيرة الظاهر بيبرس، ولكن هذه المعارك المسجلة في هذه السيَّر الشعبية ليست معارك الفتح، وإنما هى انعكاسات للمعارك المريرة الطويلة بين العرب والشعوب المجاورة لهم، ثم بين الدولة الإسلامية والدول الطامعة فيها، والمقاومة لتوسعاتها وفتوحاتها المستمرة، ولعل حقيقة الأمر: أن كتب السيرة النبوية، وكتب المغازى وكتب التاريخ الإسلامي، قد وفت هذه المعارك حقها، أو أن روايات الصحابة عن تجاربهم في جهاد الفتح الإسلامي قد أغنت الوجدان الشعبي، فتبنى هذه الروايات، واكتفى بها، ناهيك عن القداسة التي أحاطت بهذه المعارك، وبمن خاضوها من الصحابة، والتي عقلت جناح الخيال الشعبي فلم يحلق بحرية في هذه المجالات، ناهيك عن أن البطل الإسلامي الأول. وهو الرسول عليه السلام قد استحوذ علي الخيال الشعبي، فانصرف يتغنى بصفاته وأعماله، في الملاحم النبوية المتعددة، التي حازت مكان القداسة عند الكثيرين من المتصوفة وعامة المسلمين، كبردة البوصيري والمعارضات الكثيرة لها والمتنوعة[1].

وبرغم هذا؛ ظهرت عدة أعمال شعبية حول الفتوحات الإسلامية، امتزج فيها الخيال الشعبي بالحقائق، وحارب فيها الأبطال العرب الكثير من الأعداء والمردة والشياطين والكائنات حبيسة الفولكلور، إلى جوار حروبهم للكفار والمشركين وعبدة النجوم والأصنام والنار، أبرزها ما دار حول فتح اليمن، إذ ظهرت سيرتان منفصلتان وإن كان البطل فيهما واحدًا، والمؤلف فيهما واحدً أيضًا[2]. كما حظيت فتوح الشام والعراق بعمل اختلط فيه الحدث التاريخي بالخيال الشعبي وهو (فتوح الشام) للواقدي[3] وكل هذا لا يخالف النصوص التاريخية المعروفة، وإنما

(*) مدرس بكلية الآداب بقنــا.

يزيد عليها ويضيف، ويجرى خياله في تعميق الأخبار تعميقًا دراميًا لتتحول إلى أحداث قصصية، فيها الحوار، الانفعال، وفيها المنولوج الداخلى، وتحظى ببعض الحيلة، وببعض الحبكة والإثارة الروائية، ومن هنا خرجت من عباءة التاريخ لتدخل في إطار الرؤية الشعبية للحدث التاريخي، أو ما يمكن أن نسميه البعد الثالث للدراسات التاريخية [٤].

ويظـل السؤال قائمًا عن اختفاء مثل هذا الجهـد الشعبي في تسجيل فتح العرب لمصـر [٥] ؟! وهو ما ستحاول السطور التالية الإجابة عليه.

كنا نؤول الأمر بأن مصر – كما ذكرت المصادر والمراجع التاريخية – قد فتحت صلحًا، ويعدد ابن عبد الحكم في (فتوح مصر والمغرب)، وابن إسحق الأموي في (فتوح مصر وأعمالها)[٦] الآراء التي اختلفت حول فتح مصر، هل فتحت صلحًا أم فتحت عنوة. إلا أن الثابت أن مصر في غالبها فتحت صلحًا، ما عدا بعض القرى مثل قرية (بلهيب)[٧]، وقرية (خيس) وقرية (بلطيس)، وكذلك فتحت الإسكندرية في المرة الثانية عنوة[٨]، أما باقي مصر فقد فتحت صلحًا. ومن هنا فقد كان مجال المعارك الحربية أقل بكثير مما تتيحه معارك الشام والعراق[٩].

وكان هذا هو التصور الراسخ في أذهاننا، إلى أن جاء كتاب (سيرة فتوح البَهْنَسَا الغراء)؛ ليرد على العديد من التساؤلات، ويقدم نصًا شعبيا يتناول فتح العرب لمصر تناولاً يمزج بين الحقيقة والخيال، لتحرره من قيود التاريخ وصرامته، وانطلاقه في رحاب الإبداع الفولكلوري بشكل واضح وصريح، وهو على كل حال يؤكد أن فتوح مصر لم تمر على الوعي الشعبي دون استجابة يقظة، وانتباه واع، بدور الشعب في تسجيل بطولات هذا الحدث، ويساعد في تصور السياق العام للحدث التاريخي ويسد الفجوة الناتجة عن عجز المصادر التاريخية التقليدية عن سدها، وبعث الحياة في الهيكل العظمي للحقائق التاريخية الجافة التي تحملها المصادر عن الفتح[١٠].

وهو ما سنحاول تقديمه، من خلال عرض صدى الفتح العربي لمصر، في سيرة فتوح البَهْنَسَا الغراء، ومدى تشبع تاريخ الفتح الإسلامي بالموروث الشعبي، الذي سيظل لقرون طويلة قادمة مصدرًا خصيبًا لمن يريد فهم الشخصية القومية ومذهبها الفطري في التفكير وفي الحياة، مما يعطي المشروعية لهذه الدراسة القائمة على أساس محاولة إخماد نيران العداوة والكراهية؛ التي يؤججها الآن فريق من الغلاة والمتطرفين على كلا الجانبين: المسلم والمسيحي؛ وعلى الرغم من أن التاريخ المشترك بينهما امتد منذ القرن الهجري الأول/السابع الميلادي حتى الآن، فإن أولئك المتطرفين يتجاهلون الكثير من تفاصيل هذا التراث المشترك[١١].

سيرة فتوح البَهْنَسَا الغراء، على عكس الملاحم العربية الأخرى، يدور محورها الأساسي، وبعداها الزماني والمكاني، حول دائرة المعارك الإسلامية البيزنطية[١٢] في صعيد مصر[١٣]، كما أنها سيرة قصصية وتاريخية تكاد تكون مجهولة عند كثير من الباحثين فى الآداب الشعبية الذين لم يلتفتوا إليها، ولم يحققوا نصوصها، أو يبحثوا موضوعها. ولتشعب

وتعقد أحداث السيرة؛ سألتقط بعض العناصر الرئيسة للسيرة التي نشرت محققة بالقاهرة مؤخرا لمن أراد أن يستزيد[١٤].

العنوان الكامل للسيرة: "قصة البَهنَسَا هذا الكتَاب حكاية لغزوة من أعز الغزوات الإسلامية وَقصة فتح مبين للصحابة المحمدية عليهم رضَوان الله الصمدية وَفيها نوادر غريبة وَوقائع عجيبة وَما وَقع فِي أرض البَهنَسَا" يعد العنوان من أهم العتبات الدلالية التي توجه القارئ إلى استكناه مضامين النص الشعبي/التاريخي، وتفكيك شفراته واستكناه محمولاته الدلالية، بما يعطيه من انطباع أولي عن المحتوى.

والواضح من عنوان المخطوط أن البطولة فِي هذا العمل مقصودة للمكان، وهو البَهنَسَا[١٥]، فهو المعني بهذا الكتاب وهو محوره، ومن هنا كانت محاولة السيرة تأصيل البَهنَسَا ومنطقتها، أي العودة بها إلى عمق التاريخ[١٦]، وذكر حكاياتها عبر التاريخ وحتى مرحلة الأحداث المحورية التي تهتم بها، وهى الفتح الإسلامي لها.[١٧].

يُنسب مخطوط "فتوح البَهنَسَا" إلى أربعة مؤلفين يمكن وضع ثلاثة منهم فِي ترتيب زمني وهم: الواقدي[١٨] (١٣٠-٢٠٧هـ)، البكري[١٩] (...-٢٥٠هـ)، المقرى[٢٠] (...-٧٥٨هـ). هذا التطابق بين النصوص المنسوبة إلى المؤلفين الثلاثة، دعا البعض إلى الاعتقاد بأن المؤلفين المتأخرين قد نقلا عن الواقدي ونسبا الكتاب إلى نفسيهما، وذهب البعض إلى أن الواقدي قد أبدع هذا العمل من عند نفسه، وإنما كان دوره هو تسجيل القصة التي كانت تروى عن انتصار المسلمين على الروم البيزنطيين والقبط والبجة والسودانيين؛ الذين احتشدوا للدفاع عن البَهنَسَا قاعـدة الصعيد يومئذ[٢١].

وبمناقشة الجوانب المختلفة المتعلقة بإشكالية المؤلف، ولغة السيرة ومصطلحاتها، نخلص إلى عدم نسبة سيرة البَهنَسَا إلى أي من الثلاثة لأسباب منها: أن طبعة كتاب "فتوح الشام" التي ورد بها أخبار عن البهنسا[٢٢]. ورد فيها أسماء لأماكن عديدة في صعيد مصر بمسميات لم تكن قد استحدثت زمن الواقدي (المتوفي: ٢٠٧هـ/822م) إذ نجد عند الواقدي ذكر لــ "قرية الجرنوس[٢٣]" في فتوح الشام. وهذا المسمى لم يكن قد أُطلق على القرية بعد[٢٤].. والشواهد عديدة حول عد نسبة السيرة لأي من المؤرخين السابقين، وفي ظنى وتقديري أنه مجهول ؛ فالرواية نفسها تتكون من طبقات أدبية تشبه تلك الطبقات الجيولوجية، بسبب أن الرواة الذين تناقلوها شفاهًا كانوا، باستمرار، يعدلون ويزيدون أو يحذفون من الراوية الأصلية تلبية لحاجة جمهور المستمعين، حتى تم تسجيل الرواية في أحد أشكالها على صفحات المخطوط الذي لم يلبث أن طبعت منه عدة نسخ تكشف كل منها عن صحة ما ذهبنا إليه.

الأمر الذي يدعونا، دون حذر شديد، من التحقق بعدم نسبة الكتاب لأي من الواقدي (١٣٠هـ/747م-٢٠٧هـ/822م)، أو البكري(...-٢٥٠هـ/864م)، أو المقري(...-٧٥٨هـ/ 1357 م) إذ كان من الأحرى أن ترد أسماء الأماكن بمسمياتها التي كانت عليها في حياتهم.

أما عن الخلفية التاريخية للملحمة؛ فتدور القصة بصفة أساسية حول فتح أحد أقاليم مصر الوسطى، تبلورت رؤية شعبية مصرية بما حوته من نبوءات (جاءت بأثر رجعي بعد حدوث الفتح)، وحكايات أسطورية تشرح وتفسر، وتقيم جسرًا على الفجوة بين ما حدث بالفعل، وبين الروايات الجزئية للمؤرخين والوثائق (التي تشكل جزءًا من التاريخ ولكنها ليست التاريخ كله). وقد حملت هذه الرؤية أو القراءة الشعبية لأحداث الفتح الإسلامي لمصر.

فالراوي يستهل السيرة بتقديم نفسه قائلاً: " قَالَ الشيخُ العلامةُ، وَالعمدةُ الفهامةُ (مُحَمَّدٌ بْن مُحَمَّدٌ المُعز) – رحمهُ الله تَعَالَى "[٢٥]، ويسند روايته إلى حديث محدث مجهول بقوله:" (حَدثَنَا) أَبو عَبْد الله مُحَمَّدٌ بْن مُحَمَّدٌ المحدث المغربي – غفر الله له– الذي قدم إلى مدينة البَهْنَسَا لزيارة الجبانة، فسأله بعضُ الأصحاب عن سبب فتح مدينة البَهْنَسَا، فطالع التواريخ والفتوحات ثم بدأ يتحدث عن قصة فتح هذه المدينة الذي تلا فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية والبحيرة والوجه البحري.

ثم بدأ ابن المعز قصته بمدخل عن أساطير تأسيس مدينة البَهْنَسَا وبحر يوسف، فذكر من فضائل البحر اليوسفي عجائب تدخل في باب المعجزات، وأولها أن جبريل شقه بخافقة من جناحه، بعد أن يئس يوسف عليه السلام من شق هذا التحويل لنهر النيل، وكان يوسف قد استخدم مائة ألف رجل للحفر فحفروا ثلاث سنوات فلما جاء النيل سد جميع ما حفروه، فبدأ الحفر مرة أخرى حتى مضت السنوات السبع المعروفة بسنوات الخصب، وآذنت سنوات الجدب بالبدء، حتى ظهر جبريل وشق البحر اليوسفي، كما ذكر له فضائل عجيبة لا أساس لها من أهمها: أنه إذا انقطع عنه ماء النيل تفجرت فيه عين فيصير نهرًا جاريًا بذاته[٢٦].

كذلك كانت البَهْنَسَا – في المخطوط – المكان الذي استقرت به العذراء مريم وابنها عيسى عليه السلام، عند قدومهما إلى مصر فرارًا من بطش هيرود الملك ومكر اليهود، وترد هذه الحكاية الشعبية في المخطوط تحت عنوان: "ذكر نزول سيدنا عيسي ابن مريم ﷺ بمدينة البَهْنَسَا وخروجه من مصر وإقامته بالبَهْنَسَا[٢٧]".

ويبدأ الراوي الشعبي الحديث بإسناد إلهي بقوله: "قال الله تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَم وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِين﴾[٢٨] ذكر أصحاب التواريخ وَهم: المسعودى وَأبو جعفر الطبرى وَالواقدى وَابن اسحق، وَأصحَاب السير وَأهل التفسير، مثل سعيد بْن جبير وَسعيد بْن المسيب، وَابن عباس، وَعلى بْن أبي طالب، وَالثَّعْلَبِيُّ، وَالزمخشرى: أن المراد بالربوة – وَالله أعلَم – مدينة البَهْنَسَا"[٢٩].

وتتضمن السيرة فصلاً عن عيسى عليه السلام؛ بعنوان "ذكر نزول سيدنا عيسَى بْن مَرْيَم عَلَيْه الصَّلَاة وَالسلام بمدينة البَهْنَسَا وَخروجه منْ مصرَ وَإقامته بالبَهْنَسَا"، ويُلحظ تصحيف اسم الملك هيرودس (هيرود) إلى هيدروس، وكذلكَ يأتي ذكر البئر التي ارتفع له الماء إلى فمها حتى شرب، ويقول الراوي: "قيل: إن مَرْيَم لما دخلت بولدها إلى أرض البَهْنَسَا أتوا إلى مكان البئر المعروفة وَرجع يُوسُف النجار وَخلى مَرْيَم عند البئر وَلَيس عَلَيها رَشاء

فطلب عيسَى - عليه السَّلام - الماء ليشرب فبكى من العطش فحزنت عليه أمّه فارتفع ماء البئر حتَى شرب منه"، ويمضي الراوي في تعديد معجزات عيسى - عليه السلام - في البَهْنَسَا.

ثم يبدأ الراوي في ذكر ملوك البَهْنَسَا القدامى وأعمالهم العجيبة الجبارة، إضافة لذلك فقد كان هؤلاء الملوك في السيرة علي علم بالسحر والطلسمات التي تساعدهم على إعمار الأرض وتشييد العمائر الضخمة التي تركوها، والتي استطاعوا بواسطتها إحداث ممارسات حضارية جديدة، بل واستطاعوا بمساعدة علوم السحر أن يُقيموا العدل بين الناس: "حَتَى قَل الزنا فِي زمانه وَالفساد وَالسرقة وَعمل فِي وَقته أعمالا كثيرة وَعجائب...وَصنع أيضا قاضيا من حجر جالسا على الماء، فإن تحاكم إِلَيْه الخصمان فالذي معه الحق يمشى على الماء، وَالذي معه الباطل يغرق فِي الماء. وَصنع أيضًا عجائب كثيرة"[٣٠].

ويعرج الراوي على حياة ملوك البَهْنَسَا، إذ يروى حياتهم حتى وصل إلى مبتغاه وهو: سبب تسمية المدينة بهذا الاسم، وخلاصة قصته: أن أحد أبناء الملوك واسمه بطرس[٣١] ولدت له بنت سماها (بهاء النساء) فاختصر هذا الاسم إلى (بهنسا) وسميت المدينة باسمها إلى يومنا هذا. ويبدو أن النزوع نحو نسبة العديد من قرى ومدن الصعيد إلى العرب والإسلام؛ هو الغالب في سيرة فتوح البَهْنَسَا، ربما تحت تأثير الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر ودخولها في الإسلام، والذي معه حاول الخيال الشعبي النبش في ماضي وتاريخ الفتح الإسلامي لمصر؛ للتأصيل لنشأة القرى، والمدن، تمهيدًا لعرض فتوح البَهْنَسَا والمعارك والبطولات التي دارت رحاها حول المدينة، ويعدد ما بأديمها من الشهداء والصالحين وآل البيت وعترته الأطهار. وعلى الجانب الآخر تمدنا الرواية ببعض الوصف الإثنوجرافي للفاتحين العرب وملابسهم وهيئتهم وطرق حياتهم. وتحتفي بالصوفية على نحو خاص ؛ إذ تستشعر في وصف معارك الصحابة الجوانب الفنية للطرق الصوفية. من البيارق والأعلام والسيوف والبنود والشارات والرايات وما إلى ذلك من ضربات هاشمية، وحلقات ذكر وقرآن.

يستهل الراوي بداية سير المعارك التي دارت وقائعها بين العرب والروم في البَهْنَسَا، والتي تبدأ بمشاورات الصحابة في فتح صعيد مصر التي بدأت برسالة من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، ولعل الحديث عن هذه الرسالة يذكرنا بما تناوله المؤرخون من أن الفاروق عمرَ ﷺ أخبر عمرو أنه مرسل إليه كتابًا، فإن أدركه قبل دخوله أرض مصر فليعد من حيث أتى، وإن أدركه بعد دخولها فليمض على بركة الله، وأن عمرًا قد أدركه هذا الكتاب وهو لا يزال في فلسطين، فلم يقرأ الكتاب إلا بعد أن تأكد من أنه في أرض مصر[٣٢]. وبدأت المشاورات بين القادة واستقر الرأي على استقدام الأمراء والأجناد من أطراف مصر، وظلوا يتوافدون حتى كان يوم الجمعة المبارك، فخطب عمرو بن العاص خطبة الجمعة وقرأ رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وتولى خالد بن الوليد قيادة جيش الصعيد وسط حالة من العناق والهتاف، وبدأت الجنود تعسكر عند أهرام الجيزة، وتستعد للرحيل متأهبين للسفر، فهذا

يصلح سيفه، وهذا يصلح رمحه، وهذا يصلح درعه. ومضت القصة تروى حركات الجيش العربي الذي تحرك نحو الصعيد بقيادة خالد بن الوليد لنجد في "سيرة قصة البهنسا" صورة مغايرة لعمرو بن العاص ؛ جعلته كبطل مصاحب للبطل الرئيسي في السيرة[٣٣] وهو "خالد بن الوليد " الذي كان له أعداء لدودون لعبوا دورًا في بناء السيرة وتطور المعارك الحربية، وجعلت لعمرو بن العاص دورًا يصغر من حيث جوهر فعله فلا يتساوى مع الأمير خالد، ويدعم وجوده على مدى السيرة.

قدمت السيرة بعض الأنواع المختلفة للأسلحة المستخدمة في القتال وطرق تعبئة الجيوش، فنسمع عن الكردوس وطرق تقسيم الجيش البيزنطي[٣٤]: "واقتطع عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمرو وهاشم ابن المرقال - رضي الله تعالي عنهم - إلي كردوس عظيم أكثر من ألف فارس من الروم والسودان...وكانت طائفة من الأوس وهمدان مما يلي الجناح الأيسر فحمل عليهم كردوس من الروم والسودان"[٣٥].

ثم يصف الراوي سير المعارك الحربية، ويبدأها بالحرب بين البطلوس ملك البَهْنَسَا وبين خالد بن الوليد قائد الجيش العربي، ويصف الجيش البيزنطي بأنه كان مكونًا من خمسين ألف فارس :" عليهم الدروع المذهبة وأقبية الديباج المرقومة بالذهب والفضة وعلى رؤوسهم التيجان المكللة باللآلئ والجواهر وسروج خيولهم من ذهب. وتقدمت جيش البطلوس الطبول والزمور والمعازف حتى ارتجت الأرض، ومعهم جمال وبغال محملة بأواني الذهب والفضة والخمور ومعهم الأغنام والأبقار". أما أسلحتهم فكانت في معظمها أسلحة القتال المتلاحم من سيوف ودرق وأعمدة ورماح وكرابيج، إلى جانب القسي والنشاب للرمي عن بعد، ودبابيس[٣٦]. وكلها أمور تتفق مع أسلحة تشكيلات المشاة في الجيش البيزنطي والمكون من فرق تستخدم كعوبا غليظة ومزاريق طويلة وحرابا، مهمتهم مواجهة هجمات الفرسان الثقيلة حيث كان في كل وحدة مشاة مكونة من ألف رجل مائة جندي مجهزون جيدا إلى جانب أربعمائة من حملة الحراب وثلاثمائة من حملة السهام ومئتين من المشاة الخفيفة مسلحون بالمقاليع والمزاريق الصغيرة[٣٧].

ويوضح النشاط الاستخباراتي الحربي الذي قام به جيش العرب ضد البيزنطيين، وما قام به الجيش البيزنطي ضد العرب، وآلية تعامل كل منهما مع الآخر. وقد أشار بتلر لهذا في قوله :"ثم سمع عمرو بأن (حنا) كان يسير وراءه في قلة مع خمسين من فرسانه يرقبون سيره، فبعد به عمن وراءه من جنده ثم كر عله مباغتا..فكان يسير بجنوده في الليل ويكمنون بالنهار في النخيل والآجام ". وهو ما نجد صداه في سيرة فتوح البهنسا بقول الراوي : "وَفِي كل يَوْم يخرجون الطلائع[٣٨] يتجسسون الأخبار"[٣٩]، ويعرض لطرق الأكمنة التي اعتاد البيزنطيون نصبها للعرب "فَقَالُوا: أَيُّهَا الملك لا ترى منا بَعْدَ هَذَا الْيَوْم إِلَّا ما يسُركَ، وَفي غد نكمن لَهُمْ كمينا[٤٠] وَنخرج عليهم، وَنقاتلهم حتى يحمى القتال فيخرج الكمين، فنقتلهم عن آخرهم، وتأمر الرماة أن يسلسلوهم في السلاسل والقيود حتى لا يهرب منهم أحداً"[٤١]. ووصل

زياد إلى القائد الأعظم لجيش الروم وضربه بالسيف على عاتقه الأيمن، فخرج السيف يلمع من عاتقه الأيسر". ناهيك عن الأبواب السرية والطرق المجهولة للعديد من مدن الصعيد والتي كانت تستخدم في مثل هذه الأوقات الطارئة.

يتضح في السيرة أصداء التعصب الديني للأحباش ضد المسلمين، وهو ما يتفق والواقع التاريخي، فما حل النصف الثانى من القرن الثالث عشر، حتى وجدنا الحبشة تظهر أمام نفسها وأمام العالم المسيحى، بأنها مركز الإمبراطورية المسيحية التى سيلتف حولها المسيحيون، وسيتحقق على يدى حاكمها القسيس يوحنا آمالهم وأحلامهم، ووجدنا الحبشة تتشبع بفكرة الصليبيين، وتتحين الفرص للاشتراك الفعلى في محاربة المسلمين وما أن جاء القرن الرابع عشر حتى تطورت معاملة ملوك الحبشة لسلاطين المماليك في مصر وتجرؤا على تهديد أمن مصر والتلويح بمنع النيل عن مصر، وقام سيف أرعد (١٣٤٤-١٣٧٢م) بالقبض على جميع التجار المصريين في مملكته[٤٢]، وبعث بفرسانه لطرد القوافل الآتية من القاهرة إلى خارج حدود الحبشة..وأغار الحبشي على أسوان ١٣٨١م.إذن التهديد لأمن مصر، وطرد التجار، والتهديد بسد مجرى النيل، كلها ملامح تاريخية للعلاقة بين الحبشة ومصر، وهى التي شغلت ملامح الأحداث في معارك الأحباش والروم.

كما عكست سيرة فتوح البهنسا علاقة بلاد النوبة مع مصر المتمثلة في: رابطة الجوار، ورابطة الكنيسة، وخاصة بعد إخفاق محاولة عمرو بن العاص سنة ٦٤٢ م فتح النوبة على يد عقبة بن نافع، ثم محاولة عبد الله بن أبي السرح، وتوالي غارات أهل النوبة على مصر فى عصر الإخشيديين والفاطميين، إلى أن أتت الحروب الصليبية لتزيد من مظاهر العداء بين مصر ومملكة النوبة المسيحية: مهاجمة أسوان سنة ١٢٧٢م أسرهم العديد من أهل أسوان وعيذاب وتصدي بيبرس لهم[٤٣] " فعند ذَلكَ وَثب مكسوج ملك البجاه، وَعليق ملك النوبة، وَجمعا ما حولهما من العساكر وَالجنود منَ أرض النوبة، وَالبجاه، وَالبربر، وأتوا إلَى أسوان."[٤٤].

وأوضحت السيرة شعارات وشارات الجيش الإسلامي، وطرق التواصل بين الجنود في المعارك. والمعروف أن الجيش الإسلامي كان يبنى على أساس قبلي، وكان لهذه القبائل شعار تتميز به، ويتعارف به أفرادها، وصيحات خاصة يتنادون بها ويتعارفون فِي الظلام، وعند الاختلاط، بحيث تكون عندهم معروفةَ، وعند غيرهم مجهولة، بالإضافة إلى شعارهم العام وهو التكبير، الذى كان شعار كل مسلم[٤٥] والذي يتفق مع الحقائق التاريخية المتعلقة بشارات المسلمين في معاركهم الحربية :" وكَانَ شعار المُسلِمينَ تلكَ الليلة : يَا مُحَمَّدٌ يَا مُحَمَّدٌ يَا مُحَمَّدٌ يَا نصر الله يا نصر الله انزل".[٤٦]

وبأسلوب الملاحم العربية يصف حمية القتال، وشجاعة الفرسان من الجانبين العربي والبيزنطي، ويصف أساليب المعاملة الكريمة من العرب للأسرى، برغم رغبة بعض الجنود الفتك بهم، إلا أن القادة نهروهم عن هذا الإثم في أكثر من موضع من مواضع السيرة، ويستمر في وصف التلاقي بين الجانبين وظهور الأبطال قال الراوي: " فَلَمْ تَكنْ إلا ساعة حَتى

ولّت الرُّوم الأدبار وَركنوا إِلَى الفرار لا يلوى بعضهم على بعض وَتبعهم الْمُسْلِمُونَ يقتلون وَيأسرون". وعاد الجيش العربي بسبعمائة أسير، وفجأة ظهر عمرو بن العاص فيَ الميدان مع خالد، وأوقدت النيران في المعسكر العربي.

وفي الصباح أقبل جيش الروم على المعسكر العربي ووقف الجيشان استعدادًا للقتال، ولكن الراوي يذكر قصة ملحمية جديدة، فقد طلب جيش الروم أحد قادة العرب للتفاهم، فذهب المقداد بن الأسود إلى المعسكر الرومى، وقابل (بولص) قائد الروم، ولكنه رفض الحديث معه وطلب قائد الجيش خالد بن الوليد، فذهب إليه خالد ودارت بينهما مناقشة عرض فيها الرومي حقن الدماء ودفع أموال للعرب حتى يرحلوا فرفض خالد، واجتمع جند الروم مع قائدهم يريدون قتل خالد، ولكنه استطاع في بطولة أسطورية أن يقتل عددًا منهم ويعود إلى معسكره.

ودارت معارك طاحنة بين العرب والروم، وأسرف الراوي إسرافًا شديدًا في إظهار البطولات الخارقة للعادة عند العرب – والتي ترضي جمهور السامعين – على طريقة الملاحم العربية الفردية التي تهتم ببطولة فرد واحد، أكثر من اهتمامها ببطولة جيش كامل[٤٧]، وقُتل في تلك المعارك (بولص) قائد الروم، وتولى القيادة أخوه (بطرس) وظلت المعارك دائرة بين الفريقين، حتى انهزم جيش الروم وأسر منه خمسة آلاف فارس، وبلغ عدد القتلى تسعين ألفا، أما العرب فقد قُتل منهم ثمانمائة وثمانون رجلاً.

وعاد عمرو بن العاص إلى مصر (الفسطاط)، وسار خالد بن الوليد بجيشه إلى مدينة أهناس[٤٨] / أهناسيا، وملكها (مانوس المنحوس بن ميخائيل الضليل بن أهناس)، وضرب الحصار على المدينة ثلاثة أشهر، وأخيرًا نفذ خالد خطة حربية أشار بها المرزبان – وهو أحد أمراء كسرى الذين أسلموا –، وخلاصتها وضع صناديق مليئة بالزيت والكبريت تحت أبواب المدينة، وإشعال النار فيها حتى يذوب حديد الأبواب وتفتح فيدخل الجيش العربي، ونجحت الخطة الفارسية، ودخل خالد مدينة أهناس، وانتشر الجيش العربي في القرى والمدن، يستولى عليها واحدة بعد الأخرى عنوة أو صلحًا.

وبدأت بعد ذلك معارك البَهْنَسَا عاصمة الصعيد، ومستقر الملك البطلوس الذي فتح خزائنه ووزع المال والسلاح على رجاله، وهب لمقاتلة العرب. وقبل القتال دار حديث الصلح وذهب المغيرة بن شعبة على رأس وفد عربي لمقابلة البطلوس، ووصف الراوي سرير الملك وقصره وحجابه وصفًا شائقًا، ثم وصف طريقة ملاقاة الوفد العربي له بأسلوب مثير، حتى إن المغيرة وصحبته، وهم عشرة، حملوا بسيوفهم أكثر من مرة على الملك وجيشه، ودارت مناقشات طويلة بين البطلوس والمغيرة بن شعبة، ولم تجد محادثات الصلح شيئًا، وأقبل البطلوس بجيشه الزاحف، ودارت المعارك وسقط شهداء من جيش خالد[٤٩].

وطال حصار البَهْنَسَا، ولم يستطع الجيش العربي اقتحام أبوابها، فيصف مكائد العرب لفتحها، فأعد الجند مكيدة جديدة من نوعها خلاصتها أنهم جهزوا غرائر مليئة بالقطن ووضعوا رجالا بداخلها مع سيوفهم، والقوهم إلى أعلى الأسوار عن طريق كفة منجنيق[٥٠] كبير

يرفع الغرائر واحدة بعد أخرى إلى سور المدينة، ثم خرج الرجال من الغرائر وبأيديهم السيوف وقتلوا الحراس وفتحوا الأبواب، ودخلوا المدينة، ودخلت كتائب الجيش العربي تحت راياتها وأنشد كل أمير من أمراء الجيش مقطوعات شعرية. وانتهت الملحمة بالاستيلاء على البَهنَسَا، ثم خروج خالد بجيشه سائرًا إلى الصعيد، حتى وصل إلى عدن وسواكن واستولى عليهما[٥١].

وتوضح السيرة كيفية هدم أبواب المدن المحاصرة بالخبرات الفارسية التي انضمت للجيوش الفاتحة، ويعضد وقوف الوعي الشعبي على نسبة المنجنيق إلى الفرس بعدما اختلط العرب بهم وحاربوهم، وهو ما جاء بوصف الحسن بن عبد الله لبلاد وأهل فارس بقوله: "وأهل مدنهم متفوقون بالحجر المصيب والمنجنيق"[٥٢] وهنا يقول راوي سيرة البهنسا:" فقال المزربان الفارسي عندنا في بلاد الفرس إذا حاصرنا مدينة ولا قدرنا على فتحها أخذنا هدمًا بزيت وكبريت، ووضعناها في صناديق وتحمله الرجال على أعواد طوال، ورجال يدنونها إلى قريب الباب ويجعلون النار في الصناديق فتقوم عند وقتها وتهدم الحجر والخشب والحديد"[٥٣].

كما نجد أحداث حصار مدينة البهنسا، في السيرة، تكاد تتناص مع ما ورد في كتب المؤرخين عن حصار حصن بابليون وفتحه، من حيث حصانته وأبوابه الحديدية المصفحة والأبواب المتعددة للمدينة، كما تتناص نصوص المفاوضات والحوارات التي دارت بين عمرو بن العاص وأسقف بابليون، مع ما ورد في سيرة فتوح البهنسا بين قادة الجيش البيزنطي والرهبان وقادة الجيش الإسلامي، وخاصة الحوار الذي دار بين الراهب وخالد بن الوليد وتخييره بين أمورٍ ثلاثة في قول الراوي :" فَقَالَ الأميرُ خالد – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ – : وَاللهِ ما نرجع عنكم إلا بإحدى ثلاث : إما أن تدخلوا في ديننا وَهُوَ الإِسْلَام، فتعصموا منا دماءكم وَأموالكم، وَإما أن تعطوا الجزية عن يد وَأنتم صَاغِرُونَ، وَإما القِتَال بَيْنَنَا وَبينكم"[٥٤]. وهو ما يتشابه شكلا ومضمونا مع حوار الراهب مع عمرو بن العاص قُبَيل سقوط حصن بابليون[٥٥]. الأمر الذي يفسر أن هذه الروايات، بأبعادها الشعبية، لم تبد ناتئة أو شاذة عن نسيج وروح القصص التاريخي الوارد عن حصار مدينة بابليون وفتحها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، قد يرجع تقارب روايات حصار البهنسا وفتحها، مع روايات حصار وفتح حصن بابليون المنيع، إلى تشابه ولزوجة تركيب الوجدان الشعبي نفسه، أو ربما كانت تلك الاستعارة من باب خلع صفات على البهنسا شبيهة بصفات عراقة تاريخ حصن بابليون، ورغبة الوجدان الشعبي في أن يجعل البهنسا مؤثرة لا متأثرة، معيرة لا مستعيرة، ناحلة لا منتحلة.

إضافة لتقديم الراوي الكثير من تفاصيل مدن الصعيد، واكتساب العديد منها أسماها الحالية من قادة الفتح وفرسانه، ناهيك عن تقديمة وصفاً إثنوجرافيا للمدن المفتوحة، ومواقعها وأسواقها وعمارتها وقلاعها، والتي تتفق مع الواقع لحد كبير.

وفي سياق وصف المعارك الضارية التي نشبت بين العرب وبين أعدائهم من البيزنطيين وحلفائهم، ومَنْ حارب معهم من البجة والسودان راكبي الأفيال، ترددت في المخطوط أصداء قصة الفيل ومحاولة أبرهة الأشرم غزو مكة وهدم البيت الحرام[٥٦]، والتي

رواها القرآن الكريم في سورة الفيل[٥٧]؛ يقول الراوي: "رأينا طيورًا انقضت علينا مثل النسور فكان الطائر منهم يرفرف بجناحيه على وَجه الكافر وَرأسه ثُمَّ يضع مخالبه في عينه فيرميه إلى الأرض. قَال: فلم تكن إلا ساعة وَذلك بَعْدَ صلَاة العصر حَتى وَلوا الأدبار وَركنوا إلى الفرار وَتبعهم المُسلِمُونَ يقتلونهم كيفَ شاءوا وَيأسرونهم كيف شاءوا حَتى جاء اللَيل وَأظلم الجو"[٥٨].

إذ يبدو جليًا تأثير حادثة الفيل، ومعركة بدر، في تصورات القاص الشعبي،إذ أتاحتا فرصة للخيال الشعبي لأن يُعبر من خلالها عما يساوره من أفكار إزاء المعجزات الربانية، بما يزيد من قداسة المكان، ويعضد من ترسيخ الهالة المقدسة التي أحاطت بمدينة البَهْنَسَا التي يدافع الله عنها وعن جنوده. ويلهمهم بأن الله معهم على حد قول الراوي: "وَكنا إذاً كبرنا تصهل الخيل لتكبيرنا إلهاما من الله عز وَجل"[٥٩] فالكثير من الروايات التي صاغها الوجدان الشعبي حول معاركه مع أعدائه – في بعضها- كانت صدي لسِيَر وكرامات الأنبياء، أو محملة بإشارات من قصصهم التي لم تزدهر وتنمو وتنضج إلا في ظلال القرآن الكريم، بحيث يظل المدد الرباني في قصة أصحاب الفيل، وفي معركة بدر، واحداً من أكثر المعجزات إثارة للخيال وحتى لكاتب التاريخ؛ فإن هذا الخيال يشكل لا محالة عنصراً أساسياً من عناصر المدد الرباني، يصعب معه – إن لم يكن مستحيلاً – إقصاؤه أو تبريره على حد سواء. وما دام هذا المدد الرباني قد جرى في ظروف أسطورية، مفرغة من أية ممانعات واقعية يمكن أن تكبح خيال المتلقي، أو أن تفرض عليه شروط قراءة خاصة فقد ظلت مثل تلك القصص محتفظة بجاذبية خاصة، ومفتوحة باستمرار لضروب شتى من التأويل، وألقت بظلالها على كثير من الحوادث التاريخية الأخرى التي ارتبطت في الذهنية الشعبية بالبطولة والتضحية والجهاد[٦٠].

والواضح من سرد أحداث السيرة: أن فتوح البَهْنَسَا، قصة تاريخية قصد بها إذكاء الروح الجهادية في سامعيها، وقد مزج الراوي بين حقائق التاريخ والخيال ليصنع قصة تتقد بالحماسة والحث على الجهاد. ويرى نوريس: أن فتوح البَهْنَسَا وسيرة عنترة بن شداد تعودان إلى أواخر العصور الوسطى، والأسلوب في كليهما يشي بذلك، وإذا كان جوهر النص في سيرة عنترة من المحتمل أن يكون "أيوبيًا" من حيث التاريخ، أكثر من أن يكون "مملوكيًا"، فإنه ليس هناك شئ خاص في فتوح البَهْنَسَا التي يتقاسمها النصان (فتوح البَهْنَسَا وسيرة عنترة)، يبدو أنه ليس لها أساس في أية رواية تاريخية موثوق بها ذات تاريخ مبكر، وينقل عن ماك مايكل: "ويقال إن العرب على أية حال قد اتصلوا بالنوبيين والبجة في البَهْنَسَا (أوكسيرنيخوس) ولكن القصة ذات قيمة مشكوك فيها"[٦١].

أصداء الحروب الصليبية والصراع مع الآخر في السيرة

ليست هناك ظاهرة تاريخية كان نصيبها من الخيال أكثر من نصيب "الحروب الصليبية" التي أنتج الخيال الشعبي لها "قراءة ثأرية" تدين الصليبيين وتحاكمهم، وتستدعي من ذاكرة الماضي أحداثًا تاريخية لتنطلق منها صوب صورة قاتمة تدين الصليبيين أو مَنْ في حُكمهم،

وتحاكمهم في ظل مواجهة حضارية طويلة بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الكاثوليكي. وقد سبقهم إرث طويل من المرارة التاريخية مع العالم البيزنطي المسيحي، وقد اشتدت هذه المواجهة في وقت كانت الحضارة العربية الإسلامية قد وصلت إلى أقصى مراحل نضجها وتطورها، ثم بدأت تخبو وتختفي مع الوهن السياسي، والتشرذم الذي مكن من نجاح الحملة الصليبية الأولى وبداية مواجهة عسكرية وحضارية أجبرت المنطقة أن توجه جهدها الكامل، وأن تحشد طاقاتها العسكرية والمعنوية لمواجهة تلك الهجمة الشرسة، فتركت تلك الحروب تأثيراتها على ثقافة المجتمع بالمعنى الواسع للثقافة: آداب، وفنون، فكر، فلسفة، مثل، قيم، دارت حولها أشكال التعبير الفكري، وألوان الإبداع الفني والأدبي التي تضمنتها الفنون والآداب الشعبية، ومنها سيرة البَهْنَسَا بطبيعة الحال.

وتحمل السيرة أصداء هذه التأثيرات التي تركتها المواجهة العسكرية والحضارية على المجتمع العربي، فنجد في السيرة صدى لقراءة "تأرية للتاريخ" تسترجع معها مشاهد الصراع الإسلامي البيزنطي[٦٢]، وتستحضر فيها المواقف الحاسمة، والهزائم التي ألحقتها الجيوش الإسلامية بقوات الإمبراطورية "البيزنطية/المسيحية" تحت قيادة الإمبراطور هرقل، كمعركة اليرموك (٦٣٦م/١٣هـ)، وانتصارات المسلمين في خضم الفتوح، استحضاراً للحظة حضارية تحطم المسافة الوهمية بين العقل والمشاعر ووهن الواقع.لنقرأ ما يمكن أن نسميه بالتاريخ الوجداني لهذه الفترة.

ركزت السيرة أولا في أكثر من مشهد على: الجدل الديني بين المسلمين والبيزنطيين/ الروم[٦٣]، ونلمح على امتداد السيرة الكثير من عناصر هذا الجدل والمناظرات الدينية التقليدية، فألوهية المسيح، ونسب الأبوة لله، مع إنكارها للبطلوس أو البطريق، تكاد تتشابه مع مناظرات أبي بكر بن الطيب المعروف بـ (الباقلاني ت ١٠١٣م/٤٠٣هـ) مع رجال الدين البيزنطيين[٦٤]. ويلم الراوي ببعض عناصر وفرعيات الجدل الإسلامي البيزنطي، فمعظم النقاط المحورية في الكتابات الإسلامية الجدلية، ضد بيزنطة، تظهر بشكل متفرق في أجزاء كثيرة من السيرة، وتكاد تكون أهم هذه النقاط في السيرة – وفي الجدل الإسلامي البيزنطي أيضًا – هي مشكلة تأليه المسيح، فالراوي يعرض بشكل متكرر لوجهة النظر الإسلامية في تأليه ومكانة المسيح باعتباره – كما جاء على لسان المغيرة في السيرة: "سيدنا المسيح أفضل الأنبياء"، ويحسب لراوي السيرة أيضًا إلمامه ببعض تفصيلات الحياة الدينية داخل الكنيسة.

أما ميدان القتال فإن الهوية الدينية، والحرص الشديد على التمييز بين المسلمين والمسيحيين، يبدو جليًا في كل وصف تقريبًا للمعارك الحربية، فالتهليل والتكبير والأعلام والرايات المحمدية هي علامات الجيش الإسلامي، إضافة إلى الصلبان الذهبية والدروع والدروق، وما تطلق عليه السيرة "طمطمة الروم"، فتصاحب الجيوش البيزنطية بضخامتها، وتعدد العناصر المشاركة فيها والمساعدة لها.

ولا تخلو معركة في السيرة من رجال الدين، من البطارقة والقساوسة والرهبان، يباركون الجيوش قبل القتال، ويصلون للفرسان قبل المبارزة، وفي كل المعارك يظهر البطريق كواحد من الحاشية أو كمتحدث رسمي، كما أنه كان سفيرًا إلى المسلمين في معظم الحالات قبيل المعركة. وتعطي السيرة دورًا مهما وبارزًا للكنيسة ورجالها في تأجيج نار العداء للمسلمين، وحث البيزنطيين (أو الروم بحسب توصيف راوي السيرة) على المثابرة في القتال ضد المسلمين. إضافة إلى اصطحاب جنودهم لكنائس متحركة، ويبدو ذلك في قول الراوي: "ثُمَّ أمر بكنيسة من الخشب المنحوت منقوشة بالذهب وَالْفَضَّةَ مزخرفة ارتفاعها عشرون ذراعًا وَسعتها ثلاثون ذراعًا فيهَا تصاوير مدهونة مطلية بالذهب وَالْفَضَّةَ لها عجل يجرونها عَلَيْه بسلاسل فنصبت مقابل الَباب، وكانت هَذه عادة ملوك الرُّوم إذاَ سافروا يفكونها وَيحملونها وَإذَاَ نزلوا أقاموها، فإذاَ كَانَ المكان قَرِيبًا جَروها بالسلاسل، وَقَدمت الأعلام السود، وَأكثَروا من الصلبان، ونصب الشمعدانات على أعلى السور وَعلى الأبراج بجلود الأفيلة المصفحة بصفايح البولاد، وَزينوا الرايات المخفقات، وَرتبوا الرماة بالسهام وَغير ذلك"[٦٥].

وتحظى الطقوس والعادات المسيحية عامة باهتمام خاص من مؤلف السيرة، وهو يصف عاداتهم في الملبس والمأكل والصلاة والصيام والزواج والتطهر والمواريث والمجالس الخاصة لهم.. إلى النظام الكنسي لديهم، مع الصورة التقليدية للنقد الإسلامي ضد القسيسين والرهبان بشكل خاص. ويجمع الراوي عناصر مشتتة من الكتابات الدينية الجدلية العربية، أو لعلها كانت متداولة شفويًا بين المسلمين آنذاك، والتي لا تزال بعض آثارها موجودة إلى يومنا هذا.!

كما أن قضية التطهر للصلاة والغسل من الجنابة، وطقوس القداس الكنسي وما يصاحبه من تناول، كانت من المحاور التي أشار إليها الراوي، وأفرغ لها ملاحظات ساخرة حول الرهبان والقسيسيين المشاركين في المعارك : "وَأنا أعلَم أن القسيسيين وَالرهبان لا قلوب لهم لأنهم ليس لهم إلَا أكل العدس وَالزيت وَالأشياء الرديئة وَلا يعرفون اللحم فلأجل ذَلكَ ضعفت قلوبهم فجبنوا عن الحرب وَالقتال"[٦٦].

كما ينقل الراوي معلومات تُشير إلى وصول بعض تفاصيل الحياة والطقوس اليومية للكنائس المسيحية، التي كانت تنقل مع الجيش والمحاربين أينما حلوا، وقدم وصفًا لها، وانسحب ذلك على باقي تفاصيل الحياة الكنسية بشكل عام من الداخل، وتفاصيل عماراتها وطرق حياتهم داخل الكنائس، ويتضح ذلك في سياق وصفه لكنائس البَهْنَسَا القديمة بقوله:" كنيسة عظيمة في وَسط البلد لها أبواب كثيرة. قيل: أربعون بَابًا...وَجعل فيه أربع قبب كل قُبَّة على أربعة أعمدة من الرخام المنقوش وَكل قُبَّة مقابلة بالأخرى منقوشة بنقوش رفيعة من الذهَب وَاللازورد... لذلك وَمن داخل الكنيسة صورة المسيح وَصورة السيدة مَريَم – عليهما السَّلَام – من الذَّهَب وَإلى جانبهما صور أخر عليها ستور من الحرير الملون المنسوج بقضبان الذَّهَبِ وَالفضة،... وَتَأتي الدهانقة وَالبطارقة وَالدماشقة بَيْنَ يديه ثُمَّ يأمر لكل أحد بِمَا يشتهي

من مسكر وَغيره من جميع الأشربة.. وَأقَام فِى ذَلكَ الملك مدة أربعين سنة ثُمَّ هلك فدفن فِى تلكَ الكنيسة المذكورة فِى تاجه ولباسه وَأقبيته وَوضع فِى تابوت من الذَّهَب الأحمر فِى قاعة قد أعدها لنفسه فيهَا أموَاله وكنوزه ينزل إلى تلكَ القاعةَ بثلاثين درجة. فأمَا الهيكل فَجعل له بَابًا من البولاد[٦٧] منقوش بالذهب وَالفضَّةَ وَعليه أقفال من الذَّهَب وَالفضَّةَ أيضًا"[٦٨].

يعكس الراوي الانطباع الإسلامي العام الناقد للفكر الكنسي والرهبنة، وإن كان في الوقت ذاته يوضح المكانة التي كان يتمتع بها رجال الدين المسيحي في المجتمع البيزنطي بشكل عام[٦٩]، وخضوع الملوك لهم ولرأيهم، وما امتلكته الأديرة والكنائس من ثروات ونفائس وكذلك العديد من أهل الذمة الذين أحرزوا ثروات هائلة، الأمر الذي لفت نظر محاربي المسلمين وجعلهم في بعض الأحيان يتحفزون لغنائم الذهب والفضة والمعادن النفيسة التي كانت بحوزة "الروم".

إضافة للصورة التقليدية لملامح البلاط البيزنطي التي رآها رسل التفاوض بين الجانبين حيث سرداق البطريق أو بطلوس الروم وما به من فرش وصلبان ذهبية تلفت نظر كاتب السيرة أكثر من مرة، وكأن به يعكس صورة الانبهار بزي الروم وما كانوا عليه من مراسم وزينة وبهاء شاعت أصداؤها في كتب المؤرخين المسلمين عن غنائم فتوح بلاد الشام، العراق، وفارس، ما غنموه من معاركهم مع الروم من ذي قبل.

ما يهمنا في ذلك هو رغبة الوجدان الشعبي في كسر حاجز أسرار الكنائس وما يدور فيها والكشف عن أدق تفاصيلها وما يجري فيها في محاولة للتعرف على الآخر وعاداته في الطقوس الكنسية والجنائزية.

ورغم الصدام العسكري – فترة الحروب الصليبية – فلم ينتج أي تأثير سلبي من جانب المسلمين تجاه المسيحيين المحليين من أبناء البلاد العربية آنذاك، فلم يحدث أي تغيير في وضع أهل الذمة، بل استمر المسيحيون في حياتهم العادية داخل المجتمعات العربية وتولى عدد منهم مناصب مهمة في الدولة، وعندما جاء الصليبيون إلى المنطقة في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي كان التعايش بين المسلمين والمسيحيين قد أثبت قوته على مدى أربعة قرون، ولا نجد في المصادر التاريخية العربية ما يدل على أن المسيحيين المحليين تأثروا سلبا بسبب أحداث الحروب الصليبية سوى بسبب ممارسات الفرنج الكاثوليك ضدهم، وعدوانهم على كنائسهم وممتلكاتهم.

عضد من التعايش بين المسلمين والمسيحيين المحليين في المنطقة العربية، أن الصليبيين كثيرًا ما هاجموا ممتلكات المسيحيين المحليين واستولوا على كنائسهم، وما كان معروفًا بالضرورة من الاختلاف المذهبي العنيف بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الغربية الكاثوليكية، وتاريخ العداء العنيف الذي وصل إلى حد الانشقاق الكبير بين المذهبين سنة ١٠٥٤م وجعل المسيحيين المحليين يرون في الحركة الصليبية حركة عدوان خارجي ضد أوطانهم.

وعلى الجانب الآخر نجد الصورة التي عرفها المسلمون عن الغرب تكاد تكون محصورة في الصليبيين الذين كانوا قد صاروا "جيرانا" بالقوة في المنطقة العربية، وفي الأسبان الذين كانوا قد صاروا "جيرانا" بالقوة أيضًا بعد الفتح الإسلامي للأندلس في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، فقد وصف المؤرخ الأندلسي ابن عبدون القساوسة بأنهم "أشرار" ولكن الأمر في شرق المنطقة العربية، زمن الحروب الصليبية – على مستوى الكتابات التاريخية التقليدية – كان مختلفًا فقد وصف الأصفهاني الذي كان من رجال صلاح الدين الأيوبي في كتابه "الفتح القسي في الفتح القدسي" الصليبيين بقوله: "والكفار قد خشنت عرائكهم، واتسعت ممالكهم...وقاتلوا جندًا ورعية، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون...فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح، شقرًا كأنما لفحت النار وجوههم، وهم فيها كالحون...قد نزع الله الرقة من قلوبهم...فظاظ جهنميون كلامهم شرر، وأنفاسهم شواظ...خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة..."[٧٠].

لقد كان ما ارتكبه الصليبيون من أهوال تتسم بالوحشية الشديدة والقسوة، حتى بمقاييس تلك العصور، من أسباب هذه الصورة العنيفة التي رسمتها كلمات عماد الدين الأصفهاني للآخر. فقد كانت مذابح أنطاكية ١٠٩٨م، ومعرة النعمان، والبارة، ومذبحة بيت المقدس سنة ١٠٩٩م والمذبحة التي أرتكبها ريتشارد الأول (قلب الأسد) ضد أهالي عكا على الرغم من الأمان الذي بذله لهم سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م وغيرها من الأمثلة مبررًا لهذه الصورة العنيفة[٧١] التي انتقلت بالتبعية إلى السير الشعبية العربية ومنها سيرة فتوح البَهْنَسَا.

وإذا كانت المصادر التاريخية العربية تعاملت مع الصليبيين باعتبارهم من الكفار فإن ذلك لم يكن إنكارًا للمسيحية نفسها، وإنما كان يعكس التعامل مع الصليبيين باعتبارهم "أعداء" من ناحية، وكفارًا من ناحية أخرى، وقد وردت عبارات مثل "الكفار " و "العدو المخذول" و"الإفرنج لعنهم الله" في كافة المصادر التاريخية العربية المعاصرة أو التي كتبت عن أحداث الحروب الصليبية بمراحلها المختلفة، لقد كان طبيعيا أن تتعامل المصادر التاريخية العربية مع الصليبيين من موقف عدائي إذ كان التكفير متبادلا بين الطرفين.

لم يختلف الأمر كثيرا في أغلب السير الشعبية العربية وفي سيرة فتوح البَهْنَسَا لم يستطع الراوي أن ينال من الإفرنج بالسيف فنال منهم بالخيال في أدبه الذي يرويه على مسامع العامة في ساحات الإنشاد الديني والموالد، حتى أن اسم الإفرنج ما كان يُذكر إلا مقرونا باللعن، فيقال "الإفرنج لعنهم الله أو خذلهم الله"، ويُكرر الراوي أسماء البطارقة والملوك من الخصوم متبوعة باللعن: " فقال له البطلوس – لعنه الله "[٧٢]، "بطريق أهناس، وكَانَ فارسا مكينا وكلبا لعينا قاتله الله تعالى"[٧٣]، ومنه "فخرج إليهم بطريق وكان ابن عم المقتول بمرج دَهْشُور – لِعنهما الله – وَعقد مع المُسْلمينَ صلحا"[٧٤]، "، فالتقوا مع الرُّوم – لعنهم الله – وَاقتتلوا قِتَالًا شَدِيدًا"[٧٥]. قَالَ الرّاوِي:" هَذَا مَا جرى من أمرهم ولَمْ يعلموا أنه كَانَ عندهم كلب لعين جاسوس مَن الرُّوم فمضى ذَلِكَ الكلب إِلَى البطلوس وَأعلمه بِذَلِكَ[٧٦] ". وكان الراوي

حريصا على تقديم وصف لقادة الأعداء، فكانت بعضها أوصافا سـلبية، وفي البعض الاخر إيجابية، وأحيانا أخرى يدمج ما بين السلبي والإيجابي، وكان يلحـق هـذه الصفات بأي قائد يمتاز بصعوبة التغلب عليه في محاولة لإظهار شجاعة المحارب المسلم الذي تصدي لمواجهة المحاربين الأقوياء في صفوف العدو.

ولا شك أن نواة قصة فتوح البَهْنَسَا تعود إلى زمن فتح العرب لمصر، وأن أحاديث من شاركوا في الفتح مثل عبد الله بن عمرو بن العاص، وغيره كانت هي نواة القصة، ثم اكتملت القصة، وتم بناؤها عبر العصور، وكان تمام نضجها في العصر الأيوبي فمن المعروف أن الأيوبيين قد اتخذوا من القصص وسيلة لنشر الدعوة للجهاد ضد الصليبيين، فعينوا القصّاص في المساجد وفي صفوف الجيش، ليقصوا على مسامع الناس أخبار المسلمين الأولين الذين أبلوا بلاءً حسنا في سبيل نشر الإسلام، فانتصروا على الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، بحيث حطموا الأولى وقضوا عليها قضاءً مبرمًا واقتطعوا من الثانية كل ممتلكاتها في آسيا وإفريقيا، وكان القصّاص يذكرون للناس سير الأولين فيشعلون في القلوب نار الرغبة في التضحية والذود عن حياض الدين. ويظهر في أسلوب "فتوح البَهْنَسَا" سمات أسلوب كتاب المسلمين في العصر الأيوبي والذين عمدوا إلى تتبع مثالب خصومهم من الصليبيين.

يمكن القول إن سيرة البَهْنَسَا ساهمت في الكشف عن رؤية الوجدان الشعبي الجماعي لصورة الآخر من المنظور الديني والسياسي كما أنها قدمت في الوقت نفسه الكثير من المعلومات التي مرت بها المصادر التاريخية ذات الصبغة التقليدية المعاصرة عرضًا، أو تجاهلتها تمامًا، وقدمت معلومات تعبر عن النفسية الجمعية والتصورات العامة لدى الناس العاديين الذين لا نملك الكثير من المصادر ما يرشدنا إلى موقفهم الحقيقي و ألقت ضوءًا مفعمًا بالخيال الخصب على مناطق جديدة لم تتعرض لها مصادرنا التاريخية الرسمية.لا سيما فيما يتعلق بفترة الحروب الصليبية.

وتعد "سيرة البهنسا" أحد إفرازات هذه الحروب والمواجهة لشحذ الهمم ضد "الصليبيين" أو قل "الروم الجُدد"، ونلمح ظلاً من الحقيقة تاريخية عن الحروب الصليبية وسط الحبكة الدرامية للراوي في سياق حديثه عن رغبة ملك صقلية في: "جماعة من البربر، وَملكهم يسمى سرياق ملك صقلية بالغرب فجمع جموعا وَأراد أن يغزو مدينة البَهْنَسَا، فَلَمَّا وَصلوا إلى الواحات سمع بِهِمْ الملك تومانوس فأرسل إليهم بطريقا من بطارقته في جمع كثير، وَأرسل مَعَهُمْ الكهنة بأنواع العجائب وَأرسل الملك إليهم أيضًا قوادا في جمع عظيم لقتالهم فاقتتلوا فهزمهم أهل البَهْنَسَا، وَأسروا منهُمْ خلقا كثيراً وَأتوا بهمْ من حد إسكندرية إلى دمسيس حتى دخلوا أرض البَهْنَسَا فأمر الملك أن يضرموا النيران وَأمرهم أن يسوقوا الأسارى فيها فساقوهم إليها وَاحدا بَعْدَ وَاحد وَأدخلوهم تلك النار"[٧٧].

الراوي تأثر بتاريخ هجمات الروم والصليبيين البحرية على شواطئ مصر خاصة دمياط والإسكندرية طوال فترة العصور الوسطى التي طالما تعرضت لها الثغور المصرية لعل

أشهرها ذلك الهجوم المفاجئ الذي شنه "بطرس الأول لوزنيان" ملك قبرص الصليبي على مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥م، بعد أن جمع مساعدات مادية وبشرية كبيرة من بلدان الغرب الأوربي، ثم انطلقت الحشود الصليبية من رودس وفي العاشر من أكتوبر من هذه السنة اقتحم الفرنج المدينة وأهلها مشغولون بصلاة الجمعة وانطلقوا يحرقون المساجد ويدمرون الخانات والمنازل، وينهبون ما يصادفهم على مدى ثمانية أيام، وارتكبت أعمال وحشية من أسوأ طراز دون مراعاة لسن أو جنس وامتلأت الطرقات بجثث المذبوحين وتحولت المدينة إلى مشهد مجسم من مشاهد الرعب، وحين عرفوا باقتراب جيوش مصر هربوا بما سرقوه من بضائع وتحف وأسرى الأمر الذي أدى لاستنفار مشاعر السلاطين ضد رعاياهم من المسيحيين تماشيا مع مشاعر الناس، خاصة مع تردد أنباء أن نصارى الثغر ساروا أمام الغزاة يدلونهم على دور المسلمين بعد دخولهم من باب رشيد[٧٨] وأوجدت روحًا من الكراهية وعدم الثقة المتبادلة بين المسلمين والمسيخيين، واستطاعت الاتصالات ذات الطابع السلمي من جانب القوى المسيحية أن تخفف من الاحتقان والتي تشكلت من اتصالات كل من: الإمبراطورية البيزنطية، وملوك أرغونة "Aragon" وأباطرة الحبشة[٧٩].

وقد اختزل الخيال الشعبي هذه الحادثة البشعة إلى تصدي أهل البَهْنَسَا وانتصارهم على هؤلاء الأعداء وحرقهم في النار. فلاشك في أن الدمار الذي حاق بالمدينة قد ترك آثاره السلبية في الوعي الشعبي، ونتيجة لعجز حكامنا عن تقديم المبرر المقبول لما حدث – كعادة حكامنا – ونتيجة معاناة الناس من الحدث نفسه، نجد العلاقة بين بعض أحداث السيرة والحروب الصليبية وذيولها، لا سيما أن المصادر التاريخية تشير إلى كثرة اعتداء القرصنة على ميناء الإسكندرية في الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك، وعلى المعاناة التي نجمت عن تلك الحوادث وما حاق بالمدينة من خراب الذي أنتج نوعًا من العجز عن التفسير المنطقي للحدث، وعندما تصادم هذا العجز مع الرغبة في الثأر لجأ الخيال الشعبي إلى الثأر بشكل تعويضي يتوافق مع النفسية وما تعانيه أو تتطلع إليه في أمل، ووجد الخيال الشعبي الحل الذي يناسبه بغض النظر عن المنطق التاريخي.

وأهم ما تحمله حكايات السيرة هذا الشعور بالكراهية والمرارة التي علقت بالوجدان الشعبي تجاه "الآخر" من جراء فترة مليئة بانقسامات حادة بل ومتعارضة بين الشعوب على كل المستويات الإنسانية والثقافية والحضارية والدينية، تلك الانقسامات التي وصلت أحيانا إلى درجة من درجات الصدام أمام صراع القوى والمصالح، وأخذت أشكالاً وألواناً كثيرة شملت الجوانب الثقافية والحضارية، وكان أشدها خطراً الانقسامات العقائدية وما تركته من رواسب لا تزال قائمة على فكرة الصراع بين الإسلام والنصرانية عضدتها سياسة الغرب بمحاولاته في تغيير واقعنا قبل أن يغير فكرنا وتصوراتنا ثم يتهم فكرنا وتصوراتنا بالتخلف والهمجية.

فالحروب الصليبية التي ازدهرت معها العديد من السير الشعبية العربية لتأجيج مشاعر الجهاد في نفوس سامعيها على الجانب العربي والإسلامي أدت أيضًا على الجانب

الغربي – خاصة بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى – إلى سيادة مشاعر الزهو بالانتصار والاحتقار من جانب الفرنج الصليبيين تجاه المسلمين، وأدى نجاح الحملة إلى تكريس صورة سلبية للإسلام ولنبي الإسلام في أثناء السنوات الأربعين الأولى من القرن الثاني عشر كانت نتاجًا للحكايات الشعبية للمحاربين الصليبيين العائدين إلى أوربا، والمبالغات الخيالية التي حملتها "أغاني الحروب الصليبية"، وقد اخذ الأوربيون هذه الأساطير والخيال الشرير على أنها الحقيقة المطلقة. إذ إن كل ما كان أبناء الغرب الكاثوليكي يعرفونه آنذاك عن حياة نبى الإسلام عبارة عن شذرات متناثرة نقلها الكتاب الغربيون عن الكتاب البيزنطيين.

وعلى الجانب المسلم: كانت الصورة التي رسمها الخيال الشعبي عن "الآخر" تحمل قدرًا كبيرًا من التخيل العدواني، وكذلك كان الحال على الجانب الأوربي، بيد أن الرغبة في المعرفة حفزت كلا الطرفين على البحث عن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه المعرفة، وكانت الفرصة متاحة لأبناء المنطقة العربية من خلال الكيان الصليبي الذي تعرف عليه المسلمون بطريقة مباشرة على النحو الذي كشفت عنه كتابات أسامة بن منقذ[٨٠] والكتابات التاريخية التقليدية التي تناقلت محتواها، وأضافت عليها، السير الشعبية العربية التي كانت تنشد أو تروى بين الطبقات الشعبية المختلفة.

علاقة العرب بالمصريين

يخبرنا راوي السيرة عن الاضطهاد البيزنطي العنيف ضد الأقباط، موضحًا أن تلك الاضطهادات كانت السبب في مساندة الأقباط للمسلمين الفاتحين للبهنسا والصعيد: "قَالَ الرّاوِي: فلما رأى الرُّوم ذلك فروا نحو الأبواب، فتبعهم المُسلمُونَ قتلًا ونهبًا وَسلبًا وَأسرًا فقتل منهم ثلاثون ألفا في وَسط المَدينَة وَبين الأزقة...وَخرجت لهم نصارى البلد وَهم يبكون وَيقولون نَحْنُ أهل ذمتكم ونَحن تجار وَسوقة وكنا مغلوبين على أمرنا وَقتل خيارنا بسببكم فارحموا.. يرحمكم الله فأراد الأمير خالد – رَضيَ الله عَنهُ – أن يفعل بهم كما فعل بأصحابهم من القتل فمنعه الأمير غانم وبقية الأمرَاء – رَضي الله تَعَالَى عَنهُمْ – وَقَالوا : هؤلاء السوقة جماعة الذين صالحونا في العام الماضى وَقتل أهاليهم البطلوس من أجل صلحهم معنا وَهذا الأمر كذلك فعفا عنهم الأمير خالد – رضوان الله عليه. وَقَالَ لهم: بشرط أن تدلونا على من اختفى من الرُّوم الملاعين فصاروا يدلونهم على من اختفى[٨١]".

بإمعان النظر في هذه النقطة، نجد أن الحرب كانت ضد البيزنطيين من ناحية، وأن المصريين كانوا إلى جانب المسلمين من ناحية أخرى. وقد أخبرنا المؤرخ العربي المسلم عبد الرحمن بن عبد الحكم، والمؤرخ المسيحي سعيد بن البطريق، بروايات تؤكد ما ذكره راوي سيرة البَهْنَسَا في هذا الصدد وتزيد عليه. ولسنا نقصد أن نتورط في أي نمط من الكتابة التبريرية، أو الاعتذارية، حول الفتح الإسلامي لمصر، ولكننا نريد أن نوضح الحقائق التاريخية التي أشار إليها الراوي والتي تقول: إن المصريين تحت الحكم البيزنطي كانوا في أسوأ حال من النواحي السياسية والاجتماعية والدينية؛ وعاش بطريركهم طريدًا على مدى ثلاث عشرة

سنة. ثم جاء عمرو بن العاص بشعار الحرية الدينية ويطبق شعارها فيساعده المصريون لكي يتخلصوا من شرور البيزنطيين، وبفضل مساعدتهم تتم هزيمة الحامية البيزنطية والقضاء على فلولهم، ويتم تسليم حكم البلاد للمسلمين.

كان المشهد التاريخي تجسيدًا لجوهر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين على أرض مصر منذ تلك اللحظة، وعلى امتداد تاريخ مصر بعد ذلك. وكانت العلاقة بين المسلمين المصريين والمسيحيين المصريين من أهم عوامل صياغة الهوية المصرية، على امتداد أربعة عشر قرنا من الزمان. وتفسير ذلك أن تلك اللحظة التاريخية قد شهدت تعاونا بين المسلمين الذين قادهم عمرو بن العاص لفتح مصر، والأقباط الذين ساعدوا الفاتحين ضد "الآخر" البيزنطي، ثم تعين عليهم أن يصوغوا علاقة جديدة فيما بينهم. وربما ساعدتنا الوقائع التاريخية على فهم طبيعة هذه العلاقة ومدى متانتها[٨٢] والتي انعكست بوضوح في سيرة فتوح البَهْنَسَا التي أكدت أن الحرب كانت ضد "الآخر" الاحتلال البيزنطي، ولم تكن ضد المصريين، وربما كانت المساعدات والإسهامات المصرية وراء قرار قادة الفتح، وهو قرار كان في صالح مستقبل العلاقة بين الطرفين.

جدير بالذكر – على عكس المصادر التاريخية التقليدية – أن تتفق سيرة فتوح البَهْنَسَا مع سيرة الأميرة ذات الهمة في أنهما يقدمان دورًا فاعلا للعرب المتنصرة الذين انضموا إلى الجيوش البيزنطية، وشاركوا بفاعلية في الحرب ضد المسلمين، وكذلك استغلت أسماؤهم ولغتهم العربية ومظهرهم العربي في خداع المحاربين المسلمين من خلال أحداث السيرتين، وهو الأمر الذي قد يكون انعكاسًا لما قام به بنو حبيب المرتدين في الحرب ضد المسلمين في القرن العاشر الميلادي، وكانوا زهاء عشرة آلاف فارس، ووجدوا صدرًا رحبًا من السلطات البيزنطية، واستغلوا – حسب المصادر الإسلامية – معرفتهم السابقة بالعربية، وبطرق قتال العرب، وأيضًا بدروب الأرض الإسلامية، في إلحاق أشد درجات الأذى بالمسلمين، كما كاتبوا – بتشجيع السلطات البيزنطية – أقربائهم في بلاد المسلمين يحثونهم على الالتحاق بهم في بلاد الروم[٨٣]، ويذكرون لهم ما يتمتعون به من رعاية "الآخر" الروم، وهو موقف يختلف كثيرا عن موقف الأقباط المصريين المقيمون تحت الحكم البيزنطي، وإن بدا دورهم باهتا، فلا نكاد نحس بهم أو بذكرهم على مدى صفحات عديدة، ولا نلمس أي لهجة عداء ضدهم على الإطلاق كما سبق وأوضحنا.

ثقافة الآخر في سيرة البَهْنَسَا

شكل "الغير" غير المسلم في سياق وصف المعارك الحربية بين الجانبين، في ذهن راوي السيرة شيئا مذمومًا، لا يستأهل إلا الوصف بأردأ الألفاظ، خصوصًا إذا كان لدى هذا "الغير" عادات وتقاليد تخالف ما تعود عليه الراوي/المسلم وألفوه، وظهر ذلك في وصفه – على لسان أبطاله– لأعدائه من الروم وللطقوس الدينية لهم ولا تستند هذه النظرة الدونية للآخر إلى أساس مفاضلة الدين الإسلامي على غيره – باعتبار أن الدين عند الله هو الإسلام

- وإنما ترد إلى أسباب عرقية وحضارية.

وهكذا نجد أن سمة "المفاضلة" تشكل جزئية مهمة في بنية السيرة؛ التي انعكس أثرها على راوي السيرة ونظرته إلى ثقافة الغير (غير العربي أو المسلم) وفي مقابل ذلك قدم راوي السيرة وصفًا إثنوجرافيًا[٨٤] للآخر، فيصف عقائدهم وحياتهم بقوله: "وَهم يفطرون إذا صاموا يوم الأحد وَالسبت من الظهر، وَلا يتزوج الرجل منهم غير وَاحدة لا يزيد عليها، وَلا يشرب من الخمر ما يسكره. وَالسكر عندهم حرام، وَلا يدرون الغسل من الجنابة إلا الذكر، وَإن كانت عبادتهم بالسبت يأخذون القربان وَيقولون هذا لحمك وَدمك يعنون المسيح - عليه السَّلام - فإذا تفرقوا بَعْدَ ذَلكَ أخذوا القربان وَقبل بعضهم بعضاً، وَيورثون في شريعتهم لعنهم الله النساء جزئين وَالرجل جزءا وَاحدا وَليس لهم طلاق.ومن سنة الرُّوم وَالإفرنج أن لا يلبس أحد منهم خفين أحمرين فإن الملك يلبس فردا أحمر وَفردا أسود، وَكذلك كانت الصحابة - رَضيَ الله تَعالَى عَنهُمْ أجمعين - يعرفونهم في الغزوات وَلا يأكل ملكهم إلَّا على القينات وَالألحان وَالغناء، وَأكثر أكلهم الكريجات وَالمرققات وَالاسفيداجات وَلحم الخنازير، وَفيهم الطب وَالصناعات وَالحذق بالرسم حتى إن الرجل منهم يصور الصورة يظهر عليها السرور"[٨٥]، وعن طريق التعرف على قتلى الروم في المعارك يشير: " فَلَمْ يعرفوا منهُمْ وكَانَ بأيديهم صلبان"[٨٦].

وتصف السيرة الروم، ومن حارب في صفوفهم، إذ كانوا يرفعون الصلبان على مقدمة فرقهم العسكرية، وتنعتهم بصفات قاسية مثل "الملاعين، الكلاب"، ويمعن الراوي الشعبي في التنكيل برموز أعدائه أكثر من مرة، وهو يحكي ما حدث بعد هزيمتهم وقتلهم شر قتلة، وذهاب أرواحهم "للنار وبئس القرار"، ويلجأ الخيال الشعبي دائمًا إلى الحط من قيمة البطريق الكبير الذي هو رمز الكنيسة التي أمرت بشن الحرب وتنعته بالكلب. " قَالَ له:" يا كلب النصرانية وَيا أخس من غمس في ماء المعمودية "، "وَكان فارسا مكينا وكلبا لعينا قاتله الله تعالى"[٨٧].

وعلى الرغم من أن المؤرخين المسلمين يعترفون بشجاعة المقاتل المسيحي، سواء البيزنطي أو الصليبي، فإن الخيال الشعبي ينزع هذه الصفة عن جنود أعدائه، ويمعن في انتقامه منهم، ولا يعترف لهم بهذه الشجاعة إلا نادرًا، أو يجعلهم في مستوى أدنى من المسلمين في هذا المعترك. منتهى التنكيل والانتقام الخيالي، الذي يصل إلى توجيه اتهامات بالكفر والطغيان على لسان الراوي: "بولص الكلب نزيل النيران ذى الكفر وَالطغيان"، " فَلَمَّا سمع البطريق بولص اللعين الخائن"[٨٨].

ضمن الخيال الشعبي التفوق المستمر للمسلمين على الروم، وساق العديد من الحكايات الواصفة للمعارك، كي يؤكد على التفوق الإسلامي، بيد أن أهم ما تعبر عنه سيرة البَهْنَسا: تلك العداوة والكراهية التي وجدت لنفسها متنفسًا في الصفات التي خلعتها على شخوصها من الروم الأعداء، وإمعانهم في النيل منهم، سواء في صفاتهم الجسمانية أو ملامحهم الجسدية، أو من حيث خصالهم وصفاتهم الأخلاقية، ومن ناحية أخرى تجلت هذه العداوة والكراهية في السخرية من مقدسات الآخر المسيحي/البيزنطي وزعمائهم الكنسيين

الذين اتهموا بالكفر وتحريف الإنجيل والكذب على المسيح، فنصب العداء للعدو ولم يصل إلى الدين نفسه مثلما فعل ويفعل - إلى الآن - الكاثوليك في أوربا في موقفهم تجاه الإسلام[٨٩].

والمثير حقًا أن هذه التهم تتوافق تمامًا مع الأوصاف التي ألصقتها المصادر التاريخية فعلاً بالبيزنطيين أو الصليبيين؛ فقد تعاملت المصادر التاريخية مع الشخصية المعادية للمسلمين باعتبارها شخصية "كافرة"، ومن الطبيعي تماما أن تتعامل هذه المصادر مع "الروم" من منطلق عدائي، وهى في هذا تعكس المشاعر التي خلفها الصراع الإسلامي البيزنطي، ثم الصراع الإسلامي الصليبي.

وتكفير "الآخر" كان تكفيرًا سياسيًا ناجمًا عن عداوتهم، خاصة وأن القرآن الكريم يضع المسيح عليه السلام في مرتبة سامية، إذ إن على المسلم أن يعترف بنبوة المسيح كجزء من إيمانه بالإسلام، وهو ما وجدنا أصداءه في السيرة، حين خصص الراوي فصلاً عن المسيح عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام، وأفرد لمعجزات المسيح في البَهنَسَا حكايات مطولة، وهو الموقف نفسه الذي نجده في المصادر التاريخية العربية التي لم تخل من السمة الموضوعية التي افتقرت إليها المصادر اللاتينية؛ فلم ينسب المسلمون للديانة المسيحية شيئًا سلبيًا لأنهم كانوا "يعرفون" المسيحية، وكانوا يحترمون المسيح عليه السلام باعتباره نبيًا ورسولا، وليس إلهًا، كما اعترفوا بمعجزاته التي أوردها القرآن الكريم، ويبجلون السيدة مريم "أفضل نساء العالمين"؛ وإنما انصب عداؤهم على "الآخر" أي المسيحيين الكاثوليك القادمين من غرب أوربا دون سواهم، ولكن الفرنج على الجانب الآخر أنكروا الإسلام وهاجموا النبي، ونسبوا إلى الدين الإسلامي والنبي أمورًا كانت من نتاج خيالهم ولا صلة لها بالواقع.

وتتجاهل هذه النظرة السطحية حقائق تاريخ العلاقات بين المسلمين والغرب، فمن الناحية التاريخية كانت العلاقات تتسم بالشد والجذب، وتتراوح بين السلب والإيجاب، كما تحكمها التفاعلات الهادئة حينا، والتوترات العنيفة حينا آخر، وكان للسير الشعبية العربية دورها الفاعل في تسجيل هذه التفاعلات.

مجمل القول : إن الوجدان الشعبي، وهو يعيد إنتاج تاريخ الفتح الإسلامي لمصر لم يهتم كثيرًا بحقائق الحوادث والأماكن والشخصيات التاريخية والتتابع الزمنى في سياقه التاريخي الفعلي، وإنما وظف ذلك كله في خدمة هدفه الفني بمضامينه الاجتماعية / الثقافية بحيث يبرز دور العامة في إعادة تشكيل تاريخهم، وهو الدور الذي أهمله المؤرخون التقليديون لحساب الحكام. وسيرة فتوح البهنسا في حقيقة أمرها: سيرة تنير السبيل أمامنا للتعرف على المواقف الوجدانية والشعورية الحقيقية للشعب إزاء الشخصيات والأحداث التاريخية، ومن ثم فإن الدراسة لم تستهدف كشف الأبعاد التاريخية التقليدية لأبطال وأحداث وأماكن الفتح العربي لصعيد مصر، في تلك الفترة من تاريخنا، بقدر الحرص على رسم صورة عامة وتقريبية لموقف جماهير المصريين من أحداث وأماكن تلك الفترة التاريخية، وأبطاله وعلاقاتهم مع الآخر[٩٠].

الهوامـــش

1 - فاروق خورشيد: معادن الجوهر جولة في التراث، (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م)، ص ٩٦ ؛ عمرو عبد العزيز منير: مقدمة تحقيق كتاب فتوح البَهْنَسَا الغراء، القاهرة ٢٠١٢م، ص ١٩.

2 - القصتان هما: (فتوح اليمن الكبرى الشهير برأس الغول، وما جرى للإمام على الفارس الكرار والبطل المغوار كرم الله وجهه مع عدو الله رأس الغول والبطل المهول) وأيضًا سيرة (الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله تعالىٰ عنه وسيرةُ إلى الهضام بن الجحاف بن عون بن غانم الباهلي ملك الجان الملقب بمراة الموت، وقطعه الحصون السبعة حتى وصل إليه ونصره الله عليه وما جرى في ذلك من أنواع الطعن والضرب وإظهار البسالة في ميدان الحرب)، والمؤلف الذي تنسبان إليه وترويان عنه هو (أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد البكرى). ولعل الراوي أو الرواة، أرادوا أن يضفي على روايته المصداقية والجدية التي تتميز بها المؤلفات التاريخية التقليدية، بقصد التأثير على السامعين، خاصة وأن الرواة اعتادوا استخدام أسماء مؤرخين حقيقيين للإيهام بِصدق ما يُروى.

3 - قدم لنا الواقدي سيرة فتوح الشام مسجلاً بطولات أبي عبيدة بن الجِراح، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، والزبير بن العوام وغيرهم من الصحابة، ومشركًا المرأة في هذه البطولات وخصوصًا خولة بنت الأزور .

4 - البعد الثالث للدراسات التاريخية : أي التفسير النفسي والوجداني ورؤية الجماعة الإنسانية لذاتها وللكون والظواهر والأحداث من حولها . للمزيد انظر/عمرو عبد العزيز: الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين (مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠١٢م)، ص ١١.

5 - مصر غنية بحكايات البطولة الشعبية إذ نجدها أرض سيرة سيف بن ذي يزن في حروبه مع الأحباش لاسترداد كتاب النيل إنعكاسًا للصراع المصري الحبشي أيام المماليك والذي تزامن مع الحروب الصليبية كأنه قوة ضاغطة لإضعاف قوة المواجهة العربية تجاه الغرب المتستر في حروبه الاستعمارية برداء الدين وخرج بالسيف من الإنجيل ليدفع الحبشة باسم الدين ايضًا أن تشارك في هذه الحروب. وكما أن مصر كانت أرض سيرة الظاهر بيبرس لتسجل حروب الصراع المباشر بين العرب والغزاة الذين يرفعون أمام سيوفهم شعار الصليب. فدور مصر في الجهاد الإسلامي أو كفاح الحضارة الإسلامية ضد الغزاة أبرزه الوعي الشعبي في سيرتين من أهم الموروث العربي الشعبي من السير. ولكن فترة الفتح نفسها لم تحظ بما حظيت به فتوحات الشام على يد أبي عبيدة، وفتوحات فلسطين على يد عمرو بن العاص، وفتوحات العراق على يد خالد بن الوليد، وفتوحات اليمن على يد الإمام على بن إبي طالب الذي تحول فيها إلى بطل شعبي من الطراز الأول.

6 - إسحق الأموى: فتوح مصر وأعمالها (مخطوط مصور بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٠٥٨تاريخ تيمور)؛ والمخطوط قيد التحقيق من الكاتب.

7 - بَلْهِيبُ : بالفتح ثم السكون، وكسر الهاء، وياء ساكنة، وباء موحدة: من قرى مصر، كان عمرو بن العاص حيث قدم مصر لفتحها صالح أهل بلهيب على الخراج والجزية وتوجه إلى الإسكندرية، فكان أهل مصر أعوانا له على أهل الإسكندرية إلا أهل بلهيب وخيس وسلطيس وقرطسا وسخا، فإنهم أعانوا الروم على المسلمين، فلما فتح عمرو الإسكندرية سبى أهل هذه القرى وحملهم إلى المدينة وغيرها، فردّهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى قراهم وصيّرهم وجميع القفط على ذمة. انظر: ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي) : معجم البلدان (ط٢، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م)، ١/٤٩٢.

8 - للمزيد راجع / بتلر : فتح العرب لمصر، (ترجمة محمد فريد أبو حديد، ط ٢، لجنة التأليف، القاهرة ١٩٤٦م)، ص ٢٨٨-٢٤٠.

9 - فاروق خورشيد: مرجع سابق، ص ٩٥؛ عمرو عبد العزيز مقدمة تحقيق فتوح البَهْنَسَا، ٣٢، ٣٣.

10 - ومن هنا تبرز أهمية اعتماد المؤرخ على "الموروث الشعبي" إلى جانب مصادره التقليدية؛ ذلك أن المزاوجة بين هذين النوعين من المصادر يساعد المؤرخ على استيعاب الظاهرة التاريخية ورسم صورة كلية لها .للمزيد انظر /قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور "عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٨م"، ص٤٤.

11 - إلى الآن ينظر الكثير منا إلى الجانب المسيحي باعتباره كتله واحدة من ناحية، وعلى الجانب المقابل ينظرون إلى الجانب المسلم باعتباره كتلة واحدة من ناحية وعلى الجانب المقابل ينظرون إلى العالم المسلم باعتباره كتلة صماء بلا تفاصيل من ناحية أخرى قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ١٥٠.

12 - البَهْنَسَا كانت مشهورة بكنائسها وأديارها العديدة في العصر البيزنطي، وكانت أوكسيرنخوس مركزًا دينيًا مهمًا وقبل دخول اليونانيين لمصر كانت المدينة قائمة وكاملة لموقعها الاستراتيجي؛ لأنها تقع على أقصر الطرق المؤدية من وادي النيل إلى الواحة من الشمال إلى واحة الفيوم. وفي أسطورة حورس في إدفو كانت أوكسيرينخوس مسرحاً لمعركة بين ست وحورس، حيث فقد ست ساقه. واليونانيون الذين أطلقوا اسم أوكسيرنخوس على المدينة والإقليم الذي يحمل نفس الاسم حسب نوع من السمك المدبب الأنف. كانت موضعاً حصيناً سميك الأسوار في بداية العهد الإسلامي، ويبدو أن الحامية البيزنطية إلى جانب الأقباط ومن حضر من البجة والسودان لمساندتهم قد ابدوا شجاعة فائقة في الدفاع عنها، وأبدى المسلمون إصرارًا على فتح المدينة التي كانت بمثابة مفتاح الطريق إلى الصعيد كله، وظل الناس يذكرون ذلك طويلا، وكانت الأحاديث التي رواها الصحابة الذين حضروا الفتح نواة قصة فتوح البَهْنَسَا التي تنامت عبر العصور، وظلت تروى عبر العصور ومازالت تروى حتى عهد قريب. وكانت البَهْنَسَا في مبدأ الأمر قصبة كورة فنعمت بالرخاء وأطلق اسم البَهْنَسَا على عمل في عهد إعادة التنظيم الإداري الذي نفذ بناءً على أمر الوزير الفاطمي بدر الدين الجمالي في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وقد ذكر ابن دقماق في كتابه "الانتصار لواسطة عقد الأمصار" كورة البَهْنَسَا ضمن كور الوجه القبلي، والتي كان عددها اثنتين وعشرين كورة تجمعها عشرة أعمال من بينها "عمل البَهْنَسَائية انظر/ محمد رمزي : القاموس الجغرافي، ق

٢، ج ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٢١١؛ منشورات إيبارشية النمسا للأقباط الأرثوذكس: أوكسيرنخوس (البَهنَسَا) تاريخ مدينة عظيمة (ترجمة هلجا ديل وناصر فوزي، طبعة إيبارشية النمسا للأقباط، فيينا د. ت)، ص ١٥.

13 - تشترك سيرة الأميرة ذات الهمة مع سيرة فتوح البَهنَسَا في موتيف الصراع البيزنطي الإسلامي.

14 - نشرت السيرة بالقاهرة ٢٠١٢م في طبعة منقحة ومحققة تحقيقًا علميا عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الجوائز.

15 - البَهنَسَا بلدة بمركز بني مزار بمحافظة المنيا، تقع بين بحر يوسف، وسفوح التلال من سلسلة الجبال الليبية، على مسيرة ١٥ كيلو مترًا غربي بني مزار، وهي محطة للسكة الحديدية على بعد ١٩٨ كيلومترًا جنوب القاهرة، واسمها تصحيف للفظ مصري قديم "بمادا" وكانت قديما عاصمة الإقليم التاسع عشر من أقاليم الصعيد، ومركزًا لتقديس المعبود "ست".

16 - لقيت البَهنَسَا حظاً وافرًا من اهتمامات المؤرخين وكان من نتيجة ذلك أن أفاضت علينا هذه المصادر كثيرًا من الأخبار التاريخية فيما يتعلق بهذه المدينة كموقع وتاريخ، ويأتي ابن حوقل في القرن (٤هـ/١٠م) على رأس من ذكروها كموقع وتاريخ حين قال : "والفرفرون قرية ذات قصور .. وبالفرفرون والبَهنَسَا قصران لآل عبدون يليهما مساكن القلمون.. وبالبهنسة وبيخيط وبيريس قرى ظاهرة وباطنة" . انظر / ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي) : كتاب صورة الأرض، (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢م)، ص ١٤٥؛ عاصم محمد رزق عبد الرحمن : مراكز الصناعة في مصر الإسلامية من الفتح الإسلامي حتى مجئ الحملة الفرنسية (سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ٦٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩م)، ص ٢٣٨ .

17 - من التقاليد الفنية الثابتة للسير الشعبية العربية البدء بتتبع بطل السيرة في عمق التاريخ وتتبع نسبه صعودًا إلى أحد أولاد نوح عليه السلام؛ سام وحام ويافث فربطه بآدم نفسه مع الوقوف عند أهم الأحداث التي تبرز أهمية أبطال هذا النسب من جدود بطل السيرة وأصحاب القيمة في سلسلة نسبه، وهو ما يُعرف في السيرة الشعبية باسم (التأصيلية) .انظر/ فاروق خورشيد: معادن الجوهر، مرجع سابق، ص ٩٦.

18 - الواقدي (١٣٠ - ٢٠٧) أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد (الاسلمي مولاهم) الواقدي المدني - مولى بني هاشم قاضي بغداد، وكانت امه من أحفاد سائب خاثر الذي كان أول من غنى قصائد عربية في المدينة، والذي حضر والده من فارس إلى المدينة أسير حرب، ولذلك يجري في عروق الواقدي بعض الدم غير العربي، ويعد من أقدم مؤرخي الاسلام كان مولده بالمدينة واتصل ببني العباس عام ١٨٠هـ. فاستقضاه الرشيد والمأمون زمنا طويلا - صنف كتبا كثيرة عددها صاحب كتاب الفهرست منها كتاب المغازى منها كتاب في فتوح الامصار ذكره البلاذري والمسعودي وهو تأليف أخذته يد الضياع قال ابن خلكان في ترجمة الواقدي: وضعفوه في الحديث وتكلموا فيه وكذلك أبو جعفر الطبري يغلطه في مواطن كثيرة وفي أحاديث عديدة لاسيما في تاريخ الوقائع وفتوح البلدان. قال احمد بن عبد الله بن صالح: ما رأيت أحدا احفظ للحديث منه وقيل فيه هو كذاب ليس بثقة ولا يكتب حديثه. وفي الفهرست: قال محمد بن اسحق

قرأت بخط عتيق قال: خلف الواقدي بعد وفاته ستمائة قمطر كتبا كل قمطر منها حمل رجلين وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار وقبل ذلك بيع له كتب بالفي دينار قال الذهبي: مات الواقدي وهو على القضاء سنة سبع ومائتين في ذي الحجة واستقر الاجماع على وهن الواقدي. ودفن بمقابر الخيزران ببغداد في الجانب الغربي. نقلا عن / اليان سركيس: معجم المطبوعات العربية (مطبعة سركيس، القاهرة ١٩٢٨م) ؛ يوسف هوروفتس: المغازي الأولى ومؤلفوها (ترجمة حسين نصار، القاهرة ١٩٤٩م)، ص ١٠١.

19 – أحمد بن عبد الله بن محمد، أبو الحسن البكري: قصصي، قال فيه الذهبي: (واضع القصص التي لم تكن قط) ونعته بالكذاب الدجال. وقال: يقرأ له في سوق الكتبيين كتاب (ضياء الأنوار) و (رأس الغول – ط) و (شر الدهر) وكتاب (كلندجة) و (حصن الدولاب) و (الحصون السبعة وصاحبها هضام بن الحجاف وحروب الإمام عليّ معه) ولم يذكر الذهبي وفاته ولا عصره.انظر/ الزركلي الدمشقي: الأعلام (دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢م) ١/١٥٥.

20 – محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر، أبو عبد الله القرشي التلمساني، الشهير بالمقري: باحث، من الفقهاء الأدباء المتصوفين. من علماء المالكية. ولد وتعلم بتلمسان. وخرج منها مع المتوكل أبي عنان (سنة ٧٤٩ هـ) إلى مدينة فاس، فولي القضاء فيها وحمدت سيرته. وحج، ورحل في سفارة إلى الأندلس. وعاد إلى فاس، فتوفي بها ودفن بتلمسان. وهو جد المؤرخ الأديب صاحب (نفح الطيب).انظر/ الأعلام للزركلي ٣٧/٧.

21 – تحدث بتلر في كتابه (فتح العرب لمصر) عن فتح البهنسا، وأشار في كلمات معدودة إلى أن البهنسا فتحت عنوة :"حتى بلغوا _العرب_ مدينة اسمها البهنسا ففتحوها عنوة وقتلوا من وجدوا بها من رجال ونسوة ". إبراهيم كامل احمد: "فتوح البَهْنَسَا الغراء" ، كتاب من كتب المغازى الإسلامية "مجلة الفنون الشعبية عدد ٤٦ يناير– مارس ١٩٩٥ م"، ص٧٥ ؛ بتلر : فتح العرب لمصر، ص ١٦٥.

22 – الراجح أن الرواية المتعلقة بالبهنسا في فتوح الشام منسوبة إلى الواقدي في عصر متأخر إذ نجده يدخل مباشرة في الحديث عن البَهْنَسَا بخلاف التسلسل الزمني والمكاني الذي اعتمده في سياق حديثه عن بلدان الشام، فلم يذكر فتوح القاهرة الاسكندرية كتمهيد طبيعي للحديث عن فتوح الصعيد والفيوم والبهنسا.

23 – عند ياقوت: " إِرْجَنُوسُ: بالكسر ثم السكون، وفتح الجيم، وتشديد النون وفتحها، وسكون الواو، وسين مهملة: قرية بالصعيد من كورة البهنسا." وعند المقريزي " ذكر إرجنوس هذه المدينة من جملة عمل البَهْنَسَا، بها كنيسة بظاهرها، فيها بئر يقال لها بئر سيرس صغيرة، لها عيد يعمل في اليوم الخامس والعشرين من بشنس أحد شهور القبط، فيفور بها الماء، عند مضي ست ساعات من النهار حتى يطفو، ثم يعود إلى ما كان عليه، ويستدل النصارى على زيادة النيل في كل سنة، بقدر ما علا الماء من الأرض، فيزعمون أنّ الأمر في النيل وزيادته يكون موافقا لذلك" شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي : معجم البلدان (الطبعة ٢ بيروت ١٩٩٥م) ١/١٤٤ ؛ أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (دار الكتب العلمية،

بيروت ١٤١٨هـ). ٣٦٧/١/١. تفاصيل إشكالية المؤلف وما دار حوله من مناقشات راجع عمرو عبد العزيز: مقدمة تحقيق كتاب فتوح البَهْنَسَا، مرجع سابق، ص ٢٧، ٢٨، ٣٧،٢٩.

24 – ولم ترد تلك التسمية عند ياقوت الحموي في معجم البلدان (المتوفى: ٦٢٦هـ/875 م). ولا عند "محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي المعروف بالوطواط" (المتوفى ٧١٨هـ /1318م)، ولا عند المقريزي (المتوفى: ٨٤٥هـ/1441م). وإنما وردت عندهم جميعًا باسم " إرْجَنُوسَ " كما وردت في قوانين ابن مماتي، وفي تحفة الإرشاد، وفي التحفة من أعمال البهنساوية، وفي تاريخ سنة ١٢٣٦هـ /1820م "الأرجنوس"، ثم خففت في النطق باسمها الحالي، الذي وردت به من سنة ١٢٥٩هـ/1843 م. [٢٤].. والشواهد عديدة حول عدم نسبة السيرة لأي من المؤرخين السابقين وفي ظنى وتقديري أنه مجهول ؛ فالرواية نفسها تتكون من طبقات أدبية تشبه تلك الطبقات الجيولوجية بسبب أن الرواة الذين تناقلوها شفاهًا كانوا باستمرار يعدلون ويزيدون أو يحذفون من الراوية الأصلية تلبية لحاجة جمهور المستمعين، حتى تم تسجيل الرواية في أحد أشكالها على صفحات المخطوط الذي لم يلبث أن طبعت منه عدة نسخ تكشف كل منها عن صحة ما ذهبنا إليه .والشواهد عديدة فيما يتعلق بثبت الأماكن المستحدث اسمها.إضافة إلى أن المعلومات الأثرية المثبتة على شواهد أضرحة عدد من المدفونين في البَهْنَسَا والتي ورد ذكرهم في السيرة تؤكد هذا الرأي. مثال ذلك شاهد ضريح الشيخ الصالح عبدالله التكرورى الذي كانت وفاته في "السابع والعشرين من صفر سنة أربع وسبعين وستمائة انظر/محمد رمزي: القاموس الجغرافي ق٢، ج٣ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤ م)، ص ٢١٣ ؛ أحمد عبد القوي: آثار وَفنون البَهْنَسَا،(سلسلة التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٥ م)، ص ٦٤.

25 – سيرة فتوح البَهْنَسَا الغراء، مخطوط المطبع الكريمي الهند،وسنرمز له بالرمز (ك) ضمن مجموعة Million Book Project بمكتبة الإسكندرية، برقم استدعاء ٢٩٧,٦٤٨ ، الورقة ٢.

26 – عبد المنعم شميس: قصة البَهْنَسا (مجلة الفنون الشعبية، العدد الأول، القاهرة)، ص ٣٣.

27 – من الراجح في بعض الأدبيات الكنسية في مصر أن العائلة المقدسة مرت علي بقعة تسمي اباي ايسوس (بيت يسوع) شرقي البهسنا ومكانه الآن قرية صندفا – بني مزار، وقرية البَهْنَسَا الحالية تقع علي مسافة ١٧ كم غرب بني مزار، منطقة البَهْنَسَا: وهي من القرى القديمة بالصعيد ويقع بها دير الجرنوس ١٠ كم غرب أشنين النصارى وبها كنيسة باسم العذراء مريم ويوجد داخل الكنيسة بجوار الحائط الغربى بئر عميق يقول التقليد الكنسى أن العائلة المقدسة شربت منه أثناء رحلتها. للمزيد انظر/ منشورات إيبارشية النمسا للأقباط الأرثوذكس: أوكسيرنخوس (البَهْنَسَا) تاريخ مدينة عظيمة (ترجمة هلجا ديل وناصر فوزي، طبعة إيبارشية النمسا للأقباط، فيينا د. ت)، ص ١٥.

28 – [المؤمنون: ٥٠]

29 – مخطوط السيرة ورقة ٣ .

30 – السيرة، ورقة ٧ .

31 – نال اسم بطرس تبجيلاً في الوعي الشعبي العربي بنفس درجة التبجيل الذي ناله في عديد من الكنائس المتعددة إذ يعتبر أول باباوات الكنيسة الكاثوليكية وتشكل قضية أوليّة بطرس والسلطة الممنوحة له من قبل يسوع وتقدّمه على سائر التلاميذ الاثني عشر بناءً أساسيًا في الكنيسة الكاثوليكية والصرح البابوي.

٣٢ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب (تحقيق: علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص٧٧.

33 – هو إسقاط متعمد، مقصود، ذو وظيفة محددة تشير إلى وعي القاص الشعبي بإطاره المعرفي المتمثل في اختياره إطارًا مرجعيًا "وتاريخيًا" للقائد البطل في ظل وهن وصمت الحكم الرسمي الذي لم يلب طموحه فبحث عن قائد تتجسد فيه صفات البطولة التي تلبي طموح وتطلعات الناس للدفاع عن ديار الإسلام فجاء خالد بن الوليد على هذه الصورة التي صاغها الوجدان الشعبي متجاهلًا تفاصيل الحقائق التاريخية، وابتكر الوجدان الشعبي حلاً يناسب عمرو بن العاص وجعله في دور البطل المصاحب.

34 – والكردوس (الجمع كراديس) يقابل كورتيس"اليونانية ومعناها الكتلة أو الكتيبة، وقد قسم الرومان فرق الجيش إلى كراديس فجعلوا الفرقة عشرة كراديس، والكردوس ثلاثة أقسام، وكل قسم فصيلتان عدد رجال كل منهما مئة رجل، وظل نظام الجند الروماني في حروبه على هذه الصورة إلى الفتح الإسلامي، ويسمى هذا النظام نظام "التعبية"، وتكون على خمسة أقسام، ومنها جاءت تسمية الجيش "بالخميس" وقد اقتبس خالد ابن الوليد أسلوب الكراديس قبل معركة "اليرموك" نتيجة لاستطلاعه الشخصي لقوات الروم قبل أن ينشب القتال، فعبا جيشه تعبئة لم يعرفها العرب المسلمون من قبل في ثلاثين كردوسًا، وباشر القتال بهذا الأسلوب فأحرز النصر على الروم في تلك المعركة الحاسمة المرجع السابق، ص ١٤٤ ؛ عبد الرءوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام (دار المعارف، القاهرة ١٩٦١م)، ص ٢٣٨، ٢٣٩ ؛ إبراهيم كامل احمد: "فتوح البهنسا الغراء" ، ص ١٤٤ ؛ عمرو عبد العزيز: مقدمة التحقيق، ص ٤٠.

35 – السيرة، ورقة ٦٣.

36 – الدَّبُوسُ : وَاحدُ الدَّبَابيس، للمَقامِع من حَديد وَغيره، وَقد جاءَ فِي قَوْلِ لَقيطِ بنِ زُرَارَةَ : لَوْ سَمِعُوا وَقْعَ الدَّبابِيسِ وكَأَنَّهُ مُعَرَّبُ دَبُوز . تاج العروس ٤٩/١٦ .، وَالدبوس : عصا من الخَشب أو الحديد فِي رأسها شئ كالكرة، وَهى فِى العادة للفرسان يحملونها فِى سروجهم، وَيتقاتلون بها عند الاقتراب، وَهى كلمة فارسية : دبوس Topouz وَهى دَبَسة بالعامية . انظر / معجم الألفاظ التاريخية، ص٧٣؛ كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، ص ٦٠؛ عبد الرءوف عون : الفن الحربي فِى صدر الإسلام، ص ١٥٤.

37 – جون هالدون : بيزنطة في حرب ٦٠٠ – ١٤٥٣م (ترجمة وتعليق : فتحي عبد العزيز محمد، دار ناشري، الكويت ٢٠١١م)، ص ٤٧.

38 – من ألزم الأمور للجيش المحارب، إذا نزل بأرض العدو، أن يقدم بين يديه بعض أفراده طليعة له، ليختبر أرض المعركة، ويعرف مواقع العدو، ويجمع المعلومات الممكنة عنه، ويضمن سلامة الطريق الذي يسلكه من كمين معد له أو أي عائق يعوق تقدمه، وهذا هو عمل "دوريات الاستطلاع" فِى العصور الحديثة، وقد عمل الرسول (ص) من قبل بهذا المبدأ، فكان يختار

لطلائعه "خالدًا" وأمثاله ممن عرف بالنجدة وخفة الحركة، مع اليقظة وسرعة البديهة وكانت الطلائع لا تقل عن ثلاثة: أحدهم يأتي بالخبر، واثنان يتقدمان إلى العدو، بحيث يكون بينهما مسافة ميل في تقدمهم، ليحفظ كل منهم ظهر صاحبه، وان يكون تطلعهم على المرتفعات، وألا يجروا خيلهم في الأرض التي يثور غبارها. انظر / عبد الرعوف عون: الفن الحربي، ص ٢١٨.

39 – انظر السيرة، المخطوط، ورقة ٤٦.

40 – الكمين: أتقن قادة المسلمين استخدام الكمين في حروبهم، وأول من أجاد استخدامه وعمم استخدامه هو القائد "خالد بن الوليد " وبخاصة في معركة "الوَلَجة" بالعراق، وقد أجاد استخدامه أيضًا "عمرو بن العاص " وبخاصة في معركة "عين شمس" بمصر، حيث خدع الروم بأن خبأ لهم كمينًا في جبل المقطم، وخبأ كمينًا آخر إلى يسارهم عند " أم دنين" (الأزبكية حاليًا) فلما حمي وطيس المعركة، انقض كمين الجبل على ميمنة الروم، فانحازوا يسارًا، فلقيهم كمين اليسار، فحُصروا بين قوات العرب الثلاث، فاختل نظامهم، وحلت بهم الهزيمة. للمزيد انظر / عبد الرعوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام، ص ٢٥٠.

41 – إضافة من (م)، غير مثبتة في (ك)، (ح).

42 – كمال الدين حسين : العلاقة المصرية الحبشية بين التاريخ والسيرة الشعبية دراسة حول سيرة سيف بن ذي يزن (ضمن أعمال المؤتمر الأنثربولوجي الثاني مصر وأفريقيا تحرير السيد حامد، كلية الآداب بني سويف ١٩٩٨م)، ص ٢٢٢.

43 – انظر / سعيد عبد الفتاح عاشور : الظاهر بيبرس (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م)، ص١٢٤.

44 – انظر / مخطوط السيرة الورقة ٤١.

45 – والشعار قسمان : شعار فعلي وهو الشارات للفرد والجماعة، وشعار قولي وهو ألفاظ خاصة كانوا يتصايحون بها عند القتال، ويتعارفون بها في المعارك، وتقوم مقام (كلمة السر) في الجيوش الحديثة التي يعرف الجندى أخاه . يروى ابن هشام أن شعار المهاجرين كان (يا بنى عبد الرحمن)، وشعار الخزرج (يا بنى عبد الله) وشعار الأوس (يا بنى عبيد الله) وروى "الطبرى " أن شعار خالد وأصحابه يوم عقرباء كان (يا محمداه) وذكر "الإدريسى" أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شعاره " يا كل خير " كما كان نداءه "يا خيل الله اركبى" وكان نداؤه للمتأخرين :"يا أصحاب سورة البقرة " وروى " الواقدى" أن شعار أبى عبيدة يوم اليرموك كان " أمت أمت" كما ذكر شعارًا آخر لعبس وشعارًا لليمن، وشعارًا لحمير والدارم وغيرها من القبائل المختلفة، وهكذا كان لقبائل المسلمين، للمزيد حول نداءات وشعارات الجيش الإسلامي . انظر: عبد الرؤوف عون: الفن الحربي، ص ٢٥٤، ٢٥٥

46 – السيرة ورقة ١٥١.

47 – عبد المنعم شميس: قصة البَهْنَسَا، مرجع سابق، ص ٣٧.

48 – أهناس: موضع في صعيد مصر، قال الجاحظ: ولد عيسى بن مريم صلى الله عَلَيْه وسلم بكورة أهناس، ونخلة مريم قائمة بأهناس إلى اليوم؛ انظر الحميَرِيُّ: الروض المعطار في خبر الأقطار ١ / ٦٢. يذكرها ياقوت بقوله: "أهْناس: بالفتح: اسم لموضعين بمصر أحدهما اسم كورة

فِي الصَّعِيد الأدنى يقال لقصبتها: أهناس المدينة، وأضيفت نواحيها إِلَى كورة البَهنَسَا، وأهناس هَذه قديمة أزليّة وقد خرب أكثرها، وهي على غربي النيل ليست ببعيدة عن الفسطاط، وذكر بعضهم أن المسيح، عَلَيْه السلام، ولد فِي أهناس وأن النخلة المذكورة فِي القرآن المجيد: وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيّا، موجودة هناك، وأن مريم، عليها السلام، أقامت بها إِلَى أن نشأ المسيح، عَلَيْه السلام، وسارا إِلَى الشام، وبها ثمار وزيتون، وإليها ينسب دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العَزيز بن مروان بن الحكم، خرَجَ منها على السلطان وقصد الواح وغيرها، ثم قتل سنة ١٦٩. وأهناس الصغرى فِي كورة البَهنَسَا أيضًا: قرية كبيرة. معجم البلدان ١ / ٢٨٤.

49 – انظر / سيرة فتوح البَهنَسَا الغراء (تحقيق: عمرو عبد العزيز منير، القاهرة ٢٠١٢م)، صفحات متنوعة.

50 – المنجانيق: بشكل عام عبارة عن عدد من القوائم الخشبية، يتصل أعلاها بعارضة يركب عليها عمود خشبي طويل يقال له (السهم)، يكون قصيرًا من جهة وَطويلاً من جهة أُخرَى، ويَحمل هَذَا السهم من جهته القصيرة ثقلا معاكسًا يسمى "الصندوق" إذا كانت كتلته وَاحدة و"القواعد" إذا كانت جملة أثقال، كما يحمل من جهته الطويلة "الكفة" التي تحمل المقذوف سواء كَانَ هَذَا الأخير حجرًا أوْ برميل نفط، وَيتصل "السهم" من جهته الطويلة بحبل من الشعر يسمى "نيار" يمكن شده بواسطة "دولاب"، كَانَ يطلق عَلَيْه أحيانًا اسم القوس لأنه يتصل بقوس يزيد انحناء كلما دار الدولاب فِي حالة الشد. كانت المنجانيق أنواعًا ؛ فمنها مجانيق قذف الحجارة، وَهِي أشد الآلات الحربية القديمة تأثيرًا، لا سيما فِي الحصار وَمجانيق قذف السهام: وَتسمى أيضًا بقسي الزيار، وكانت عبارة عن أقواس كبيرة ترمي سهامًا هائلة الحجم يتراوح طولها بَيْنَ ٦٠ وَ ١٨٠ سم.وكان هذا السلاح شديد النكاية بالأعداء، بعيد الثر فِي قتالهم فبحجارته تهدم الحصون والأبراج، وبقنابله تحرق الدور والمعسكرات، فهو يشبه فِي أيامنا هذه مدفعية الميدان الثقيلة، وعمله كعملها تمامًا. للمزيد انظر/ابن أرنبغا الزردكاش: الأنيق فِي المنجنيق (دراسة وَتحقيق: إحسان هندي، جامعة حلب (معهد التراث العلمي العربي١٩٨٦م)، ص٢٠؛ عبد الرءوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام، دار المعارف، ص ١٥٦.

51 – عبد المنعم شميس: مرجع سابق، ص ٣٧ ؛ عمرو عبد العزيز: مقدمة التحقيق، مرجع سابق، ص ٣٣.

52 – الحسن بن عبد الله : آثار الأول في تدبير الدول، (مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي، د.ت)، ص ١٩١.

53 – السيرة، ورقة ٩٦.

54 – السيرة، ورقة ٧١.

55 – نص الحوار بين الراهب وعمرو بن العاص راجع المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (دار الكتب العلمية، بيروت ١٨١٨هـ)، ٧١/٢.

56 – إبراهيم كامل احمد: "فتوح البَهنَسَا الغراء" ، ص ١٤٢، عمرو عبد العزيز: مقدمة تحقيق قصة البَهنَسَا، ص ٤٠.

57 -﴿أَلَمْ تَرَى كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ سورة قريش ١-٤ /١٠٦.

58 - السيرة، ورقة ٨٣.

59 - السيرة، المخطوط ك، ص ٤٩.

60 - أتاح حقل الأساطير العربية الذي ظل باستمرار حقلاً مفتوحاً أمام تقبل المروّيات والأحاديث والقصص من دون السؤال عن مصدرها لرجال دين ثانويين وإخباريين هامشيين أن يكونوا في عداد بُناة أرضية ميثولوجية عربية ذات طابع ديني مُتقبلة، ومُروَّج لها على نطاق واسع وهو ما نتلمس صداه في سيرة فتوح البَهْنَسَا. وكان لعدم القدرة على تحديد أعداد الشهداء من المسلمين أو حتى أعداد القتلى من غير المسلمين وصعوبة الوصول والإحاطة ببعض التفاصيل التاريخية حول ملوك البيزنطيين وتاريخ مصر القديم؛ جعلت الراوي في حيرة دفعته إلى الهروب من المأزق، بمقولة "والله أعلم".

61- Norris, H. T.: The futuh al – Bahnsa and its relaton to pseudo maghazi and futuh literature ,arabic siyar and Westera chanson de geste in the middle ages.

نوريس، هـ. ت: فتوح البَهْنَسَا وعلاقتها بالمغازي الزائفة وأدب الفتوح والسير العربية وأنشودة البطولة الغربية في العصور الوسطى. ؛ إبراهيم كامل احمد: "فتوح البَهْنَسَا الغراء"، ص ١٤٥.

62 - هذا الصراع استمر من ٦٢٨م/٨هـ حتى فتح القسطنطينية في ١٤٥٣م/٨٥٧هـ

63 - "الروم" تسمية أطلقها الوعي الشعبي في المنطقة العربية على البيزنطيين أولا ثم انسحبت في الآداب الشعبية على الصليبيين وظهر صداها قويًا في حكايات ألف ليلة وليلة التي أطلقت مسمى "الروم"على الصليبيين - وإن كانوا يعرفوا بالفرنج أيضًا - ولم تستطع العديد من الكتابات أن تربط بينها ظنًا منهم أن الحكايات تتناول"الروم"أما سيرة البَهْنَسَا فقد تناولت المصطلح على الآخر المسيحي دون فرق كبير بين البيزنطي و الكاثوليكي الغربي.

64 - محمد الخضيري: المناظرة العجيبة، وقائع مناظرة الإمام الباقلاني للنصارى بحضرة ملكهم (دار الوطن للنشر، الرياض ٢٠٠٠م).

65 - المخطوط ك ورقة ١٢٣.

66 - المخطوط ك ورقة ١٢١.

67 - (البولاد) كلمة أصلها فارسي وتعريبها فولاذ، والفولاذ والفالوذ ذكر الحديد، ويقال السيف الفولاذ هو المصنوع من الصلب الجيد أما الفولاذ من الفلذة، (بهاء: القِطْعَةُ من الكَبِد، و) القِطْعَة (من) المَال و (الذَهَب والفضَّة واللَّحْمِ، والأَفْلاذُ جَمْعُهَا) والفولاذُ منَ الحَدِيدِ مَعروفٌ، وَهُوَ مُصَاصُ الحديدِ المُنَقَّى مِنْ خَبَثِه.للمزيد انظر /تاج العروس ٩/٤٥٤ ؛ عبد الرَّحمن زكي: السيف في العالم الإسلامي (مطابع دار الكتاب العربي بمصر، القاهرة ١٩٥٧م)، ص ٢٣٧.

68 - السيرة / المخطوط ورقة ٢١.

69 - للمزيد عن صورة بيزنطة في الملاحم العربية راجع الدراسة الجيدة لــ الأمين أبو سعدة: بيزنطة في الملاحم العربية (ضمن كتاب دراسات في تاريخ العصور الوسطى، تحرير حاتم الطحاوي، دار عين، القاهرة ٢٠٠٣م).

70 - *قاسم عبده قاسم(دكتور)،*صورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية*بحث منشور في المجلة التاريخية المصرية، ٢٧ لسنة ١٩٨١.*

71 - قاسم عبده قاسم: المسلمون وأوربا (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠١٢م)، ص ١٤٥، ١٤٦.

72 - السيرة المخطوط، ص ١٣٩.

73 - السيرة المخطوط، ص ٤٩.

74 - السيرة المخطوط، ص ١٠٧.

75 - السيرة مخطوط ك، ص ١٩٢.

76 - السيرة مخطوط ك، ص ١٧٨.

77 - السيرة، مخطوط ك، ص ١٩، ٢٠.

78 - المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيرووت ١٩٩٧م)، ج٣، ق١، ص١١٢وما بعدها.

79 - قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى دراسة وثائقية (دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م)، ص ٩١- ٩٣.

80 - قاسم عبده: مرجع سابق، ص ١٥٤.

81 - السيرة، مخطوط ك، ورقة ١٩٣، ١٩٤.

82 - قاسم عبده قاسم: أوراق تاريخية (دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠١١م)، ص ١٥، ١٦.

83 - الأمين أبو سعدة:بيزنطة في الملاحم العربية (ضمن كتاب دراسات في تاريخ العصور الوسطى، تحرير حاتم الطحاوي، دار عين، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٣٢٠

84 - الإثنوجرافيا: كلمة معربة تعنى الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة.انظر/ حسين فهيم: قصة الانثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، عدد فبراير ١٩٨٥، ص ١٨ -١٩ - وانظر حسين فهيم: أدب الرحلات، عالم المعرفة، العدد ١٣٨، الكويت١٩٨٩م)، ص ٤٩.

85 - السيرة: مخطوط ك، ورقة ٩، ١٠.

86 - السيرة، مخطوط ك، الورقة ٨٣.

87 - المخطوط ك، ورقات متنوعة، وعلى امتداد السيرة في وصفها للعدو.

88 - السيرة، ورقة ٥٩.

89 - قاسم عبده، المرجع سابق، ص ١٥٢.

90 - للمزيد عن الرؤية الشعبية للأحداث التاريخية انظر / قاسم عبده قاسم : بين التاريخ والفولكلور، ص ١١٠، ١٢٦.

الخدع والحيل الحربية في بلاد المغرب من بداية الفتح العربي حتى نهاية فترة المهالبة (٢٢-١٧٨هـ/٦٤٢-٧٩٤م)

د. شاهندة سعيد محمود منصور (*)

المقدمـــة

يلقى هذا البحث الضوء على حقبة مهمة من تاريخ بلاد المغرب بشكل عام، خلال القرن الثانى الهجرى/السابع والثامن الميلادى، وهى المرحلة المعروفة بمرحلة الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب، ومحاولات تدعيم الوجود العربى الإسلامى، من خلال عصر الولاة وفترة حكم المهالبة، فهذه المرحلة كانت معروفة بكثرة الحروب التى دخلها العرب ضد البربر .

ومن هنا جاء اختيارى للموضوع، لدراسة الخدع الحربية التى لجأ إليها كل من العرب والبربر، على حد سواء، فى تلك المرحلة، ولذا وجب علينا قبل تناول الموضوع تاريخياً، من التعريف بالحرب وأنواعها، والخديعة ودورها فى تسيير مقدرات الأمور وتغيير مجريات الأحداث. فيقول ابن خلدون فى مقدمته: أن الحرب واقعة فى بنى البشر من بداية الخليقة، وهوأمر طبيعى لا تخلو منه أمة، والحرب على نوعين: نوع بالزحف صفوفاً، ونوع آخر بالكر والفر. ولقد اختص ابن خلدون العرب والبربر من أهل المغرب[١] بهذا النوع الأخير من الحروب، وهوقتال ليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما فى قتال الزحف، إلا إنهم مع ذلك يتخذون، فى مؤخرتهم فى القتال، صفوفاً ثابتة يتم اللجوء إليها فى المرحلة التالية فى القتال، ولكن العرب اضطروا بعد احتكاكهم بالأمم الأخرى إلى تغيير أسلوبهم فى الحروب، بعد أن كان يعتمد على الكر والفر، إلى نوع الحرب الأخرى القائمة على الزحف[٢].

ومع كل هذه التطورات فإنه من بديهيات الحروب: اللجوء إلى الخديعة والحيلة للايقاع بالعدو، فالخداع هو أظهار خلاف ما تخفيه والخديعة والخدعة، أرادته المكروه وضله من حيث لا يعلم، أما الحيلة فى اللغة فتعنى الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف، ولذلك كانت من أسباب الظفر فى الحروب، إلى جانب الأمور الظاهرة (كثرة الجيوش وجودة الأسلحة وتنظيم القوات...إلخ) أسباب خفية " وهى إما من خدع البشر وحيلهم فى الإرجاف والتشانيع التى يقع بها التخذيل"[٣]؛ وأنواع الحيل عديدة، ذكر منها ابن خلدون بعضها على سبيل المثال لا الحصر، منها اللجوء إلى المناطق المرتفعة فى القتال، وفى التكمين فى مناطق الغياض، بغرض

(*) مدرس بقسم التاريخ والآثار الإسلامية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

مفاجأة العدو وبالتالى ارباكه[٤]، وغيرها من أساليب الخديعة والحيل " إذ لكل أمة فى الغالب نوع من التدبير وصنف من الحيلة وضرب من المكيدة وجنس من اللقاء"[٥] والتى سوف اتناولها فى البحث بالتفصيل.

• الخدع والحيل الحربية فى مرحلة الفتح.

منذ أن وطئت أقدام العرب الفاتحين بلاد المغرب، أخذوا فى اللجوء إلى العديد من الحيل الحربية، وأساليب المكر والخديعة، بغية إتمام عملية الفتح، خاصة وأن العرب عمومًا كانوا حديثى العهد بكل هذه الأحداث العظيمة؛ التى طرأت عليهم فى تلك السنوات القليلة السابقة. وسوف نلاحظ من خلال سير الأحداث تدرجاً فى مستوى الحيل، فمن حيلة جاءت بالصدفة، إلى أخرى مدبر لها .

فبعد أن تم للعرب – بقيادة عمروبن العاص والمعروف بداهية العرب– فتح مصر سنة ٢٠هـ/٦٤١م [٦]، اتجهت أنظار العرب الفاتحين إلى تأمين حدود مصر الغربية، وكان ذلك رد فعل طبيعياً بعد فتحهم لمصر، حيث يعد فتح العرب للمغرب استكمالاً لحركة الفتوحات التى بدأت منذ أواخر عصر أبى بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين ، بالإضافة إلى قيمة فتح المغرب من الناحية الاستراتيجية [٧]، والتى تعد من أبجديات الفتح؛وهى مثلما كانت تحتم على العرب حماية الشام بفتح مصر ؛ فهى أيضًا تحتم عليهم حماية مصر بفتح المغرب .

ولقد نجح عمروفى فرض سيطرته على مدينة برقة، إلا أن مدينة طرابلس[٨] وقفت عقبة فى طريقه بعد أن استعصت عليهم فترة، نظرًا لقلة خبرة العرب فى حرب الحصون التى كانت تحيط بالمدينة من جميع الجهات، إلا من ناحية البحر، وامتد الحصار قرابة الشهر من دون فائدة، إلى أن لعبت الصدفة دورها، حينما خرج جماعة من المعسكر مكونة من سبعة أفراد، منهم المدلجى – صاحب الفضل فى فتح المدينة – بغرض الصيد. واشتد القيظ عليهم، الأمر الذى اضطرهم إلى التوجه إلى شاطئ البحر للترويح عن أنفسهم، ليجدوا مراكب الروم راسية على الشاطئ ولكن المفاجأة حدثت عندما لاحظ المدلجى انحسار البحر عن السور، تاركاً طريقاً يمكنهم منه التسلل إلى داخل المدينة. واتخذت هذه الجماعة الصغيرة القرار سريعاً ودخلت المدينة من هذا الممر الضيق، وهنا وبعد أن لعبت الصدفة دورها، جاء دور الحيلة والتى تمثلت فى التوجه إلى الكنيسة ودخولها، ومنها يبدأون فى التكبير "الله أكبر الله أكبر" لهدفين :

أولاً: إعلام المسلمين المحاصرين للمدينة بخبر وجود جماعة منهم بالداخل، وبالتالى الإسراع بنجدتهم.

ثانياً: إيهام الروم المتحصنين داخل المدينة؛ أن المدينة قد تم اختراقها بالفعل من قبل المسلمين المحاصرين.

وبالفعل نجحت الخدعة، وأخذ الروم بالفرار مسرعين بسفنهم، بعدما ظنوا أن المدينة قد سقطت بفعل أعداد كبيرة من العرب المحاصرين، وليس بسبعة أفراد فقط[٩].

ومثلما نجحت الخديعة فى فتح مدينة طرابلس، لجأ عمروبن العاص إلى الحيلة أيضاً لفتح مدينة سبرت، والتى اعتمد أهلها على صمود مدينة طرابلس فى وجه العرب، مطمئنين لعدم نجاح العرب فى اجتياز أسوار المدينة، الأمر الذى أشعرهم بالأمان.

فلا سبيل لوصول العرب إليهم من دون إسقاطهم لطرابلس أولاً. وكانت مثل هذه المعلومات قد بلغت عمروبن العاص أثناء حصاره لطرابلس، فلما تمكن عمرومن إسقاطها؛ سارع بإرسال قوة كبيرة آمراً إياهم بالتوجه إلى سبرت بأسرع ما يمكن، ومفاجأتها على حين غرة، قبل أن تصل أخبار سقوط طرابلس إليهم وقيامهم بإغلاق أبواب المدينة، واتخاذ أهلها وضع الدفاع[١٠].

وهكذا عمد عمروبن العاص إلى الخديعة، والتى كانت تتلخص فى أن يستغل الخيالة فترة الصباح بعدما يفتح أهلها أبوابها لتسريح ماشيتهم فى المراعى القريبة على عادتهم اليومية ، وبالفعل نجحت الخدعة وسقطت سبرت فى يد العرب[١١].

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن حركة الفتوحات توقفت فى إفريقية، نتيجة لرفض الخليفة عمر بن الخطاب لأى نوع من التوسع فيها؛ لأن هذا التوسع كان يعد فى ذلك الوقت – من وجهة نظره– نوعاً من أنواع المغامرة من قبل عمرو بن العاص، فكتب إليه ينهاه عن ذلك، ويقول: ما هى بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت[١٢]. وعاد عمرو إلى الفسطاط مقر ولايته، وظل مقيماً بها حتى استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان الخلافة ، وكان أول ما فعله عثمان أن عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر، وقلدها لعبد الله بن سعد بن أبى السرح سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م[١٣].

ولقد سار عبد الله بن سعد على نفس سياسة عمرو بن العاص، الوالى السابق، فى إرسال المسلمين فى جرائد الخيل فيصيبون من أطراف إفريقية[١٤] ويغنمون؛ فكتب عبد الله بن سعد فى ذلك إلى عثمان يخبره بقربها من حرز المسلمين، واستأذنه فى غزوها[١٥]، فكتب إليه عثمان فى سنة ٢٧هـ / ٦٤٧م[١٦] يأمره بغزوها[١٧]، وذلك بعد استشارته لكبار الصحابة، فخرج عبد الله من مصر فى عشرين ألفا[١٨].

وكان يحكم إفريقية فى هذه الفترة القائد البيزنطى جريجوريوس[١٩]، وكان نفوذه قد امتد من طرابلس إلى طنجة[٢٠]، وقد اتخذ جريجوريوس استعداداته فى التحصن بمدينة سبيطلة[٢١]، أما المسلمون فقد عسكروا فى بلدة تعرف باسم قمونية تقع على بعد بضعة أميال من سبيطلة، وبدأت مرحلة المفاوضات وعرض المسلمون شروطهم وهى: إما الإسلام أوالجزية أوالقتال، فلما فشلت المفاوضات؛ بدأ النشاط العسكرى وذلك بمعارك متفرقة بين الجانبين[٢٢]. فشل عبد الله فى حسمها، بعدما كانوا يتقاتلون طوال النهار من الصباح حتى وقت الظهيرة، ثم يعود كل من الطرفين إلى معسكراتهم، ولا يستأنفون القتال إلا فى اليوم التالى.

واستمر الحال على هذا المنوال فترة من الوقت؛ لم تنته إلا بقدوم عبد الله بن الزبير، والذى بعد اطلاعه على سير الأحداث أشار على عبد الله بن سعد بخدعة تمكنهم من إنهاء القتال لصالحهم، أو خاصة بعد أن اعتاد الروم على قتال المسلمين لهم من الصباح حتى وقت الظهيرة؛

وذلك بأن يتم تغيير الخطة بتقسيم الجيش إلى قسمين؛ القسم الأول يخرج للقتال فى الوقت المعتاد، وبعد انتهاء القتال كالعادة يهم كل من الطرفين بالعودة، إذ بالقسم الثانى من الجيش المسلم يخرج بعد أن يكون الروم قد أنهكوا من قتال النهار .

وبالفعل نجحت الخطة وانهزم الروم بعد أن قتل منهم أعداد ليست بالقليلة، وقتل جرجير نفسه فى هذه المعركة والتى عرفت باسم موقعة سبيطلة Sufetula، وغنم فيها المسلمون غنائم كثيرة. ومن هذا المنطلق أراد عبد الله أن يستغل هذا الانتصار الكبير فى الاستيلاء على قرطاجنة؛ فبث جيوشه فى البلاد فبلغت قفصة[٢٣] فسبوا وغنموا، وقد سَير عسكراً إلى حصن الأجم ، الذى احتمى به أهل البلاد، فحاصره وفتحه على الأمان[٢٤]، فلما رأى رؤساء المدن ذلك، فى إفريقية، طلبوا من عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من الذهب، على أن يكف عنهم ويعود من حيث أتى[٢٥]، ففعل وتأهب للعودة إلى مصر، دون أن يستغل هذا النصر العظيم فى إقامة قاعدة للمسلمين بإفريقية.

وهناك نوع آخر من الخدع التى اعتمدت على إيهام العدوبأنه ليس مقصده إياه، وقد تمثل هذا النوع فى حملة عقبة بن نافع، فى فترة ما قبل توليه ولاية إفريقية، تلك الحملة التى خرج فيها بأربعمائة فارس متوجهاً للصحراوات الداخلية[٢٦] عام ٤٦هـ/٦٦٦م، تمكن فيها من فتح ودان[٢٧] وفزان وجرمة وكوار[٢٨].

ولم يتبق له من المناطق المعروفة سوى مدينة خاوار الحصينة، ويبدو أن عقبة، بعد أن أنهكه طول حصار مدينة كوار، فكر فى كيفية فتح خاوار من دون مجهود؛ ولذلك فقد لجأ إلى الخدعة بعدما أظهر أنه لا نية له فى الاستيلاء على المدينة، وسار وابتعد عن المدينة مسيرة ثلاث ليال حتى يطمئن أهلها تماماً. ولم يكتف بهذا بل إنه أمر بضرب المعسكر وبأن يستريح جنده من عناء هذه الحملة، فى موضع عرف باسم ماء الفرس أوعين الفرس . وبعد أن استراح جنده تماماً قرر عقبة العودة إلى خاوار مرة أخرى، متخذاً طريقاً آخر غير الذى سلكه من قبل، وبالفعل نجحت هذه الحيلة فى فتح المدينة منهياً بذلك حملة صحراوية فى قلب البلاد استمرت نحو خمسة أشهر.

ومثلما لجأ العرب إلى الخديعة والمكر، فى بعض الأحيان لإتمام عملية الفتح، التجأ إليها البربر أيضاً، فى محاولة منهم لصد تقدم العرب فى بلاد المغرب، فلقد جاء استشهاد عقبة وأصحابه بعدما لجأ كسيلة [٢٩]إلى إحدى الحيل للقضاء على عقبة بن نافع والانتقام منه.

فمن المعروف أن كسيلة كان قد دخل إلى الإسلام على يد أبو المهاجر دينار، وبإسلام كسيلة أسلمت قبيلته، فلما قدم عقبة عرفه أبوالمهاجر بكسيلة وبمكانته " أنه من ملوك البربر، ولم يستحكم الإسلام بقلبه"[٣٠] غير أن عقبة لم يأخذ نصيحة أبى المهاجر بعين الاعتبار وأخذ فى سوء معاملته والتحقير من شأنه. وربما كان السبب فى سوء المعاملة يرجع إلى سبب شخصى، وهو مصاحبة كسيلة لأبى المهاجر عدو عقبة[٣١].

ومما لا شك فيه إن سياسة عقبة قد جانبها الصواب، وقد عبر عن ذلك ابن أبى دينار بقوله لعقبة " بئس ما صنعت! كان الرسول (ص) يتألف قلوب جبابرة العرب، وأنت تأتى إلى

رجل جبار فى قومه، فى دار عزه، قريب العهد بالشرك؛ فتهينه!"[٣٢]. وبالتأكيد كان لهذه المعاملة السيئة أسوأ الأثر فى نفس كسيلة الذى أضمر[٣٣] فى نفسه السوء والغدر بعقبة فانتهز أول فرصة وهرب من معسكر العرب بعد مراسلة الروم له، حيث نجح فى الاتصال بقبيلته من جديد وجمع نحوخمسين ألفاً، وبالفعل نجح كسيلة فى التكمين للعرب مستغلا فرصة تفرق الجنود عنه فى طريق العودة إلى القيروان؛ حيث استشهد عقبة وأبو المهاجر الذى كان عقبة قد صحبه معه مكبلا بالحديد ومن معه، فى موقعة تهودة سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م[٣٤].

وليت الأمر اقتصر على ذلك، فلقد كان لهذا العمل تداعيات، فبعد استشهاد عقبة فى موقعة، تهودة اتجهت جحافل البربر المنتصرة إلى القيروان حاضرة العرب فى المغرب.

ولقد وقع العرب فريسة للخديعة مرة أخرى، عندما واجه زهير بن قيس البلوى وأصحابه نفس مصير عقبة وأتباعه، فى طريق عودته للمشرق بعد انتهائه من حملته على بلاد المغرب إلى كمين فقد على أثره حياته هو ومن معه، ولم ينج غير واحد فقط، فى معركة عرفت باسم درنة[٣٥]. ومن المعروف أن زهير بن قيس كان قد أقام ببرقة مدة خمس سنوات(٦٤-٦٩هـ/ ٦٨٣- ٦٨٨م) فى انتظار الإمدادات التى يتمكن بها من استعادة القيروان من يد كسيلة[٣٦]، وعند خروجه من برقة سارع الروم بالاستيلاء على المدينة، فارضين سيطرتهم عليها، حيث قاموا بأعمال تخريب وسلب ونهب وسبى، راغبين فى وضع زهير بين شقى الرحى، بينهم من ناحية وبين البربر من ناحية أخرى[٣٧].

على أية حال، فبعد نجاح زهير فى القضاء على كسيلة، فى موقعة ممس، قرر العودة إلى بلاد المشرق، وعلى مقربة من برقة وصل إلى مسامعه ما فعله الروم بالمدينة وأهلها، ويبدوأن الروم عندما علموا بمقدم زهير قرروا الرحيل عن برقة، وعند بلوغ زهير المدينة كان الروم يدخلون سباياهم، هنا قرر زهير ضرورة مقاتلتهم، إلا أن قواته لم تكن تبلغ سوى سبعين رجلاً، بعدما انفض معظم رجاله عنه، فأمر أصحابه بالترجل وترك خيلهم نظراً لوعورة الأرض، إلا أن الروم تكاثروا عليهم، فلم يستطع المسلمون الرجالة الصمود واستشهدوا.

كذلك استخدم الروم الخديعة مع حسان بن النعمان، المحاصر لهم داخل قرطاجنة، بعدما أدركوا صعوبة الموقف، فطلبوا الأمان من حسان، فلما أوقف القتال سارع الروم بالفرار فى المراكب[٣٨] .ومن الحيل الحربية التى اتبعها حسان: تركه للطريق الساحلى واتخاذه لطريق صحراوى داخل البلاد [٣٩].

وبعد أن تم للعرب فتح بلاد المغرب، على يد موسى بن نصير، لم تطل فترة الاستقرار والهدوء فى البلاد لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ بلاد المغرب المضطرب، وهوما يعرف باسم عصر الولاة.

الخدع والحيل الحربية فى عصر الولاة.

وأياً ما كان الأمر، فقد تولى عبيد الله بن الحبحاب[٤٠] أمر إفريقية، فى عام ١١٦هـ/ ٧٣٤م[٤١]، والذى عهد بأقسام ولايته إلى أبنائه ومواليه، فنجده يستخلف ابنه القاسم على ولاية مصر، ويعهد إلى إسماعيل ثم عمر بن عبد الله المرادى بطنجة وما والاها من المغرب الأقصى[٤٢]، ولقد كان عبيد الله متعصباً للعرب عموماً على حساب البربر، الأمر الذى دفع بربر السوس الأقصى إلى الثورة ضده؛ فأرسل إليهم حبيب ابن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع، ونجح فى التغلب عليهم وبلغ أرض السودان[٤٣].

ولكن يبدوأن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فلقد استمر عمال عبيد الله فى إساءة السيرة مع البربر، وكان أشدهم وطأة هو عمر بن عبد الله المرادى والى طنجة الذى أساء السيرة[٤٤]. فكان فعله الذميم هذا سبباً للانتفاضات ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير من القتل[٤٥]، فعلى الرغم من اندلاع هذه الثورة فى المغرب الأقصى[٤٦] فإن نيرانها سوف تنتشر فى أرجاء المغرب كله مسببة الفوضى، عاصفة بالوالى نفسه حيث عزلوه، سنة ١٢٣هـ/٧٤١م، فقد اتجهت جموع الثوار بقيادة ميسرة المطغرى نحوطنجة، حيث تصدى له عاملها، إلا أن ميسرة نجح فى دخولها والاستيلاء عليها، وقتل عمر بن عبد الله المرادى، ثم اتجهت جموعهم بعد ذلك نحو السوس الأدنى، حيث نجح فى السيطرة عليها، ثم أخذ ميسرة يستعد للتوجه إلى القيروان، وبمجرد أن بلغت هذه الأنباء عبيد الله بن الحبحاب، أرسل فى طلب حبيب بن أبى عبيدة الذى كان قد خرج على رأس حملة إلى صقلية، لمواجهة خطر البربر، كما أسرع بإرسال جيش من خيرة العرب، بقيادة خالد بن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى، لملاقاة ميسرة.

وقد التقى الجيشان بأحواز طنجة، واقتتلا قتالاً شديداً، تقهقر على إثره ميسرة إلى طنجة[٤٧]، ويبدوأن ميسرة قد شعر بأن الدائرة سوف تدور عليه فآثر التقهقر، إلا أن جموع البربر أنكروا عليه ذلك وثاروا عليه وقتلوه، وذلك حسب مبادئ الخوارج التى تمكن الجماعة من التخلص من الإمام إذا ما انحرف عن طريقهم[٤٨]، وولوا بدلاً منه زعيماً من غلاة الصفرية؛ ألا وهوخالد بن حميد الزناتى[٤٩]. وقد حدث هذا فى الوقت الذى تقدم فيه خالد بن حبيب الفهرى نحومركز الثورة بطنجة.

وبمجرد أن أمسك خالد بن حميد الزناتى بزمام الأمور؛ عمد إلى خدعة تمكنه من إحراز التقدم على جيوش العرب الغفيرة، وتجنبه مصير سلفه ميسرة؛ فقسم قواته إلى قسمين: أحدهما فى مواجهة جيش خالد بن حبيب الفهرى، أما الآخر فالتف من خلفه؛ مما أدى إلى محاصرة جيش خالد بن حبيب، وقطع طريق العودة عليه، أوحتى تمكينه من الاتصال بجيش والده حبيب بن أبى عبيدة، المرابط عند مجاز وادى شلف في كمين محكم، فكان بينهم قتال عنيف قتل على إثره خالد بن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى وجميع من كان معه، الأمر الذى كان له أسوأ الأثر على مسامع الخلافـة[٥٠]، ولقد عرفت هذه المعركة باسم معركة الأشراف، سنة ١٢٣هـ/ ٧٤٠-٧٤١م[٥١].

ويصور لنا الرقيق القيروانى كيف تكاثرت جموع البربر على جيش خالد بن حبيب، فانهزم، إلا أنه كره أن يهزم بهذه الطريقة؛ فألقى بنفسه وأصحابه إلى الموت، فقتل خالد ومن معه حتى لم يبق من أصحابه رجل واحد(٥٢).

وما إن بلغت تلك الأخبار السيئة مسامع الخليفة هشام بن عبد الملك(١٠٥- ١٢٥هـ/ ٧٢٣- ٧٤٢م) حتى كان لها أسوأ الأثر عليه. فأرسل الخليفة إلى عبيد الله يطلب منه القدوم، فقفل عبيد الله بن الحبحاب عائداً إلى الشام، فى جمادى الأولى سنة ١٢٣هـ/ مارس ٧٤١م(٥٣).

وفى الشهر التالى، جمادى الآخرة سنة ١٢٣هـ/ مارس- إبريل ٧٤١م، سير هشام جيشاً ضخماً جعل على قيادته كلثوم بن عياض القشيرى، كما عهد إليه بولاية إفريقية(٥٤)، وقد عهد بالقيادة من بعده إلى ابن أخيه بلج بن بشر(٥٥).

وبدأت المعركة بين الجانبين باختراق بلج لصفوف البربر إيماناً منه بمدى ضعفهم إلا أن البربر لجأوا مرة أخرى إلى الحيلة عندما رأوا كثرة خيل العرب؛ وقلة خيلهم، إذ كان أكثرهم رجالة، فأخذ خالد يفكر فى كيفية إنزال العرب من على خيولهم، حتى يصير الفريقان متكافئين فى القتال فعمدوا إلى "الرمك الصعبة فطلقوا فى أذنابها القرب والأنطاع اليابسة، ثم وجهوها نحوعسكر كلثوم فنفرت الخيل ونادى الناس فنزل أكثرهم، وكان ذلك حاجة البربر لكثرتهم كما أنهم لم تكن لهم خيل تكافئ خيل المسلمين"(٥٦).

وبهذه الحيلة نجح البربر فى إنزال العرب من على خيولهم، ولم يبق من خيل بلج سوى سبعة آلاف، وأخذ بلج يحاول مرة أخرى اختراق صفوف البربر، وبالفعل نجح هذه المرة، إلا أن البربر تمكنوا من الالتفاف من خلفه وعزله عن بقية الجيش(٥٧)، واشتبك الجيشان فى معركة حاسمة تمكن البربر فيها من هزيمة العرب، وعندما رأى كلثوم مدى ما أصابهم، طلب من حبيب بن أبى عبيدة أن يتولى هوالقتال، فقال له: " إن أمير المؤمنين قد أمرنى أن أوليك القتال"، إلا أن حبيباً رفض هذا العرض معللاً ذلك بفوات الأوان(٥٨).

وهكذا لم يدرك كلثوم مدى أهمية الأخذ بالرأى والشورى إلا بعد فوات الأوان، وهكذا تمكن البربر من هزيمة العرب، بفضل كثرة عددهم وشدة استبسالهم، فيذكر لنا المؤرخون كيف أنهم برزوا عراة متجردين، ليس عليهم إلا السراويل، مقتدين فى ذلك بخوارج المشرق فحلقوا رؤوسهم(٥٩).

وهكذا تمكن البربر من هزيمة هذا الجيش العربى النظامى، كما تمكنوا من قتل كل من كلثوم بن عياض، وحبيب بن أبى عبيدة، ومغيث الرومى، وهارون القرنى، وكثير من وجوه العرب(٦٠)، وأخذوا يتبعونهم ويقتلونهم ويأسرونهم حتى فرغوا منهم، فعادوا إلى بلج بن بشر(٦١)، الذى أيقن بالهزيمة المؤكدة، فآثر التقهقر، حيث تمكن من الفرار مع من تبقى معه من رجاله من أهل الشام، إلى طنجة(٦٢).

ولكن لم يتمكن بلج وأصحابه من دخول طنجة، خاصة أنها كانت مركز الثورة فى المغرب الأقصى؛ مما اضطره إلى الاتجاه نحو سبتة(٦٣) والتحصن بها، أما البربر فقد ضربوا الحصار حول المدينة، وعندما يئسوا من إسقاطها، نظراً لحصانتها المعروفة، خاصة وأن البربر قد بعثوا إليه نحو خمسة جيوش أوستة، إلا أنهم فشلوا فى إسقاطها(٦٤)؛ وعندما يئسوا من ذلك أخذوا

يحرقون الزروع حول المدينة ويخربونها، فأقفرت الأرض لمسيرة يومين، حتى اضطروا إلى أكل الدواب والجلود، وأشرفوا على الهلاك(٦٥)، ولقد عرفت هذه المعركة باسم معركة بقدورة، وأسفرت عن هزيمة العرب هزيمة فادحة، وآل مصيرهم إلى ثلث مقتول، وثلث مهزوم، وثلث مأسور(٦٦)، وكان ذلك فى سنة ١٢٣هـ/٧٤١م.

وعلى أية حال؛ فبمجرد انتصار البربر اتجه نظر القائدين الجديدين نحوالمغرب الأوسط والأدنى، فنجدهما يعدان العدة لنزع القيروان من يد العرب، خاصة أنهما ـ كما سبق القول ـ كانا قد استغلا فرصة توجه كلثوم بن عياض مع جيوشه، واستولى عكاشة بن أيوب على مدينة قابس(٦٧)، كما استولى عبد الواحد الهوارى على مدينة سبرت(٦٨).

وكانت الخطة هى: استغلال فرصة انشغال كلثوم فى المغرب الأقصى والاستيلاء على مدينة القيروان، وذلك بعد التقاء جيش صفرية زناتة مع صفرية هوارة، إلا أن كلثوم بن عياض كان قد أرسل نجدة إلى عامل طرابلس، ونجح بالفعل فى إقصاء البربر الصفرية عن القيروان، أما عن عبد الرحمن بن عقبة الغفارى، نائب كلثوم على القيروان، فقد خرج لقتال عكاشة إلا أنه أخفق فى هجومه، وعاد إلى القيروان مرة أخرى، الأمر الذى دفع أصحابه إلى خلعه من قيادة القيروان ـ وربما يرجع فشل عبد الرحمن إلى كونه قاضياً لإفريقية(٦٩) قبل أن يعهد إليه بالإنابة عن القيروان، وإعطائها إلى سعيد بن بجرة الغسانى(٧٠) الذى اتفق مع والى طرابلس على مهاجمة عكاشة بن أيوب فى مدينة قابس التى استولى عليها عكاشة من قبل، إلا أن عكاشة لجأ إلى الخديعة ـ كعادة البربر ـ فنجده يفوت عليهما الفرصة، ويخرج من قابس متجهاً صوب القيروان مرة أخرى للسيطرة عليها، إلا أننا نجد عبد الرحمن بن عقبة الغفارى يتصدى له وينجح فى إلحاق الهزيمة بهم، وقتل عدد كبير ممن كان معه، أما عكاشة فقد لاذ بالفرار مولياً وجهه شطر الصحراء(٧١).

وبمجرد انتهاء الخطر البربرى على الوجود العربى ببلاد المغرب، استغل عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى عودة معظم جند الشام إلى مصر، وأخذ طريقه إلى إفريقية ـ حيث كان فاراً هارباً إلى الأندلس بعد هزيمة بقدورة ـ داعياً الناس إلى نفسه، فأجابوه(٧٢)، إلا إنه وبتولى عبد الرحمن بن حبيب لمقاليد الأمور؛ سوف تشهد البلاد نوعاً آخر من الثورات ذات الصبغة العربية الخالصة هذه المرة، ومن ذلك ثورة عروة بن الوليد الصدفى اليمنى(٧٣) واستيلائه على المدينة، فضلاً عن ثورة عرب الساحل، بزعامة أبى عطاف الأزدى اليمنى، الذى عسكر على مقربة من القيروان بموضع يعرف بطساس (على بعد ثلاثة أميال من القيروان)(٧٤).

الخدع والحيل الحربية فى عصر عبد الرحمن بن حبيب وآله:

على أية حال، فلقد كان على عبد الرحمن بن حبيب القضاء على تلك الثورات، حيث قرر القضاء عليها الواحدة تلو الأخرى، عامداً إلى أسلوب الحيلة والدهاء فى التخلص من أعدائه، وذلك حين قرر أن يواجههم منفردين، فأرسل أخاه إلياس فى نحو ستمائة فارس، طالباً منه

التوجه إلى أبى عطاف الذي استكمل مسيره نحوالشمال متظاهراً بزحفه نحو تونس"، فقال له: امض فى ستمائة فارس حتى تمر بعسكر ابن عطاف الأزدى، فإذا ترأت له خيلك فأظهر أنك تزهق عنه إلى تونس"(٧٥). فى نفس الوقت الذى دس فيه عبد الرحمن بن حبيب أحد جواسيسه فى ثوار عرب الساحل، والذى انحصرت مهمته فى تبليغ إلياس، حينما يطمئن عسكر ابن عطاف لمرور عسكر إلياس إلى تونس وتركهم للسلاح. قائلاً له: " امض حتى تدخل عسكر ابن عطاف، فإذا أشرف عليهم إلياس، ورأيتهم تداعوا بالسلاح فأقم فيهم، فإذا زهق إلياس عنهم ووضعوا السلاح وتمحقوا تسلل حتى تأتى إلياس فى مكان كذا وكذا، فقد أمرته أن يقف لك هناك"(٧٦).

وبالفعل صدق حدس عبد الرحمن بن حبيب، فبمجرد ظهور إلياس على عسكر أبى عطاف، حتى تصاحوا بالسلاح، ولكن بمجرد مروره شمالاً فى اتجاه تونس حتى استكانوا ووضعوا السلاح، ظناً منهم أنه ابتعد عنهم قائلين " قد دخل بين لحيى الأسد: نحن من هنا وأهل تونس من هناك، نستريح ونعلف، ثم نزحف إليه على أثره" فنزلوا عن الخيل وحطوا السلاح ثم تضجعوا(٧٧).

وهكذا صارت الأمور كما خطط لها عبد الرحمن، فانسل جاسوسه من معسكر أبى عطاف إلى معسكر إلياس، ليخبرهم بما آل إليه أمر معسكر أبى عطاف قائلاً له:" إن القوم قد أمنوك، فانسل إليهم حتى تخرج عليهم من كثب، وهم فى غفلتهم"(٧٨). فأسرع إلياس بالعودة لمهاجمتهم على حين غفلة" فتخلل إلياس الأشراف حتى خرج عليهم. فلم يدرك القوم لبس الدروع، وكان همهم أخذ السيوف، فقتلوا وقتل ابن عطاف"(٧٩)، وذلك سنة ١٣٠هـ / ٧٤٨م(٨٠).

وبمجرد بلوغ الأنباء لعبد الرحمن بن حبيب بهزيمة ابن عطاف، كتب إلى إلياس يأمره بالتوجه إلى تونس قائلاً له:" إنهم إذا رأوك ظنوك أبا عطاف فأمنوك فظفرت بهم(٨١)". ومرة أخرى عمد إلياس إلى الخديعة فى الحرب حيث قسم قواته إلى ثلاث فرق، كل منها بلغ تعداده نحومائتى فارس، الفرقة الأولى اتخذت طريق الجزيرة، والثانية على طريق باجة، وأما إلياس فاتخذ طريق القيروان، وذلك حتى تبدو قواته كإمدادات قادمة إلى تونس للانضمام إلى الثوار(٨٢)، وبالفعل نجحت حيلته فحينما قيل لعروة الصدفى عن خيل الجزيرة وباجة قال إن أهليهما جاءونا بإمدادات، ولكن حينما علم بأمر خيل القيروان(٨٣)، فطن لحيلة إلياس ولكن للأسف بعد فوات الأوان، إذ كان عروة فى الحمام، حتى إنه لم يدرك سوى ملحفة يتنشف بها، وسارع إلى ركوب فرسه عرياناً من دون سرج ليلوذ بالفرار(٨٤)، إلا أن إلياس نادى عليه قائلاً: يا عروة، يا فارس العرب! مثيراً فيه عصبيته، فقرر العودة مرة أخرى للقتال، على الرغم من أنه لم يكن مسلحاً، فضربه إلياس بسيفه فتلقاه بملحفته وعانقه فوقعا معاً على الأرض، وأخذ ينازعه على سيفه، حينما أدركه أحد موالى عبد الرحمن بطعنة من رمحه بظهره بين كتفه فأخرجه من صدره وقتله(٨٥).

وهكذا نجح عبد الرحمن بن حبيب، بما امتلكه من دهاء، فى التخلص من الثورات بمقتل عبد الرحمن بن حبيب، ١٣٧هـ/٧٥٥م، على يد أخيه إلياس، وفر ابنه حبيب من قصر الإمارة

متجهاً إلى تونس، واجتمع مع عمه عمران، مقرراً الأخذ بثأر أبيه عبد الرحمن من عمه إلياس، آخذاً فى حشد الموالى والأتباع من كل ناحية، وبذلك لم يكن أمام إلياس من بد سوى مواجهة الموقف، قبل تفاقم الأوضاع وخروجها عن حيز السيطرة، فأسرع بالتوجه إليهما، وخرج إليه حبيب بمصاحبة عمه عمران، ولقد كاد الطرفان أن يتقاتلا إلا أنهما قررا المصالحة(٨٦) بعد أن اتفقا على تقسيم ولاية إفريقية بينهم، فتكون تونس وصطفورة والجزيرة لعمران بن حبيب، وتكون قفصة وقسطيلية ونفزاوة لحبيب بن عبد الرحمن، وأما سائر إفريقية والمغرب فتكون لإلياس(٨٧).

وقد قبل إلياس هذه الاتفاقية، وهويضمر بداخله عدم تنفيذها، لربما وافق عليها بغرض إنهاء الموقف، حيث عمد فى حل الموقف إلى الحيلة، وهوما كان يلجأ إليه أخوه عبد الرحمن فى حل ما واجهه من أزمات؛ فرأى أن الحل الأمثل هو عدم مواجهة هذه الحشود، والتظاهر بالموافقة على هذا التقسيم حتى يفترقا، ثم يبدأ هوفى التخلص منهم الواحد تلو الآخر، فبعدما سار حبيب إلى عمله اتجه إلياس مع أخيه عمران إلى تونس وهناك ألقى القبض عليه وأرسله إلى الأندلس مع بعض أقربائه مثل: عمر بن نافع بن أبى عبيدة الفهرى، والأسود بن موسى بن عبد الرحمن بن عقبة(٨٨) ثم انصرف إلياس عنها إلى القيروان، بعد أن ترك عليها محمد بن المغيرة(٨٩) وبذلك يكون إلياس قد نجح فى التخلص من عمران، ثم بدأ فى العمل على التخلص من حبيب، بعدما نجح فى التخلص من أهم من تقوى به حبيب فبعث إليه من رغبه فى الانتقال إلى الأندلس(٩٠). ويبدو أن حبيب أدرك أنه لا قبل له بعمه إلياس بمفرده، خاصة وأنه أخذ فى تأليب الناس عليه(٩١) ومن ثم قرر ترك الأمر والانتقال إلى الأندلس. وبالفعل ركب حبيب البحر مع عمه عبد الوارث وعدد من مواليه ممن أحب(٩٢) إلا أن رياح ردتهم إلى طبرقة(٩٣)، فكتب حبيب إلى عمه بأن الرياح تعذرت عليه مما لم يمكنه معه العبور إلى الأندلس، إلا أن إلياس ارتاب فى أمره، ظناً منه أنه رجع لينازعه الأمر من جديد، فكتب إلى عامله على طبرقة سليمان بن زياد الرعينى يحذره منه، مما دفع الوالى إلى رفض نزولهم إلى البر، فثقل الأمر على أتباعه وأنصاره الذين أخذوا فى التوافد على المدينة لفك حصار مولاهم فأسروا سليمان وأنزلوا حبيب إلى البر "فاجتمع إلى حبيب موالى أبيه، فأسروا سليمان بن زياد وشدوا وثاقه وكان معسكراً يحارس حبيباً. وأخرجوا حبيباً إلى البر وأظهروا أمره"(٩٤). بعد فك حصاره اتجه حبيب ومن معه من موالى من طبرقة جنوباً باتجاه الأربس هكذا كان على إلياس الدخول فى حلقة جديدة من الصراع من أجل الحفاظ على ما نجح فى الحصول عليه، فاستخلف على القيروان محمد بن خالد القرشى.

وخرج لملاقاة حبيب الذى استغل خروج إلياس من القيروان، فعندما التقى الطرفان حدثت بعض المناوشات، التى استمرت حتى المساء، ولم تحسم لصالح أى منهما، فقرر حبيب إنهاء هذا الموقف من دون قتال، ربما لأنه شعر بعدم تكافؤ الجانبين، فعمد إلى الخديعة وذلك بإشعال النيران فى معسكره، ليوهم عمه إلياس بأنه ما زال مقيماً بمعسكره، فى الوقت الذى اتجه فيه إلى القيروان " فلما أمسى حبيب، أوقد النيران ليظن الناس أنه مقيم، ثم سرى، فأصبح بجلولاء، ثم نفذ إلى القيروان"(٩٥).

وهكذا نجحت خدعة حبيب الذى دخل القيروان، بعد أن هزم محمد بن خالد نائب إلياس على القيروان، ثم عمد إلى السجن فكسر بابه، وأخرج منه أخاه سلام بن عبد الرحمن بن حبيب ومن كان به من صنائع أبيه ومواليهم، وأما إلياس فبمجرد إدراكه لحيلة حبيب أسرع وراءه إلى القيروان، وليت الأمر اقتصر على ذلك، إلا أن قواد إلياس أخذوا فى التخلى عنه "وفسد عليه أكثر من معه. وخرج فى جمع عظيم، فكان على ميمنة إلياس عمر بن عثمان الفهرى، وعلى ميسرته أبوشريك الجزرى؛ فخذلا إلياس، ومضيا عنه"(٩٦) الأمر الذى زاد من موقف إلياس سوءاً.

• الخدع والحيل الحربية فى عصر المهالبة.

وما أن بلغت هذه الأخبار الخليفة أبا جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/٧٥٤ ـ ٧٧٥م) حتى أرسل عمر بن حفص والياً على القيروان، فقدم فى صفر سنة ١٥١هـ / مارس ٧٦٨م، ونجح بالفعل فى تهيئة الأمور، مما دفع الخليفة إلى تحريضه على استعادة السيطرة على منطقة المغرب الأوسط، والاستيلاء على مدينة طبنة عاصمة إقليم الزاب، وتحصينها حتى تكون مركزاً لهم فى عملياتهم القادمة على المغربين الأوسط والأقصى(٩٧).

وهنا مع تطور الأحداث؛ نجد أن خوارج البربر من الإباضية والصفرية أخذوا يتجمعون ويتوجهون نحوالزاب(٩٨)، ومن بينهم أبوقرة الصفرى الذى جاء فى نحوأربعين ألف مقاتل، بالإضافة إلى مجموعات الخوارج الهائلة التى احتشدت بالقرب من قوات أبى قرة، لتكون فى مساعدته إذا ما احتاج الأمر لمساعدتهم فى قتال الجيش العباسى.

ولكن مع تضخم أعداد البربر التى تجمعت بالقرب من طبنة؛ وجد عمر بن حفص أنه من الأفضل البقاء داخل المدينة مع عسكره من العرب، الذى لم يكن ليزيد عن خمسة عشر ألفاً، وكان ذلك فى سنة (١٥٣هـ/ ٧٧٠م)(٩٩). فأشار عليه أصحابه بأن يأخذ بالحيلة، فعمد إلى الأموال، خاصة وأن البلاد كانت قد تعرضت لكثير من المجاعات والقحط، وكان ذلك من من أسباب تقبلهم لمبادئ الخوارج، فوجه رسله إلى أبى قرة يعرضون عليه ستين ألف درهم، ولباساً كثيراً، حتى ينصرف برجاله، فرد عليهم بقوله:" بعد أن سلم على بالخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا"، ورفض أبوقرة الاستجابة له خاصة أنه كان قد بايعه بالإمامة(١٠٠).

فما كان من عمر بن حفص إلا أن لجأ إلى أخ لأبى قرة فدفع له حوالى أربعة آلاف درهم، وبعض الثياب، على أن يصرف أخاه ومن معه من الصفرية إلى بلادهم، وبالفعل أخذ أخوأبى قرة فى إثناء الصفرية عن محاصرة العرب، ولم يعلم أبوقرة حتى انصرف عنه أكثر العسكر، فلم يجد بداً من اتباعهم(١٠١).

أضف إلى تلك الحيل الحربية السابقة؛ حيلة أخرى كان يلجأ إليها قادة الجيوش، وهى تتمثل فى التخلص من قائد المعسكر المضاد، وبالتالى تصيب جنوده حالة من الفوضى تنتهى بفض هذه الحشود من دون قتال؛ وهوما لجأ إليه عبد الله بن الجارود للتخلص من خصمه محمد بن الفارسى؛ على الرغم مما كان معروفاً من أن ابن الجارود، وابن الفارسى، كانوا شركاء فى التمرد والثورة التى اجتاحت بلاد تونس ضد واليها المغيرة(١٠٢).

وإن كان محمد بن الفارسى هو العقل المدبر الفعلى لهذه الثورة، فنجح بالمكائد والحيل فى التخلص من خصومه " وكذلك نحن وآل المهلب لا راحة لنا فيهم إلا بقتلهم أو إخراجهم بالمكائد والحيل"(١٠٣).

إن تطور الوضع بهذا الشكل كان يستدعى تدخلاً من الخلافة، لحل هذا الوضع المتفاقم بإفريقية، وخاصة بعد نجاح الثوار فى دخول القيروان(١٠٤). وسوف نلاحظ هنا أن الخلافة العباسية اعتمدت، فى حل ما واجهها من مشكلات بالمغرب، على أسلوب الحل الدبلوماسى بين الأطراف المتنازعة، وذلك بإرسال مبعوث من قبلها يحاول إقرار الأوضاع بالبلاد. ولقد وقع اختيار الخليفة الرشيد على يقطين بن موسى لما قدمه للدولة من خدمات جليلة، وكبر سنه، ولما يتمتع به من مكانة عند الجند الخراسانى(١٠٥)، طالباً منه حل الموقف سلمياً، مع إخراج ابن الجارود من البلاد (١٠٦) كما أرسل معه المهلب بن رافع، ثم وجه بعد ذلك منصور بن زياد، ومعه هرثمة بن أعين، يعهد بولاية المغرب(١٠٧). والذى ظل مقيماً ببرقة، بينما توجه يقطين إلى القيروان لمقابلة عبدوية والتفاوض معه، ولم ينكر عبدوية الطاعة للرشيد، وكذلك الموافقة على تعيينه لهرثمة بن أعين والياً على البلاد، ولكنه تحجج ليقطين ببعد هرثمة عن القيروان بإقامته ببرقة فى نفس الوقت الذى يوجد فيه العلاء بن سعيد على مشارف القيروان على رأس البربر، ففى حالة خروجه منها سارع العلاء بدخولها مع البربر الذين سرعان ما سوف يتخلصون من العلاء واضعين بذلك نهاية للحكم العربى بالبلاد(١٠٨). وكان الرأى عند عبدوية هو الخروج للقاء العلاء فإما تمكن منه العلاء، وإما ظفر هو به، وفى تلك الحالة سوف يسلم عبدوية السلطة لهرثمة بنفسه ويخرج هو بعد ذلك إلى الخليفة(١٠٩).

ويبدو أن يقطين لم يرق له ما لاقاه من قبل عبدوية، بعدما شعر فيه من مماطلة، فقرر اللجوء للرجل الثانى للثورة، والعقل المدبر، محمد بن يزيد الفارسى. ويذكر الرقيق كيف أن يقطين استوثق من ابن الفارسى بعدم كشف ما بينهما، حتى فى حالة رفضه لعرضه، وبالفعل استمع لعرضه الذى يتلخص فى جعله على قيادة ألف فارس، ومنحه صلة وإقطاعاً فى أى المواضع شاء ذلك شريطة معرفة نية ابن الجارود تجاه رغبة السلطة، فإن جاءت على غير المراد فعليه التزيين له أو الشورى عليه للخروج لقتال العلاء، وبعد ذلك تعمل على تأليب الناس ضده(١١٠).

وبالفعل نجح يقطين فى إقناع ابن الفارسى بالتخلى عن ابن الجارود الذى ذهب ضحية مكر ودهاء ابن الفارسى، بعدما أعلن الطاعة للخلافة، وسعى فى الجند الخراسانى يرغبهم فيها، ويحثهم على التخلى عن ابن الجارود، كما أخرج من فى السجون من القواد، كما راسل من كان مختفياً منهم على أن يجتمعوا عند باب أبى الربيع، وهناك خطب فيهم مذكراً إياهم بالطاعة وحذرهم من مغبة المعصية (١١١).

وعندما بلغ ابن الجارود ما كان من ابن الفارسى؛ اجتمع بكل من أبى النهار وأبى العنبر والعباس الطبقى، مستشيراً إياهم فيما يحدث " فقال لهم: إن ابن الفارسى قد خرج على القواد، وأهل القيروان معه، وقد سار إليه شبيبة والجنيد بن سيار والنضر بن حفص وغيرهم، فماذا ترون؟."(١١٢) ولقد اجتمع رأيهم على ضرورة السرعة فى القضاء على هذا التمرد الداخلى قبل

أن يستفحل أمره بالانضمام إلى قوات العلاء[١١٣]، ولقد استحسن ابن الجارود رأيهم، كما لجأ إلى الحيلة أيضاً للانتقام منه " فقال ابن الجارود: أصبتما، ولأحتالن عليه بحيلة تحمدان رأيى فيها، إن شاء الله"[١١٤].

على أية حال، فحينما التقى الجمعان نادى ابن الجارود على ابن الفارسى طالباً منه الدنومنه للتحدث قليلاً، وليس على مرأى ومسمع من الجميع، ووافق ابن الفارسى على هذا المطلب، بعدما رأى أنه ليس هناك خطر عليه من ذلك " فقال: على أن أخرج فأكون قريباً منه، فما فى يده قناة يعالجنى بها، ولا قوس يرمينى عنها، فخرج إليه"[١١٥]، ولم يكن ابن الجارود يطلب أكثر من ذلك فقد اتفق مع رجل من أصحابه يقال له طالب؛ على أنه حينما يخرج إليه ابن الفارسى ويبدأ فى الكلام معه، متظاهراً بمعاتبته طالباً منه العودة إلى الطاعة، يخرج هومن بين العسكر كأنه يريد أن يغير موقعه، ثم الدنومنه واقتله، وجاء وقت التنفيذ ونجحت الحيلة، وقتل ابن الفارسي بطعنة فى القلب، وأصابت قواته حالة من الهرج والمرج، فروا على إثرها من أرض المعركة، كما قتل قائدهم شبيبة بن حسان[١١٦].



الخاتمـــة

الحرب خدعة حديث لرسول الله الكريم ، ولربما كانت هذه الخدعة أوالحيلة هى الطريقة التى سعى إليها الجميع، والتى عن طريقها يمكن التخلص من الأعداء دون الدخول فى مواجهة مباشرة، وبأقل خسائر ممكنة، لكن الظروف المحيطة، والذكاء والدهاء، لعب دوره فى إنجاح الحيلة والتى اعتمدت فى كثير من الأحيان على عنصر المفاجأة.

ولكن من خلال تتابع الأحداث فى بلاد المغرب؛ يمكننا القول بأن الحيلة عادة ما كان يلجأ إليها الجانب الأضعف، فى محاولة منه لقلب الموازين وتغيير سير الأحداث، مثلما فعل خالد بن حميد الزناتى الذى لجأ إلى الحيلة لإنزال العرب من على خيولهم حتى يتكافأ الجانبان، كما لجأ إليها البعض لتكفيه مؤنة القتال، وذلك عن طريق بذل الأموال، كالحيلة التى لجأ إليها عمر بن حفص لإثناء أتباع أبى قرة عنه١٥٣هـ، خاصة وأن الخلافة العباسية استعاضت عن إرسال الجيوش، فى كثير من الأحيان، بإرسال السفارات بغرض حل الأزمة بشكل سلمى، بعدما لم يكن فى مقدور الخلافة التصدى بقوة لمثل هذه الأزمات، واضعة نهاية فى العديد من الأحيان لسجال الحرب.

ومما سبق يتضح أنه: على الرغم من كثرة الحروب والمعارك التى طالت فى بلاد المغرب، سواء فى فترة الفتوحات التى امتدت لأكثر من ستين عاماً، فضلاً عن ثورات البربر والمعارك التى دارت بينهم وبين العرب، والتى يصفها أحد المؤرخين بأنها وقائع يطول ذكرها، على الرغم من ذلك فإن الحيل التى لجأ إليها كل من الطرفين لم تكن كثيرة إنما كانت محدودة . وربما يرجع السبب فى ذلك إلى قلة ما ورد فى المصادر، والتى من كثرة الحروب، عزفت فى بعض الأحيان عن ذكر تفاصيلها .

وعلى هذا الأساس، يمكننا القول بأن الحيلة ساهمت فى تغيير مجريات الأحداث والتاريخ.



الهوامـــش

١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق على عبد الواحد وافى،الطبعة الأولى، لجنة البيان العربى، القاهرة، ١٩٥٨، ج٢، ص٦٥٣.
٢) المصدر السابق، ص٦٥٤.
٣) نفسه، ص٦٦٥.
٤) نفسه، ٦٦٥.
٥) الطرطوشى المالكى (أبى بكر محمد بن محمد الوليد الفهرى)، سراج الملوك، د.ن، د.ت، ص١٧٣.
٦) ابن عبد الحكم (أبوالقاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشى المصرى)، فتوح مصر وأخبارها ، الطبعة الثانية ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩٩، ص٨٠؛ ابن سماك العاملى، الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة ، نشر وتحقيق محمود على مكى ، مدريد، ١٩٨٧، ص٦١.
انظر ابن عذارى الذى جعلها عام ٢١هـ /٦٤٢م .
ابن عذارى المراكشى (أبوالعباس أحمد بن محمد)، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق محمد إبراهيم الكتانى وآخرين، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ج١، ص٨.
٧) Abun. Nasr,Jamil M., A History Of The Maghrib, Second Edition, Cambridge, Cambridge University Press. P. 67.
٨) كانت برقة وطرابلس ولايتين شبه مستقلتين، فقد كانت كل منهما من أوائل الولايات التى فضلت الانفصال عن الإمبراطورية البيزنطية والانضمام إلى ثورة القائد جريجوريوس.ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص١٨٣؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، الطبعة الثانية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص٥٥.
٩) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص١٧١.
١٠) المصدر السابق، ص١٧٢.
١١) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال(ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٩، ج١، ص١٤٧.
١٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٧٣؛ ابن عذارى،البيان،ج١، ص٨.
١٣) المالكى(أبوبكر عبد الله بن أبى عبد الله)، رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان، تحقيق حسين مؤنس، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥١، ج١، ص٨؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٨.
١٤) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق محمد صبيح، القاهرة، ١٩٧٤، ص٤٢؛ البلاذرى (الإمام أبوالعباس أحمد بن يحيى بن جابر)، فتوح البلدان، تحقيق وشرح عبد الله

أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص٣١٧؛ المالكى ، رياض النفوس ، ج١، ص٨؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٩.

١٥) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، ص٤٢؛ المالكى، رياض النفوس، ج١، ص٨.

١٦) الكندى(أبوعمر محمد بن يوسف الكندى المصرى) ، كتاب الولاة والقضاة، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٢؛ ابن الأبار، الحلة السيراء،تحقيق حسين مؤنس، الطبعة الأولى، الشركة العربية للطباعة والنشر،القاهرة،١٩٦٣،الحلة، ج٢، ص٣٢١.

١٧) البلاذرى، البلدان، ص٣١٧.

١٨) المالكى، رياض النفوس، ج١، ص١٠؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٩؛ النويرى(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق حسين نصار- مراجعة عبد العزيز الأهوانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج٢٤، القاهرة، ١٩٨٣، ص١١؛ عبد الواحد ذنون، الفتح والاستقرار العربى والإسلامى فى شمال إفريقية والأندلس، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٢، ص١١٣.

١٩) النويرى، نهاية الأرب،ج٢٤، ص١١؛ ابن الأثير(عز الدين أبوالحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى)، الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٧٩، المجلد الثالث، ص ٨٩؛ حمدى عبد المنعم حسين، المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص٢٤؛حسن على حسن، تاريخ المغرب العربى. عصر الولاة، الطبعة الأولى، مكتبة الشباب، القاهرة،١٩٧٧، ص٢٣٠-٢٣١.

٢٠) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، ص٤٥؛ البلاذرى، البلدان، ص٣١٧-٣١٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٨٩؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٩؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص١١؛ حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة كلية الآداب، القاهرة، ١٩٤٧، ص٦٠؛ سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربى، ج١، ص١٠٦؛ حسن على حسن، تاريخ المغرب العربى. عصر الولاة، ص٢٣١.

٢١) سبيطلة، بضم أوله، وفتح ثانيه. مدينة من مدن إفريقية وهى كما يزعمون مدينة جرجير الملك الرومى، وبينها وبين القيروان سبعون ميلاً. ياقوت الحموى(شهاب الدين أبوعبد الله بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤، المجلد الثالث، ص١٨٧.

٢٢) حسن على حسن، المرجع السابق، ص٢٣١. انظر كذلك الطرطوشى، سراج الملوك، ص١٧٧.

٢٣) قفصة، على مبعدة ثلاثة أيام من القيروان وهى مدينة مبنية على أساطين وطيقان ورخام، وقد بنى خلالها بالصخر الجليل بأحكم عمل، ويذكر أن بانى هذا السور شنتيان غلام نمرود، داخل المدينة عينان ينبعان بنهرين خرارين يسقيان بساتينها ومزروعاتها، وفى داخل جامعها عين كبيرة مبنية بالصخر، وقفصة أكثر بلاد القيروان فستق، ومنها ينتشر بإفريقيا ويحمل إلى مصر والأندلس وسجلماسة فضلًا عن تمرها، وهى تمير القيروان بأنواع الفواكه والثمر وحولها أكثر من مائتى قصر عامرة أهله، تعرف بقصور قفصة. البكرى (أبوعبيد الله بن عبد العزيز

القرطبى)، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهوجزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، ص٤٧.

٢٤) ابن الأثير، الكامل، ج٣؛ ص٤٤؛ السلاوى(أبوالعباس أحمد بن خالد الناصرى)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصر- محمد الناصر، دار الكتاب، الدار البيضاء،١٩٥٤، ج١، ص٧٦ ؛ سالم، المغرب الإسلامى، ص٨٦.

٢٥) البلاذرى، البلدان، ص٢٦٨.

٢٦) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، ص٦٠ ـ٦٢؛ البكرى، المغرب، ص١٣.

٢٧) ودان، جزيرة فى جنوب مدينة سرت وكانت مضمومة إليها، وهى جزائر نخل متصلة بين غرب وشمال إلى ناحية البحر وتشتهر بالتمور الرطبة. ابن حوقل(أبوالقاسم بن حوقل النصيبى)، صورة الأرض، الطبعة الثانية، دار صادر، ليدن، ١٩٣٨، ص٧٠.

٢٨) كوار، يخرج منها الشب الكوارى، ولا يعد له شيء فى الطيب، يحويها بطن واد يأتى من جهة الجنوب، ماراً إلى الشمال، لا ماء به إلا أن الماء إذا حفر عليه وجد به معيناً كثيرًا. لمزيد من التفاصيل عن تلك الحملة انظر ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، ص٦٠؛ البكرى، المغرب، ص١٣؛ سعد زغلول، المغرب العربى، ج١، ص١٨٩؛نبيلة حسن محمد، تاريخ أفريقيا الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠١١، ص١٣٠،١٢٩.

٢٩) كسيلة هوزعيم قبيلة أوربة البرانسية، وهى أول قبيلة من البربر لبرانس تدخل فى الإسلام وتجدر الإشارة هنا إلى أن قبيلة أوربة كانت مسيحية . السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٧١. وينقسم البربر إلى قسمين بربر بتر، وبربر برانس، ونحن هنا بصدد بربر البرانس وهم نسبة إلى برنس بن بر. ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد بن خلدون)، العبر وديوان المبتدأ والخبرفى تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٠، ج٦، ص٨٩. على أن هناك من يقسم البربر إلى بتر، وبرانس على أساس اجتماعى، فسكان المدن يعرفون بالبرانس، أما سكان البادية فيسمون البتر. سالم، المغرب الإسلامى، ص٤٩. أما قبائل البرانس فينقسمون إلى سبع قبائل كبرى وهى (أوربة وصنهاجة وكتامة ومصمودة وأوريغة وأزداجة ولمطة وهسكورة وجزولة) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٩٠.

٣٠) ابن عذارى، البيان، ج١، ٢٨؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٠.

٣١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص١٢٧؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٧٢.

٣٢) ابن عذارى، البيان، ج١، ص٢٩؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤؛ ص٣٠؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٧٤.

٣٣) ابن الأبار، الحلة، ج٢، ص٣٢٣؛ حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص١٨٤؛ سعد زغلول، المغرب العربى، ج١، ص٧٤.

٣٤) المالكى، رياض النفوس، ج١، ص٣١؛ موسى لقبال، تاريخ المغرب الإسلامى، الطبعة الرابعة،دار هومة،الجزائر، ٢٠٠١، ص٦٣.

٣٥) فى هذه الفترة توفى يزيد بن معاوية، وخلفه ابنه معاوية الثانى، ثم انتهى الأمر إلى مروان بن الحكم، ثم توفى بعد الانتصار على عبد الله بن الزبير بقليل ليخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الذى بعث لزهير بن قيس بجيش عام ٦٩هـ/ ٦٨٨م. خليل إبراهيم السامرائى- عبد الواحد ذنون طه - ناطق صالح مطلوب، تاريخ المغرب العربى، دار الكتب للطباعة والنشر، العراق - الموصل، ١٩٨٨، ص٨٠.
٣٦) سعد زغلول، المغرب العربى، ج١، ص٢١٨.
٣٧) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص١٠٧؛ ابن عذارى البيان، ج١ص٢٩؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٧٤.
٣٨) البكرى، المغرب، ٤٩.
٣٩) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٢٤.
٤٠) عبيد الله بن الحبحاب هومولى بنى سلول وكان رئيساً نبيلاً وأميراً جليلاً بارعاً فى الفصاحة والخطابة حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها، ولقد كان عبيد الله فى أول الأمر كاتباً ثم انتهت به الأمور إلى ولاية مصر. ابن الأبار، الحلة، ج٢، ص٣٣٦؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥١؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٥٨؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٩٤؛ الباجى(أبو عبد الله الشيخ محمد الباجى المسعودى)، الخلاصة النقية فى إمراء إفريقية، الطبعة الثانية، تونس، ١٣٢٣، ص١٤.
٤١) ولقد اختلف المؤرخون حول عام توليته؛ فلقد اتفق كل من ابن الأبار وابن عذارى والنويرى والباجى على أنه تولى عام ١١٦هـ. ابن الأبار ، الحلة، ج٢، ص٣٣٦؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥١؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٥٨؛ الباجى، الخلاصة النقية، ص١٤. فى حين أورد ابن الأثير رواية ترى أنه تولى عام ١١٧هـ/ ٧٣٥م. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٩٠. أما السلاوى فلقد حدد عام ١١٤هـ / ٧٣٢م لوصوله إفريقية. السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٩٤.
٤٢) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٩٠-١٩٢؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥١؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٩٤. أما النويرى فلم يورد ولاية إسماعيل مع عمر بن عبد الله المرادى. النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٥٨.
٤٣) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، ص١٢٢؛ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام فى الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج١، ص١١٩.
٤٤) حيث تعدى الصدقات والعشر وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فىء للمسلمين. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٩١؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥١؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ٥٨؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٩٤؛ عبد الله العروى، مجمل تاريخ المغرب،المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الرابعة،١٩٩٤، ج١، ص١٤٤؛ جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامى فى العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل- مراجعة مصطفى أبوضيف أحمد، منشأة المعارف، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص٥١. وذلك ما لم يرتكبه عامل من قبله، فقد كان الولاة يخمسون من لم يستجب للإسلام. القيروانى، تاريخ

إفريقية ، ص٦٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٩١؛ A History of Maghrib –J.M. Abun–Nasr, p73

٤٥) ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥١؛ شارل أندريه جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، تونس. الجزائر. المغرب الأقصى من الفتح الإسلامى إلى سنة ١٨٣٠، تعريب محمد مزالى– البشير بن سلامة، الطبعة الثالثة، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥، ج٢، ص٣٦.

٤٦) ثورة ميسرة المطغرى اندلعت بالمغرب الأقصى ١٢٢هـ/ ٧٤٠م، حيث اتخذت من طنجة مركزاً لها، ومن الصفرية مذهباً لها. ولمزيد من التفاصيل انظر الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٦٧؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥٢؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٥٩؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٩٧.

٤٧) القيروانى،تاريخ إفريقية، ص٦٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٩٢؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥٣؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٥٩، السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٩٧.

٤٨) الشهرستانى(أبوالفتح محمد بن أبى القاسم عبد الكريم)، الملل والنحل، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٤٨، ص١٥٨.

٤٩) وهومن هتورة إحدى بطون زناتة البترية. السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٩٧ انظر كذلك القيروانى، تاريخ إفريقية، ص٦٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٩٢؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥٣؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٥٩؛ جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج٢، ص٣٧.

E. Lévi Provençal (E.), Histoire de L'Espagne Musulmane– La Conquête et l'Emirat Hispano– Umaiyade (710– 912) Tome premier, Paris, Leiden, 1950, p. 43

٥٠) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، ص١٢٣؛ القيروانى، تاريخ إفريقية، ص٦٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٩٢؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ٥٤؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٦٠؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٩٧–٩٨.

٥١) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، ص١٢٣؛ عبد الله العروى، مجمل تاريخ المغرب، ج١،ص١٤٥؛ E. Lévi Provençal, Histoire de l,Espagne Musulmane, p.43

٥٢) القيروانى، تاريخ إفريقية، ص٦٧؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥٤؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٦٠.

٥٣) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، ص١٢٤؛ الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٦٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٩٢؛ ابن الأبار، الحلة، ج٢، ص٣٣٨.

٥٤) خليفة بن خياط الليثى العصفرى أبوعمر، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمرى، الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق – بيروت،١٣٩٧هـ، ص٣٥٤؛ مجهول، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ونكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق إبراهيم الأبيارى، دار الكتاب اللبنانى– المصرى، لبنان– القاهرة، ١٩٨١، الطبعة الأولى، ص٣٦؛ عبد الله العروى، مجمل تاريخ المغرب، ج١، ص١٤٥.

٥٥) مجهول، أخبار مجموعة، ص٣٠.
٥٦) مجهول، أخبار مجموعة، ص٣٣؛ سالم، المغرب الإسلامى، ص٢٢٥. وعن أهمية دور الخيل فى المعارك انظرأحمد مختار العبادى، تاريخ العصر الإسلامى الوسيط فى الحضارة العربية الإسلامية فى الجيش والبحرية وأسلحة القتال فى العصر الإسلامى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠١٣، ص٢٨٢.
٥٧) مجهول، أخبار مجموعة، ص٣٣.
٥٨) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، ص١٣٠.
٥٩) المصدر السابق، ص٣٧؛ مجهول، أخبار مجموعة، ص٣٣؛ السلاوى، الاستقصا، ج١،ص٩٩. الخوارج: هم الذين خرجوا أى ثاروا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى حرب صفين.الشهرستانى،الملل-والنحل،ص١٥٥ ١٦٢- ١٨١، ١٨٢؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٩٥.
Abd Al Ameer, The Umayyad Caliphate (65 - 86 \ 684 -705) A Political Study, Luzac & Company, London, 1971, p. 165.
كان من أشد هذه الفرق الأزارقة، أما أقربها إلى مذهب السنة فهى فرقة الإباضية أما فرقة الصفرية فكانت تمثل وسطاً بين الفريقين. سالم، المغرب الإسلامى، ص٢١٥.
٦٠) مجهول، أخبار مجموعة، ص٣٤؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥٥؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ٦١؛ عبد الله العروى، مجمل تاريخ المغرب، ج١، ص١٤٥.
٦١) مجهول، أخبار مجموعة، ص٣٤.
٦٢) المصدر السابق، ص٣٨؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥٥؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٦١؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص٩٩.
٦٣) مجهول،أخبار مجموعة، ص٣٥؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٥٥؛ E. Levi Provencal, Histoire de l,Espagne Musulmane, p.44
٦٤) مجهول، أخبار مجموعة، ص٣٥.
٦٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.
٦٦) القيروانى،تاريخ إفريقية، هامش ص٦٥؛ انظر مجهول، أخبار مجموعة، ص٣٦، والذى جعلها فى ١٢٢هـ.
٦٧) قابس، مدينة جليلة مسورة بالصخر الجليل من بنيان الأوائل (بناها الرومان) داخل الخليج، ذات حصن حصين، غادرها أهلها لما جاءها المسلمون واتجهوا إلى قرطاج حيث سكنوها، ولها أرباض وأسواق وفنادق وجامع سرى وحمامات كثيرة، وقد أحاط بجميعها خندق كبير يجرون إليه الماء عند الحاجة فيكون أمنع شيء، ولها ثلاثة أبواب، حريرها أطيب الحرير وأرقه وليس فى عمل إفريقية حرير إلا فى قابس. البكرى، المغرب، ص١٧؛ ليون الإفريقى(الحسن بن محمد الوزان)، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجى- محمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامى، بيروت - لبنان، ١٩٨٣، ص٦٩، ٩١.
٦٨) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، ص١٢٦.

٦٩) النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٦١.
٧٠) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، ص١٣٢.
٧١) النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ٦١.
٧٢) الرقيق القيرواني(أبوالقاسم إبراهيم)، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق محمد زينهم، الطبعة الأولى، دار الأمين، ١٩٩٩م،ص٨٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣١١؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦٠؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٦٤.

٧٣) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٨٦؛ ابن الأثير، الكامل، ابن الأثير، ج٥، ص٣١١؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦٠؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٦٤.
٧٤) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٣١٢ والذى أطلق عليه اسم طيفاس. النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٦٥ والذى أطلق عليه اسم طبيناس؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦١؛ مصطفى أبوضيف أحمد، أثر القبائل العربية فى الحياة المغربية. منذ الفتح العربى إلى سقوط الدول المستقلة(٢٣-٢٩٦هـ/ ٦٤٣-٩٠٩م)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، ج١، ص١٤٨.
٧٥) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٨٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣١٢؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦١.
٧٦) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٨٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣١٢.
٧٧) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٨٩.
٧٨) المصدر السابق، ص٨٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣١٢؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦١.
٧٩) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٩٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣١٢.
٨٠) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣١٣؛ سعد زغلول، المغرب العربى،ج١، ص٣٢٤.
٨١) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣١٣.
٨٢) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٩٠.
٨٣) المصدر السابق، ص٩٠.
٨٤) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣١٣.
٨٥) المصدر السابق، ج٥، ص٣١٣.
٨٦) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٩٩؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦٨؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٦٩؛ سعد زغلول، المغرب العربى، ج١، ص٣٤١. انظر ابن الأثير والسلاوى اللذان ذهبا إلى أن الطرفين اقتتلا بالفعل قتالاً يسيراً. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣١٤؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص١٠٨؛ انظر حسن على حسن، عصر الولاة، ص١٣٣؛ عبد العزيز الثعالبى، تاريخ شمال إفريقيا، من الفتح الإسلامى إلى نهاية الدولة الأغلبية، جمع وتحقيق الدكتور أحمد بن ميلاد – محمد إدريس، تقديم ومراجعة حمادى الساحلى، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامى، بيروت – لبنان، ١٩٩٠، ص١٦٦.

٨٧) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٩٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣١٤؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦٨؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ٦٩؛ سعد زغلول، المغرب العربى، ج١، ص٣٤١.
٨٨) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٩٩؛ انظر النويرى الذى زاد عليهم ابن قطن. النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٦٩.
٨٩) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٩٩؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦٨.
٩٠) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٩٩؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦٨؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤ص٦٩؛ رضوان محمد رضوان، الفهريون فى المغرب والأندلس ودورهم السياسى والحضارى، دار نشر الثقافة، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص١٦.

٩١) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٩٩.
٩٢) المصدر السابق، ص٩٩؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦٨؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص١٠٨.
٩٣) طبرقة، مدينة بالمغرب من ناحية البر البربرى على شاطئ البحر قرب باجة وفيها آثار للأول وبنيان عجيب، وهى عامرة لورود التجار إليها، وفيها نهر كبير تدخله السفن الكبار وتخرج فى بحر طبرقة، وفى شرقى طبرقة قلاع تسمى قلاع بنزرت. الحموى، معجم البلدان، المجلد الرابع، ص١٦.
٩٤) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٠٠؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦٨- ٦٩؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٦٩؛ السلاوى، الاستقصا، ج١، ص١٠٨.
٩٥) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٠٠؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٦٩.
٩٦) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٠٠؛ انظر كذلك السلاوى، الاستقصا، ج١، ص١٠٨.
٩٧) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٢٢١.
٩٨) ابن وردان، تاريخ مملكة الأغالبة ، تحقيق محمد زينهم – محمد عزب، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٤.
٩٩) ابن عذارى، البيان، ج١، ص٧٦.
١٠٠) ابن وردان، الأغالبة، ص١٥.
١٠١) ابن عذارى، البيان، ج١، ص٧٦. وتذكر رواية أخرى أن أبا قرة ارتحل هووابنه وقومه من الصفرية دون أى حيل من قبل عمر بن حفص بعد قبوله بالرشوة. أما إسماعيل عبد الرازق فإنه يرى أمام هذا الاختلاف فى الروايات أنه يتبادر إلى الذهن أن يكون انسحاب الصفرية يرجع إلى اختلاف مع الإباضية، إذ إن تعاونهما فى المغرب لم يكن معهوداً من قبل. محمود إسماعيل عبد الرازق، الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع، الطبعة الثانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٦ ، ص٨٠. ومع وقوع الخلاف بين الإباضية والصفرية ورحيل أبى قرة عن طبنة وهى عاصمة إقليم الزاب خرج عمر بن حفص لمقاتلة الإباضية بقيادة عبد الرحمن بن رستم، حيث تمكن من هزيمته، كما نجح المهنا بن المخارق غفار الطائى فى هزيمة أبى قرة وردع الصفرية. القيروانى، تاريخ إفريقية، ص١٤٣. ثم عاد أبوقرة إلى تلمسان؛ وهكذا انتهى

أمر الصفرية حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم العامل العباسى سنة ١٥٥هـ . القيروانى، تاريخ إفريقية، ص١٥٩. انظر كذلك الطرطوشى، سراج الملوك، ص١٧٤.

١٠٢) سار المغيرة فى الجنود بغير سيرة منذ دخوله تونس، غير مبالٍ بهم واثقا من أن عمه لا يعزله، وعندما ساءتهم تلك الأفعال قرروا الكتابة للفضل بن روح نفسه يخبرونه بما صنع المغيرة فيهم، وبقبيح سيرته. الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٥١؛ ابن عذارى، البيان، ج١، ص٨٦؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٩٠.مطالبينه بإعفائه . ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٣٥؛ الثعالبى، تاريخ شمال إفريقيا، ص١٨٩. ولقد زاد الأمور تعقيداً أن الفضل نفسه أوحشهم وأساء السيرة معهم، وذلك بسبب ميلهم إلى الوالى السابق نصر بن حبيب. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٣٥؛ الثعالبى،تاريخ شمال إفريقيا، ص١٨٩. أضف إلى ذلك إنكارهم عليه استبداده برأيه دونهم .الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٥١؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٩٠؛ محمد محمد زيتون، القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٨، ص١١٨. فنجده يتثاقل عن جوابهم ولم يعزله عنهم. ابن الأبار، الحلة، ج١، ص٧٦؛ حسن حسنى عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، الطبعة الثالثة، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، ١٣٧٣هـ ، ص٥٥. ولقد كان لسوء تصرفه هذا أكبر الأثر فى تطور الأحداث وخروجها عن حيز السيطرة باندلاع ثورة الجند.

١٠٣) سوف يعمد ابن الفارسى إلى الحيلة فى المرحلة القادمة لتحقيق أهدافه ، حيلة اتسمت بالكثير من المكر والدهاء فنجده يكتب إلى كل رجل من وجوه القواد موضحاً السبب الذى دعاهم إلى الخروج على الفضل ورغبتهم فى إمارته عليهم وبيعتهم له، وذلك لما عرف عنه من حسن السيرة مع جنده، وفى نفس الوقت أعطاه الأمان بجعل هذا الأمر سراً فيما بينهم فإذا فشلت الحركة فلن يعرف أحد بهذا الاتفاق ويذكر الرقيق نص هذا الكتاب " أما بعد؛ فإنا نظرنا إلى ما صنع الفضل فى ثغر أمير المؤمنين، من تهاونه بجنده، واستئثارهم عليهم بما لم تكن الولاة تصنعه قبله، مع وعورة لفظه لهم، وتركه لكتاب أمير المؤمنين فى أرزاقهم، وسوء سيرته فيهم فيما عهد إليه، فلم يسعنا إلا الخروج عليه لنخرجه عنا، فنظرنا فلم نجد أحداً أولى بنصيحة أمير المؤمنين– لبعد صيته وعطفه على جنده – منك، فرأينا أن نجعل أنفسنا دونك، فإن ظفرنا جعلناك لنا والياً، وكتبنا إلى أمير المؤمنين نسأله ولايتك، وإن تكن الأخرى لم يعلم الفضل أن أردناك، والسلام". الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٥٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٣٥. وبالفعل كان لهذه المراسلات وما فيها من ضمانات أكبر الأثر فى تأليب المغرب كله على الفضل بعدما طمع كل قائد فى مركزه." فكان الكتاب إذا جاء أحدهم قال : وما على أن اكتفى هذا الأمر. ويطمع فيما كتب إليه به، فأفسد الكتاب جماعة". الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٥٥. ولم يكتفوا بذلك بل أخذ ابن الجارود فى مراسلة إلى الجند الخراسانى بباجة ودعوتهم إلى مشاركتهم فى الأمر فأجابوهم إلى ذلك. المصدر السابق، ص١٥٤. وهكذا أصبح الفضل فى موقف لا يحسد عليه فبعدما كان عليه مواجهة جند تونس وحدهم نجح ابن الفارسى فى توزيع جهود الفضل على أكثر من ناحية، وبذلك لم يكن أمام الفضل سوى اللجوء إلى الحل العسكرى لوضع حد لتصاعد الأمور بهذا الشكل فأرسل فى استدعاء جميع العمال إليه فيما يشبه

الاستنفار للقوى فيما عدا كل من واليى الزاب وطرابلس وهما العلاء بن سعيد وأبوعيينة المهلبى .نفسه، ص١٥٥؛ سعد زغلول، المغرب العربى، ج١، ص٣٨٩.

١٠٤) وذلك بعدما قام الجند الخراسانى ممن كانوا بداخل المدينة وهم من عرفوا باسم الأبناء على باب سالم من الداخل، وأحكموا السيطرة عليه وممن ثم فتحوه لرجال عبدوية، كما فتحوا باب أبى الربيع وبذلك دخل عبدوية وأصحابه القيروان من دون عناء يذكر.الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٥٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٣٧؛ سعد زغلول، المغرب العربى، ج١، ص٣٩١. سرعان ما وصل الثوار إلى دار الإمارة حيث أخرج الفضل وأصحابه منها على الأمان إلى قابس فى جمادى الآخرة سنة ١٧٨هـ / أكتوبر ٧٩٤م. ابن عذارى، البيان، ج١، ص٨٧. انظر كذلك ابن الأثير، الكامل، ج٦، ١٣٧؛ ابن الأبار،الحلة، ج١، ٧٨؛ ذنون، المغرب العربى، ص١٤١.

١٠٥) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٦١؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٩٣.

١٠٦) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٦١. انظر ابن الأبار، الحلة، ج١، ٨٤.

١٠٧) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٦١؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٩٣؛ ابن الخطيب(لسان الدين أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد)، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ، تحقيق أحمد مختار العبادى- محمد إبراهيم الكنانى، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤، القسم الثالث ، ص١١.

١٠٨) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٦٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٣٨؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٩٣.

١٠٩) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٦٢؛ ابن الأثير، الكامل؛ ج٦، ١٣٨؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٩٤.

١١٠) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٦٢؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ٩٤.

١١١) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٦٣؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٩٤.

١١٢) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٦٣.

١١٣) المصدر السابق، ص١٦٤؛ سعد زغلول، المغرب العربى، ج١، ص٣٩٥.

١١٤) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٦٤.

١١٥) المصدر السابق، ص١٦٤. انظر كذلك النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٩٤.

١١٦) الرقيق، تاريخ إفريقية، ص١٦٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٣٨. انظر كذلك ابن الأبار، الحلة، ج١، ص٨٤؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٩٤؛ الثعالبى، تاريخ شمال افريقيا، ص١٩٢.

النار الإغريقية بين الروم والمسلمين

أ.د. حامد زيان غانم (*)

تناول كثيرٌ من الباحثين العرب والأجانب الحديث عن النار الإغريقية[١]، من حيث خواصها وتركيبها وتاريخ صناعتها، ولكن الذي لم يتم إلقاء الضوء عليه هو كيفية انتقالها إلى المسلمين، وهل عرفها قبل الروم شعوب أخرى، ثم معرفة القدر الذي صار إليه تطور هذه النار عند المسلمين، لدرجة أنهم أصبحوا سادة البحار، وخاصة البحر المتوسط الذي كان يعرف قبل نزول المسلين إليه " ببحر الروم ". وهذا هو موضوع هذه الدراسة.

النار الإغريقية من الأسلحة البحرية الفتاكة التي شاع استعمالها في العصور الوسطى، وخاصة عند الدولة البيزنطية في أول الأمر، واحتفظ بسريتها أباطرة هذه الدولة، ولم يسمحوا لأحد أن يعرف سر صناعتها، حتى تكون حكرًا لهم[٢].

أطلق الروم[٣] على هذه النار عدة أسماء فكان من بينها : " النار البحرية "،

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب جامعة القاهرة.

(1) انظر على سبيل المثال : سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩م؛ وسام فرج: النار الأغريقية طبيعة تركيبها وأثرها في نشاط المسلمين البحري، مقال في كتاب "بيزنطة قراءة في التاريخ السياسي"، القاهرة ٢٠٠٤؛ طارق منصور : النار الأغريقية، قراءة جديدة في ضوء المصادر البيزنطية والإسلامية، مقال منشور في حولية التاريخ الإسلامي والوسيط عدد (٤) القاهرة ٢٠٠٥م؛ طارق منصور ومحاسن الوقاد : النفط استخدامه وتطوره عند المسلمين، القاهرة ٢٠٠٦م.

Haldon, J. and Byrne, M, " A possible Solution to the Problem of Greek Fire ", Byzantinische, Leipzig, 1977.

(2) قسطنطين السابع : إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. محمود سعيد عمران، بيروت ١٩٧٠م، ص٦٨.

(3) الروم هو الاسم الذي عُرف به أهل الدولة البيزنطية، فهذه الدولة هي القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، ولم نجد في أي مصدر يوناني كلمة بيزنطي، وهذا المصطلح الأخير" بيزنطي " أطلق عليهم في العصور الحديثة عندما أخذ المؤرخون المحدثون يتناولون تاريخ هذه الدولة، حتى يتم التفريق بينهم وبين أهل القسم الغربي من الإمبراطورية، وكان للروم خصائص تميزهم عن غيرهم، سواء في اللغة حيث كانوا يتحدثون اليونانية، وفي الدين حيث دانوا بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسي. وقد نعتوا في القرآن الكريم بالروم، فقد جاء في التنزيل العزيز ﴿ الم* غُلِبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[سورة الروم ١-٣].

" النار السائلة "، " النار الرومانية "(٤).

أما الذي أطلق عليها اسم النار الإغريقية Greek Fire فكان الفرنج اللاتين؛ عندما حضروا إلى الشرق في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ومطلع القرن الثاني عشر (أواخر الخامس الهجري ومطلع القرن السادس)، ولم يكن لديهم أدنى معرفة بهذا السلاح البحري الفتاك، فقد فوجئوا به عندما بدأت أساطيلهم تفد من غرب أوربا إلى الشرق، خاصة أساطيل مدينة بيزا التجارية، وأخذت سفنهم تحتك بسفن الأسطول البيزنطي، لكنها لم تستطع مقاومة سفن الأسطول البيزنطي المسلح بتلك النار، فتروى المؤرخة اليونانية آنا كومنينا Anna Comnena ابنة الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين Alexias I Comnenus (٤٧٣-٥١٢هـ/ ١٠٨١-١١١٨م) ما حدث عندما اشتبكت سفن الأسطول الذي أعده والدها الإمبراطور الكسيوس كومنين في القسطنطينية، وما انضم إليه من سفن الأقاليم البيزنطية القريبة، حيث كان معلقا في مقدمة كل سفينة رأس سبع، أو ما يشبهه من الحيوانات المتوحشة، مصنوع من البرونز، والرؤوس فاغرة أفواهها، وتتصل أنابيب بهذه الأفواه، وتنطلق منها النار السائلة " Lequid Fire "، فلم تستطع سفن بيزا الصمود أمام تلك النار. وتؤكد آنا كومنينا أن الفرنجة اللاتين (الصليبيون) لم يكن لديهم أدنى معرفة بهذا السلاح البحري، لذلك فوجئوا به، ولم يستطيعوا الصمود أمامه، فهربت سفن بيزا طلبًا للنجاة(٥).

من هنا أطلق الفرنج على ذلك السلاح الفتاك الذي تميزت به دولة الروم الإغريق اسم " النار الإغريقية Greek Fire "، لأنه سلاح انفرد به الإغريق، أهالي الإمبرطورية البيزنطية.

وفي تتبعنا لتاريخ استخدام النار في الحروب، وُجد أن ذلك لم يكن وليد العصور الوسطى فقط، فقد ذكر المؤرخ ثيوكيديدس Thecydides ما حدث عام ٤٢٤ ق.م من استخدام الرومان لهذه النار، حيث وجهوا إلى مدينة ديليوم سفينة كانت تخرج منها النيران؛ بواسطة منفاخ متصل بجزع شجرة مجوف. كما ورد في بعض المصادر وصف معركة بحرية حدثت في القرن الثالث قبل الميلاد؛ استخدم فيها براميل خشبية مملوءة بالقار والفحم، كانت توقد وتقذف على سفن الأعداء. كذلك أشارت المصادر إلى استخدام تركيبات مختلفة من النار في القرن الرابع الميلادي، حيث ادخل إليها النفط(٦).

---

(٤) قسطنطين السابع : إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص٦٨ ؛
Theophanes Confessor : The Chronicle, oxford 1997, p. 546 ;
انظر أيضًا: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٦١م، ص١٨٢.

(1) Anna Comnena : The Alexiad, London 1928, p. 292–293 ;
وانظر أيضًا : الترجمة العربية التي قام بها د. حسن حبشي، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م، ص٤٤٥-٤٤٧.

(٦) إرنل براد فورد : البحر المتوسط، ترجمة خليفة محمد التليسي، تونس ٢٠٠٩م، ص٣٥٧-٣٥٨؛
ديليوم : لم نجد تعريف لهذه الجزيرة وربما يكون المقصود بها جزيرة ديليوس إحدى الجزر

ومعنى ذلك أن استخدام النار في الحروب ووضعها على السفن لم يكن أمرًا جديدًا، ولكن الجديد بالنسبة للدولة البيزنطية: أنهم طوروا من هذه النار وأضافوا إليها تركيبات جديدة، جعلتها أكثر فتكًا.

ومن الجدير بالذكر أن المسلمين عَرفوا استخدام الحراقات، وهي السفن التي تقذف النار[٧]، منذ القرن الثاني الهجري / التاسع الميلادي، فقد أشار الطبري إلى أن الخليفة العباسي محمد الأمين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م) " أمر بعمل خمس حَراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعُقاب والحيَّة والفرس، وأنفق في عملها مالاً عظيمًا "، ويبدو أن هذا العمل كان جديدًا في نوعه في الدولة الإسلامية، مما دفع الشاعر أبو نواس إلى مدح الأمين وهو على ظهر تلك السفن[٨]، مع ملاحظة أن هذه الحراقات كانت تعمل بالنفط.

ثم شاع بعد ذلك استخدام هذه الحراقات في أنهار الدولة العباسية، فيشير ابن خلكان إلى

الواقعة في بحر إيجه، فقد شن الرومان عدة هجمات على هذه الجزر، انظر :
The oxford Dictionary of Byzantium, New York, val I, p. 601.

- المؤرخ ثيوكيديدس، هو أحد قادة أثينا العسكريين (٤٧٠-٣٩٦ ق.م)، اشترك في الحرب البليبونيزية بين أثينا وأسبرطة، ثم ترك الخدمة في الجيش ليعكف على كتابة التاريخ. انظر: سيد الناصري : الإغريق، القاهرة ١٩٩٧م، ص٣٤٣-٣٤٨؛ حامد زيان: منهج البحث التاريخي، القاهرة د.ت، ص١٥٣.

(٧) الحراقة / الحراقات : نوع من السفن الحربية، استخدمت لحمل الأسلحة النارية، وهي سفن خفيفة الحركة، ووصفها ابن مماتي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أنها كانت تعمل بمئة مجداف.
انظر : ابن مماتي : قوانين الدواوين، نشر عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٩١م، ص٣٤٠؛ انظر أيضًا : درويش النخيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤م، ص٣٢-٣٧.

(٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة د.ت، ج٨، ص٥٠٩، ديوان أبو نواس.

- أبو نواس هو أبو علي الحسن بن هانئ، من أئمة شعراء العصر العباسي، اشتهر بوصفه للخمر والنساء، اتصل بالخليفة محمد الأمين وكان من أخص جلسائه، توفى عام ٢٨٥هـ/٨٩٨م. انظر: العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي ٢٠٠٦م، ج١٤، ج٢، ص٢٩-٣١.
- من الملفت للنظر أن وصف المؤرخة آنا كومنينا للحراقات قاذفات النار الإغريقية، يقترب من وصف الحراقات التي استخدمها الخليفة الأمين في نهر دجلة، فالأولى اتخذت أشكال رؤوس الحيوانات المفترسة، والثانية على شكل الأسد والفيل، وهو ما يجعلنا نلاحظ ثمة تأثيرا متبادلا بين الجانبين، ولعل العباسيين هم الذين أخذوا ذلك عن الروم.

أن القائد والوزير طاهر بن الحسين[٩]، كانت له حراقة يركبها في نهر دجلة للنزهة والتنقل[١٠]، كذلك يذكر ابن الأثير في الأحداث التي واكبت مقتل الخليفة محمد الأمين بن هارون الرشيد (شهر المحرم عام ١٩٨هـ/ سبتمبر عام ٨١٣م) أن " الأمين حاول الهرب من بغداد في حراقة هرثمة خوفًا من طاهر بن الحسين"[١١]، وبعد مقتل الأمين حُمل ولديه موسى وعبدالله في حراقة إلى مدينة هُمينيا ثم أرسلا إلى عمهما المأمون[١٢].

وهكذا انتشرت الحراقات التي كانت تعمل بالنفط في تلك الفترة في أنهار الدولة العباسية، وكثر استخدامها في التنقل والنزهة، فيشير الشابشتي إلى أن السيدة زُبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد " اجتازت يومًا في دجلة بحراقتها "[١٣].

ومن الملاحظ أن هذه الحراقات، التي استخدمت للنزهة والتنقل في تلك الفترة، كان استخدامها قاصرًا على الخلفاء وزوجاتهم وأمراء الدولة العباسية وقوادها، وذلك لما كانت تتكلفه تلك الحراقات من نفقات باهظة، فقد أشار أبو هلال الصابي إلى ما كان ينفقه الوزير أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات من أموال، ويتضح منها أنها كانت مبالغ مالية كبيرة تنفق شهريًا على هذه الحراقات، خاصة المبالغ المخصصة لشراء النفط والمشاقة

([9]) هو أبو الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب بن رُزيق ماهان، فارسي الأصل، كان من أكبر أعوان المأمون العباسي، واستعان به الأخير في محاربة أخيه الأمين وقتله، ثم علت منزلته في الدولة العباسية زمن المأمون، توفى عام ٢٠٧هـ/٨٢٢م. انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، نشر دار صادر، بيروت د.ت، ج٢، ص٥١٧-٥٢٣، وعن حياة طاهر بن الحسين، انظر : ابن طيفور : تاريخ بغداد، بيروت ٢٠٠٩م، ص٨١-١٠٩.

([10]) وفيات الأعيان، ج٢، ص٥١٩.

([11]) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٤٨؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٨٥.

([12]) السيد عبدالعزيز سالم، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية، بيروت ١٩٦٩م، ص١١٥.

- هُمينيا : قرية بين بغداد وواسط. انظر الصفدي : الوافي بالوفيات، بيروت ٢٠٠٠م، ج٢٢، ص٩١.

([13]) الديارات إلى أماكن الزيارات، نشر كوركيس عواد، بغداد ١٩٦٦م، ص٤٥.

للنفاطات[١٤].

ويستفاد من ذلك العرض أن استخدام النار المحمولة على الحراقات، سواء في الحروب أو النزهة والتنقل، عُرف منذ القدَم، عرفه الرومان كما عرفه بعد ذلك المسلمون، في حين لم يعرفه الفرنج اللاتين إلا فيما بعد.

أما الجديد الذي حدث بالنسبة لاستخدام النار، فيرجع إلى العصور الوسطى، حيث تم اكتشاف تركيبة جديدة أشد فتكا وأكثر حرقًا.

أما هذه التركيبة الجديدة فهي من اختراع مهندس يسمى كالينكوس Calinicus أقام في مدينة هليوبوليس (بعلبك) ببلاد الشام في أواخر القرن السابع / أوائل الثامن الميلادي، ويذكر الإمبراطور قسطنطين السابع (٩١٢-٩٥٩م/٣٠٠-٣٤٨هـ)[١٥] أن كالينكوس هرب من هليوبوليس ولجأ إلى القسطنطينية زمن الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م)[١٦]. والمعروف أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م) كان قد شدد إغاراته البحرية على شواطئ الإمبراطورية البيزنطية بآسيا الصغرى، بعد أن أصبحت البحرية الإسلامية تتمتع بقوة كبيرة، وبمراكز بحرية هامة على حساب الإمبراطورية البيزنطية في كل من قبرس ورودس وبعض جزر بحر إيجه، مثل جزر خيوس، كما هيمنت على موانئ أزمير وليكيا وقيليقية، ولم يقف الأمر عند ذلك بل تقدم الأسطول الأموي حتى وصل إلى القرب من

---

(14) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، نشر خليل المنصور، بيروت ١٩٩٨م، ص٢٠.

- علي بن محمد بن موسى بن الفرات، ولد عام ٢٤١هـ/٨٥٥م، وتوفى عام ٣١٢هـ/٩٢٤م، تولى وزارة المعتز بالله العباسي (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م)، ثلاث مرات، كما تولى وزارة الخليفة المعتضد العباسي (٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠٢م). انظر : الصابي : تحفة الأمراء، ص١١؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م، ج٧، ص٧١٢-٧١٣؛ العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، نشر مركز زايد للتراث والتاريخ، العين ٢٠٠٢م، ج١١، ص١١٣-١١٥.
- المشاقة : جاء في المعجم الوسيط المشقة والمشاقة قطعة من القطن، استخدمت في الحراقات بأن تبلل بالنفط لاستخدامها في النفاطات. انظر : المعجم الوسيط، ج٢، ص٩٠٧؛ الصابي : تحفة الأمراء، ص٢٠ هامش ١.
- النفاطات : جمع نفاطه، وهي أداة من النحاس كان يرمي بها النفط. انظر : الصابي: تحفة الأمراء، ص٢٠ هامش ٢.

(15) توج الإمبراطور قنسطنطين السابع عام ٩١٢م عقب وفاة والده ليو السادس، لكنه لم يمارس الحكم إلا عام ٩٤٥م. انظر :

Ostrogorsky : History of the Byzantine State, Copyright 1957, p. 132-247.

(16) إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. محمود سعيد عمران، ص١٨٢.

- حمل الإمبراطور قسطنطين الرابع لقب " بوجوناتوس Pogonatus " أي الملتحي. انظر : سيد الناصري : الروم، القاهرة ١٩٦٣م، ص٢٣١.

القسطنطينية[١٧].

وإزاء تهديد المسلمين البحري للدولة البيزنطية، أخذ مهندسوا وعلماء القسطنطينية في التفكير في صناعة سلاح بحري يدرعون به هذا الخطر، وحتى لا تقع القسطنطينية في يد المسلمين، ومن هنا كان اختراع " النار السائلة " أو " النار البحرية " أو " النار الرومانية " والتي شاع إطلاق اسم " النار الإغريقية " عليها بعد ذلك.

وكما سبق القول فإن المهندس كالينيكوس السوري الأصل الذي كان مُقيمًا في القسطنطينية آنذاك؛ قام بتطوير النار التي استخدمت في الحروب قديمًا ليجعلها أشد فتكًا، فجعلها مزيجًا من النفط والزيت والكبريت، ويصب هذا المزيج في أنابيب من النحاس ذات فوهة توقد منها تلك الأنابيب، وتوضع هذه الأنابيب في اسطوانة مستديرة داخل المدفع، الذي حملته الحراقات، ثم تقذف على سفن الأعداء، وبمجرد ارتطامها بالهدف تشتعل النار فيها حتى لو كان ذلك في الماء[١٨].

وبعد أن تأكد الروم من فعالية هذا التركيب الجديد، أمر الإمبراطور قسطنطين الرابع بقذفه على سفن الأسطول الأموي الذي أخذ في مهاجمة القسطنطينية، ذلك الهجوم الذي استمر خمس سنوات (٥٤-٥٩هـ/٦٧٤-٦٧٩م)[١٩]، إلى أن اشتد الروم في قذف المسلمين بالنارالإغريقية، فأصاب تلك السفن الدمار واشتعلت بها الحرائق، مما أدى إلى فشل الأسطول الأموي في تحقيق هدفه في الاستيلاء على القسطنطينية، وعادت بقية السفن دون أن تحرز نجاحًا، وفي أثناء عودتها صادفها عاصفة بحرية حطمت معظمها، وعجل ذلك بعقد اتفاقية سلام " هدنة " بين معاوية بن أبي سفيان وقنسطنطين الرابع لمدة ثلاثين عامًا[٢٠].

ويرى بعض الباحثين أن هذه التركيبة الجديدة من النار اختراع مصري، ويعللون ذلك بأن المهندس كالينكوس كان مقيمًا في مدينة هليوبوليس المصرية (عين شمس الحالية)،

---

(17) إبراهيم العدوي : الأمويون والبيزنطيون، القاهرة ١٩٥٣م، ص١٦٥.

(18) وسام فرج : النار الإغريقية طبيعة تركيبها وأثرها في نشاط المسلمين البحري، مقال في كتاب بيزنطة قراءة في التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠٠٤م، ص١٤٧.

(19) لم يشر المؤرخون المسلمون إلى تلك الغزوات بالتفصيل باستثناء الطبري الذي تناولها باختصار، الأمم والملوك، ج٥، ص٢٨٨-٣٠٥؛ في حين تناولها المؤرخ اليوناني البطريرك هرقل بالتفصيل، انظر : Nikephors : short history, washington, 1990, p. 87.
وانظر الترجمة العربية التي قام بها د. هاني البشير : البطريرك نقفور : التاريخ المختصر، القاهرة ٢٠٠٧، ص٧٧-٧٨.

(20) الكندي : الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨، ص٣٩؛ انظر أيضًا : السيد الباز العريني : تاريخ الدولة البيزنطية، بيروت ١٩٨٢م، ص١٥٠-١٥١. يذكر نقفور أن معاوية بن أبي سفيان قَبِل أن يدفع سنويًا جزية قدرها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية وخمسون أسيرًا وخمسون جوادًا. انظر: Short history, p. 87.

وليس هليوبوليس الشامية (بعلبك)[٢١]. كما أن الأسطول المصري قبل دخول الإسلام إلى مصر كان مسلحًا بهذه النار، ويشير المؤرخ ألفرد بتلر أن المؤرخ سبيوس شاهد في مصر نوعًا من السفن الكبار، مجهزة بالآلات التي تقذف النار، وكانت مزيجًا من مواد سريعة الاشتعال، ويزيد سبيوس على ذلك بأن السفن التي بُنيت في الإسكندرية، بعد الفتح الإسلامي لها، جُهزت بمجانيق لقذف المواد الملتهبة[٢٢].

وتشير الدكتورة سعاد ماهر[٢٣] إلى أن المؤرخ جيبون يؤكد أن هذه النار من اختراع أحد المصريين، ويعتمد في ذلك على ما ورد عند المؤرخ جورج كدرنيوس من أن كالينيكوس كان مصريًا من مدينة هليوبوليس المصرية[٢٤].

ولكننا إذا أمعنا النظر لوجدنا أن هذه النار كانت سرًا احتفظ به الأباطرة البيزنطيين، ولم يعرف سر صناعتها سواهم، وتسلحت به أساطيلهم، سواء سفن العاصمة أو أساطيل الأقاليم، ولا يعني وجود هذا السلاح على بعض سفن أساطيل الأقاليم أنها صُنعت بهذا الإقليم، فهناك فرق بين أماكن وجود هذا السلاح وبين أماكن تصنيعه، خاصة أنه لدينا توصية من اثنين من أباطرة الدولة البيزنطية؛ يوصون فيها بألا يسمح البيزنطيون بأن يتسرب سر صناعة هذا

---

(21) سعاد ماهر : البحرية الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩م، ص٢٣١-٢٣٢.

(22) الفرد بتلر : فتح العرب لمصر، ص١٥١.

(23) البحرية في مصر الإسلامية، ص٢٣١.

(24) جورج كدرنيوس Georgii Cedrnius مؤرخ بيزنطي (يوناني) عاش في القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري، تناول في كتابه " خلاصة التاريخ Histoirum Compendium تاريخ الخليقة منذ بدء الخلق حتى عام ١٠٥٧م، اعتمد في ذلك على ما كتبه السابقين من المؤرخين فيما عدا الفترة التي عاصرها، فكان شاهد عيان عليها.

انظر : دونالد نيكول : معجم التراجم البيزنطية، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٢٥٣؛ آمال حامد زيان : الدور السياسي للمؤرخ ميخائيل بسللوس، القاهرة ٢٠١٠م، ص٢٥.

- جيبون : هو إدوارد جيبون Edward Gibbon مؤرخ إنجليزي ولد عام ١٧٣٧م بجنوب إنجلترا في أسرة غنية، وتوفى عام ١٧٩٤م. انظر مقدمة الترجمة العربية للدكتور أحمد نجيب هاشم : جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، القاهرة ١٩٩٧م، ج١، ص١٠-٢٧.

السلاح إلى غيرهم من الشعوب أو البلاد(٢٥). ولذلك ظل تركيب هذه النار سرًا احتفظ به البيزنطيون دون سواهم فترة طويلة(٢٦).

غير أنه يستشف من تلك التحذيرات، أنه كانت هناك محاولات من قبل الأمم المجاورة للدولة البيزنطية، بأن يتعرفوا على سر صناعة هذه النار، حتى لا يكونوا أقل قوة من قوة البحرية البيزنطية، ومن بين تلك الأمم كان المسلمون الذين فتكت بهم هذه النار مرتين متتاليتين: الأولى أثناء محاصرة معاوية بن أبي سفيان للقسطنطينية وهو حصار السنوات الخمس (٥٤-٥٩هـ/٦٧٤-٦٧٩م، والثانية أثناء محاصرة مسلمة بن عبدالملك بن مروان للقسطنطينية عام ٩٩هـ/٧١٧م(٢٧).

وبالفعل، وبرغم كل ما أحاط به حكام الدولة البيزنطية هذه النار بالسرية، وإصدار الأوامر التي تحرم تصديرها إلى الدول المجاورة، فإن المسلمين استطاعوا الوصول إلى سر صناعتها، وقاموا بتطويرها بصورة جعلتها أكثر فتكا.

فقد وردت إشارة عند المؤرخ المغربي ابن عذاري(٢٨)، إلى أن أسطول الأغالبة الذي توجه إلى صقلية عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م بأوامر من الحاكم الأغلبي زيادة الله بن الأغلب (٢٠١-٢٢٣هـ/٨١٦-٨٣٧م)(٢٩) وكان بقيادة إبراهيم بن عبدالله، كان من بين سفنه حراقات، "

([25]) الإمبراطور الأول هو ليو السادس Leo VI (٨٨٦-٩١٢م/٢٧٣-٣٠٠هـ) الذي حذر في كتابه تكتيكا Taktika من الإباحة بسر صناعة النار البحرية، كما فرض عقوبات صارمة على كل من يمد البلاد المعادية بالعتاد الحربي، أما الإمبراطور الثاني فهو قسطنطين السابع Constantine VII (٩١٢-٩٥٩م/٢٩٩-٣٤٨هـ) الذي حذر هو الآخر في كتابه إدارة الإمبراطورية البيزنطية الذي أهداه لولده وولي عهده رومانوس الثاني، حذر من تسريب سر صناعة النار السائلة إلى أي دولة أخرى، ومن يفعل ذلك يطرد من رحمة الكنيسة.
انظر : قسطنطين السابع : إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص٦٨؛ وسام فرج : النار الإغريقية، ص١٤٦.

([26]) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحضارة البيزنطية، القاهرة ١٩٦١م، ص١٨٢؛ السيد الباز العريني: تاريخ الدولة البيزنطية، ص٣٦٣.

(٣) Theophanes : The chronicle, oxford 1997, p. 546–547; Nikephoros : short history, p. 87 ;
إبراهيم العدوي: الأمويون والبزينطيون، القاهرة ١٩٥٣م، ص١٦٤-١٧٠؛ وسام فرج: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، الإسكندرية ١٩٨١م، ص١٤٧-١٦١.

([28]) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر كولان بورفنسال، د.ت، ج١، ص١٠٥-١٠٦.

([29]) زيادة الله بن الأغلب : هو أبو محمد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، تولى ولاية أفريقية في ذي الحجة عام ٢٠١هـ/ يونيه ٨١٧م، اشتهر بسفك الدماء والغلظة في معاملة الجند، توفي في رجب عام ٢٢٢هـ/ يونيه ٨٣٧م بعد أن حكم المغرب إحدى وعشرين عامًا. انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ج١، ص٩٦-١٠٧؛ انظر أيضًا : محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة

فأصاب له النصارى حراقة من مراكبه ". والمعروف أن الحراقة كانت معدة لقذف النار الحارقة، ومعنى ذلك أن الأغالبة استطاعوا اكتشاف سر صناعة هذه النار، وسلحوا بها أساطيلهم في فترة العصور الوسطى الإسلامية خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر للميلاد.

وهنا لابد من ذكر أن أساطيل المسلمين في البحر المتوسط، كان لها ثلاث مراكز رئيسية: المركز الأول في شرق البحر المتوسط، وقواعده في كل من كريت وبلاد الشام ومصر، والمركز الثاني في غرب البحر المتوسط، وقواعده في الأندلس، في حين كان المركز الثالث لهذا الأسطول في وسط البحر المتوسط، وقواعده في شمال أفريقية وصقلية بعد ذلك، وهذا الأسطول الأخير هو الذي كانت تتولاه دولة الأغالبة.

ومن بين هذه الأساطيل الثلاثة؛ وصل أسطول الأغالبة إلى سر صناعة النار البحرية، فكيف تم لهم ذلك ؟

إن الأحداث السياسية، التي عاصرت تلك الفترة، هي التي ساعدت على معرفة الأغالبة سر صناعة النار البحرية، ذلك أن القائد البيزنطي أيفيميوس Euphemios الذي كان قائد الأسطول البيزنطي بصقلية (طرنجار Drongarios)، توجه إلى زيادة الله بن الأغلب عام ٢١١هـ/٨٢٦م مستنجدًا به(٣٠).

فتروي المصادر التاريخية: أنه حدث خلاف شديد بين أيفيميوس والإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني العموري (٨٢٠-٨٢٩م/٢٠٥-٢١٤هـ) إثر اختطاف الأول لإحدى الراهبات والزواج منها بالإكراه، مما دفع الإمبراطور إلى إصدار أوامره إلى قائد ثغر صقلية فوتينوس Photenios بالقبض على أيفيميوس وإحضاره إلى القسطنطينية.

غير أن أيفيميوس انتصر على القائد فوتينوس وأعلن نفسه إمبراطورًا في صقلية، لكنه لم يستطع الصمود أمام القائد البيزنطي "بلاطه" كما تسميه المصادر الإسلامية، حيث أنزل بإيفميوس هزيمة كبيرة، مما دفع الأخير إلى طلب النجدة من زيادة الله بن الأغلب، واعدًا إياه " بملك جزيرة صقلية "، أو على الأقل يكون تابعًا له في صقلية ويدفع له جزية سنوية(٣١).

الإسلامية، القاهرة ١٩٨٨م، ص١٢٣-١٢٥. ويقول الذهبي أنه توفى عام ٢٢٣هـ/٨٣٨م، انظر : تاريخ الإسلام، بيروت ٢٠٠٥م، ج٦، ص٥٩.

(1) Theophanes Confessor : the chronicle, oxford 1997, p.

انظر أيضًا : فازيليف، العرب والروم، القاهرة د.ت، ص٦٨؛ السيد الباز العريني : تاريخ الدولة البيزنطية، ص٢٧٠-٢٧٣.

- طرنجار Drongarios : لقب حمله نائب قائد الثغر البحري Strategus وأطلق عليه كذلك نائب أمير البحر. انظر : رنسيمان : الحضارة البيزنطية، القاهرة ١٩٦١م، ص١٧٦-١٧٧.

([31]) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة ١٩٨٣م، ج٢٤، ص٣٥٤-٣٥٥؛ ابن الأثير:

جاء هذا العرض على هَوى الأغالبة، الذين كانوا تواقين لتحقيق نصر بحري كبير يتيح لهم السيطرة على جزر البحر المتوسط المواجهة لهم، فقد سبق أن شنوا عدة إغارات على صقلية لكن دون أن تحقق نجاحًا(٣٢).

ولذلك سارع زيادة الله إلى تلبية رغبة أيفيميوس عسى أن ينجح في بسط يده على صقلية، ووافقه في ذلك بعض فقهاء وعلماء القيروان(٣٣)، فتقرر بقاء أيفيميوس بسفنه في ميناء سوسة حتى يتم إعداد الحملة المنشودة(٣٤). لكن كيف يتسنى للأغالبة التغلب على الأسطول البيزنطي الرابض بصقلية، وهو المعد إعدادًا جيدًا، ومسلحًا بالنار الإغريقية ؟، كل هذا جعل الأغالبة يفكرون في ضرورة أن تضم سفنهم حراقات تقذف النار الحارقة.

لا يستبعد بعض الباحثين أن الأغالبة استعانوا بمعلومات وخبرة القائد البحري (طرنجار البحر) إيفيميوس في كشف سر صناعة هذه النار(٣٥)، أثناء وجوده في ميناء سوسة منتظرًا إعداد الحملة التي وعده بها زيادة الله(٣٦)، وبطبيعة الحال فإن حقد وكره إيفيميوس للإمبراطور البيزنطي، ولمعظم القادة البيزنطيين في صقلية، هو الذي دفع أيفيميوس إلى إفشاء سر صناعة النار الحارقة، وقبل ذلك الاستعانة بالمسلمين(٣٧).

ودفع حرص الأغالبة لمعرفة كافة التفاصيل عن صناعة النار البحرية، أنهم أخذوا يتصيدون حراقات البيزنطيين حاملة هذه النار، أثناء المعارك البحرية التي نشبت بينهم وبين

الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٣٥؛ انظر أيضًا: فازيليف : العرب والروم، ص٦٨-٦٩.

(32) النويري نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٣٥٥؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الحضارة الإسلامية بصقلية، ص١٨.

(33) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٣٥٥-٣٥٦؛ وانظر أيضًا : تقي الدين عباس الدوري : صقلية علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية، العراق ١٩٨٠م، ص٤٨. وعن العوامل التي ساعدت زيادة الله بن الأغلب على غزو صقلية. انظر : حامد زيان : دراسات في تاريخ العالم الإسلامي، القاهرة ٢٠١٠م، ص١٣٦.

(3) Ostroyorsky : History of the Byzantine stste, oxford 1950, p. 183 ;
فازيليف : العرب والروم، القاهرة د.ت، ص٧٢.

- سوسه : يقول عنها الحميري أنها من بلاد أفريقية على ساحل البحر، إليها تنسب الثياب الرقيقة السوسية، ومنها ركب أسد بن الفرات غازيًا صقلية. انظر : الروض المعطار في خبر الأقطار، لبنان ١٩٨٤م، ص٣٣١.

(35) السيد عبدالعزيز سالم، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية، بيروت ١٩٦٩م، ص١١٥.

(36) البكري : جغرافية الأندلس وأوربا، نشر عبدالرحمن الحجي، بيروت ١٩٦٨م؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٣٤-٣٣٥.

(1) Bury : A history of eastern Roman Empire, London 1912, p. 298 ;
السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية، بيروت ١٩٨٢م، ص٢٧١.

البحرية البيزنطية، بعد توجه أسد بن الفرات بمراكبه إليها[٣٨]، ووفاته عام ٢١٣هـ/٨٢٨م متأثرًا بالوباء الذي تفشى في صقلية[٣٩]، ثم مواصلة القادة المسلمين عمليات الفتح، فيشير المؤرخ ابن الأثير الجزري، إلى أنه في عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م، بعد تولي أبو الأغلب إبراهيم بن عبدالله أمر قيادة العمليات العسكرية في صقلية، اشتبك مع أسطول بيزنطي في رمضان من هذا العام (مايو ٨٣٥م) وانتصر عليه، واستولى على معظم ما به من سفن، ومن بينها حراقة بيزنطية[٤٠].

ولاشك في أن الأغالبة استفادوا بما وجد على ظهر هذه الحراقة من آلات ومعدات لقذف النار، وذلك حتى يتم لهم الوقوف على كل أسرار هذه الصناعة.

وهكذا كان للأغالبة فضل السبق في كشف سر النار الإغريقية التي احتفظ بها البيزنطيون أمدًا طويلاً، وأخذت الحراقات قاذفة النار تظهر في أسطول الأغالبة منذ ذلك الوقت[٤١]، ومن هنا جاءت الإشارة السابقة لابن عذاري، من أسر البيزنطيين لإحدى حراقات الأغالبة في أواخر عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م[٤٢].

احتفظ الأغالبة بسر صناعة النار الحارقة، مثلما احتفظ به البيزنطيون سابقًا، فإننا لم نجد أحد النصوص تشير إلى استخدام الحراقات قاذفة النار الحارقة في أي من الأساطيل الإسلامية الأخرى بالبحر المتوسط في تلك الفترة. واستمر ذلك حتى حل الفاطميون محل الأغالبة في حكم تونس، والقضاء على دولتهم، واستقرارهم في مدينة " رقادة " عاصمة الأغالبة عام ٢٩٧هـ/٩١٠م[٤٣].

أخذ الفاطميون بعد استقرارهم في إفريقية، في التعرف على النار الحارقة التي استخدمها الأغالبة، وأثبتوا أنهم قادرون على تطوير هذا السلاح، وتفوقوا في ذلك تفوقًا كبيرًا، لدرجة أنهم أحرزوا انتصارات بالغة على البحرية البيزنطية في موقعة المجاز، عند مضيق

---

(38) يشير البكري إلى أن عدد المراكب التي صحبت أسد بن الفرات سبعون مركبًا، انظر : جغرافية الأندلس وأوربا، ص٢٢٠.
(39) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٣٦.
(40) الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٣٨-٣٣٩.
(41) فازيليف : العرب والروم، ص٧٢-٧٤ ؛
Bury : A history of eastern Roman Empire, p. 297-299.
(42) البيان المغرب، ص١٠٦.
(43) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٨، ص٤٨؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا بذكر الفاطميين الخلفاء، القاهرة طبعة الذخائر، د.ت، ج١، ص٦٣.
* رَقَادَةَ : بلدة بإفريقية بينها وبين القيروان مسيرة أربعة أيام، بناها إبراهيم بن الأغلب، وجعل بها قصورًا عجيبة وبنى بها مسجدًا، واتخذها عاصمة له. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧م، ج٣، ص٥٥.

مسيني عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م، وكان للحراقات الفاطمية دور كبير في هذا الانتصار(٤٤).

ويؤكد ابن خلدون أن البحرية الفاطمية، تفوقت على الأساطيل البيزنطية، واستطاعت أن تفرض نفوذها على البحر المتوسط(٤٥)، فقد تابع حكام هذه الدولة الاهتمام بالأسطول، وما بـه من معدات، خاصة بعد انتقالهم إلى مصر عام (٣٥٨هـ/٩٦٩م) فعمل المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٥م) على الاهتمام بالأسطول، وعمل على إنشاء السفن بمختلف أنواعها، ومن بينها الحراقات، ورصد للإنفاق على ذلك الأموال الطائلة(٤٦). فبنى دارًا لصناعة السفن بمصر بالمقس(٤٧)، " ولم يُر مثلها في البحر على ميناء "، وبنى بها ستمائة سفينة حربية(٤٨)، وإذا كان هذا الأسطول قد تعرض للحريق زمن خليفته العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م) إلا أن الفاطميين استطاعوا خلال ثلاثة أشهر فقط إعادة بناء هذا الأسطول مرة أخرى(٤٩).

والواقع أنه كان لانتقال الفاطميين من المغرب إلى مصر، واتخاذهم القاهرة عاصمة لهم، أثره في تطوير البحرية الفاطمية، فالمعروف أن مصر قبل الإسلام كانت مركزًا لصناعة السفن، واستمر ذلك بعد الفتح الإسلامي لها، حيث اتخذها معاوية بن أبي سفيان دارًا لصناعة السفن، واعتمد على البحارة المصريين في أسطوله الجديد. واشتهرت في مصر عدة أماكن لصناعة السفن منها: جزيرة الروضة، والقلزم (السويس)، والإسكندرية. كذلك عمل الطولونيون على الاهتمام بالبحرية اهتمامًا كبيرًا(٥٠)، كما اهتم محمد بن طغج الأخشيد

---

(44) ابن الأثير : الكامل، ج٨، ص٥٥٦-٥٥٨.

- موقعة المجاز : حدثت هذه الموقعة عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م بين الفاطميين والبيزنطيين، عندما شن القائد أحمد بن الحسن الكلبي هجومًا عنيفًا على القوات البيزنطية، وأحرز نصرًا كبيرًاعند مجاز مضيق مسيني، فسميت بموقعة المجاز. انظر : ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص٥٥٨؛ انظر أيضًا : حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٤م، ص١٠٤.

(45) المقدمة : طبعة المكتبة التجارية، مصر د.ت، ص٢٥٣-٢٥٤.

(46) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق ١٢٧٠م، ج٢، ص١٩٢؛ انظر أيضًا : لويس أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية، ص٣٠٤، ٣٢٥؛ أسمت غنيم : العلاقات السياسية بين الدولتين البيزنطية والفاطمية، رسالة ماجستير، آداب الإسكندرية ١٩٦٨م، ص٩٠-٩١.

(47) المقس : تعرف أيضًا باسم " أم دنين "، تقع على ساحل النيل. انظر القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة دار الكتب المصرية، د.ت، ج٣، ص٣٥٧. (وفي مكانها الآن جامع الفتح، بميدان رمسيس بالقاهرة)

(48) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٤.

(49) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٥-١٩٦؛ لويس أرشيبالد : القوى البحرية، ص٣٢٨.

(50) البلوي : سيرة أحمد بن طولون، القاهرة طبعة الذخائر د.ت، ص٥٨.

بالأسطول المصري اهتمامًا كبيرًا، حيث نقل دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلى ساحل الفسطاط، في مكان دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون(٥١).

بالإضافة إلى ذلك فإن نيل مصر شهد وجود حراقات تقذف بالنار، تعمل بالنفط، مثلما شاهدنا ذلك في نهر دجلة بالعراق، وأخذت تلك الحراقات تجوب مياه النيل أثناء الاحتفالات للنزهة والتنقل زمن الفاطميين(٥٢).

غير أن اضطراب أمر الأسطول المصري في أواخر الدولة الفاطمية، وخاصة بعد أن أقدم الوزير شاور على حرق عدد كبير من سفن الأسطول، خوفًا من ملك بيت المقدس عموري الأول (١١٦٢-١١٧٤م/٥٥٨-٥٧٠هـ) لم يقلل من أهمية الأسطول الفاطمي(٥٣).

لم يقل اهتمام الأيوبيون بأمر الأسطول، واستخدام سلاح النار الحارقة، عن اهتمام من سبقهم من حكام، لدرجة أن صلاح الدين الأيوبي، أنشأ ديوانًا خاصًا بالأسطول عُرف باسم "ديوان الأسطول"، وأوقف للإنفاق عليه ما يرد من بعض البلدان(٥٤).

كذلك استخذم الأيوبيون سلاح النار الحارقة مثلما استخدمه الفاطميون من قبل، وكانت الحراريق قاذفة النار جزءًا هامًا في الأسطول الأيوبي، فقد عدد ابن مماتي(٥٥) أنواع السفن التي استخدمت في الأسطول الأيوبي فكان منها الحراقة(٥٦). ويشير المقريزي أن الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٦-٦٤٧هـ/١٢٣٩-١٢٤٩م) عندما وجه عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م حملة بحرية إلى اليمن جهز بها " زردخاناه وشواني وحراريق "(٥٧).

([51]) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٨٠، ١٩٦.
([52]) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٦٢؛ انظر أيضًا : حورية سلام : النظم الحربية في مصر، القاهرة ١٩٨٠م، ص٨٠.
([53]) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٣.
([54]) انظر : السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة ١٩٦٠م، ص١٦٦-١٦٧.
([55]) ابن مماتي : هو الأسعد بن المهذب بن أبي مليح بن مماتي، أحد الوزراء المشهورين بالدولة الأيوبية، توفي عام ٦٠٦هـ/١٢٠٩م. انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت، نشر إحسان عباس ١٩٧٨م، ج١، ص٢١٠-٢١٣.
([56]) قوانين الدواوين، نشر عزيز سوريال عطية، القاهرة، ص٣٤٠.
([57]) السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٥٧م، ج١، ق٢، ص٣٠٦.

- زردخاناه : مصطلح مكون من كلمتين فارسيتين، زرد بمعنى السلاح، وتطلق أيضًا على الملابس المعدنية التي تلبس أثناء المعارك، وخاناه هو المكان، فيكون المعنى دار السلاح. انظر : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣، ص٤٧٣.
- شواني : جمع شيني أو شونة، نوع من السفن الحربية. انظر : المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٤-١٩٥.

ويقول درويش النخيلي، أن الشيني هو أصل السفن الحربية، وتتفرع منها السفن الأخرى

كذلك استخدم الأيوبيون تلك النار الحارقة في الدفاع عن البلاد ضد العدوان الصليبي، فيذكر المؤرخ چوانفيل الذي كان مصاحبًا لحملة القديس الملك لويس التاسع على دمياط، عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م - أنه في إحدى الليالي قامت القوات الأيوبية بإلقاء النار الإغريقية على أبراج الفرنج التي أقاموها بدمياط، مما أدى إلى أن يشرف معظم جيش لويس على الهلاك. ويستطرد چوانفيل واصفًا تلك النار بقوله: "وكانت النار الإغريقية تأتي من الأمام أشبه ما تكون ببرميل من القار، ذات ذنب يقارب الرمح طولاً، وكان يصحبها صوت هائل كدوي الرعد، وكأنها طائر في الجو، تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شيء كافة في وضح النهار"(٥٨).

ويعلق أحد الباحثين بقوله: إن إطلاق النار الإغريقية لا يصاحبه حدوث دوي كدوي الرعد، ولربما أطلق المصريون مدافع محشوة بالبارود مصاحبة لإطلاق قذائف النار الإغريقية لإحداث هلع وخوف في نفوس الفرنجة(٥٩).

ويصدق هذا الرأي إلى حد بعيد، فإن چوانفيل، ومن معه، لم يكن لديهم حتى هذه الفترة علم بسر صناعة النار الحارقة، ولا بكيفية عملها، ولربما سمعوا عنها فقط عندما قدموا إلى الشرق في شكل الحملات الصليبية، كما أشارت إلى ذلك المؤرخة آنا كومنينا(٦٠).

وفي دراسة حديثة، قام بها بعض الباحثين الشبان في التاريخ والكيمياء، أثبتوا أن هذا الدوي ناتج عن استخدام النفط وهو أحد عناصر النار الحارقة؛ عندما يتم تسخينه أثناء قذف تلك النار(٦١).

هذا مع ملاحظة أنه مع معرفة الأيوبيين بسلاح النار الحارقة، إلا أنهم استخدموه في أضيق الحدود، وفي حالات الضرورة القصوى، فلم يصادفنا في مختلف مصادر العصر الأيوبي، إشارات كثيرة توحي باستخدامها بصورة كبيرة أثناء المعارك البحرية الكثيرة التي دار رحاها على شواطئ مصر والشام، أو في تلك الحملات البحرية التي شنها الأيوبيون على مختلف المدن التي استولى عليها الفرنج بسواحل بلاد الشام.

كالطريدة والغراب والحراقة وغيرها. انظر : السفن الإسلامية، ص٨٣.

(58) القديس لويس : ترجمة د. حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م، ص١٠٩-١١٠.

(59) جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، القاهرة ١٩٧٤م، ص٣٧٥-٣٧٦.

(603) The Alexiad, p. 293.

(61) وسام فرج : النار الإغريقية، ص١٤٨ ؛

J. Holdon, M. Byrnie : Possible Solution, pp. 91–99.

بحث ألقي في مؤتمر علمي انعقد في بريطانيا عام ١٩٧٤م، حول استخدام النار الإغريقية، وكيفية إطلاقها، وقد قدم كل من هولدن وبرني رسم نمونجي لكيفية عمل قاذفات النار الإغريقية. انظر : وسام فرج : النار الإغريقية، ص١٥٢، حيث أورد رسمًا لذلك التصور.

ومن ناحية أخرى فقد استخدم الفرنج الحراقات في أساطيلهم أثناء صراعهم مع الأيوبين، ولكنها كانت تستخدم النفط بدلاً من تركيب النار الإغريقية، لأنه كما سبق القول لم يكن سر صناعة النار قد اكتشفوه بعد، فقد ورد في المصادر المعاصرة أن الفرنج في عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م اعترضوا سفينة كبيرة (بطسة)[٦٢]، شحنها صلاح الدين الأيوبي بالمؤن لنجدة عكا التي فرض عليها الفرنج الحصار، إلا أن الفرنج "خرجوا عليهم واعترضوهم في الحراقات"[٦٣]. كذلك في عام ٦١٨هـ/١٢٢١م أثناء الحملة الصليبية الخامسة على دمياط " وصل إلى الفرنج مركب عظيم يسمى مَرمَة وحوله عدة حراقات يحمونه "[٦٤].

وإذا كانت البحرية الأيوبية قد أهمل شأنها في الفترة التي عاصرت سقوط الدولة الأيوبية، والتي انتهت بقيام دولة المماليك، لدرجة أن الأسطول أصبح مهملاً، وصار لفظ " أسطولي " الذي يحمله من يعمل في الأسطول، من الألفاظ التي ينظر إليها بعين الاحتقار، لدرجة أن المقريزي، عمدة مؤرخي مصر في العصور الوسطى، يقول إنه صارت الخدمة في الأسطول عارًا يسب به الرجال[٦٥].

فإنه بعد أن قبض السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٩-٦٧٦هـ-١٢٦٠/١٢٧٧م) على زمام الأمور، واستقرت له السلطنة في مصر والشام، أخذ في الاهتمام بأمر الأسطول، ففي عام ٦٦٩هـ/١٢٧١م، " صار ينزل بنفسه إلى الصناعة بمصر[٦٦]، ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشواني ومصالحها، واستدعى بشواني الثغور إلى مصر، فبلغت زيادة على أربعين قطعة، سوى الحراريق والطرائد، فإنها كانت عدة كثيرة "[٦٧].

ويستخلص من النص السابق: أن السلطان الظاهر بيبرس اهتم بأمر الأسطول وما به

---

(62) بطسة : وتنطق أيضًا بطشة، نوع من السفن استخدمت في الحرب والتجارة، وهي مأخوذة عن الأسبانية، استعملها الفرنج، كما عرفها المسلمون من خلال الحروب الصليبية. انظر : ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢، ص٧٧ هامش ١؛ درويش النخيلي : السفن الإسلامية، ص١٤-١٧.

(63) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشر : جمال الشيال، القاهرة ١٩٥٧م، ج٢، ص٣٣١.

(64) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٢٩.

* المَرمَة : نوع من السفن الكبيرة التي استخدمها الفرنج، وهي مصفحة بالحديد حتى لا تؤثر فيها النار، ويبدو أن الفرنج قاموا بتصنيعها لتقيهم شر النار الأغريقية. انظر : ابن الأثير : الكامل، ج٢، ص٣٢٤؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج٣، ص٢٦٠ هامش ١.

(65) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص١٩٤.

(66) يقصد بها دار الصناعة بمصر، وهي دار صناعة السفن التي كانت بساحل مصر القديمة، وكانت موضع دار خديجة بنت الفتح بن خاقان أنشأها محمد بن طغج الأخشيد عام ٣٢٥هـ/٩٣٧م، واستمرت قائمة بمصر حتى عام ٧٠٠هـ/١٣٠١م. انظر : المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٦.

(67) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٤.

من حراريق التي كانت جزءًا هامًا في أسطوله، لمواصلة محاربة الصليبيين، تلك الحراريق التي كانت تعمل بالنار الحارقة التي احتفظ بسر صناعتها المصريون منذ أيام الفاطميين والأيوبيين بالإضافة إلى تسليحها أيضًا بالنفط.

غير أننا، منذ البدايات الأولى لدولة المماليك، لاحظنا عدم توسع المماليك في استخدام النار الحارقة فلم نعد نسمع عن تجهيز حراقات لقذف النار في المعارك البحرية التي خاض غمارها المماليك، وإن كانت تلك الحراريق قد انزوت لتعمل في مياه النيل، في التنقل والاحتفالات.

فعلى سبيل المثال: يذكر المؤرخ أبو الفدا أنه عندما عزم السلطان الظاهر بيبرس على غزو جزيرة قبرس، عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م، أعد أسطولاً تكون من عشر شواني، ولما تحطمت تلك الشواني على يد القبارسة في ميناء ليماسول (اليميسون) بقبرس أعد شواني أخرى[٦٨].

ولم يشر النص السابق إلى استخدام المماليك للحراقات أو النار الحارقة، وإنما اعتمدوا على الشواني. كذلك في عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، أثناء سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م) عندما ازداد خطر القراصنة الفرنج الموجودين بجزيرة أرواد[٦٩]، حيث أخذوا يشنون منها هجماتهم على سفن المماليك المتجهة إلى ساحل الشام، قام الأمير سيف الدين اسندمر الكرجي، بتعمير عدة شواني، سيرها إلى أرواد، حيث أنزلت عدة هزائم بمن في هذه الجزيرة من الإفرنج وخربوا أسوارها وفرضوا عليها نفوذهم[٧٠].

مع ملاحظة أنه وجدت، في بعض الأحيان، داخل سلاح البحرية المملوكية سفن ترمي بالنفط وليس بالنار الحارقة، وهناك فرق كبير كما سبقت الإشارة بين استخدام النفط واستخدام النار الحارقة – النار الإغريقية – فقد أشار المقريزي إلى أنه في نفس العام أي عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م: " جُهزت الشواني بالعدد والسلاح والنفطية والأزودة "[٧١]، ولاحظ هنا أن المقريزي لم يشر إلى وجود حراقات داخل الأسطول المملوكي وهي المجهزة لقذف النار الحارقة، وإنما أشار فقط إلى وجود جماعة النفطية، وهم الرجال الذين يقومون بتزويد هذه

([68]) المختصر في أخبار البشر، القاهرة د.ت، ج٤، ص٦.

([69]) جزيرة أرواد : يقول عنها أبو الفدا : جزيرة في بحر الروم قبالة انطرطوس : المختصر، ج٤، ص٤٧.

([70]) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٤٧؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٧٠م، ج١، ق٣، ص٩٢٨-٩٢٩.

- اسندمر الكرجي : هو اسَنْدَمُر بن عبدالله الكرجي، كان من جملة الأمراء بالديار المصرية، تولى نيابة طرابلس بالشام ثم تولى نيابة حماه، وبعدها تولى نيابة حلب، واستمر بها إلى أن عُزل عنها توفى بالسجن عام ٧١١هـ/١٣١١م. انظر : ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، القاهرة ١٩٨٤م، ج٢، ص٤٤٣-٤٤٥.

([71]) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٤.

الشواني بالنفط لاستخدامه في القتال[٧٢].

كذلك في أواخر دولة المماليك، عندما عزم السلطان الأشرف برسباي(٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م) على غزو جزيرة قبرس، أمر بتجهيز الطرائد والأغربة[٧٣]، ولم نعد نسمع عن ذكر لوجود حراقات في الأسطول المملوكي.

وهكذا لم يَعد المماليك يستخدمون النار الأغريقية أو النار الحارقة، واستبدلوا تركيب تلك النار بالنفط الذي استخدموه في حراقاتهم العابرة لمياه النيل، ومن ثم أخذ يظهر في مصادر العصر المملوكي مصطلح النفطية، وهم الرجال الذين يعملون على ظهر تلك الحراقات ويقومون بتزويدها بقطع القماش المبللة بالنفط، أو إلى أولئك الرجال الذين يعملون على ظهر الشواني حيث استخدم النفط في القتال البحري، ويعود ذلك إلى أن المماليك أخذوا في الاستفادة من آبار النفط التي وضعوا أيديهم عليها بمنطقة البحر الأسود وآذربيجان[٧٤].

ونتيجة التوسع في استخدام النفط، بدلاً من مركب النار الإغريقية، ظهرت فرقة جديدة عصر المماليك البحرية أطلق عليها الزراقون، وكانت تعمل على ظهور الحراقات يرمون الأعداء بالنار الحارقة بواسطة قدور النفط، وشكلوا فرقة خاصة في الأسطول المملوكي، وكان لتلك الفرقة قائد أطلق عليه " مقدم الزراقون"، ومن أشهر من تولى أمر هذه الفرقة الأمير سيف الدين كهرداس الزراق[٧٥].

([72]) راجع البحث الذي قام به كلّ من طارق منصور ومحاسن الوقاد : النفط استخدامه وتطوره عند المسلمين ٦٤-٩٢٣هـ/٦٨٤-١٥١٧م، القاهرة ٢٠٠٦م.

([73]) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٧١م، ج١٤، ص٢٧٦. وعن تفاصيل غزو برسباي لجزيرة قبرس، انظر : حامد زيان : المماليك، القاهرة ٢٠١١م، ص١٤٣-١٤٤.

- الطرائد : جمع، والمفرد طريده، وهي سفينة صغيرة سريعة الحركة، أكثر ما كان يحمل عليها الخيل. انظر درويش النخيلي : السفن الحربية، ص٨٩؛ سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية، ص٣٥٣-٣٥٤.
- الأغربة : جمع، والمفرد غراب، وهو من المراكب البحرية شديدة البأس، استعملها المسلمون والفرنج على السواء، ومنه الصغير والكبير حسب عدد مجاديفه، ويقول ابن مماتي أنه يطلق عليها أيضًا اسم " شيني ". انظر قوانين الدواوين، ص٣٤٠؛ انظر أيضًا: درويش النخيلي : السفن الإسلامية، ص١٠٤-١٠٥.

([74]) فاطمة حسن وقاد: دور الأسطول المصري في الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، آداب القاهرة ١٩٩٨م، ص٢١٦-٢١٧. وعن تطور استخدام النفط عند المسلمين، انظر: طارق منصور ومحاسن الوقاد: النفط: استخدامه وتطوره عند المسلمين ٦٤-٩٢٣هـ/٦٨٤-١٥١٧م، ص١٢-١٧.

([75]) هو سيف الدين كهرداس المنصوري، لصُق باسمه لقب الزراق فصار يقال له كرداس الزراق، يقول عنه ابن حجر: " كان ذكيًا فطنًا له عناية بالكتب العلمية "، تولى أمر قيادة الأسطول الذي

أما تلك النار الحارقة، فقد اختفى استخدامها شيئًا فشيئًا، خاصة بعد اتساع استخدام البارود في القرن التاسع الهجري / الرابع عشر الميلادي والخامس عشر الميلادي(٧٦).



توجه لغزو جزيرة أرواد عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، توفى عام ٧١٤هـ/١٣١٤م. وجزيرة أرواد تقع بالقرب من ساحل بلاد الشام قبالة انطرطوس (طرطوس حاليًا). انظر: اليونيني: نيل مرآة الزمان، أبو ظبي ٢٠٠٧م، ج٢، ص٦٨١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، القاهرة د.ت، ج٣، ص٣٥٥-٣٥٦.

(76) ستفين رنسيمان : الحضارة البيزنطية، ص١٨٣.

العروض العسكرية وفنون القتال في العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٥٠م)

د. فاتن محمد البنداري الشيخ (*)

أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة إلى معرفة الأساليب المتبعة لفنون القتال داخل الجيش العباسي منذ قيام الدولةالعباسية وحتى نهاية العصر العباسي الأول، وصولاً للحقيقة التاريخية الخالصة في ضوء ما نصت عليه المصادر الأصلية وأمهات الكتب في هذا الصدد، عن الجيش العباسي في ذلك الوقت، الذي فرض القوة والمهابة بين أرجاء الدولة الإسلامية والعالم من حولها.

أهمية الدراسة :

تقدم الدراسة التطورات التي تمت داخل الجيش الإسلامي في العصر العباسي من حيث التنظيمات العسكرية وفنون الحرب والقتال ومدى تميز الجيش الإسلامي في ذلك الوقت بالقدر الذي يوضح بالدراسة أن الجيش العباسي قد سبق عصره خاصة في أمر القيادة والتنظيمات العسكرية وجمع بين التكتيكات العسكرية من حيث الحركة ومواجهة العدو ومن حيث فنون القتال المختلفة والاستطلاعات العسكرية ودورها في إتمام النصر، هذا مما استرعى اهتمامنا بالدراسة.

تقديم :

تعريف موجز عن الجيش[1] وتطوره في العصر العباسي الأول.

من المعروف أن طرق القتال قبل الإسلام كانت عن طريق الكر والفر.

أما القتال في الإسلام زمن الرسول ﷺ كان وفقاً للآية الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[2].

حيث يكون قتالهم منظم على هيئة الصفوف كما هو الحال في الصلاة ولكل منهم دوره ومهمته.

كما أن القتال في الإسلام عرف بالجهاد في سبيل الله وذلك لإعلاء كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(*) أستاذ مساعد التاريخ والحضارة بالمعهد العالي للسياحة والفنادق بالإسكندرية

كذلك فإن القتال(٣) في الإسلام له ضوابطه وأخلاقياته، فالمسلم لا يقاتل حباً في القتال، ولا يقتل شيخاً ولا امرأة ولا يقطع شجرة ولا يقتل راهب في صومعته، فهو لا يقدم على القتال إلا بعد خيارات ثلاثة يعرضها على العدو، فإذا كان الأمر وقد وقع اختيارهم على القتال، وجب أن يلتزم الجيش بأخلاقيات الإسلام عند القتال.

تطورات النظم العسكرية :

بلغ أمر التنظيمات العسكرية في العصر العباسي تطوراً كبيراً لما اختص به من الدقة والحنكة العسكرية، يتضح ذلك من خلال دراسة النظم الخاصة بقيادة(٤) الجند وتعبئة الجيش(٥)، وفنون الحرب والقتال، وبالقيام بالمقارنة ، اختلفت التنظيمات العسكرية وفنون القتال في العصر العباسي وما كان عليه في العصر الأموي، حيث كان القتال في العصر الأموي يعرف بنظام "الكراديس" أي الكتائب بمفهوم الوقت الحالي أو الوحدات القتالية، فيقسّم الجيش عند تعبئته العسكرية إلى خمس وحدات رئيسية، وهي المقدمة والمؤخرة أو الساق والميمنة والميسرة والقلب أو الوسط في حين كانت التنظيمات الخاصة بتعبئة الجند داخل الجيش العباسي موضوع الدراسة، فهوأكثر تطوراً للنظم العسكرية الإسلامية بشكل ملحوظ، حيث قسم إلى قسمين رئيسيين، وهما الفرسان(٦) والرّجالة(٧).

وبالتتبع بالدراسة ثبت أن التطورات العسكرية للجيش الإسلامي في العصور الإسلامية المختلفة التى جاءت عقب العصر العباسي قد أسست على النظم العسكرية للدولة العباسية مع التعديلات اللازمة لكل عصر.

فكان كل تطور أو تعديل في جيش العدو يقابله تطويراً وتعديلاً في تعبئة الجيش الإسلامي بالقدر الذي يحقق معه النصر والتميز.

قيادة الجيش :

اتبع خلفاء بني العباس تنظيمات عسكرية شديدة الدقة والصرامة، سار عليها قواد الجيش العباسي، فتنوعت تلك النظم الخاصة بقيادة الجيش ما بين نظم خاصة بأنواع القيادة ومنها ما هو خاص باختيار القائد نفسه، خاصة وأن الجيش العباسي كان له دور بارز في الحفاظ على حدود الدولة الإسلامية التي بلغت حدودها من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي في الغرب.

لذلك يعد نظام القيادة في الدولة العباسية من أهم التنظيمات العسكرية داخل الجيش، ويطلق على من يتولى القيادة لقب "أمير الجهاد" (٨)، سيراً على نهج الرسول ﷺ أول قائد للمسلمين.

عرف أمير الجهاد في العصر العباسي باسم "كبير القواد" و "قائد الجيش" وظهرت تسمية الجيش الإسلامي قولاً وعملاً في العصر العباسي الذى كان يشتهر باسم "المقاتلة" كذلك تنوعت وتعددت(٩) مهام قائد الجيش العباسي، فمنها ما يعرف بالقيادة العامة أو القائد العام

للجيش من حيث تصريف جميع الأمور ويتلقى تعليماته من الخليفة مباشرة، ومنها ما هو خاص يتولى أمر الجند في مهمة محددة ،أو أمر الجيش فيما يخص سياسة الجيش وتدبير الحرب.

ولعظم مهام القائد استوجب ذلك أن يتحلى بصفات(١٠) عدة تتوافق وطبيعة المهام الموكلة إليه.

لذلك نجد من المسميات الخاصة بالقائد في العصر العباسي ما يوضح دوره وأهميته، فكان من القواد من يطلق عليهم "الأمراء" أي "أمير الجيش" وهي مرتبة رفيعة داخل التنظيمات العسكرية للدولة العباسية، فكان اللواء يعقد لأمير الجيش، كما أن اللواء لا يعقد إلا بإعداد غفيرة من الجند وهم جميعهم تحت إمرة أمير الجيش، الذى يزيد أعداد ما لديه من جند وغلمان عن باقي القواد داخل الجيش العباسي، ويفهم مما تقدم بالدراسة عن تطورات القائد ومهامه من واقع الألقاب الخاصة بالقائد داخل الجيش العباسي ليصبح للقائد أو من يتولى القيادة في العصر العباسي عدة مسميات أهمها : قائد الجيش – كبير القواد – عظيم الجند – والي الحرب – مدبر الدولة.

أهم الصفات التي يجب أن تتوافر فيمن يتولى قيادة الجيش :

١ – أن يكون قد عرف عنه بولائه للعقيدة الإسلامية لضمان واتباع الأخلاقيات الإسلامية.

٢ – حسن السياسة(١١) والتدبير، مع حسن التصرف خاصة عند اختيار التوقيت المناسب لملاقاة العدو لما لذلك من أهمية كبرى في تحقيق النصر.

٣ – التمتع بالمهارة واتخاذ القرار وكتم الأسرار العسكرية مع المحافظة على أخلاقيات الفارس.

وفضلاً عما سبق كان على القائد القيام بالمهام التالية :

١ – رفع راية الإسلام خاصة عند مناطق الثغور المطلة على بلاد الروم.

٢ – تسيير الجيوش للذود عن البلاد من خطر الأعداء والطامعين في أملاك الدولة العباسية.

٣ – تقسيم الغنائم(١٢) وفقاً للشريعة الإسلامية.

٤ – الحفاظ على سلامة الجند من مباغتة العدو.

٥ – بث القوة والثبات لدى الجند ورفع معنوياتهم عند الشدائد والصبر عند القتال مع التحلي بخلق الإسلام عند ملاقاة العدو.

يتضح مما سبق أن للقائد دور كبير في إدارة الجيش العباسي بصفة خاصة حيث ذاع صيت الجيش العباسي في ذلك الوقت، بالقدر الذي فرض القوة والمهابة للدولة الإسلامية بصفة عامة وللدولة العباسية بصفة خاصة، واتضح ذلك منذ قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م وتجلى هذا الأمر منذ عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس ومن أتى بعده في ذلك الوقت ويمكننا تحديد ذلك بالدراسة أن العصر الذهبي الحقيقي للدولة العباسية وأوج ازدهارها منذ

عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م إلى عام ٢٣٢ هـ / ٨٦١م وإن اتصف الجيش العباسي بعد هذه الفترة بالمهابة والقوة واحتفاظه بأملاك الدولة العباسية.

مما سبق يتضح أن القيادة داخل الجيش العباسي لعبت دوراً هاماً ليس فقط داخل الجيش، بل اشتمل دورها على استمرار قيام الدولة العباسية من عدمه.

وبالتتبع لأحوال الجيش العباسي ونظمه العسكرية نجد أن منصب "مدبر الدولة" لم يتمتع به القادة العرب بصفة عامة منذ أن أسقط المعتصم العنصر العربي من ديوان الجند.

كما حظي بهذا المنصب عناصر أخرى داخل الجيش العباسي خاصة الفرس والأتراك، مما أدى إلى ضعف الخلافة العباسية فيما بعد.

أشهر قواد الدولة العباسية :

يعد خلفاء بني العباس موضوع الدراسة كانوا من أهم وأشهر قواد الدولة العباسية.

كما كان القائد العباسي أبو مسلم الخراساني بمثابة أمير الجيش، كذلك القائد العباسي قحطبة بن شبيب، والقائد عيسى بن موسى، وعبد الله بن على عم الخليفة أبو العباس والمنصور، كذلك القائد يزيد بن مزيد الشيباني، وكان يوجه من قبل الخلافة العباسية فيما يخص المشرق الإسلامي في كثير من الأحيان وإن كان ذلك ليس بشكل مطلق، كذلك فيما يخص المغرب الإسلامي هناك القائد هرثمة بن أعيين، والقائد يحيى بن خالد بن برمك، وعلي بن عيسى بن ماهان، وشراحبيل بن معين، وداود بن عيسى. وجميعهم من كبار قواد بني العباس في التوغل إلى بلاد الروم وحماية الدولة العباسية.

ومن القواد أيضاً الفضل بن الربيع كبير قواد الدولة العباسية وهو من العنصر العربي في الجيش الإسلامي وله صولات وجولات ويعد من أهم وأشهر القواد في ذلك الوقت.

الجند داخل الجيش العباسي :

يمثل الجند داخل الجيش العباسي القوة الرئيسية داخل التنظيمات العسكرية ويأتي في المرتبة الثانية بعد قيادة الجند مباشرة، حيث مر أمر الجند داخل الجيش العباسي بمراحل عديدة وتطورات كان قوامها ارتباط أمرهم بالسياسة العامة للبلاد من ناحية والاتجاهات الخاصة بخلفاء بني العباس واهتماماتهم وسياستهم في إدارة شئون الدولة العباسيةمن ناحية أخرى، وعلى ذلك اختلف أمر الجند في العصر العباسي من خليفة لآخر خاصة من حيث :

١ – البناء البشري للجيش العباسي.

٢ – الأرزاق والعطايا المقدمة للجند.

وفيما يخص البناء البشري عماد الجيش العباسي، فقد مر بعدة تطورات.

ففي بداية قيام الدولة العباسية ،اعتمدت على عدة عناصر كونت البناء البشري للجيش، كان قوامها العنصر الفارسي، إلى جانب العنصر العربي حتى عهد الخليفة هارون الرشيد، ثم تحول الأمر عقب نكبة البرامكة من الاعتماد على العنصر الفارسي إلى العنصر العربي داخل الجيش العباسي نوعاً ما إلى نهاية عهد الرشيد.

واستمر شأن العنصر العربي يضعف داخل الجيش العباسي تدريجياً لعدة أسباب، منها ما كان من أمر التنافس بين عناصر الجيش الأخرى والعنصر العربي خاصة الفرس، فكان كل منهم يحاول الاستئثار بالنفوذ والصلاحيات على حساب الآخر.

وبعيداً عن المنافسات ، وفي إطار التطورات الخاصة بالبناء البشرى للجيش في العصر العباسي، حيث أصبح العنصر الفارسي اكبر العناصر المستخدمة عقب مقتل الأمين وتولي المأمون، فضلاً عن كون أم الخليفة المأمون فارسية الأصل، إلا أنه يجب أن لا نغفل تأثر المأمون بمدبر دولته يحيى البرمكي الفارسي الأصل ومدى تأثره عليه منذ نشأته حيث رباه على حب الفرس، تماماً كما فعل الفضل بن الربيع العربي الأصل مع الأمين، إلا أن ما يؤخذ على فترة تولى الأمين فيما يخص الجند داخل الجيش العباسي، اتباعه لسياسات أضرت بنظم الجيش العباسي، خاصة عندما استخدم مأجورين[١٣] من البلاد داخل الجيش العباسي نظراً لما كان من أمر فتنة الأمين والمأمون وما ترتب عليها من سوء للأحوال العسكرية في ذلك الوقت، وهو تطورا سلبيا طرأ على أمر الجيش العباسي وانتهى مع استقرار الأحوال السياسية زمن المأمون عقب عام ٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م.

أما يتعلق بالاستحداثات العباسية في أمر الجند داخل الجيش العباسي، فقد خصص للجند ما عرف في ذلك الوقت بالمدارس الحربية لتدريب وإعداد الجند منذ الصغر وفي حقيقة الأمر نرى أنها من أهم التنظيمات العسكرية الخاصة بالجند في الدولة العباسية، فكان الإعداد الجيد للجند من حيث فنون الحرب والقتال واستخدام الأسلحة القتالية والدفاعية بمختلف أنواعها، ويقوم بالإشراف على تدريبهم كبار قادة الجند، حيث تشير المصادر أن العصر العباسي هو عصر التدريبات العسكرية، والمدارس الحربية.

العروض العسكرية :

اعتنى خلفاء بني العباس بأمر العروض العسكرية[١٤]. فكان موكب خلفاء بني العباس يعد من أشهر العروض العسكرية بشكل عام، فيركب الخليفة جواده في موكب عظيم ومن حوله قواده العسكريين وجنوده الذين يمشون بين يديه، واستمر ذلك حتى عهد الخليفة الهادي، فكان إذا ركب لأمر العروض العسكرية كان الجند يمشون بين يديه حاملين أسلحتهم بكمال هيئتها، ومن ثم طور ذلك الخليفة هارون الرشيد ليصبح الأمر أكثر تنظيماً ومهابه، ومن ثم من أتى بعده من خلفاء بني العباس، فكان المشهد العام للعروض العسكرية يظهر بتمام هيئة الجند خاصة في مواكب العيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى.

أما ما يوضح فرض المهابة وقوة الجيش تلك العروض العسكرية عند تسيير الجيوش حاملين الرايات السوداء شعار العباسيين، وكان لأمر العروض العسكرية داخل الجيش العباسي لها من الأهمية القدر الكبير، وذلك لأكثر من هدف : في مقدمتها، فرض الرهبة في النفوس تأكيداً على قوة الدولة العباسية.

والأمر الآخر الاحتفاظ بقوة الجند وعدم الركون إلى الراحة وقت السلم، فالعروض العسكرية بمثابة التجديد لقدراتهم العسكرية واستعراض لمواهبهم القتالية، ومن ناحية أخرى، تعد تأكيداً على تمام السلاح ومعدات القتال ولياقة الجند.

فنون القتال :

١ – الاستطلاعات العسكرية :

كان أمر الاستطلاعات العسكرية في غاية الأهمية، حيث اعتنى خلفاء بني العباس بأمر الاستطلاعات ،لما لها من دور كبير في إنجاح العمليات العسكرية خاصة وأن عمليات الاستطلاعات العسكرية من المكونات الأساسية للنظم العسكرية العباسية.

وكان من صميم عمل الاستطلاعات، إرسال فرق عسكرية بمثابة عيون للجيش العباسي ، متنكرين في زي التجار أو غيرهم دون الزي العسكري، كما أن دورهم لا يقصد منه الاشتباك مع العدو حتى وإن سمحت الظروف بذلك، بل يقتصر عملهم في القيام بدور العين الثاقبة لنقل حقيقة أمر العدو من حيث الاستعدادات والتجهيزات العسكرية أو الأماكن المراد السيطرة عليها أو تأمينها، ثم العودة بجميع ما تم إنجازه إلى الدولة العباسية أو مقر قائد الجيش مع استيفاء الأخبار وتقصي الحقائق وإبلاغها للقائد في سرية تامة، وهو أمر اشتهرت به الدولة العباسية فيما يخص فنون الحرب والقتال[١٥] وأمر الاستطلاعات العسكرية[١٦] وعليها يتم فرض الفروض وتجهيزات الجيش.

٢ – التعبئة وتقسيمات الجند في العصر العباسي :

اشتمل الجيش العباسي على قسمين رئيسيين، لكل منهما دوره داخل الجيش[١٧] وهما : الفرسان – الرّجالة.

أولاً : الفرسان :

كان لفرق الفرسان دوراً أساسياً، فهم عماد الجيش والعامل الرئيسي في تحقيق النصر، ووفقاً لوضعهم عند تعبئة الجيش، كان كبار الفرسان وأمهرهم في المقدمة وبعضهم في الميمنة والميسرة وجزء آخر من الفرسان مهمتهم تأمين الجيش وإحكام السيطرة على العدو، أما موقع القائد فيكون في القلب أي وسط الجيش لسماع أوامره وتنفيذ تعليماته، كما عرف في العصر العباسي من يتقدم في تلك التقسيمات ليصبح بعد فرق المشاة مباشرة يعرف بالمقدم ومن يتبعه يسمى الرّديف.

وكما كان للفرسان مواضعهم وتقسيماته ومهامهم[١٨] داخل الجيش، كذلك كان لهم أسلحتهم الدفاعية والوقائية التي تختلف عن أسلحة الرجالة أو المشاة، فهي أخف في الوزن وأقصر في الطول لسهولة الحركة والقتال وهم على ظهور خيولهم، كذلك كانت ملابسهم الوقائية تختلف من حيث الطول عن ملابس فرق الرجالة، فعملوا على تأمين الفارس وفقاً لوضعه وأسلحته.

ثانياً : الرجالة أو المشاة :

قامت فرق المشاة في العصر العباسي بالعديد من الأدوار الهامة سواء داخل الجيش عند القتال أو في أوقات التهدئة بين صفوف الجند وإخماد ثوراتهم.

والرجالة داخل الجيش لا تقل أهمية عن فرق الفرسان، فموقعهم في مقدمة الجيش، أي موقع الصدارة بالنسبة إلى التقسيمات الخاصة بالجيش العباسي.

وكما اختلفت مهمتهم داخل صفوف الجيش ،من حيث التصدي المباشر لأولى اشتباكات العدو، كذلك تختلف الأسلحة الخاصة بفرق الرجالة من حيث كونها أطول من أسلحة فرق الفرسان، مثل الرمح والسهام وغيرها من أنواع الأسلحة الدفاعية، أما من حيث الأسلحة الوقائية كالدروع التي تصد ضربات السهام والسيوف، فهي أكبر حجماً عن دروع الفرسان نوعاً ما، كذلك الرداء الواقي مثل الجواشن، كان أقصر من جواشن الفرسان [١٩] نوعاً ما نظراً لطبيعة دور كل منهماوفقا لنظم فنون الحرب والقتال.

كما اتبع الجيش العباسي العديد من الخطط الهجومية والدفاعية عند القتال ، ويتضح ذلك من المصطلحات الخاصة بفنون الحرب والقتال في ذلك الوقت، مثل عمل "المكامن" أو "الكمين" و "الثبات" أيضاً التتبع و "الزحف" و"البيات" و"التدابير" و"الاستعدادات" و "فرض الفروض".

وعن ذلك تشير المصادر عن فتح عمورية سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٨ م بقولها : علم المعتصم من عيونه المنتشرين .. أن إمبراطور الروم قد كمن شهراً لملاقاة الجيش .. وبدأ الخليفة يستعد، فاستدعى الجيوش وتجهز جهازاً مما يوضح ذكر بعض المصطلحات العسكرية في الجيش العباسي[٢٠].

توصيات الدراسة:

أولاً : توصي الدراسة بالحفاظ على التراث العسكري الإسلامي و العمل على جمعه، لإيضاح التطورات التى مرت على الاساليب و المفاهيم والنظم العسكرية عبر العصور، خاصة من حيث الرتب العسكرية وتطوراتها والمصطلحات الخاصة بالتعبئة والمصطلحات الخاصة بالأسلحة وانواعها واستخداماتها واماكن صنعها عبر العصور.

ثانياً : العمل على إقامة فهرس عسكري يشمل المصطلحات العسكرية الخاصة بالعصور الإسلامية المختلفة، تماماً كما هو قائم بالنسبة للمعجم العسكري الموحد بأجزائه الأربع (عربي –

إنجليزي)، (إنجليزي – عربي)، (فرنسي – عربي)، (عربي – فرنسي) باعتماد من لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش الصادر من جامعة الدول العربية وبإشراف مجمع البحوث العربية.

هذا ونسأل الله التوفيق، ومهما يكن فإنه من عمل البشر والكمال لله وحده، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وكفى بربك هادياً ونصيرا.



الهوامش

(1) الجيش : لفظ يطلق على الجند أو جماعة الجند عند اجتماعهم لمواجهة العدو.

(2) القرآن الكريم : سورة الصف، آية ٤.

(3) نزلت آية الإذن بالقتال على الرسول الكريم ﷺ في الفترة المدنية من البعثة النبوية الشريفة في سورة الحج : آية ٣٩ ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾.

(4) قيادة الجند : الماوردي ؛ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، طبعة دار الفكر ١٩٨٣، ص ٣٢.

(5) تعبئة الجيش : ابن خلدون – المقدمة، ص ٢٢٤ – ٤٢٩.

(6) الفرسان : أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ ٣ ص ٩٠-١٠٠.

(7) الرّجالة، أبو المحاسن : المصدر السابق، ص ١٠٤-١٣٠.

(8) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ ١ ص ٤٨٤، ٤٨٥ ؛ المقدمة : ص ٢٠٣، طبعة بيروت. اختص بنو العباس بالرايات ذات اللون الأسود شعاراً لهم، فكان اختيارهم لهذا اللون حزناً على شهدائهم من بني هاشم في قتلهم ولذلك سموا بالمسودة، ولما كان عهد المأمون حول إلى لون الخضرة، فجعل رايته خضراء. ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٥٥.

(9) مهام قائد الجيش : ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ ٧ ص ١٩٧. مكتبة الإسكندرية.

(10) صفات قائد الجيش : المصدر السابق، نفس الجزء، .

(11) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ٢٢٣ ؛ ابن قتيبة : عيون الأخبار – كتاب الحرب، ص ١٥.

(12) سورة الحشر : آية ٧ ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

(١٣) الغنائم : المفرد غنيمة، وهي كل ما يصل للمسلمين عن طريق القتال، فيؤخذ عنوة، والغنائم عكس الفئ : فهو كل ما يصل للمسلمين دون حرب أو قتال، كأن يفر أصحاب الأرض عنها فهي فئ للمسلمين وصل دون قتال ومال الغنيمة والفئ يقسم وفقاً للشريعة الإسلامية طبقاً لقوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (سورة الحشر : آية ٧) أما نصيب الرسول الكريم، فإنه بعد وفاته ذهب إلى بيت مال المسلمين لأن الأنبياء لا تورث (الماوردي – الأحكام السلطانية، ص ١١٠).

(١٤) عن المأجورين من الجند زمن الأمين – وكيبيديا الموسوعة الحرة .

(١٥) ابن قتيبة : عيون الأخبار : كتاب الحرب، ص ١٠٩.

(١٦) فنون القتال والتعبئة العسكرية، فالتعبئة في اللغة من عبأ : أي رتبتهم في مواضعهم وهيأتهم للحرب (ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب، جـ ١، مادة عبأ.

(١٧) الاستطلاعات العسكرية : ابن قتيبة – عيون الأخبار – كتاب الحرب، ص ١١٢.

(١٨) فاتن محمد الشيخ، الجيش فى مصر فى العصرين الطولـونى والاخـشيدى ، ص ١٦٤ ومـا بعدها، دار العالم العربي للطباعة والنشر ٢٠٠٩م.

(١٩) عن مهام الفرسان : أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة، جـ ٤، ص ٩٠، ٩٢، ١٠٠، ١٠٥.

(٢٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ طبعة عالم الكتب ص ٢٦٣ وما بعدها.



قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على

- الكامل فى التاريخ ، جـ٧ ، دار صادر للطباعة والنشر،بيروت ١٩٦٥م.

أبو المحاسن : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى :

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، المجلد الأول ، جـ ٤ ، ط دار الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٦م .

الماوردى : أبو الحسن على بن حبيب البصرى البغدادى

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٣ .

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى .

- عيون الأخبار ، كتاب الحرب ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٩٦ .

ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم

- لسان العرب : جـ ١ ، مادة عبأ .

ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى :

- البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، بيروت ، ١٩٨٢م .

ابن خلدون عبد الرحمن :

- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨٣ .
- المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨٣ .

فاتن محمد البنداري الشيخ :

- الجيش في مصر في العصرين الطولوني والأخشيدي، دار العالم العربي، القاهرة ، ٢٠٠٩ .
- ــــــــــــ : الثورات العسكرية في مصر زمن المأمون وأثرها على السكة المغربية المصرية ، بحث منشور بجامعة سيدي محمد بن عبد الله ، تازة ، المغرب ٢٠١٢ .

وكيبيديا :

- الموسوعة الحرة ، الجند زمن الخليفة الأمين العباسي، البوابة الإلكترونية.
- WIKIPEDIA : Appasid Claiphate, m.n. wikiped.org\wiki\ appasid_chaiphate.
- www.Accademia.edu\936860\troops\the\armies\lf\the\appasid\claiphate.
- Encyclopedia of Islamic Military History.


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

التشريعات الأولية المنظمة لهيئة الفرسان الداوية وأثرها في الحرب ضد المسلمين

٥٢٣-٥٨٣هـ/١١٢٩-١١٨٧م

د. محمد فوزي رحيـل (*)

كانت جماعة الفرسان الداوية؛ من أهم الجماعات الدينية العسكرية التى ظهرت في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، وقد نشطت هذه الهيئة بشكل لافت للنظر في حرب المسلمين، وهو ما واجهه المسلمون بكل شدة، بما تناسب مع الخطر الذي شكلوه، ففي أعقاب نصر حطين المشهور، عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ضرب صلاح الدين الأيوبي أروع الأمثلة في التسامح والعفو، عند المقدره، عن عامة الصليبيين، غير أنه أمر بالفتك بكل من وقع في يد المسلمين من الفرسان الداوية[١]. وحين فتح الظاهر بيبرس صفد، عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م، أمر بضرب رقاب كل من كان بها، وكانت عدتهم ألفاً من الداوية [٢]، برغم التزامه بوعود الصلح التي قطعها حين فتح حصون كانت تابعة لطوائف غير الداوية، مثل يافا عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م[٣]. الأمر المشترك هنا هو العداء للداوية، برغم الفارق الزمني بين صلاح الدين وبيبرس، والرغبة الخالصة في القضاء عليهم، وهو أمر يدعو للتساؤل ويحتاج إلى تفسير.

والحقيقة إن الدراسات عن الداوية كثيرة في الشرق والغرب على حد سواء[٤]. غير أن الاهتمام بالنواحي التشريعية، أو بالدراسات المرتبطة بقوانين هيئة الفرسان الداوية، في عالمنا العربي نادرة إلي حد كبير، ولعل السبب الأساس لغة هذه المصادر التي كتبت غالبا بالفرنسية القديمة[٥].

وبحثنا هذا ينصب بصورة أساسية على القانون الأساس للفرسان الداوية وأثره في الحرب مع المسلمين، وسوف يختص بالفترة التي امتدت من نشأة الداوية عام ٥٢٣هـ/١١٢٩م، حتى حطين عام٥٨٣هـ/١١٨٧م، تلك الفترة التي حكمتها التشريعات التى عرفت بالقوانين الأولى للفرسان الداوية، والصادرة في مجمع تروي **Troyes** عام ١١٢٩م، أما الفترة التالية من حطين وحتى٦٩٠هـ/١٢٩١م فلها ظروف مختلفة، إذ شهدت تطورا تشريعياً لا يتسع المجال، في هذا البحث، للتعرض له، لكن نشير إلي إنها كانت، في مجملها رغم كثرتها تطويراً لما وجد في القانون البدائي[٦].

(*) باحث حاصل علي درجة الدكتوراه.

وعلى هذا فالبحث يعالج عدة نقاط هي: مدخل مختصر عن نشأة الفرسان الداوية، ثم مبررات صدور تشريعات الداوية، وظـروف صـدورها، وروافـد هـذه القـوانين، وموقـف المعاصرين من مزج الرهبنة بالفروسية، بعدها نتعرض لأهم أقسام هذه التشريعات، وأخيراً أثرها في حروبهم مع المسلمين، في بلاد الشام، خلال الفترة المذكورة.

ظهرت هيئة الفرسان الداوية عام٥١٢هـ/ ١١١٨م، استجابة لتحدٍ عانى الـصليبيون منه بعد استقرارهم في الساحل الشامي، تمثل في نقص القوة المدافعة عن مملكة بيت المقدس الصليبية، وهو ما أدى إلي فقدان الأمن على الطرق داخل المملكة، وبخاصة طريـق الحجـاج الصليبيين من الساحل الشامي إلي القدس(٧)، مما أفسح المجال لجماعات المقاومـة الـشعبية للإيقاع بهؤلاء الحجاج، ونهب ما يحملون، وقتل من يمكنهم قتله(٨). كما أن جماعات المقاومة في ذلك الوقت كان من العسير عليها التمييز بين الحاج القـادم لزيـارة المنـاطق المقدسـة والمقاتل القادم لمساندة الكيان الصليبي، خاصة أن الصليبيين أنفـسهم اعتبـروا أن حملـتهم الصليبية رحلة حج، لكنه كان حجاً مسلحاً(٩). ونتيجة لتعـرض الحجـاج لأعمـال المقاومـة، وخصوصاً في طريق يافا القدس، فقد اتفق تسعة من الفرسان الفرنسيين المتحمسين؛ على أن يكرسوا أنفسهم للعمل على حماية الحجاج ، وكان على رأس هؤلاء الفرسان : هيو دي بـاينز Hugh de payens وجودفري دي سانت أوميـر Godfery de st. Omer ، وعـرض هؤلاء الفرسان الفكرة على جورموند Gaurimond بطريرك بيت المقدس الكاثوليكي؛ فرحب بالأمر لما يكفله نشاط هؤلاء الفرسان من حماية للحجاج(١٠).

وعرض البطريرك الأمر على ملك بيت المقدس بلدوين الثـاني Baldwin II ٥١٢-٥٢٥هـ/١١١٨-١١٣١م، الذي قبله على الفور، وبخاصة أن هذه الهيئة سوف تساعده فـي محاربة المسلمين، وحماية طرق الحجاج، وهو ما مهد لتأسيس أكبر هيئـة دينيـة عـسكرية صليبية في الشرق، حملت اسم فرسان المعبد، أو الفرسان الداوية(١١). ومن الجدير بالـذكر أن لفظ الداوية جاء نسبة لمحراب داود – عليه السلام(١٢).

وتشجيعاً من الملك بلدوين للفرسان فإنه منحهم جزءاً من قصره لإقـامتهم، وجـزءا آخر لأداء شعائرهم الدينية، نظراً لفقرهم وعجزهم عن تدبير مأوى لهم، وكان هذا القصر هـو المسجد الأقصى الشريف الذي اعتقد الصليبيون أنه هيكـل سـليمان، فـسموه Palais de Salomen أو Templum Solomonis وهو المبنى الواقع جنوب قبة الصخرة الـشريفة Dome of the Rock (١٣)، كما منحهم بعض الرهبان المقيمين في المسجد الاقصى سـاحة مفتوحة ليقيموا فيها مكاتبهم، وقدم لهم البطريرك وبعض من النبلاء، عددا من الهبـات علـى سبيل المعونة(١٤).

وقد توفرت العديد من المبررات لسن تشريعات تنظم أمور الفرسان الداوية، فبـسبب طبيعة الحرب الصليبية التي قامت أساساً بمباركة البابوية، لم يكتف بموافقة ملك بيت المقدس حتى يحصل الفرسان الداوية على الصبغة الشرعية وذلك لأمور ثلاثة: أولها أن التنظيم الجديد أو الفروسية الجديدة New Knighthood تختلف عن باقي فرق الجيش الصليبي التي قامت

أساساً على النظام الإقطاعي(١٥)، ومصدر الخلاف أن عناصر هذا التنظيم أساساً من الرهبان، وهذه الطائفة لم يسبق لها حمل السلاح بالمعنى العلماني في التاريخ المسيحي من قبل(١٦)، ومن ثم، فأي تغير في مهام الرهبان كان لا بد له من موافقة السلطة الدينية الأعلى في العالم المسيحي ألا وهي البابوية الكاثوليكية في روما.

والحقيقة: أن يكون الراهب جندياً؛ ليس أمرا جديدا على المسيحية، غير أن هذه الجندية كانت جندية مجازية، تتحول الآن إلى أمر واقع(١٧). وفي التحليل الأخير فقد مزجت الفروسية الجديدة بين اثنين من المثل التى سادت العصور الوسطى في أوربا وهما: الديرية والفروسية، والهدف من ذلك السعي للسمو بطبقة الفرسان وتطهيرهم من أدران الفروسية العلمانية؛ التى تنافس أعضاؤها فيما بينهم على السلب والنهب، متجنبين الدفاع عن الأرامل والأيتام(١٨)؛ ليظهر الراهب المقاتل أو الأخ الداوي أو فارس المسيح المتخصص في كنس الأرض، أو سفك دم غير المؤمنين به، وبخاصة المسلمين، دون الشعور بالإثم(١٩). الأمر الثاني: رغبة ملك بيت المقدس في أن يكون تمويل التنظيم الجديد من أوربا، تخفيفاً عن اقتصاد مملكة بيت المقدس الهش، وكان ذلك واضح في رسالة الملك بلدوين الثاني لبرنارد من كليرفوBernard of Clairvaux لتدشين الهيئة(٢٠)، وهذا لا يتأتى إلا بموافقة البابا. وقد تحقق ذلك بالفعل - وأكده وليم الصوري William of Tyre(٢١) وروجر من وندوفر Roger of Wandover(٢٢) وغيرهما - فمنذ وقت مبكر من اكتسابهم للشرعية تمكنوا من حيازة أملاك واسعة فاقت بعض ثروات الملوك المعاصريين. وثالثاً وأخيراً: تقنين أوضاع هيئة الداوية بما يضمن تنظيم أحوالها وتجديد حقوق وواجبات الأخوة الداوية، بما يضمن الإفادة منهم، بدرجة عالية، تتوافق مع المبادئ التي أنشئت من أجلها.

كما تعددت الاسباب التى حفزت البابوية لصبغ هذه الهيئة بالصبغة الشرعية، وفي مقدمتها: دور الهيئة العسكري في حماية الحجاج في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الصليبيين. بجانب تأكيد دورها، الذي لا ينكر، في تواجد واستمرار مملكة بيت المقدس الصليبية. غير أن السبب الأكثر أهمية، من وجهة نظري، يتمثل في تعويض الخسارة المعنوية التي منيت بها البابوية حين قامت مملكة بيت المقدس على أساس إقطاعي، وليس أساساً دينياً (ثيوقراطياً)(٢٣). ومن ثم فإن نشأة هذه الهيئة الجديدة برعاية البابوية جعلت لها يداً قوية ومؤثرة في الممتلكات الصليبية في الساحل الشامي، وقد قويت هذه اليد بتوالي نشأة الهيئات الدينية وصبغها بالصبغة لعسكرية. ويمكننا تلمس هذا التأثير في مواطن كثيرة، من أكثرها شهرة معارضة الداوية، وغيرها من الهيئات الدينية، لحملة الإمبراطور فردريك الثانيFrederick II ٦١٧-٦٧٤هـ/١٢٢٠-١٢٥٠م، المشهورة بالحملة الصليبية السادسة ٦٢٥-٦٢٦هـ/١٢٢٨-١٢٢٩م، التى خرجت دون موافقة البابوية(٢٤).

أما عن ظروف صدور تشريعات الفرسان الداوية الأولية، ففي ظل سعي الداوية للحصول على الصبغة الشرعية تدخل الملك بلدوين الثاني، وسعى لدى البابوية بشكل غير مباشر؛ لتقنين وضع هذه الهيئة الجديدة على المجتمع المسيحي، التي حمل أعضاؤها صفة مزدوجة، حيث كانوا رهباناً ومقاتلين في آن واحد. وكانت واسطة بلدوين الثانى في

المفاوضات برنارد من كليرفو؛ الذي كان أشهر الرهبان السسترشيان Cistercian [٢٥]، في زمانه[٢٦] وتدخل لدى البابا هونوريوس الثاني Honorius II ٥١٨-٥٢٤هـ/١١٢٤-١١٣٠م، ليوافق على منح الهيئة مباركة البابا، وهو ما يسر عمل الهيئة إلي حد كبير، خاصة في أمري التجنيد وجمع المال من شتى بقاع أوربا. وسعياً إلي نجاح المؤتمر قام برنارد من كليرفو بتأليف كراسة حملت عنوان "في الثناء على جمعية الفرسان الجديدة" De laude novae militia أثنى فيها على قضية مزج الرهبنة بالفروسية الحقيقية، وهما ضدان، لكن برنارد أكد على أن طبيعة الراهب سوف تسمو بطبيعة الفارس[٢٧].

وقد نجحت جهود برنارد من كليرفو في دعوة البابا لعقد مجمع ديني في تروي Troyes بفرنسا، في٢٠ من المحرم٥٢٣هـ/١٣ من يناير عام١١٢٩م[٢٨] وحضره جمع غفير من رجال الدين والعلمانيين، وفي مقدمتهم البابا هونوريوس وبرنارد من كليرفو رئيس دير السسترشيان، كما حضر هيو باين مقدم الفرسان الداوية، ولفيف من أعضاء الهيئة[٢٩]. وسمح لهيو بايين بعرض أهداف الهيئة وأهميتها في صمود مملكة بيت المقدس أمام المسلمين، وبعد عدد من الكلمات والمحاوارت، قام برنارد من كليرفو بوضع الصياغة النهائية لتشريعات الفرسان الداوية الأصلية ، والمكونة من ٧٢ مادة شملت جل النواحي الضرورية الواجب الالتزام بها؛ لتحقق الهيئة الهدف الذي أنشئت من أجله الفروسية الجديدة[٣٠].

وفيما يتعلق بالروافد التي كانت مصدراً لهذه التشريعات: فقد جلس هيو بايين ومرافقوه مع برنارد من كليرفو قبل مجمع تروي لصياغة مسودتها، وبحكم أن الداوية رهبان مقاتلون، كان لا بد من وجود تأثيرات ديرية وتأثيرات عسكرية، وبفحص ظروف كتابة التشريعات ثم التشريعات نفسها، ندرك أن ثمة روافد ثلاثة لهذه القوانين، يمكن رصدها على النحو التالي:

الرافد أول: يمثل أعراف الداوية في السنوات التسع الأولى من عمر الهيئة، لا ندري عنها شيئاً، لكن وجودها كان أمراً ملموساً صرح به وليم الصوري[٣١] فقد عاش في القدس هيو دي بايين وفرسانه حسب القانون المعتاد، حيث أقسموا أيماناً على العفة والفقر والطاعة. ويمكن أن نجد شاهداً آخر يدعم وجود قانون قديم للهيئة في الخطاب الذي أرسله بلدوين الثاني إلي برنارد أوف كليرفو، في ٢٩ من رمضان ٥٢٠هـ/ ١٥ أكتوبر عام ١١٢٦م، والذي طلب بلدوين فيه أن يساعده برنارد للحصول على قانون "واضح للهيئة"، وكذلك يحصل على تصديق على دساتير الهيئة[٣٢] ، غير أن محتوى هذه القوانين مازال غير معروف، وفي تقديري أنه مجموعة من الأعراف تم سنها خلال السنين التسع الأولي من عمر الهيئة حسب المستجدات كما أرجح أنها مرتبطة إلي حد كبير بالنواحي العسكرية.

الرافد الثاني : القوانين الديرية البندكتية[٣٣] وتطوراتها السسترشيانية، وهذه التأثيرات شيء طبيعي في ظل الطابع الرهباني للهيئة[٣٤]، ويوضح تحليل بنود التشريعات مقدار هذا التأثير وخاصة في أمور العبادة، وإدارة منزل الداوية، وتقديم الطعام، ورفض قبول الصبية في الهيئة وطاعة المقدم، وكذلك ما يتعلق بالعقوبات[٣٥]. وبجانب التأثيرات البندكتية فمما لاشك فيه أن برنارد من كليرفو قد أضفى صبغة سسترشيانة على القوانين، بحكم انتمائه واهتمامه بالدعاية

الصليبية، وهو ما دفعه لتقريظ الهيئة في مدح الفروسية الجديدة(٣٦). ولعل رداء الداوية الأبيض أبلغ دليل على هذا التأثير، لأنه نفس رداء الرهبان السسترشيان(٣٧).

الرافد الثالث : مقترحات أعضاء المجمع الذي ضم عدداً كبيراً من رجال الدين والعلمانيين(٣٨) وعلى رأسهم البابا نفسه. ويبدو أن هذا القانون قد قرأ عليهم، وأبدى الحضور وجهات نظرهم فيه ثم عهد إلي برنارد وعدد من المساعدين بوضع الصيغة النهائية للتشريعات التي وصلت إلينا(٣٩).

هذا وقد تباينت مواقف المعاصرين حول تأسيس هيئة الفرسان الداوية: ذلك أن بعض المعاصرين لنشأة الداوية انتقد الفكرة بالكلية، حتى من الرهبان السسترشيان أنفسهم، الذين خرج منهم برنارد من كليرفو ليقدس هذه الجريمة، ومنهم اسحق من ليتوال Isaac – رئيس دير السسترشيان في بواتو – والذي اعتبر أن الفرسان الداوية إنجيل خامس أي منبوذ وغير شرعي، ووصف هيئة الداوية بأنها الوحش الجديد Novum Monstrum ، كما وافقه في رأيه هنري Henry of Huntington رئيس شمماسة هنتنجدون، الذي وصف الفروسية الجديدة عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م، بأنها نوع جديد من الوحوش، يجمع بين الطهارة والفساد، غير أن هذه الآراء لم تجد من يسوقها اعلامياً بشكل مناسب، وكانت النتيجة أن ارتفع صوت المؤيدين الأثرياء الممتلكين لآلة الإعلام القوية(٤٠). ومن بينهم هيو الآثم Hugh the Sinner وهو شخص لم تحدد هويته على وجه التحديد، وقد كتب خطاباً حمل عنوان "خطاب لفرسان المسيح في معبد القدس" وجهه للفرسان الداوية يحضهم على التمسك بطريقهم من أجل المسيح، وعدم السماع لمن يوسوس لهم الشيطان بأن طريقهم طريق مرفوض، وأوضح لهم أن هذا الطريق سوف يؤدي بهم للسكينة والسلام، لأن الرب يرعاهم(٤١). وهنا رأت كثير من الجماعات التى نشأت في مناطق مختلفة من العالم المسيحي، وبخاصة في بلاد الشام إبان الغزو الصليبي، أن تنتهج نفس النهج لتستفيد من الميزات الاقتصادية والروحية التى تمتعت بها هيئة الداوية، وفي مقدمة من اقتدى بهم الاسبتارية(٤٢) والتيوتون(٤٣) وغيرهما.

وقد تكون القانون الأساس للفرسان الداوية من مقدمة واثنين وسبعين بنداً، وفي المقدمة: تؤكد التشريعات على أن المهمة الأساسية للفرسان الداوية القتل من أجل المسيح(٤٤). وهو ما أكده فيما بعد حنا من سالسبوري John of Salisbury [45] بأن مهنة الفرسان الداوية الأساسية سفك الدم البشري(٤٦). وسفك هذا الدم كان شيئاً محبباً للفرسان الداوية، وخاصة مع إجازة وتشجيع برنارد من كليرفو الذي أكد في مدح الفروسية الجديدة أن: "جندي المسيح آمن إن هو قَتل وأكثر أمناً إن هو قُتل، فهو إن قتل، وذلك لمصلحته، وإن قتل يقتل لأجل المسيح"(٤٧). وقد وصف توماش ماستناك(٤٨) هذا التشجيع من قبل برنارد بأنه: "تقديس للجريمة".

وبصفة عامة لم ترتب بنود التشريعات على أساس موضوعي، لكنها متداخلة مع بعضها في الموضوعات إلي حد كبير. وحتى تكون الصورة واضحة: يمكن تقسيم بنود هذه التشريعات إلي عدد من الموضوعات، كالتالي:

نتعرض في البداية للبنود المرتبطة بالمقدم الذي كان رأس الجهاز الإداري لهيئة الفرسان الداوية؛ ومن ثم شدد القانون على ضرورة طاعته طاعة عمياء من قبل كل من انتسب للهيئة بشكل دائم أو مؤقت، بحيث يجري كلامه مجرى القداسة وكأنها أوامر إلهية(٤٩).

وكان من حق المقدم: منح التصريح بتبادل المتعلقات القيمة بين الأخوة، مثل الفرس أو أدوات الحرب(٥٠).كما سمح القانون للمقدم بتقديم الخيول والأمتعة لأي من الأخوة بالعدد والمقدار الذي يراه مناسباً لمصلحة الهيئة، كما يجب على المقدم ألا يغضب من تقديم هذه الأشياء قلت أم كثرت(٥١). وقد أُعفي المقدم من ضرورة قراءة الرسائل التي يتلقاها من أقاربه أو والديه، لأنه المنوط به فعل ذلك من الأعضاء، بجانب أنه أعلى سلطة في الهيئة، وهو المسئول عن تطبيق القانون بها(٥٢).

وللمقدم أن يدعو مجلس الداوية لأي أمر يراه ضرورياً، مثل وجود نزاع أو قبول اخ جديد، وإذا أراد مشورة المجلس فليدع الجميع للحضور، وبعد أن يستمع المقدم لمجلس الهيئة، يتخذ القرار النهائي دون معارضة أحد، وبرر القانون ذلك بأنه الأفضل والأعقل(٥٣).

و اللافت للنظر أن القانون لم يتضمن الطريقة التي يختار بها المقدم، وهو الأمر الذي حدا بالبابا أنوسنت الثاني Innocent II ٥٢٤-٥٣٧هـ/١١٣٠-١١٤٣م، أن يصدر مرسوماً بابوياً، في ٢٩من رجب ٥٣٣هـ/٢٩مارس ١١٣٩م، يحدد فيه أسس اختيار المقدم، تاركاً لهيئة الفرسان الداوية وحدها الحق في انتخاب قائدها الأعلى، دون أي تدخل خارجي، ومنح للمقدم وحده سلطة تغيير نظم الهيئة بعد استشارة المجمع العام. وكان اختياره يتم من قبل هيئة مكونة من ١٣ عضوا من الداوية، منهم ثمانية فرسان وأربعة من الرقباء وقسيس. وكان شخص المقدم يختار بشكل أساسي من المقيمين في الشرق. ومع توسع الهيئة وزيادة مهام القائد صار له هيئة مساعدة تكونت من اثنين من الفرسان، ورقيب، وقسيس، وتركبولي، وبيطري، وطباخ وسكرتير. وكان من حق المقدم الحصول على أربعة خيول، يختارها بنفسه، من الخيول الواردة حديثاً من أوربا، أو من غنائم الحرب(٥٤).

وكانت السلطات المطلقة، لمقدمي الفرسان الداوية، سبباً في كثير من التصرفات غير اللائقة، كما دعتهم للغرور، لعدم وجود رقيب عليهم إلا الله، بحكم القانون، كما رأينا، وهو ما دعا مؤرخاً مثل وليم الصوري(٥٥) إلي أن يكتب العبارة التالية، معقباً على أسر أودو من سانت أماند في موقعة مرج عيون، ٥٧٥هـ/١١٧٩م، قائلاً: "كان أودو هذا رجلاً دنيئاً متعاظماً متكبراً مغروراً، قد ملأ الشر منخرية، فهو لا يخاف الله ولا يراعي إنساناً، وينسب إليه الكثيرون الخسارة التى نزلت بالمسيحيين في ذلك اليوم، ووسموه بميسم الخزي والعار الأبدي بسبب هذه الكارثة، ويقال انه مات خلال هذه السنة أسيراً في سجن قذر، فلم يحزن أحد لموته".

وقد التزم الداوية بطاعة المقدم، حتى لو كانت في غير صالح الهيئة مثلما حدث في موقعة صفورية، ٥٨٣هـ/١١٨٧م، حين أصر جيرار ريد فورت، مقدم الهيئة، على مهاجمة

المسلمين وبالرغم من إدراك الفرسان القدامى للخدعة التى نصبت لهم، فإنهم شاركوا في الهجوم طاعة للمقدم وقد اسفر هذا التهور عن نتيجة كارثية(٥٦).

أما عن التجنيد في قوانين الفرسان الداوية الأساسية؛ فقد كان قبول الفرسان من أهم أولويات الهيئة، نظراً للحاجة الدائمة للتزويد بدماء جديدة، في ظل عدم انقطاع نزيف الدم بين المسلمين والصليبيين، قبل حطين وبعدها، بجانب اتساع دور الهيئة تدريجياً من حماية الحجاج، للمشاركة في مساندة جيش المملكة، إلي العناية بعدد ليس بالقليل من الحصون المهددة لأمن الصليبيين(٥٧)، ومن هنا كان التجنيد من أهم الأمور التي لقيت عناية من المشرع ، غير أن التشريع ميز بين نوعين من العضوية الدائمة والعضوية المؤقتة كالتالي:

النوع الأول كان الفارس الدائم الذي يندمج كلياً في الهيئة فيصير راهباً فارساً، وبالتالي نص القانون على أنه إذا رغب أي من الفرسان العلمانيين الانضمام للهيئة؛ فإنه لا يقبل على الفور، لكن يتمهل مجمع الأخوة في قبوله، حيث يقرأ عليه قانون الهيئة أولاً، فإذا قبله أمام المقدم، فليجمع الأخوة ويطلب الفارس الانضمام للهيئة في حضورهم جميعاً ، ويترك بعدها فترة تحت الاختبار، ليقرر المقدم قبوله أو رفضه(٥٨). والجدير بالذكر أن أهم مناطق التجنيد كانت في الغرب، وإن اندمج البعض في الهيئة ممن أتى للحج، وبقي في الشرق، وسفك دمه على يد المسلمين، ولم يعد إلي بلاده مثل الفارس جيرارد ريد فورت الذي جاء من الغرب، وعمل في خدمة ريموند الثالث أمير طرابلس، ثم تركه، وانضم لهيئة الداوية ووصل لدرجة المقدم(٥٩).

أما النوع الثاني من العضوية، فهو الفارس المؤقت الذي يتقدم للخدمة في صفوف الفرسان الداوية، لمدة من الزمن بشكل مؤقت وليس دائماً، وبمعنى أكثر صراحة المرتزقة الذين يقاتلون من أجل المال. وقد طلب المشرع من هذا الفارس المؤقت أن يشترى الخيول المناسبة للمشاركة في الأعمال الحربية، وما يلزم هذه الخيول من أمتعة، مثل السرج واللجام وغيرها، بجانب شراء السلاح المناسب، وكل ما يمكن أن يعينه في عمله. وقبل البدء في الخدمة على هذا الفارس، وممثل الهيئة، أن يقدروا ثمن كل هذه الاشياء بشكل غير مبالغ فيه، مع تقدير ثمن طعام الفارس وما يحتاجه من خيول، ويدون جميع ذلك في وثيقة يمكن أن تكون وثيقة تأمين، بحيث إذا فقد الفارس فرسه أو متاعه، في أثناء الخدمة، تلتزم الهيئة بتعويضه بشكل مناسب، مثل تعويضه فرساً بفرس وعدة بعدة، وإذا ما اقترب موعد نهاية الخدمة؛ فليتنازل الفارس المؤقت عن نصف ثمن خيوله، ويتسلم الباقي من خزانة الهيئة(٦٠)[بند٣٢]. وشدد القانون على ضرورة طاعة هؤلاء الفرسان للمقدم طاعة عمياء، بحيث يمتثلون لكل أوامره، طالما هم في خدمة الهيئة، وطلب منهم عدم النزول لمدينة القدس إلا ليلاً للصلاة في كنيسة القيامة، وذلك إن أذن لهم المقدم أو من يقوم مقامه حال غيابه، ويجب عليهم عدم السفر ليلاً، إلا إذا توفرت لهم الرفقة الآمنة، خشية تعرضهم للخطف أو القتل، كما حتم عليهم الامتناع عن التجوال داخل دير الداوية لأي سبب، مثل الزيارة لأحد الإخوة أو تفقد المرضى دون إذن مسبق، كذلك أكد المشرع على الالتزام بقرار المقدم عدم خوض الحرب، أو تركها بناءً على الهوى، لكن بنا على أمر المقدم، والذي يجري كلامه مجرى القداسة.(٦١).

كما حث قانون الداوية المقدم على: عدم التردد في قبول من يريد أن يصير فارساً مؤقتاً في الهيئة حتى لا تتلقفهم باقي التيارات التي رأت الكنيسة الكاثوليكية أنها غير قويمة(٦٢). ومما لا شك فيه: أن اتساع مهام الهيئة حتم التوسع في الاستعانة بالمرتزقة، لسد العجز في الفرسان الدائمين الذين هم قلة، بسبب طبيعتهم وما يفرض عليهم من قيود.

وقد أوصى مجمع تروي هيئة الفرسان الداوية بعدم قبول الاطفال في الهيئة، حتى يشتد ساعدهم ويتمكنوا من حمل السلاح، لإبادة أعداء الكنيسة، على أن يتم ذلك بناء على طلب من ولي أمر الفتى أمام جمع من الهيئة، مع التأكيد على أن قبول قسم التبعية في الرجولة أفضل من الطفولة، حتى يكون قرار العضو نابعاً من إرادته، وليس مفروضاً عليه(٦٣). من هنا يتضح أن المشرع منع الهيئة من الانشغال بتربية الصبية؛ في ظل المهام الجسام التي تزايدت على الهيئة بشكل تدريجي، بجانب ما يترتب على قبول هؤلاء الصبية من تبعات تربية، وإقامة واجبة، ومعاش، وهو ما يزيد من الضغوط الاقتصادية على الهيئة، في ظل قلة الموارد عند نشأة الهيئة، وإقرار هذا القانون. وفوق ذلك فإن الفصل ٣٣ من النظام البندكتى رفض قبول رهبنة الصبية في قانونه وهو من أهم روافد تشريعات الداوية(٦٤).

وسعياً من المشرع لتأمين الهيئة من الناحية العددية، ورغبة في تحسين وضعها المالي، فقد سمح القانون للمتزوجين بالانضمام إليها، على أن يكونوا من أصحاب الثروة، وإذا ما قبلت الهيئة عضويتهما، حينها يلتزم الزوجان بالتبرع بجزء من أملاكهما، وفي حال وفاة الزوج فليترك معظم ماله للهيئة، وما يتبقي منه يترك لتنفق منه الزوجة حتى تلحق به، وقد ألزم القانون الأخوة الداوية المتزوجين أن يعيشوا في مكان منفصل ربما خارج الدير الذي خصص للرهبان دون غيرهم (٦٥).

وقد أقر المشرع إرسال مندوبين من قبل الهيئة إلي مختلف المناطق في أوربا، للترويج للهيئة والحث على الانضمام إليها والتبرع لها، ومن ثم قنن المشرع أوضاع هؤلاء المبعوثين ، فقد طلب منهم المجمع أن يكونوا قدوة ومثلاً في الالتزام بالقانون، في كل حالاتهم، حتى لا تسوء سمعة الداوية بين الغرباء، فلا يسمح لهم بسلوك مشين يدنس سمعة الهيئة قولاً أو فعلاً. كما شدد القانون على: ضرورة أن يكون البيت الذي يقيم فيه الأخ المراسل مضاء طوال الليل، حتى لا يتسرب الشك للمقيمين قربه بأن به ما يشين سمعة الداوية، وبخاصة استقبال النساء، بجانب اعتبارات الأمن، حتى يمكن كشف الخصوم أو المتربصين بسهولة في الضوء. كما سمح القانون للإخوة المرسلين، فيما وراء البحار، أن يتقبلوا المتطوعين الراغبين في الانضمام للهيئة، على أن يتم ذلك في حضرة أسقف الإقليم، حتى يكون شاهداً على هذا التطوع. وبعد ذلك يرسل الطلب إلي المقدم في القدس، فإذا ما قبلت سيرته، لدى الأخوة والمقدم، يصير من الأخوة، وخلال تلك الفترة إذا مات الأخ يحصل على كل الحقوق كالأخوة القدامى(٦٦).

وبالرغم من صرامة هذه البنود، وعدم التهاون فيها، إلا أن المتغيرات السياسية والعسكرية كان لها تأثيرات شديدة الأهمية، من حيث تطبيق هذه البنود، ففي عام ١١٨٠م/٥٧٦هـ، وبسبب النقص الكبير في عدد الفرسان الداوية، في أعقاب هزيمتهم على

يد صلاح الدين الذي فتح قلعة بيت جبريل في العام السابق، وقتل عدداً كبيراً منهم فقد أمر البابا ألكسندر الثالث بعدم التشدد في تطبيق قواعد قبول الفرسان الجدد(٦٧).

وفيما يتعلق بالأمور العسكرية: فقد حتم قانون الداوية على أعضاء الهيئة – دائمين أو مؤقتين – ضرورة التقشف، وعدم المبالغة في التزين، فلا يستخدم الذهب والفضة في أدوات الفرس؛ من أزمة ومهاميز وصفائح الصدر والركبات، كما لا يجوز لأي من الداوية شراء هذه الأشياء على الإطلاق، لكن إذا أهديت لهم هذه الاشياء، وكانت قديمة أو غنمت في الحرب، فيسمح باستخدامها، كما حذر القانون المقدم من تقديم هذه الاشياء للفرسان، وبخاصة إذا كانت جديدة(٦٨). ومنع القانون من صنع الأغطية للرماح والدروع والسهام، وفسر ذلك بأنها أشياء غير مفيدة وضارة للجميع (٦٩). كما حتم القانون عدم تبادل أدوات الحرب دون إذن المقدم(٧٠). ومن الجدير بالذكر أن برنارد من كليرفو، في مدح الفروسية الجديدة، قد شدد النكير على الترف في استخدام الملابس التفاخرية، والجياد المغطاة بالحرير، والأسلحة ذات النقوش والزخارف المرصعة بالذهب والأحجار الكريمة وتسائل "أهي شارات عسكرية أم حلى نسوانية؟"(٧١)، ومن هنا نبه لهذه الأمور حال صياغته للقانون.

كان من الطبيعي أن يهتم المشرع بأمر الخيل، لأنه لا يمكن أن يكون الفارس فارساً دون امتلاك الخيل واستخدامها في الحرب، ومن ثم حدد القانون عدد الخيول المسموح بها للفارس الداوي بثلاثة خيول فقط نظراً للوضع الاقتصادي في بداية تاريخ الهيئة. لكن يمكن زيادة العدد إذا رأى المقدم أن في ذلك مصلحة للهيئة. ولا يسمح للفارس بأكثر من تابع واحد للظرف الاقتصادي(٧٢). وفي حالة استعانة الفارس بتابع من خارج الهيئة، يخدمه بلا أجر، لكن من قبيل عمل الخير، لا يسمح له بعقابه أو إيذائه عن أي خطأ يرتكبه دون قصد(٧٣). وفيما يخص أكياس علف الخيل، فقد قصر القانون اتخاذها على الصوف والكتان، وأغلق القانون باب الاستثناء في هذا الأمر [٧٤] وذلك نوع من التبسط وعدم المبالغة في استخدام الأقمشة الثمينة في صناعة أكياس العلف، كنوع من التفاخر.

كما أوكل المشرع للمقدم أمر التعويض عن خسائر الفرسان، فمن يتعرض لفقد فرسه، أو متاعه، أو مرض فرسه أو عرجه أو هزاله، بحيث لم يعد يستطيع حمل أمتعته وأدواته الثقيلة، يتقدم بلطف للمقدم، أو من يحل محله ليعرض عليه الأمر، ثم يترك بعد ذلك له الفرصة لتقدير الموقف واتخاذ القرار بالتعويض أو عدمه[٧٥]. ومن الجدير بالذكر أن فارس العصور الوسطى كان ثقيل التسليح، فقد كان يرتدي سترة حديدية، ويحمل عدداً من أدوات الحرب، مثل السيف والرمح والبلطة وغيرها، ويحتاج لسرج ولجام ومهماز، وكل ذلك يوضع فوق الحصان، ومن ثم تطلب الأمر فرساً قوياً ضخماً، قادراً على حمل كل هذا الثقل، حتى لا يسقط الفارس من فوقه، وإذا ما حدث كان الفارس يتجرد من ميزته النوعية، ويصير فوق الارض كالسلحفاة، سهل المنال لأي جندي من المشاة، إذا لم يسرع أحد أعوانه للنهوض[٧٦]. ومن هنا اعتنى المشرع بأمر الخيل، خاصة وأن هيو بايين أول مقدمي الهيئة كان من أهم أهداف رحلته لأوربا عام٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، بجانب حضور مجمع تروي لتدشين قانون الهيئة، أن يؤمن احتياجاتها من الخيل حيث عقد عددا من الاتفاقيات مع الجمهوريات التجارية الايطالية، لتيسير

نقل الخيل للساحل الشامي(٧٧). ومما لا شك فيه: أن أمر تعويض الفارس عن الخيول التي يفقدها، لأسباب مختلفة، كان سابقاً على قانون التامين على الخيل لدى السلطات العلمانية الذي لم يسن قبل عصر عموري الأول على وجه التقريب(٧٨).

كما شدد المشرع على ضرورة التزام الجميع بأوامر المقدم بصرامة، وتنفيذ هذه الأوامر وكأنها أوامر إلهية، فلا يتصرف أحد حسب هواه ولكن حسب التعليمات، فلا يقاتل أو ينصرف عن القتال إلا بأمر من المقدم أو من ينوب عنه، بجانب عدم الاختلاط بالناس، وعدم نزول المدينة إلا ليلا لكنيسة القيامة للصلاة، بجانب عدم السفر بلا حراسة مناسبة(٧٩). وإمعاناً في الانضباط: حتم القانون عدم تبادل المتعلقات الثمينة دون إذن المقدم، أو إذن من يعينه، لكن إذا كانت هذه الأشياء تافهة قليلة القيمة فلا بأس(٨٠). كما منع التشريع الفرسان من ملكية أو استخدام المحافظ ذات المزالج ، ولا يحتفظ أي منهم بأي من هذه المحافظ إلا بناء على تصريح مسبق من المقدم، ويعفى من ذلك لمقدم والحجاب في الأقاليم(٨١).

كما كان يجب على أي فرد من الهيئة عدم مبادلة أي شيء من أشيائه؛ دون إذن المقدم أو من يقوم مقامه(٨٢). ومن يقدم له شيئا من الأخوة، من أحد خارج الهيئة بلا مقابل، فليأخذ الشيء للقهرمان لينظر هل يقبله أم يرفضه، وإذا قدم أحد الأصدقاء أو الآباء شيئاً لأحد الداوية لاستخدامه الخاص، فلا يتسلمه إلا بعد الحصول على إذن المقدم، فيما عدا المقدم نفسه أو القهرمان[٨٣] فقد استثنيا من ذلك(٨٤).

ومنع القانون على الأخوة سرد ما وقعوا فيه من آثام، وخاصة الجسدية منها، أمام بعضهم حتى لا تحيي فيهم هذه الحكايات ما تجنبوه بالانضمام للهيئة من القسم على العفة والطهارة، وأمر المشرع الأخ الذي يسمع أحداً يتحدث في هذه الأمور أن ينسحب على الفور من المكان ، كذلك يجب على الأخ عدم تسليم أذنيه لمروجي الإثارة أياً كان(٨٥). ومما لا شك فيه أن كل هذه الامور تساهم في انضباط العضو من الداوية؛ كونه عسكرياً في المقام الأول، والانضباط أمر واجب في كل التصرفات.

وحرصاً من المشرع على الحد من تأثير العالم الخارجي على أعضاء الهيئة الدائمين؛ فقد وضع قواعد صارمة لإرسال وتلقي الرسائل دون إذن المقدم أو الحاجب، فإذا ما حصل على الموافقة فليقرأ الرسالة التى كتبها أمام أي من المذكورين، وإذا ما أرسل إليه أي شيء من والديه لا يقبل دون إذن مسبق(٨٦). وهذا البند من البنود المتأثرة بالقوانين البندكتية، إذ يكاد يتطابق مع الفصل ٤٤ منها(٨٧) وبالطبع هذا الأمر بالغ الخطورة بالنسبة لأي هيئة عسكرية، نظراً لخطورة المهام المكلفة بها، وحرصها على سرية كافة الأمور المتعلقة بالهيئة، وما يمكن أن يترتب على تسرب خطط او أسرار الهيئة من خطورة بالغة على الهيئة والصليبيين جميعاً، ناهيك عن التأثير السلبي الناتج عن اتصال الرهبان المقاتلين بالعالم الخارجي، من الانشغال بهموم هذا العالم، وعدم التركيز في الواجبات المفروضة على العضو من قبل الهيئة، وهو ما يخل بواجبات هذا العضو ويقلل من فاعليته.

وقد اهتم المشرع اهتماما بالغاً بقضية الملابس وفصلها منعاً للخلط. فقد حدد أن تكون العباءات بلون واحد، إما أبيض أو اسود أو بنى. وتخصص العباءات للفرسان المعترف بهم

في الشتاء والصيف، وذلك تميزاً لهم، مع تذكيرهم على الدوام بأنهم ولدوا من جديد حين انضموا للهيئة. وإمعانا في التذكير بالتواضع، رغب القانون في أن يقوم كل واحد من الأخوة بخلع ملابسه أو لبسها بنفسه، وكذلك لبس النعل. وإمعانا في ضمان تنفيذ ذلك؛ عهد لأحد الفرسان بمراقبة الالتزام بهذه التعاليم، بجانب توفير ملابس تتناسب مع حجم كل عضو في الهيئة، بحيث تكون لائقة حسب مقاس كل واحد. ويجب على الفارس الداوي تقديم الملابس القديمة للمختص، حين يتسلم الملابس الجديدة. وبعد ذلك توزع الملابس القديمة على الخدم والفقراء(٨٨).

وقد حرم القانون الخدم من ارتداء العباءات البيضاء، التى سعى جل المنتمين للهيئة، من غير الفرسان، لارتدائها دون الرجوع لمجمع فرسان الداوية، وذلك بغرض التفاخر وتحقيق مكاسب متنوعة، منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي، بل هناك ممن لا ينتمون للهيئة قد لبسوا ملابس الفرسان لنفس الغرض. ومن ثم حرموا من ارتداء اللون الأبيض، وسمح لهم بالبنى والأسود أو أي لون آخر، حسب المتوفر في الإقليم الذي يعيشون فيه(٨٩). وعلى هذا فلا يحق لغير الفرسان الدائمين فقط أن يرتدوا العباءات البيضاء (٩٠). والجدير بالذكر أن الصليب الاحمر المميز لزى الفرسان الداوية؛ لم يظهر على ملابس الداوية قبل عهد البابا يوجينوس الثالث، الذي منحه لهم أثناء الحملة الصليبية الثانية، عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م، تميزاً عن الآخرين(٩١).

وفي ظل برودة الطقس في الشتاء، سمح القانون بارتداء فراء الحملان والكباش دون غيرها من أنواع الفراء، ويحرم ما عدا ذلك من المعاطف والأغطية(٩٢). وحرصاً على العدالة، وحصول الجميع على ما يناسبهم من الملابس شدد القانون على ضرورة يقظة مسئول الملابس والتزامه بالعدل وتنفيذ القانون(٩٣) وبخاصة الطول والاتساع، كما ذكر من قبل، وتكرار ذلك يشي بالانفلات في هذا الجانب(٩٤). وشدد القانون على العدل بين الأخوة في توزيع الملابس، مع التأكيد على تجنب المحسوبية لأنها تفسد الأمور (٩٥). ونظراً للحرارة الشديدة التى يعانى منها سكان الشرق، فقد سمح القانون لأعضاء هيئة الفرسان الداوية بأن يرتدوا القمصان الكتانية في الصيف رحمة بهم، وحددت الفترة التى يسمح فيها بذلك: من عيد الفصح(٩٦) حتى عيد جميع القديسين(٩٧)، فإذا ما انقضى فصل الصيف فلا يرتدون سوى القمصان الصوفية(٩٨).

كما حدد لهم القانون نوع ملابس النوم، فيجب على الجميع أن ينام في قميص وسروال في مكان مضاء حتى الصباح. على أن ينام كل أخ على سرير فردي، بصورة فردية، ولا يسمح بخلاف ذلك إلا في حدود ضيقة، بموافقة المقدم، ويسمح لكل سرير بغطاء وفرش ووسادة، مع غطاء من الكتان أو القماش الثقيل(٩٩). وعملية الفصل بين أعضاء الهيئة، عند النوم، نتج عن إدراك المشرع لخطورة ما يمكن أن ينتج انتشار بعض الأمراض الاجتماعية بين الداوية، في حالة النوم الجماعي، خاصة الشذوذ الجنسي، هو مرض خطير انتشر على نطاق واسع بين الصليبيين في الشام؛ وهو أمر سعت مملكة بين المقدس للحد منه، منذ فترة مبكرة، كما في قرارات مجمع نابلس ٥١٤هـ/ ١١٢٠م(١٠٠).

وقد حتم القانون العناية بمظهر المنتمي للداوية، من حيث طول الشعر والاهتمام بالنظافة، بحيث يتم قص شعر الرأس بشكل منتظم من الأمام والخلف، كما حتم تهذيب اللحى والشوارب. مع المواظبة على النظافة في الظاهر والباطن، تطبيقا لتعاليم المسيح (عليه السلام)[١٠١]. كما حظر القانون ارتداء الأحذية ذات الأبازيم أو حتى امتلاكها. وبالنسبة للخدم: فقد منعوا من ارتداء الأحذية المدببة، ومن إطالة الشعر، أو تجسيم الملابس عليهم[١٠٢].

والملحوظ أن امر النظافة والاهتمام بها، بلا شك، هو من تأثيرات الشرق التى تأثر بها الصليبيون الأوربيون، فقد أفاضت المصادر في مدي قذارة وخشونة القادمين من الغرب، الذين نظروا للأوربيين المقيمين منذ فترة طويلة على انهم مخنثون أو انهم نساء[١٠٣]. ولعل رواية أسامة بن منقذ[١٠٤] عن الداوي القادم من الغرب، الرافض لصلاة اسامة تجاه القبلة، ومنع الداوية القدماء لهذا القادم، دلالة على حدوث نوع من تهذيب الأخلاق وعادات الصليبيين في الشرق، وأرجح ان هذا البند قد صيغ بسعاية واضحة من هيو بايين، حتى يكون امر النظافة مشروعا، ولا يستنكرة الأعضاء الجدد المنتمين حديثا للهيئة. لكن بصمة برنارد من كليرفو[١٠٥] واضحة هنا أيضا، وخاصة في أمر طول الشعر الذي استهجنه في مدح الفروسية الجديدة، حين أشار إلي أنه "من الصعب أن يري الفرسان وقد أرسلوا شعرهم كالنساء، كما أن الفرسان لا نفع منهم إن هم ارسلوا شعرهم على عيونهم بحيث لا يمكنهم الرؤية".

ونظم المشرع أمر تقبل الصدقات التى تقدم للهيئة، نظرا للحاجة الماسة لهذه الأموال لمختلف الأغراض، وعلى رأسها محاربة المسلمين. فإذا ما جاءت هذه العشور من الكنائس تقبل، لكن بعد موافقة المجمع العام للهيئة. أما إذا جاءت الأموال من عشور ثروات من يرد أن يتبرع بها من العلمانيين غير المحرومين ، وأصر على ذلك ، فإنه يتم بموافقة المشرف على المنطقة دون الرجوع للمجمع العام للهيئة[١٠٦]. وقد كان جمع الصدقات من الأمور التى تعرضت للنقد من قبل وليم الصوري[١٠٧] الذي أشار إلي أن جميع مناطق العالم المسيحي قدمت لهم أجزاء من ممتلكاتها، كما أنهم رفضوا أداء ما عليهم من واجبات مالية تجاه مملكة بيت المقدس بحكم ما آل إليهم من الإقطاعات التى يجب تقديم الضرائب والعشور عنها، إلا أنهم رفضوا ذلك.

وقد سمح القانون للهيئة أن تمتلك العقارات والأموال بغرض استخدامها في قتال المسلمين[١٠٨]. وفيما يتعلق بالملكية الخاصة: فقد حدد القانون أنه يجوز للقساوسة المنتمين للفرسان الداوية أن يحتفظوا، بصورة مؤقتة، بما يجتمع لديهم من الصدقات. ولا يسمح لهم سوى بامتلاك الطعام والملابس الضرورية، لكن للمقدم مطلق الحرية في منح أي منهم أي شيء حسبما يتراءى له[١٠٩]. وبناء على ذلك تقبل الداوية الهبات والعطايا في الشرق والغرب، حتى تفوقوا على الملوك في الثراء، وتغلب عليهم حب المال، حتى كرههم كثير من المسيحيين في الشرق والغرب، على حد سواء[١١٠].

أما عن أسلوب الحياة في دير الداوية، فبحكم أن الفرسان الداوية رهبان أولاً، ثم محاربين ثانياً، كان لا بد من الالتزام بالصلوات في ميعادها طبقا للتعاليم الكنسية، وبحكم أن مقر الهيئة في القدس فأداء الصلوات يكون بتوقيت هذه المدينة[١١١] وفي حالة تخلف أحدهم

عن أداء الصلاة في موعدها، بسبب الانشغال ببعض المهام، بعيداً عن مقرات الداوية مما يحول دون إتمام الصلاة في الوقت المناسب، فيجب عليه تعويض ذلك من خلال الصلاة ثلاثة عشر صلاة في باكر، وسبع في الصلوات الفردية، وتسع في المساء(١١٢) وبعد صلاة المساء يجب على الفرسان النوم، ولا يجب أن يتحدثوا معاً إلا لضرورة ملحة ، وإذا حدث فليكن ذلك بهدوء لكن يجوز للمقدم الحديث مع العدد الذي يرى أنه ضروري من الأخوة بعد الصلاة، وللوقت الذي يقدره. كما نهى القانون عن الثرثرة، ومن فعل وتسبب في ضحك الأخوة؛ يعاقب بأداء صلاة تكفيراً عن فعله على الفور(١١٣) وبسبب طبيعة عمل الفرسان ربما بسبب الرحلات الطويلة أو التدريبات القاسية أو المعارك أو المرض، يصاب الداوي بالإرهاق الذي يقعده عن صلاة باكر، هنا أجاز القانون للداوي ألا يحضر الصلاة إذا كان متعباً، وذلك بعد أخذ موافقة المقدم أو من ينوب عنه على أن يصلى ثلاث عشرة صلاة تعويضا عن هذا التخلف(١١٤) غير أن هذا القانون لم يصرح متى تتم هذه الصلاة.

ويبدو أن الداوية كانوا يطيلون الصلاة، وهو ما يصيب الكثير منهم بالإجهاد الشديد، مما يؤثر على أداء خدماتهم العسكرية، نظراً لأنهم محاربون بجانب كونهم رهبان، ومن ثم سمح القانون لهم بالجلوس أثناء سماع الصلاة، والوقوف عند بعض المواضع التي حددها القانون فقط(١١٥). هكذا نظم القانون أمر العبادة وما يتعلق بها ، ويبدو هنا تشبث المشرع الروماني بالتشدد في أمر العبادة؛ بحكم كونهم رهباناً أولا وفرساناً ثانياً، وبالتالي أصبح الالتزام بأداء الصلاة على وقتها أمرا واجبا.

كما حتم القانون على الهيئة العناية بالمرضى من الفرسان، أو من غيرهم من المنتسبين للهيئة، وأن يعتني بهم بكل صبرٍ وعناية، وذلك ابتغاء ثواب الرب(١١٦). وعلى كل الملتزمين برعاية المرضى أن ينتبهوا جيداً لهم بكل إخلاص وجدية، مع توفير كل ما هو ضروري لسرعة برئهم مما ألم بهم(١١٧). وبالنسبة للأمراض العادية، تم علاجها في أديرة الهيئة أما الجذام فقد سمح للفرسان الداوية المجذومين بالانتقال لهيئة إليعازر للفرسان المجذومين(١١٨)، أما كبار السن، فشدد المشرع على ضرورة رعايتهم ومعاملتهم بكل تبجيل واحترام، مع مراعاة تقديم كل احتياجاتهم لهم في الوقت المناسب، بما لا يخالف القانون العام للهيئة(١١٩).

ونظراً لطبيعة تكوين الهيئة، فإن أمر الموت كان حاضرا على الدوام، وبخاصة مع كثرة المعارك وحياة الجندية التي تحياها الهيئة، ناهيك عن الوفاة في الظروف الطبيعية، بسبب انقضاء الأجل أو المرض، ومن هنا صار على الإخوة الأحياء واجب تجاه الإخوة الأموات، وهو ما نظمه القانون بشكل مفصل، فإذا مرض أحد الداوية مرض الموت، يجب على زملائه الصلاة من أجله، مراعاة للزمالة. حتى إذا ما فاضت روحه إلي خالقها، يصلى له الأخوة كل يوم مائة صلاة لمدة سبعة أيام، نيابة عن المتوفى رغبة في خلاص روحه. كما شدد القانون على التصرفات غير المسئولة من الفرسان، والتى تتصف بعدم الحكمة في مثل هذه المناسبات(١٢٠). أما إذا ما كان المتوفى من الفرسان المؤقتين؛ فيجب أن يكلف أحد الفقراء بالصلاة من أجل خلاص روحه لمدة سبعة أيام. ويقوم كل واحد من رفاقه بالصلاة إحدى

وثلاثين صلاة من أجله(١٢١). على أننا نلحظ أن في بند الجنائز تمييزا واضحا بين الفارس الدائم والفرسان المؤقتين في مقدار الصلوات المقدمة لروح المتوفى، كنوع من امتيازات الفرسان الدائمين.

كما اهتم المشرع، اهتماماً بالغاً، بأمر بتنظيم أمور الطعام والشراب؛ حرصاً على مناسبة نوعية الطعام للجهد الكبير الذي يبذله الداوي، مع التمييز بين ما يقدم للفرسان وما يقدم لمن هم دونهم في الطبقة داخل الهيئة، فقد شدد القانون على ضرورة تناول الطعام في جماعة، وذلك في قاعة الطعام داخل مقر الهيئة، أو في أي من الأديرة التابعة. ومن يحتاج لشيء أثناء تناول الطعام فليكن ذلك بالوقوف والإشارة باليد، ثم الجلوس مع الانحناء تعبيرا عن الاحترام عند الجلوس للمنضدة(١٢٢). وقد حتم القانون تلاوة بعض القراءات من الكتاب المقدس أثناء الأكل، وإذا ما صدر صوت من أي من الأخوة أثناء الأكل، من حق القارئ أن يشير لمن صدر عنه الصوت ليصمت(١٢٣). وقد سمح القانون للداوية بتناول ثلاث وجبات من اللحم خلال الأسبوع، إلا إذا صادف ذلك يوماً من أيام الأعياد مثل ميلاد المسيح – عليه السلام – ويبرر هذا التحديد بأن كثرة أكل اللحم تضر الجسد. ويمنع تقديم اللحم إذا صادف يوما من أيام الصيام. وإن رأى القانون أنه من الأفضل أن يكتفي الفارس بوجبتين من اللحم، أما باقي الداوية، من غير الفرسان، فليكتفوا بوجبة واحدة(١٢٤). كما نص القانون على أن يأكل كل اثنين من الإخوة في طبق واحد، ولذلك أهداف عدة منها: توفير الصحاف القليلة لتكفي الجميع، بجانب زيادة الترابط والتعاون بين الداوية. وسمح لكل أخ بكمية من النبيذ توزع بالتساوي بين حضور تناول الطعام(١٢٥). أما في غير أيام تناول اللحم، وهي الاثنين والأربعاء والسبت، فقد سمح بتناول وجبتين من الخضار أو أي طعام آخر، مع توفير اكثر من نوع مراعاة لاختلاف الرغبات (١٢٦). كما أوصى القانون بصيام أيام الجمع، وبالتالي يقدم فقط وجبتين من الطعام الصيامي فيما خلا المرضى، أو إذا كان يوم الجمع مصادفا ليوم ميلاد المسيح، أو عيد السيدة مريم(١٢٧). وكنوع من الاقتصاد والتقشف وصى القانون بأن تجمع بواقي الطعام، فما تبقي من قطع الخبز تقدم للفقراء والخدم، أما الأرغفة السليمة فتحفظ لوجبات تالية(١٢٨). كما رغب القانون في التصدق اليومي بعشر نصيب الداوي من الخبز للفقراء، كما يأمر الإيمان المسيحي(١٢٩). كما سمح القانون للمقدم بأن يقدم للأخوة وجبة قبل صلاة الغروب، وله فيها أن يسمح لهم بتناول الماء وحده مع الطعام أو مزجه بالخمر بنسبة محدودة خشية حدوث ما لا تحمد عقباه إذا سكر الأخوة(١٣٠). وشدد القانون على العدل بين الأخوة في مقادير الطعام مع تأكيد على تجنب المحسوبية لأنها تفسد الأمور (١٣١).

وحتم المشرع على الإخوة مراعاة الحيطة والحذر في الحديث بعضهم مع البعض حتى لا يتسبب كلام أحدهم في إثارة غضب أخيه، وهو ما يؤثر في العلاقة بين الأخوة، التى يفترض أن تكون بالغة القوة(١٣٢). كما حضهم على تجنب الحسد والحقد والافتراء، ومن يقع في ذلك يقوم أحد إخوته بتنبيهه لخطورة فعله ، فإذا لم يستمع له يتولى أمر اصلاحه أخ آخر، فإذا ما احتقر الجميع وصمم على التمادى؛ هنا يتم توبيخه على الملأ أمام الأخوة جميعا(١٣٣).

ومن البنود السابقة يتضح أن لها اهدافا عديدة منها: تعميق روح الجماعة والأخوة من خلال المشاركة في الطعام والشراب. وكذلك توطيد مبدأ التواضع بين الفرسان في تعاملهم مع الجهاز الإداري للهيئة، وتأكيد روح التقشف بين الأعضاء وعدم الإسراف في تناول الشراب والطعام، وهذه الأمور بلا شك كان لها دور عظيم في فترات السلم، ودور أعظم في فترات الحرب والحصار، وما أكثرها في الصراع الإسلامي الصليبي.

وفيما يتعلق بالجرائم والعقوبات، فقد قرر المشرع أن من يتصرف ويخالف التعليمات، أو يسعى لعرقلة عمل الهيئة، يعرض على القضاء وينفذ فيه الحكم[١٣٤]. ومن تطبق عليه عقوبة الحرمان لا يسمح لأي من الاخوة أخذ أي من متعلقاته، وذلك خشية أن يصاب هو الآخر بلعنة هذا المحروم. لكن إذا كان قد قطع فقط فيسمح بزمالته والحصول على متعلقاته[١٣٥]. وإذا ما قام أحد الداوية بارتكاب بعض المخالفات البسيطة، بسبب القول أو الفعل، فليذهب بنفسه للمقدم ويطلب منه العفو. وفي هذه الحالة يمكن عقوبته بغرامة مالية خفيفة. لكن إذا اصر الداوي على خطئه واشتهر عنه بين مجمع الهيئة، ولم يشعر بالإثم على فعله، فلتطبق عليه عقوبة شديدة. أما إذا كان الخطأ فاحشاً فليمنع من مشاركة الإخوة في طعامهم، ويتناول طعامه وحده، ويسلم نفسه للمقدم لينفذ فيه ما يراه مناسباً[١٣٦].

وحذر المشرع من تفاخر الآثم بأثمه، وتبذل محاولات لإصلاحه، فإذا لم يتحسن حاله فلتطبق عليه عقوبة شديدة، لتكون زجراً لغيره حتى لا يفعلوا فعله الشنيع، وإذا لم تردع المجرم العقوبات المتنوعة، يتم صدور القرار بطرده من الهيئة إلى الأبد. كما وجب على المقدم أن يظهر سطوته وقدرته للجميع، وذلك حتى يردع من تسول له نفسه المخالفة، وفي نفس الوقت يكون عونا للضعيف فلا ييأس من العدل[١٣٧].

ويلحظ هنا التدرج في العقوبة من الزجر والنصيحة، والعقاب المخفف ثم الشديد، فإذا لم يجد كل ذلك فالطرد. ونلحظ هنا قلة بنود الجرائم والعقوبات، لكن نوضح أيضا أن الهيئة كانت ما زالت في مهدها والمستجدات او الجرائم لم تنتشر بشكل كبير، وهو ما احتاج لتعديل تشريعي مفصل[١٣٨] ظهر بوضوح بعد معركة حطين بسبب تزايد أهمية دور الهيئة في وقت تراجع دور المملكة[١٣٩].

وحظر القانون على الأخ الداوي الخروج للقنص مع صيادي الصقور ، لأن ذلك نوع من المباهج الدنيوية التى يجب تجنبها، على أن يقضي الأخ فراغه في الصلاة وسماع المواعظ والاعتراف[١٤٠]. كما منع الصيد في الغابات بالأقواس والنبال التي يجب ألا تطلق إلا على المسلمين لقتلهم، كذلك منع ملاعبة الكلاب أو اللعب بالحصان[١٤١]، أما الأسد فترك أمره لتقدير الأخ يقتله أم يتركه[١٤٢].

وحرص المشرع على عدم انخراط الداوي في لهو الطمانيين، على الرغم من أهمية هذا اللهو في التدريب العسكري، لكن يبدو ان المشرع ترك أمر التدريب للمقدم يقننه كيفما شاء، بعيداً عن لهو الطمانيين وما يمكن أن يسربه من مفاسد ، بدليل المهارة العالية للفارس الداوي في ساحات القتال، والتى أدركها أعداؤهم المسلمون، ومن ثم قدر هؤلاء الفرسان قدرهم، وتعاملوا معهم بما يتناسب مع قدراتهم القتالية. بجانب أن هذا اللهو يعطي الفرصة

للمتسللين المسلمين للإيقاع بالصليبيين في الاحراش والمناطق المعزولة، وخاصة في الفترة المبكرة من الوجود الصليبي[١٤٣].

وبعد استعراض التشريعات الأولية للفرسان الداوية، يمكن تحديد أثرها في الحرب مع المسلمين في محاور ثلاثة هي: المحور الأول: شراسة الداوية في الحرب لحد التهور: مما لا شك فيه أن دور تشريعات الداوية الأولية كفلت للهيئة نظاماً مستقراً على أسس ثابتة، ضمنت للهيئة الاستقرار في شتى أمور الحياة، بسبب النظام الصارم الذي فرض من قبل المشرع. كما كان لهذه التشريعات دور كبير في تشكيل الخلفية الفكرية للهيئة (الأيدولوجيا)، والتي بثت في أعضائها روحا قتالية عالية قوامها خوض المعركة قاتلاً أو مقتولاً ولا خيار ثالث، ويشهد تاريخ الحروب الصليبية في الشام على أن الفرسان الداوية كانوا أثبت فئات الصليبيين فى القتال، وأكثرهم صبراً وشجاعة، وقد اشتهر عنهم أنهم أول من يقتحم المعركة ، وآخر من يغادر ساحتها، وهو أمر لمسه بقوة الحجاج القادمون لزيارة القدس بقوة، ومنهم حاج مجهول زار القدس في النصف الثاني من القرن الثاني عشر[١٤٤]. كما أعجب بالداوية يعقوب الفتري Jacques de Vitry[١٤٥] الذي قال عنهم: "كانوا جنودا للمسيح يتميزون بالقوة والشجاعة ، ولهذا صاروا اشد الناس فزعاً لأعداء المسيح.

ويمكن رصد عدد من الوقائع التاريخية تثبت هذا التهور ومنها: أنه في أثناء الحملة الصليبية الثانية، عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م قاتل الفرسان الداوية بشراسة منقطعة النظير، ومن ثم اعتبرت سلطة مقدم الداوية في مرتبة تلى الملك[١٤٦]. وحين هاجم الصليبيون عسقلان، عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م، كان الداوية في المقدمة، واستغلوا ثغرة في السور، فاندفع الفرسان الداوية بكل تهور، ومعهم مقدمهم، ليقتحموا المدينة بغية أن ينالوا أفضل قدر من الغنائم، لكن قتلوا جميعاً[١٤٧]. ومن مظاهر تهورهم قيامهم بقتل رسول طائفة الإسماعيلية الحشاشية[١٤٨] العائد من سفارة للملك عموري الأول Amaury I ٥٥٨-٥٦٩هـ/١١٦٣-١١٧٤م، بالرغم من عهد الأمان الذي كان يحمله من الملك شخصياً[١٤٩]. كما كان لمقدم الداوية أودو من سانت أماند Odo of Saint Armand وثمانين من فرسانه، دور لا ينكر في هزيمة صلاح الدين على يد جيش صليبي قاده بلدوين الرابع Baldwin IV ٥٥٦-٥٨١هـ/١١٦١-١١٨٥م، في معركة تل الصافية (مونتجيسارد) ٥٧٣هـ/١١٧٧م[١٥٠]. كذلك كان لتهور هؤلاء الفرسان دور كبير في الهزيمة الثقيلة التى تعرض لها الصليبيين في مرج عيون، عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م، بسبب إقدامهم على مهاجمة جيش صلاح الدين، دون الانتظار للتنسيق مع باقي القوات الصليبية[١٥١]. وفي معركة عين كريسون، بين صفورية وكفر كنا، تهور مقدم الداوية ١٩ من صفر٥٨٣هـ/١ من مايو ١١٨٧م، وأقدم على الهجوم المباشر على قوات المسلمين، بالرغم من نصائح ريموند الثالث أمير طرابلس، بتجنب الصدام مع القوات الاسلامية التى حشدها الأفضل بن صلاح الدين، ومن ثم وقع في كمين نصبه لهم المسلمون عند صفورية، أسفر عن إبادة كل الفرسان الداوية المشاركين، وكان عددهم ستين فارساً، بجانب عدد كبير من المساعدين للفرسان، ولم ينج سوى المقدم جيرارد ريد فورت Gerard of redefort وثلاثة من فرسانه[١٥٢].

أما عن المحور الثاني: عهدت إليهم مملكة بيت المقدس بالدفاع عن بعض القلاع.ويترتب على آثار المحور، فبسبب تهورهم وجرأتهم الزائدة؛ عهدت إليهم مملكة بيت المقدس بعدد من القلاع المهمة، فقد عهد إليهم بلدوين الرابع لشجاعتهم بحماية حصن غزة، حين تم تحصينه، بعد أن خربه الفاطميون الذين عجزوا عن الاحتفاظ به، عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م(١٥٣). وقد استعصت قلعة غزة على صلاح الدين الذي هاجمها مراراً، عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م(١٥٤) وعام٥٧٨هـ/ ١١٨٢م(١٥٥) لصمود الداوية، ولم تسلم إلا فداء لمقدم الفرسان الداوية جيرار ريد فورت(١٥٦). كما باع لهم الملك عموري الأول حصن صفد، عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م(١٥٧) وقد وصفه البنداري(١٥٨) بأنه "عش البلية" وكان حصناً شديد المنعة، مهمته حماية مملكة الصليبيين من الهجمات القادمة من دمشق عبر إقليم الجليل، وظل في أيديهم حتى استرده صلاح الدين عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م(١٥٩). وأيضا آلت إليهم قلعة الداروم أو دير البلح Darum قرب غزة، وكان للداوية حماة هذه القلعة دور في كسرة صلاح الدين أمام بلدوين الرابع، عام ٥٨٣هـ/١١٧٧م(١٦٠) وظلت بأيديهم حتى حطين حين استردها مع عدد من القلاع التابعة للداوية(١٦١). ومن أخطر القلاع التى امتلكها الداوية قلعة جسر بنات يعقوب Chastellet على بعد عشرة أميال من بانياس، وكانت تتحكم في الطريق المؤدي من طبرية وصفد إلي دمشق، والتى بناها بلدوين الرابع، عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م، بعد ضغط وإلحاح شديدين من الفرسان الداوية، وأفاضت المصادر في وصف حصانة ومنعة القلعة، ونظرا لخطورتها فقد صمم صلاح الدين على استردادها، عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م(١٦٢). كما امتلكوا عدداً من الحصون بجوار قلاع الحشاشين الإسماعيلية(١٦٣).وبسبب مكانة الداوية السامية، عند الملك بلدوين الرابع، أرسل مقدمهم لبعض الاستقبالات الرسمية، مثل استقبال فيلب كونت الفلاندرز في السنة الرابعة من حكم الملك(١٦٤).

وأخيراً **المحور الثالث**: شراسة المسلمين في تصفية الداوية، فبسبب تعصب الداوية ونقضهم الدائم للعهود، وصلفهم ورفض الخدمة حال أسرهم، وعطشهم الدائم لسفك الدماء، كان رد الفعل حيالهم يتناسب مع سلوكهم وأهدافهم الشاذة، إذ حرص القادة المسلمون علي تصفية الداوية حال وقوعهم في الأسر، وعدم إمهالهم للفداء(١٦٥). فحين هُزم الصليبيون في معركة مرج عيون، ٥٧٥هـ/١١٧٩م، سحق صلاح الدين جل الفرسان الداوية المشاركين، وأسر قائدهم أودو من سانت اماندا، فبقي أسيراً في دمشق حتى توفي، بسبب رفضه دفع فداء له(١٦٦). كذلك بعد نجاح صلاح الدين في فتح قلعة بيت الأحزان – بين دمشق والساحل– عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م، أسر سبعمائة من الداوية عرض عليهم الإسلام فمن ابي قتله وكذلك أمر بقتل كل الرماة الداوية وأبقي على الصناع الذين أرسلوا إلى قلعة دمشق(١٦٧). كذلك أباد والى الشرقية حامية قلعة الداروم التابعة للفرسان الداوية، عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م، حين هاجموا المناطق الاسلامية، ولم ينج منهم سوى فارسين ليخبرا من وراءهم عن المذبحة التى تعرض لها إخوانهم(١٦٨).

أما في أعقاب حطين، وبسبب إدراك صلاح الدين لخطورة الداوية والاسبتارية(١٦٩) فقد حرص اشد الحرص على تصفية الفريقين، تصفية جسدية، وعدم التسامح معهم أو قبول

الفداء، وحسبما روى البنداري(١٧٠) قال صلاح الدين : لا نفع في إبقائهما وهما جنسان نجسان، أي الداوية والاسبتارية، فلا بد من إبادتهما، وإردائهما فما جرت عاداتهما بالمفاداة ولا يقلعان من المفاداة". ولم يكتف صلاح الدين بذلك، بل أمر بتتبع من عاد إلي بلده بأسير من الداوية أو الاسبتارية ويبدو أنه علم أن عددا كبير؛ منهم كان من دمشق، فكتب إلي والي دمشق فكتب لواليها الصفي القابض بأن يتعقب كل من عاد للمدينة بأحد الداوية الاسبتارية، فيأخذه منه ويقتله على الفور، ففعل(١٧١).

نخلص مما سبق: إلي أن تشريعات الفرسان الداوية كانت ضرورة فرضها الواقع، من أجل استقرار أحوال الهيئة، وتنظيم شئونها الداخلية، وعلاقاتها بمن اتصلت بهم ، وهو ما انعكس على الحرب شبه المستمرة، التى دارت بين المسلمين والصليبيين طول مدة الدراسة.



الهوامـــش

[1]- ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع، ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م) ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د.جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة،١٩٦٤م، ص ١٢٩؛ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال، ص ١٩٦؛ ابن تغري بردي(جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت ٨٧٤هـ / م)، النجوم الزاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٣٣؛ محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، عين للبحوث والدراسات الإنسانية، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٥٧؛ محمد مؤنس عوض، تاريخ الصليبيات، الصراع العالمي في العصور الوسطى، دار العالم العربي، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ٢٤٠.

[2]- الدواداري (أبو بكر عبد الله بن أيبك، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)،كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧ (الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية)، تحقيق أولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧١م، ص ١١٧؛ وفاء محمد علي، جهود المماليك الحربية ضد الصليبيين، دار الكتاب الجامعي، الإسكندرية، ١٩٩١م، ص ١٤.

[3]- وفاء محمد على، جهود المماليك ضد الصليبيين، ص ١٦.

[4]- من الدراسات الأوربية:

Addison , C G, The Knights Templar, London, 1852; Read (Piers Paul), The Templars, London, 2000; Nicholson (Helen), The Knight Templar, Osprey, 2004; Martin (Sean), The Knight Templar, UK, 2004.

من الدراسات العربية:

إبراهيم خميس سلامة، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية (الفرسان الداوية)، دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، ٢٠٠٢م؛ نبيلة مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٩٤م؛ محمد مؤنس عوض، الهيئات الدينية الحربية الصليبية في بلاد الشام في القرنين ١٢-١٣م، عمان ٢٠٠٣م.

[5]- حديثاً تمت ترجمة القانون الخاص للفرسان الداوية إلي الانجليزية وهو ما يسر لنا ترجمة كامل النص إلي العربية ونحن بصدد نشره عما قريب إن شاء الله. وهناك عدة ترجمات إلي الإنجليزية هي:

* The Original Rule of the Knights Templar: A Translation with Introduction , By Robert Wojtowicz, Master Thesis of Arts, The Medieval Institute, Western Michigan University, 1991.

* The Rule of the Templars, Trans by Upton-ward (J.M), England, 1998.

* The Primitive Rule of the Templars, on http://www.the-orb.net/encyclop/religion/monastic/t_rule.html accessed 28.1.2012

[6]- حول التطور التشريعي لدى الفرسان الداوية انظر:
The Rule of the Templars, Trans by Upton-ward (J.M), England, 1998.
[7]- دنيال الراهب، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة د. سعيد البيشاوي، و داود أبو هدبة، دار الشروق، رام الله، ٢٠٠٣م، ص ٤٨.
[8]- بطرس توديبود، تاريخ الرحلة إلي بيت المقدس، ترجمة د.حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص ٣١٥؛ سعيد البيشاوي، المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين ٤٩٢-٥٨٣هـ/١٠٩٩-١١٨٧م ، مجلة النجاح للأبحاث، ج١٥، حزيران، ٢٠٠١م، ص ٣٦١-٣٩٥.
[9]- عن حركة الحج خلال فترة الحرب الصليبية انظر: هنادي السيد محمود، حركة الحج إلي بيت المقدس خلال القرنين ١٢، ١٣م ، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠١٣.
[10]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٣٤٥؛ روجر أوف وندوفر، ورود التواريخ، ج١، ترجمة د.سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج٣٩، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م، ص ١٢٧؛ يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة عبد الحافظ البنا، عين للبحوث، القاهرة، ٢٠١١م، ص ٣١١؛ صفاء عثمان، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني، دار العالم العربي، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٩٥ .
[11]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٤٥.
[12]- محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٦٢؛ صفاء عثمان، مملكة بيت المقدس، ص ١٩٥.
[13]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٤٩؛
Addison, The Knight Templars, p. 9; Read, the Templars , p.91
[14]- روجر أوف وندوفر، ورود التواريخ، ج١، ص ١٢٧.
[15]- عن الجيش الصليبي أنظر: Smail (R.C), The Crusading Warfare, New York, 1995
[16]- توماش متسناك، السلام الصليبي، ص ٢٣٥.
[17]- توماش متسناك، السلام الصليبي، ص ٢٣٥.
[18]- يوشع براورر، الإستيطان الصليبي، ص ٣٠٧.
[19]- Bernard of Clairvaux, In Praise of the New Knighthood, on , accessed http://www.the-orb.net/encyclop/religion/monastic/bernard.html 1-12-2012. يوشع براروي، الاستيطان الصليبي، ص ٣١١،٣١٠.
[20]- Cartulaire General de L'Ordre du Temple, par marquis D'Albonm, Paris, 1913, p. 1
[21]- الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٤٦.

22- روجر أوف وندوفر، ورود التواريخ، ج١، ص ١٢٨.

23- سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، القـاهرة، ٢٠١٠م، ص ٢٠٣، ٢٢٧.

24- L'Estoire d'Eracles, in R.H.C. Occ., Tom. III, Paris, 1876, p.363; Annales des Terre Sainte, A.OL, Tome II, Paris, 1884, p.438; Philip of Novara, The Crusade of Frederick II, in Christian society and the Crusades 1198-1229, tr. Gavigan, ed. Peters, pp.156-161, 438. Cf.also Van clev (Thomas), "The Crusade of Frederick II", in Setton, The history of The crusades, vol. II, p.442.

25- الرهبان السسترشيان: هم طائفة من الرهبان ظهرت في أوائل القرن الثاني عـشر المـيلادي، وكان مهدهم الأول هو دير سيتو Citeaux في برجنديا، وعـرف المنتمـين إليـه باسـم الرهبـان السسترشيان Cistercian وقد اتبع رهبان السسترشيان نظاما وسطاً بين النظام البندكتى القائم على الاستقلال المحلى، وبين النظام الكلونى القائم على المركزية المطلقة. وقد دفع هذا النظـام الرهبـان لخدمة المجتمع بدلا من الجلوس عاطلين في قلاياتهم داخل الاديرة، كما لم تعتمـد مـزارع الهيئـة ومراعيها على الأقنان، لكن مزارع الهيئة كان يفلحها الرهبان بأنفسهم، وهو ما وسع من شـهرتهم ورفع شأنهم داخل مجتمع أوربا العصور الوسطى. وقد كان لبرنارد من كليرفو دوراً كبيراً في اتساع نفوذ الهيئة بفضل صداقته للبابا ايوجينيوس الثالث ، بجانب دوره الكبير في الدعاية للحرب الصليبية. أنظر سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج٢، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٣٣-٣٥.

26 - Addison, The Knight Templars, p. 13.

27- Bernard of Clairvaux, In Praise of the New Knighthood, on http://www.the-orb.net/encyclop/religion/monastic/bernard.html , accessed 1-12-2012.

28- روجر أوف وندوفر، ورود التواريخ، ج١، ص ١٢٧.

29- ذكر أسماء عدد كبير ممن حضروا المجمع في صدر القانون الاصلي للفرسان الداوية انظر: The Original Rule of the Knights Templar, p26-30

30- لمزيد من التفاصيل أنظر The Original Rule of the Knights Templar, p26-30, see Also: Martin , Sean, The knights Templar, Harpenden, U.K, 2004, p28-33; Philips , J, Troyes, Council (1129), in The Crusades, an Encyclopedia, ed by Alan Mourray, Vol. IV, Oxford, 2006, p.1201-1202.

31- الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٤٥.

32- Cartulaire General de L'Ordre du Temple, par marquis D'Albonm, Paris, 1913, p. 1; The Original Rule of knight templar, intro.p5.

33- الأديرة البندكتية: تنسب إلي بندكت النورسي Benedict of Nursia الذي أسس ديراً في مونت كاسينو Mont Cassino وقد وازن هذا النظام بين حقوق البدن وحقوق الروح، وابتعد تماما عن فكرة الرهبنة الفردية الشرقية، واعتمدت الأديرة البندكتية على النظام الاجتماعي التعاوني، كما قامت هذه الاديرة على أساس الاكتفاء الذاتي بتوزيع الاعمال الضرورية على الرهبان، كما وضع بندكت دستوراً او قانوناً للهيئة صار مثالا يحتذي وامتد أثره طوال تاريخ أوربا العصور الوسطى. انظر

نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، ج١، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٢١٦-٢١٧؛ سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج٢، ص ٢٨-٢٩.

34 - Grobscmidt (Steven), The Rule of St. Benedict Compared with the Rule of the Templars, on , http://www.the-orb.net/encyclop/religion/monastic/comprule.html accessed 6-12-2012.

35 - The Original Rule of the Knights Templar, intro.p6.

36 - Bernard of Clairvaux, In Praise of the New Knighthood, on , accessed http://www.the-orb.net/encyclop/religion/monastic/bernard.html 1-12-2012.

37- موريس كين، حضارة أوربا العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١٢٣.

38- The Original Rule of the Knights Templar, p. 28-29.

39- توماش ماستناك، السلام الصليبي، ص ٢٣٦.

40- توماش ماستناك، السلام الصليبي، ص ٢٣٥.

41- Hugh the Sinner, Letter to Knights of Christ in the Temple at Jerusalem, trans by Helen Nicholson, On ORB, http://www.the-orb.net/encyclop/religion/monastic/hughssin.html, Accessed 23/11/2012.

42- حول تحول الاسبتارية من العمل الخيري إلي العمل الحربي انظر: جوناثان رايلي سميث، الاسبتارية فرسان القديس يوحنا، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٥٥؛ مصطفى الحناوي، عصر الحروب الصليبية (الفرسان الاسبتارية ودورهم في الصراع الإسلامي الصليبي)، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٤م، ١٤٢وما بعدها

43- حول تحول التيوتون من العمل الخيري إلي العمل الحربي انظر: حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ١١٣وما بعدها.

44- The Original Rule of the Knights Templar, p. 26.

45- تولي أسقفية شارتر من ١١٧٦-١١٨٠م وكان من أبرز حضور مجمع الاتيران الثـاني عـام ١١٧٩م عنه انظر NEW CATHOLIC ENCYCLOPEDIA, vol.7, p. 984

46 - John of Salisbury, Policraticus, ed. and trans. Cary Nederman (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), Book VII, p.173.

انظر أيضاً: توماش ماستناك، السلام الصليبي ص ٢٣٦.

47- Bernard of Clairvaux, In Praise of the New Knighthood, on , accessed http://www.the-orb.net/encyclop/religion/monastic/bernard.html 1-12-2012.

48- توماش ماستناك، السلام الصليبي، ص ٢٣٤.

49 - The Original Rule of the Knights Templar, p.49.

50 - The Original Rule of the Knights Templar, p.53.

51 - The Original Rule of the Knights Templar, p.52.

52 - The Original Rule of the Knights Templar, p.53

53 - The Original Rule of the Knights Templar, p.60.

54- Martine, The Knights Templers, p.39.

55- تاريخ الحروب الصليبية، ج٤، ص ٢٣٦.

56- عن موقعة صفورية انظر: العماد الاصفهاني، الفتح القسى في الفتح القدسي، تحقيـق محمـد محمود صبيح، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٦٢، ٦٣؛ ابن الاثير (ابو الحسن على بن أبي الكرم، ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٤م)، الكامل في التاريخ، ج١٠، تحقيق د. محمد كامل الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ١٤٤؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بنـي ايـوب، ج٢، تحقيق د.جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣، ص١٨٧ ؛ أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي، ت ٦٦٥هـ /م) ،الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ، ج٣، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٧٨؛ مجهول، نيل وليم الصوري، ترجمـة د.حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٥٨-٥٩؛ إبـراهيم خمـيس، الفرسان الداوية، ص ١٥٨، محمد مؤنس عوض ، صلاح الدين الايوبي بين التاريخ والأسـطورة ، عين للبحوث والدراسات الإنسانية القاهرة، ٢٠٠٨ م، ص ١٥٢.

57- لإدراك مدى اتساع هذا النفوذ انظر الخريطة التى رسمها بول ريد للتوزيع الجغرافي لحـصون الهيئة Read, The Templars, p.145.

58 - The Original Rule of the Knights Templar, p.59.

59- ابراهيم خميس، جماعة الفرسان الداوية، ص ١٤٩-١٥٠.

60 - The Original Rule of the Knights Templar, p.49.

61 - The Original Rule of the Knights Templar, p.50.

62 - The Original Rule of the Knights Templar, p.60.

63 – The Original Rule of the Knights Templar, p.61.

64 – The Holy Rule of st. Benedict

http://rule.kansasmonks.org/index.php?option=com_content&view=article&

accessed 8-12-2012. id=50&Itemid=57

65 – The Original Rule of the Knights Templar, p.60.

.٦٢66 – The Original Rule of the Knights Templar, p.

67 Letters of Pope Alexander III, in ROL, Vol. I, P.54.

إبراهيم خميس، جماعة الفرسان الداوية، ص ١٤٢.

68 – The Original Rule of the Knights Templar, p.51.

69 – The Original Rule of the Knights Templar, p.52.

70 – The Original Rule of the Knights Templar, p.52.

Bernard of Clairvaux, In Praise of the New Knighthood, Chapter II, on –71

, accessed http://www.the-orb.net/encyclop/religion/monastic/bernard.html

1-12-2012.

انظر أيضاً، توماش ماستناك، السلام الصليبي ص ٢٣٧.

72 – The Original Rule of the Knights Templar, p.48.

73 – The Original Rule of the Knights Templar, p.48

74 – The Original Rule of the Knights Templar, p.52.

75 – The Original Rule of the Knights Templar, p.51.

76– محمد فوزي رحيل، قانون التأمين على خيل الحرب في مملكة بيت المقدس الصليبية قراءة في مجموعة قوانين بيت المقدس، حولية التاريخ الاسلامي والوسيط (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية)، العدد ١، ٢٠١١م، ص ٣٠٠.

77 – Pryor, transportation of horses by sea during the era of the Crusades, part I, in The Mariner's Mirror, vol 68, 1982, p.15.

78– محمد فوزي رحيل، قانون التأمين على خيل الحرب ، ص ٢٩٧-٣٢٣.

79 – The Original Rule of the Knights Templar, p.50.

80 – The Original Rule of the Knights Templar, p.52.

81 – The Original Rule of the Knights Templar, p.53.

82 – The Original Rule of the Knights Templar, p.53.

83– القهرمان: (Seneschal): كان نائب وناصح للقائد الأعلى ، وفي حالة غياب المقدم كان يتولى مهامه، وفي الغالب يصير المقدم الجديد أو يتولى الوظيفة بعد أمد من الزمن مثل أندرية من مونتبارد André de Montbard الذي كان أحد فرسان هيو بايين وبعد شغله لوظيف سنكال او قهرمان لمدة أربعة سنوات صار مقدم أعلى عام ١١٥٣ ، وقد كان للقهرمان هيئة مساعدة مثل المقدم . انظر

Martin (Sean), The Knights Templar, p52-53.

[84] – The Original Rule of the Knights Templar, p.53.

[85] – The Original Rule of the Knights Templar, p.

[86] – The Original Rule of the Knights Templar, p.53.

[87] – The Holy Rule of st. Benedict
http://rule.kansasmonks.org/index.php?option=com_content&view=article&id=50&Itemid=57 accessed 8-12-2012.

[88] – The Original Rule of the Knights Templar, p.45.

[89] – The Original Rule of the Knights Templar, p.46.

[90] – The Original Rule of the Knights Templar, p.46.

[91]– روجر أوف وندوفر، ورود التواريخ، ج٢، ص ١٢٧.
See, Addison (C.G), The Knight Templars, London, 1852, p.25

[92] – The Original Rule of the Knights Templar, p ٤٧..

[93] – The Original Rule of the Knights Templar, p ٤٧..

[94] – The Original Rule of the Knights Templar, p ٤٧..

[95] – The Original Rule of the Knights Templar, p ٦٣..

[96]– عيد الفصح أو عيد القيامة يحتفل به المسيحيون من أوائل إبريل إلي أوائل مايو

[97]– عيد جميع القديسين يحتفل به المسيحيون الكاثوليك في أول من أكتوبر.

[98] – The Original Rule of the Knights Templar, p. ٧١.

[99] – The Original Rule of the Knights Templar, p. ٧١.

[100]– وليم الصوري الحروب الصليبية، جـ ٢، ترجمة د.حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٣٥٧ ؛ فليكس فابري، جولات الراهب فيلكس فابري، ترجمة د.سهيل ذكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٣٨، القسم الرابع ، دار الفكر ، دمشق، ٢٠٠٠م ، ص ١١٤٢. وعن نص قرارات المجلس انظر :
Mansi (I.C), Sacrorum Conciliorum nova et amplissima Collectio , Vol. 21, Graz , 1961 , pp.256-266 ; Brundage , Prostitution , p.178-179 ; Kedar , 'On the Origins of the Earliest Laws of Frankish Jerusalem : The Canons of the Council of Nablus' , 1120 , in Spc. , vol. 74 , no.2 (April , 1999) , pp. 310-335.
راجع أيضا،حسين عطية، مجلس نابلس ٢٣يناير ١١٢٠م وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٤٥-٤٧؛ محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص ٢١٨.

[101] – The Original Rule of the Knights Templar, p.48.

[102] – The Original Rule of the Knights Templar, p.48.

[103]- أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٣٥

[104]- أسامة ابن منقذ، الإعتبار، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٣٤.

[105]- Bernard of Clairvaux, In Praise of the New Knighthood,Chapter II, on , accessed http://www.the-orb.net/encyclop/religion/monastic/bernard.html 1-12-2012.

[106] - The Original Rule of the Knights Templar, p.66.

[107]- تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٤٧.

[108] - The Original Rule of the Knights Templar, p.57.

[109] - The Original Rule of the Knights Templar, p.38.

[110]- روجر أوف وندوفر، ورود التواريخ، ج١، ص ١٢٨.

[111] - The Original Rule of the Knights Templar, p.36.

[112] - The Original Rule of the Knights Templar, p.36.

[113] - The Original Rule of the Knights Templar, p.43.

[114] - The Original Rule of the Knights Templar, p.44.

[115] - The Original Rule of the Knights Templar, p.39.

[116] - The Original Rule of the Knights Templar, p.57.

[117] - The Original Rule of the Knights Templar, p.57.

[118] - Marcombe (David), Leper Knights, Suffolk (U.K.),2003, p8.

[119] - The Original Rule of the Knights Templar, p.58.

[120] - The Original Rule of the Knights Templar, p.37.

[121] - The Original Rule of the Knights Templar, p.38.

[122] - The Original Rule of the Knights Templar, p.39.

[123] - The Original Rule of the Knights Templar, p.40.

[124] - The Original Rule of the Knights Templar, p.40.

[125] - The Original Rule of the Knights Templar, p.41.

[126] - The Original Rule of the Knights Templar, p.41.

[127] - The Original Rule of the Knights Templar, p.42.

[128] - The Original Rule of the Knights Templar, p.42.

[129] - The Original Rule of the Knights Templar, p.42.

[130] - The Original Rule of the Knights Templar, p.42.

[131] - The Original Rule of the Knights Templar, p.61.

[132] - The Original Rule of the Knights Templar, p.57.

[133] - The Original Rule of the Knights Templar, p.65.

[134] – The Original Rule of the Knights Templar, p.56.
[135] – The Original Rule of the Knights Templar, p.59.
[136] – The Original Rule of the Knights Templar, p.63.
[137] – The Original Rule of the Knights Templar, p.64.

[138]– حول التطور التشريعي فيما يتعلق بالجرائم والعقوبات لدى الفرسان الداوية انظر The Rule of the Templar, p.73-82

[139]– محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، عين للبحوث والدراسات، القـاهرة، ٢٠٠٩، ص ١٤٢ وما بعدها.

[140] – The Original Rule of the Knights Templar, p.55.
[141] – The Original Rule of the Knights Templar, p.56.
[142] – The Original Rule of the Knights Templar, p.55.

[143]– سعيد البيشاوي، المقاومة الشعبية ضد الفرنجة، ص ٣٧٠.

[144]– Anonymous Pilgrims V2, In P.P.T.S., Vol.6, trans. By Aubrey Stewart, London, 1894 , p30; See Also: La Monte (John), The Feudal Monarchy, Cambridge, 1970, p.219

الحاج المجهول ٥ (٢) قبل ١١٨٧م، ضمن رحلات غربيـة، ترجمـة د.سـهيل ذكـار، ج٣٧ مـن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكـر، دمـشق، ١٩٩٩م، ص ٣٨؛ محمـود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص ٦٨.

[145]– تاريخ بيت المقدس، ترجمة سعيد البيشاوي، دارالشروق، رام الله، ١٩٩٨م، ص ٩٢.

[146]– Read, The Templars, p. 137.

ياسر كامل، مملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الرابع، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعـة أسيوط، ٢٠٠٨م، ص 68.

[147]– وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص ٣٦٢-٣٦٢.

[148]– نسبة إلي طائفة الإسماعيلية وهي إحدى فرق الشيعة نسبت إلي إسماعيل بن جعفر الـصادق، أسست دولتهم على يد الحسن الصباح، وظهروا في الشام منذ عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥ ومن أشـهر زعمائهم راشد الدين سنان، وعرفوا بالحشاشية بسبب ما أشيع عنهم من تعاطي مخـدر الحـشيش. عنهم انظر : أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عـصر الحـروب الـصليبية، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٦٨-٧٦.

[149]– وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص ١٥٧.

[150]– وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص ٢١٦.

ياسر كامل، بلدوين الرابع، ١٥٨.

[151]- **وليم الصوري**، الحروب الصليبية، ج٤، ص ٢٣٢-٢٣٦؛ **ابن شاهنشاه (محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي، ت ٦١٧هـ / م)**،مضمار الحقائق وسر الخلائق، **تحقيق د.حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب**، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٤٣-٤٤؛ **البنداري ، سنا البرق الشامي، ص ١٦٤-١٦٦؛ ابن الأثير**، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٩٥؛ **ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٢، ص** ٧٥-٧٨، إبراهيم خميس، **الفرسان الداوية، ص** ١٣٢-١٣٣.

[152]- **عن موقعة صفورية** انظر

العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص ٦٢، ٦٣؛ ابن الاثير، **الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ١٤٤؛ ابن واصل، مفرج الكروب**، ج٢، ص١٨٧ ؛ أبو شامة **(عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي، ت ٦٦٥هـ /م) ،الروضتين في** أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ، **ج٣، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت**، ٢٠٠٢م، ص١٧٨؛ **مجهول، ذيل وليم الصوري، ترجمة د.حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة** للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٥٨-٥٩؛ **رجر أوف وندوفر، ورود التواريخ، ج١، ص** ٣١٧.

The Annals of Roger de hoveden, vol.II, trans. By Henry T. Riley , London , 1853, p.65.

وانظر أيضاً: محمد مؤنس عوض ، **صلاح الدين الايوبي، ص ١٥٢**

[153]- **وليم الصوري**، الحروب الصليبية، ج٤، ترجمة د. حسن حبشي، **الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص** ١٣٤؛ نبيلة مقامي، فرق الفرسان الرهبان ، **ص ٨٥.**

Nicholson (Helen), The Knight Templar. Osprey, 2004, p.49.

[154]- **نبيلة مقامي**، فرق الفرسان الرهبان ، ص٨٦

[155]- **Benvenisti (Meron), The crusaders in the holy land, Jerusalem, 1970, p.191** **نبيلة مقامي**، فرق الفرسان الرهبان ، ص٨٦

[156]- **نبيلة مقامي**، فرق الفرسان الرهبان ، ص٨٦.

[157]- **Benvenisti, The Crusaders in the holy land, p.1970, p202**

نبيلة مقامي، فرق الفرسان الرهبان ، ص٨٧.

[158]- **البنداري** (الفتح بن علي)، سنا البرق الشامي، ص ١٦٨.

[159]- **البنداري** ، سنا البرق الشامي ، ص ١٦٨.

[160]- **وليم الصوري**، الحروب الصليبية، ج٤، ص ٢١٨؛ **ابن الاثير، الكامل، ج١٠، ص ٨٥.**

The Annals of Roger de Hoveden , vol. I, p. 453.

يلاحظ المطالع لحولية روجر هوفدن الطابع **الأسطوري أكثر من الحقيقة التاريخية، ويبدو أنها رواية ذات طابع دعائي.**

[161]- **ابن شداد**، النوادر السلطانية، ص١٣٧

[162]- **وليم الصوري**، الحروب الصليبية، ج٤، ص ٢٣٧؛ **ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص ٥٠-٥٤؛ البنداري**، سنا البرق الشامي،١٧٠؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٩٦؛ ابن واصل**،

مفرج الكروب، ج ٢، ص ٨٠- ٨٥؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٣، ص٢٥؛ نبيلة مقامي ، فرق الفرسان الرهبان، ص ٩٢؛ إبراهيم خميس، جماعة الفرسان الداوية، ص ١٣٨؛ محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الايوبي، ١٣٢.

[163]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص ١٥٦.

[164]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٠٠.

[165]- نظير حسان سعداوي، جيش مصر في ايام صلاح الدين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٧٢.

[166]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص ٢٣٢-٢٣٦؛ ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص ٤٣-٤٤؛ البنداري ، سنا البرق الشامي، ص ١٦٤-١٦٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٩٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، ج٢، ص ٧٥-٧٨، إبراهيم خميس، الفرسان الداوية، ص ١٣٢-١٣٣

[167]- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٤، ص ٢٣٧؛ روجر أوف وندوفر، ورود التواريخ، ج٢، ص ٣١١؛ ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص ٥٠-٥٤؛ البنداري، سنا البرق الشامي،١٧٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٩٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٨٠- ٨٥؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٣، ص٢٥؛ إبراهيم خميس، جماعة الفرسان الداوية، ص ١٣٨؛ محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الايوبي، ١٣٢.

[168]- ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص ١٧٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٤٠؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ١٢١؛ ابراهيم خميس، جماعة الفرسان الداوية، ص ١٤٥.

[169] – The Annals of Roger de Hoveden , vol. II , , p.70

[170]- سنا البرق الشامي، ص ٢٩٨.

[171]- سنا البرق الشامي، ص ٢٩٨، وأيضا انظر أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص١٨٦، ١٨٩. محمد مؤنس عوض ، صلاح الدين الأيوبي، ص ١٥٣.

Addison , C G, The Knights Templar, p.90;Read, the Templars, p.160;Nicholson (Helen), The Knight Templar, Osprey, 2004, p.49.


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

تدريب الفارس المملوكي

د. حسنين محمد ربيع (*)

الغرض من البحث هو: إلقاء بعض الأضواء علي التدريب الحربي للفرسان المماليك، في الطباق أو المعسكرات التي كانوا يتدربون فيها في قلعة الجبل. ويذكر المقريزي أن السلطان، عندما كان يشتري المماليك الشبان، كان يرسلهم إلي طبقة من هذه الطباق، حيث يوزعون تبعاً لجنسياتهم أو أصولهم. وكانت هذه الطباق معدة لتدريب المماليك السلطانية، عصب الجيش المملوكي. وذكر ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة : أن السلطان بيبرس شيد طباقين أو أكثر لمماليكه. كما ذكر المقريزي أن السلطان قلاون كان يزور الطباق بنفسه، للنظر في الأحوال المعيشية للمماليك.

ولا تذكر المصادر المعاصرة أية معلومات عن عدد الطباق في عهد كل سلطان من سلاطين المماليك. المصدر الوحيد الذي ذكر لنا هذا العدد هو: خليل بن شاهين الظاهري؛ الذي ذكر عددها في القرن الخامس عشر الميلادي، وذكر أنه كان يوجد ١٥ طبقة، وكل طبقة كانت حارة من الحارات تسع ألف مملوك. وذكر المقريزي أيضاً - أنه في العصر الذهبي لعصر سلاطين المماليك- كان يوجد في كل طبقة فقيه، علي الأقل، يقوم بتعليم القرآن الكريم لمجموعة من المماليك الصغار، والخط العربي، والشريعة وأداء الصلوات. وأضاف أن تعليم المماليك كان في غاية الحزم والضبط، ولم يكن مسموحاً لأي مملوك أن يقضي ليلة واحدة خارج الطباق. كما سمح لهم السلطان الناصر محمد بن قلاون، بمغادرة الطباق دورياً إلي للحمامات العامة مرة واحدة في الأسبوع، بصحبة الرقباء، والعودة إلي الطباق في آخر اليوم.

وفي أواخر عصر سلاطين المماليك تغير كل شيئ، فاشتري السلاطين المماليك الكبار ممن تنقصهم الخبرة الحربية، وكانوا من الملاحين وعمال السفن، والخبازين ومن إليهم. كما سمح لهم بالسكنى في المدينة والزواج من نسائها.

والتدريب الحربي للملوك يبدأ عندما يصل إلي سن البلوغ، وكان هناك معلم لكل مجموعة من المماليك لتعليمهم ركوب الخيل، واللعب بالرمح، والرمي بالسهام، والطعن بالرمح. وذكر ابن قيم الجوزيه(ت ٧٥١هـ/١٣٥٦م)أن الفارس لا تستكمل فروسيته إلا بإتقان هذه الأشياء الأربعة.

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب جامعة القاهرة.

ملخص لبحث باللغة الإنجليزية للدكتور حسنين ربيع عنوانه
: 'The Training of the Mamluk FARIS', being an independent chapter in : Parry, V.J. and Yapp, M.E. (Editors) War, Technology and Society in the Middle East, London, 1975, pp. 153-163 and Plates I-VIII.

وتعلّم ركوب الخيل يستمر حتي يستطيع الفارس أن يجلس ثابتاً علي ظهر الفرس بدون سرج "علي العري". ويبدأ التدريب علي نماذج من الطين الجاف والأحجار، أو الخشب.

ويقوم المعلم بتدريب الفارس علي القفز علي الفرس. وبعد ذلك يوضع السرج علي النموذج، ويستمر تدريب الفارس علي القفز بأسلحته كاملة أو بدونها، وينتهي التدريب بركوب الخيل علي فرس حقيقي.

ويتدرب الفارس بعد ذلك علي الفرس بإشراف المدرب المختص، وكيف يمسك عنان الفرس بإحكام، وكيف يضع رجله في الركاب، وكيف يدور بفرسه. كما يتدرب علي طرق القفز والنزول من علي ظهر الفرس، وطرق حمل أسلحة القتال.

ويأتي التدريب علي الطعن بالرمح في المرتبة الثانية، ويري محمد ابن يعقوب ابن أخي حزام - أو حزام - أن هذا التدريب يعتبر قمة تدريبات الفروسية، وأن الفرس المستخدم في هذه التدريبات يجب أن يكون سليماً قوياً. ويقوم المدرب بتعليم الفارس استخدام الرمح في أثناء المعركة (التبطيل)، والخروج من المعركة (التسريح)، و(النشل)، ودخول المعركة والخروج منها، وطرق الطعن.

وكانوا يستخدمون البرجاس في هذه التدريبات. والبرجاس هدف خشبي وهو من سبع قطع من الخشب بعضها فوق بعض، ويصل ارتفاع السابعة إلي ارتفاع الفارس، وعليها حلقة من المعدن مثبتة في قطعة من الخشب. ويتقدم الفارس، وعندما يكون علي مقربة من البرجاس يدفع رأس الرمح في داخل الحلقة المعدنية، فإذا نجح سقطت قطعة الخشب المثبت بها الحلقة المعدنية، أما إذا فشل فسوف يقع الرمح علي الأرض. (لوحة I)

ولم يكن البرجاس هو الوحيد المستخدم في تدريب الفارس علي استخدام الرمح والطعن به، بل ذكر نجم الدين الأحدب الرماح (ت ٦٩٤هـ/١٢٩٤م) أقماعا كان تلقي علي أرض التدريبات، وكان علي الفارس أن يجمعها وهو راكب علي ظهر فرسه وذلك برأس رمحه، وتدريبات أخري.

ووضع بعض معلمي الرمح تعليماتهم في تدريبات تسمي (بنود) أي (تدريبات الرمح)، وهي تدريبات لمساعدة الجسم علي الانحناء، والجري والهجوم، وطرق حمل الرمح. وأرجع بعض مدربي الفروسية هذه البنود إلي فجر الإسلام، فنسبوا بعضها إلي علي بن أبي طالب، وبعضها إلي خالد بن الوليد، وغيرهم. وذكر بعضهم أن هذه البنود بلغ عددها ١٥٠ بنداً في العصور الأولي للدولة الإسلامية.

وبعد أن يتم المملوك ركوب الخيل والطعن بالرمح؛ يرسل إلي الميدان (Hippodrome) للتدريبات الجماعية. ويقوم المماليك بأداء بعض التدريبات الجماعية، ومنها: دخول المعركة والخروج منها، والالتفات يمنة ويسرة، والتقدم إلي الأمام أو الرجوع إلي الخلف، وما إلي ذلك.

ووضع لاجين الحسامي الطرابلسي (ت ٧٣٨هـ/١٣٣٧-٨م) رسالة في (الفروسية) أوضح فيها أشكالاً مختلفة يستطيع الفارس أداءها في الميدان. ويبدو أن هذه الرسالة كانت المصدر الرئيسي الذي استخدمها معلمو الفروسية فيما بعد، مع قليل من الإضافة أو الحذف. (لوحة II ولوحة III)

وبالإضافة إلي البرجاس، والتدريب علي الطعن بالرمح، كان المملوك يتدرب علي الرمي بالنشاب. ويأمر طيبغا البكلمشي اليوناني المتوفي سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م كل متدرب أن يدخل ميدان التدريب بوقار وتوقير، كأنه يدخل مسجداً. وينصح طيبغا المملوك أن يكون هادئاً، ويفضل أن يصلي ركعتين، وبعدها يعد قوسه وسهامه. وعندما يأتي دوره في التدريب يشمر المملوك عن ساعديه، ويربط حواف ردائه حول وسطه، ويبدأ تدريبه بإشراف معلمه.

ولتعليم المبتدئين الرمي بالسهام؛ كان علي المعلم أن يأخذ قوسين لينين من نوع يسمي (كباد) يمسك واحداً من القوسين، ويضع الثاني في يد المملوك. ويدرب المعلم المملوك كيف يمسك القوس بإحكام، ويأخذ هذا وقتاً طويلاً، ثم يعلمه كيف يقدر المسافات بين أصابعه، وكيف يشد أصابعه علي القوس ويسمي هذا (عقد) والجمع (عقود)، ويعلمه المعلم استخدام القوس بدون سهم لبضعة أيام، ويلي هذا تدريبه علي سهم خفيف. ويستبدل القوس بأربعة أقواس كل قوس أثقل من سابقه، ثم يدربه علي القوس الخامس الذي يستخدم في القتال. والتدريب النهائي يتم في الصحراء، ويسبقه تدريب المملوك علي حلقة أو دائرة يتعلم عليها الرمي تسمي (البُتيّة).

ووصف لنا هذه البُتية أحمد بن عبد الله محب الدين الطبري ت ٦٩٤هـ/١٢٩٥م. فقال: إنها هدف ثابت علي أربعة أرجل، وارتفاع البُتية يكون حتي مستوي صدر المملوك، ويختلف الارتفاع من مملوك إلي آخر.

وتصنع البُتية من مواد معينة، وبخاصة من الجلد، وتُملأ بالقطن. ويبدأ المملوك في التدريب بالرمي علي البُتية من مسافة ذراع حوالي ٦٦ر٥سم (أنظر لوحة V). ولتشجيع المتدربين وضع طيبغا كل تعليمات الرمي في قصيدة من الشعر من حوالي مئتي بيت (علي غرار ألفية مالك في النحو) يحفظها المملوك في الطباق عن ظهر قلب، ليردد الأبيات أثناء التدريب. وتحتوي القصيدة علي نصائح للمملوك: كيف يمسك القوس، وأين يضع رجله اليمني ورجله اليسري، والمسافة بينهما، ومتي يقف أثناء الرمي، ومتي يجلس، وجميع مصطلحات التدريب ومنها: قبضة، قفلة، اعتماد، تفويق، إفلات.

وتحتوي رسائل الفروسية علي معلومات في غاية الأهمية للمتدرب. منها أنواع القسي والسهام، ووظيفة كل منها، وتعليمات لتجنب أخطار التدريب، وحماية يده وأصابعه وذراعه وذقنه وأذنه. وهذه الرسائل تعلم الفارس كيف يعالج جروحه ووسائل هذا العلاج.

وتدريبات استخدام القوس والسهم احتلت مساحة كبيرة في التدريبات في الطباق. والتدريب في هذه الناحية يشمل ناحيتين أساسيتين :

١- تصويب السهام إلى أسفل على ما يسمي قيقاج (إناء كبير مملوء بالرمل).
٢- تصويب السهام إلي أعلي علي القبق.

وفي التدريب الأول يقوم المعلم بتدريب الفارس علي الإمساك بعنان فرسه بين إصبعين، وكيف يمسك بالقوس بإتقان، وكيف يقف علي ركاب الفرس، بينما يميل إلي الأمام، وكيف يطلق السهم دون أن يلمس أذني الفرس.

أما معنى كلمة القبق فهو (القرع العسلي). ويتكون القبق كما يقص علينا المقريزي في خططه (المواعظ والاعتبار) من عمود خشبي مثبت في أرض فضاء، وتوضع حلقة خشبية أعلي العمود. وعلي الفارس أثناء التدريب أن يمرر السهام من تلك الفتحة من الحلقة الخشبية، ليصيب الهدف الموضوع في الجهة الثانية. ومحب الدين الطبري في إحدى رسائله في الفروسية؛ ينصح الفارس أن يأتي إلي القبق من الناحية اليمني، ويميل قليلا ناحية يساره. ونصح الطبري أن طول العمود - وعليه الحلقة الخشبية التي تسمي العلامة - يجب أن يكون عشرة أذرع. (لوحة VI)

وذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ج ٨ : معلومات أخري عن القبق، عند زيارة السلطان خليل بن قلاون للميدان خارج القاهرة، سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م للعب (القبق). ووصف ابن تغرى بردي هذا القبق بأنه: سارية عالية فوقها (قرعة) مصنوعة من الذهب والفضة داخلها طائر. ويتقدم الفارس نحو الهدف ويطلق سهمه، والفارس الذي يصيب الهدف، ويطير الطائر هو الذي يفوز وينال رداء الشرف والقرعة الفضية أو الذهبية مكافأة له. ويبدو أن القبق الذي وصفه ابن تغري بردي كان نوعاً يُستخدم في مناسبات معينة وبخاصة في حضرة السلطان، أما الذي وصفه لنا المقريزي فهو القبق الذي استخدم في الطباق. وهناك معلومات كثيرة عن القبق ذكرها طيبغا اليوناني، والنصائح التي كان المملوك يُزود بها أثناء تدريبات الرماية بالسهام.

والمبارزة بالسيف (المثاقفة) كان يتم التدريب عليها في الطباق، وكان المعلم يجهز أربعة أنواع من السيوف، بأوزان مختلفة ما بين رطلين وخمسة أرطال. وتبدأ التدريبات باستخدام السيوف الخفيفة، وتنتهي بالسيوف الثقيلة. ويأتي المدرب بنوع من الطمي (الصلصال) يعجن ويخمر لمدة ثلاثة أيام ولياليهم، ويعالج الطمي - كما يقول لنا بكتوت في رسالته (الفروسية) حتي يصبح حسب قوله (كالمرهم). ثم يوضع الطمي علي منضدة صغيرة، طولها ثلاثة أذرع (٣×٦٠سم) حوالي مترين، وعرضها ذراعان، وارتفاعها شبر. ويجلس المملوك، تحت إشراف معلمه، علي ركبتيه ويضرب الطمي بسيفه. (أنظر اللوحة VII)

وفي رواية أخري: يتقدم المملوك إلي الطمي علي المائدة من الجهة اليمني، ويتقدم برجله اليسري إلي الأمام ورجله اليمني إلي الخلف، ويضرب الطمي بسيف التدريب ٢٥ مرة في أول يوم، ثم ٥٠ مرة في اليوم الثاني، ثم ٧٥ مرة في اليوم الثالث، ويزيد كل يوم حتي يصل إلي ألف ضربة في اليوم الواحد في جلسة واحدة.

والتدريب التالي في استخدام السيف وكيفيته: أن يوضع فوق الطمي أو (الصلصال) طبقات من اللباد الصوفية يقطعها المملوك بسيفه، علي مراحل، حتى يصل بسيفه إلي الطمي.

ويزداد سمك اللباد من خمس طبقات في اليوم الأول، حتي تصل إلي مئة طبقة مع نهاية التدريب.

ولتدريب الفارس ليكون علي دراية بسيفه، وأن يتحكم في عمق الجرح عند إصابة خصمه، سواء أراد أن يقتل خصمه، أو أن يجرحه، فيقوم معلم الفروسية بتدريبه علي قطع رزم من الورق موضوعة علي وسادة مملوءة بالقطن. فتوضع عشرون رزمة علي وسادة، ويطلب من المملوك أن يقطع عدداً من الرزم في ضربة واحدة. يلي هذا وضع لوح من المعدن تحت رزم الورق، ويطلب من المملوك أن يقطع عدداً محدداً من رزم الورق بضربة واحدة. ويستمر التدريب حتي يتعلم المملوك كيف يقطع عدداً معيناً من رزم الورق، دون استخدام اللوح المعدني.

ويتعلم الفارس فنون الفروسية بطريقة أخري، ففي البداية يثبت علي الأرض عود قصب أخضر بطول المملوك. ويتقدم المملوك إلي هذا العود من اليمين، ويسرع الفرس، ويقوم الفارس بقطع حوالي شبر منه، ويكرر المحاولة إلي أن يصبح طول العود ذراعا. (لوحة VIII). وفي التدريب التالي يثبت خمسة عيدان قصب، والمسافة بين كل عود وآخر ١٠ عشرة أذرع. ويتقدم الفارس من جهة اليمين وهو علي ظهر فرسه، ويقطع كل عود قطعة بعد أخري في تدريب مستمر. أما التدريب الأخير من هذا النوع فتوضع خمسة عيدان في الجهة اليمني، وخمسة في الجهة اليسري، ويقطع المملوك هذه العيدان قطعة وراء الأخرى.

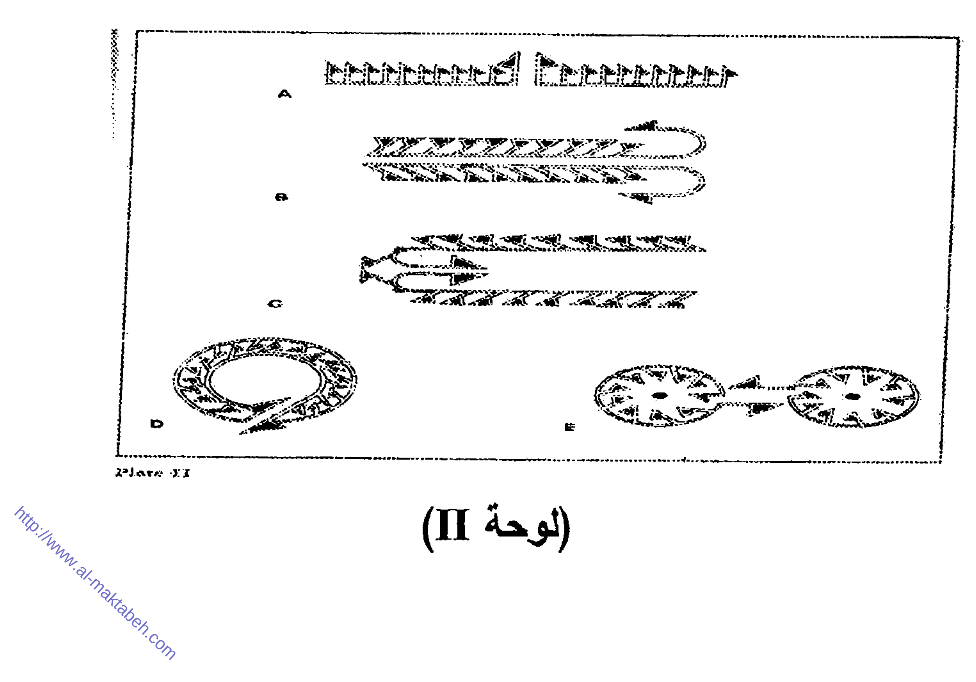
وبعد هذه التدريبات يسمح المعلم للمملوك باستخدام السيف ضد العدو عند لقائه في المعركة في حالة الهجوم، وفي حالة الانسحاب، وكذلك يستطيع أن يستخدم سيفين في وقت واحد.

وكانت هذه التدريبات كلها يقوم بها كل مملوك قبل مغادرته الطباق. وبعد أن ينتهي من كل هذه التدريبات، ويبرهن علي أهليته كجندى محارب، يمنح شهادة بأنه قد أصبح حراً، ويهبه السلطان فرساً وسلاحاً. ولا تنقطع صلة المملوك بالطباق عند هذا الحد، بل تستمر بعدة طرق منها: استلامه المرتبات والمنح عن طريق الطبقة التي تربي فيها.

وتجدر الإشارة أن مستوي التدريب الحربي في الطباق ضعف مع مرور الوقت، وبخاصة في عصر سلاطين المماليك الجراكسة. وحدث هذا نتيجة عوامل اقتصادية داخلية واكبت انهيارا عاما في سلطنة المماليك، وصاحبه بداية بطيئة في استخدام الأسلحة النارية.

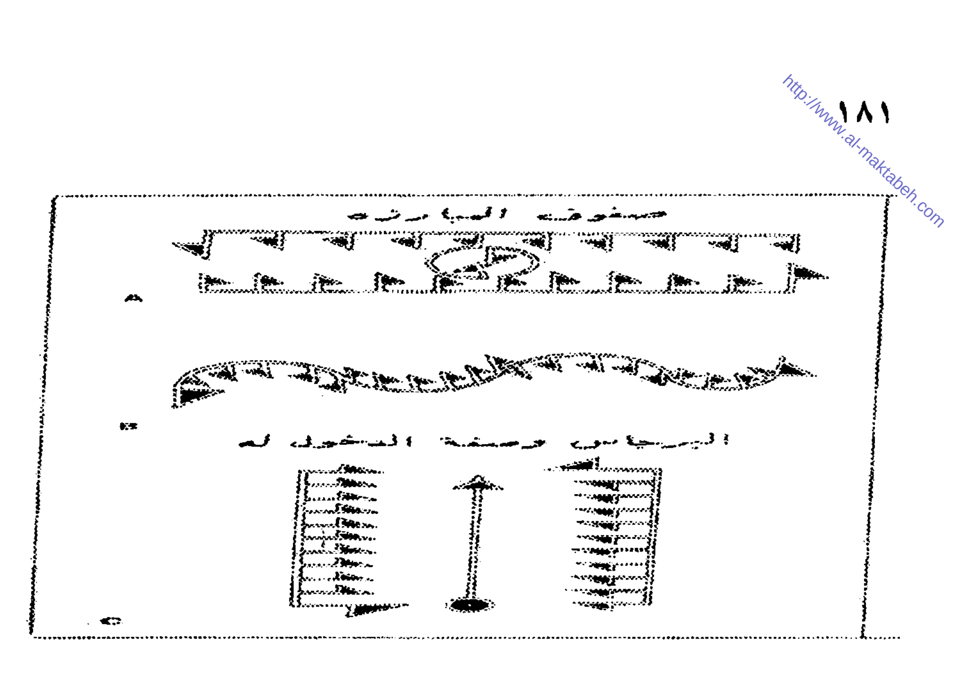
Plate I

(لوحة I)

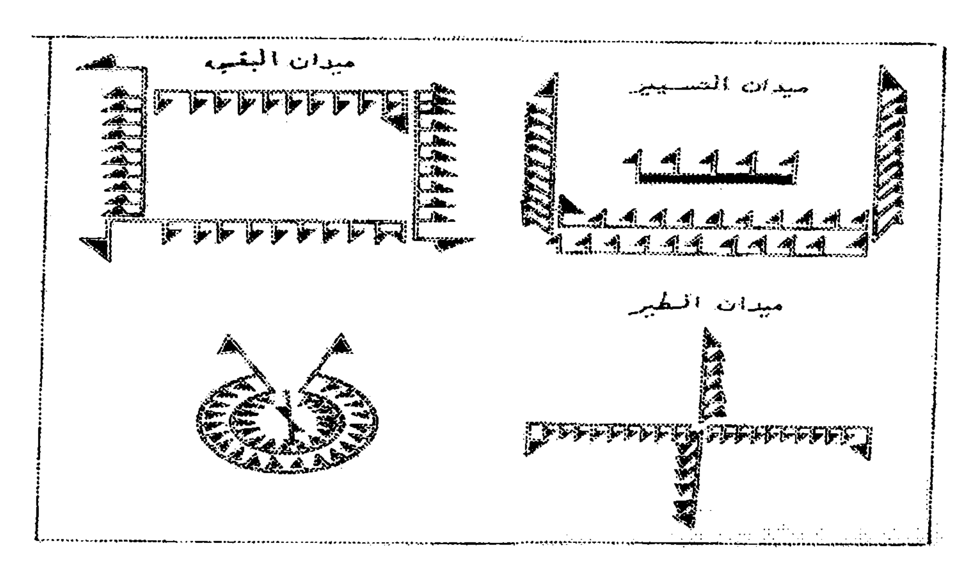


(لوحة II)

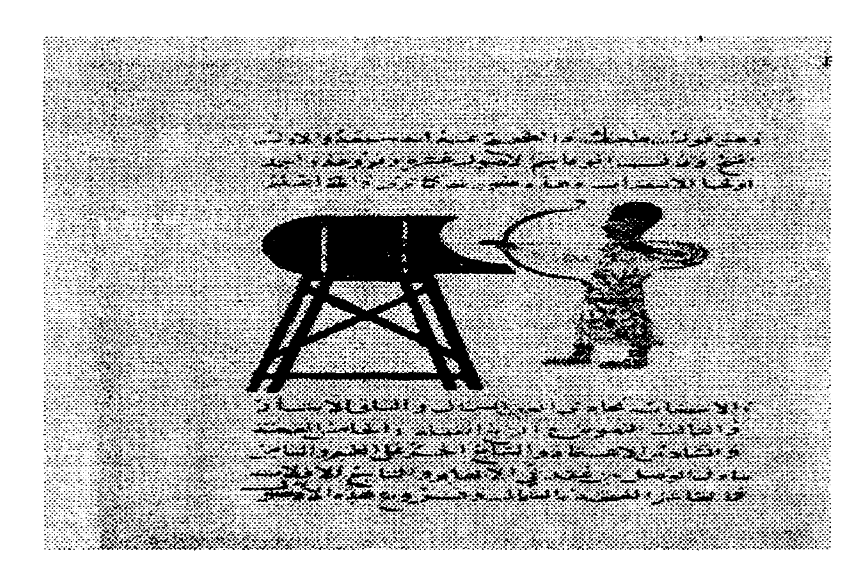




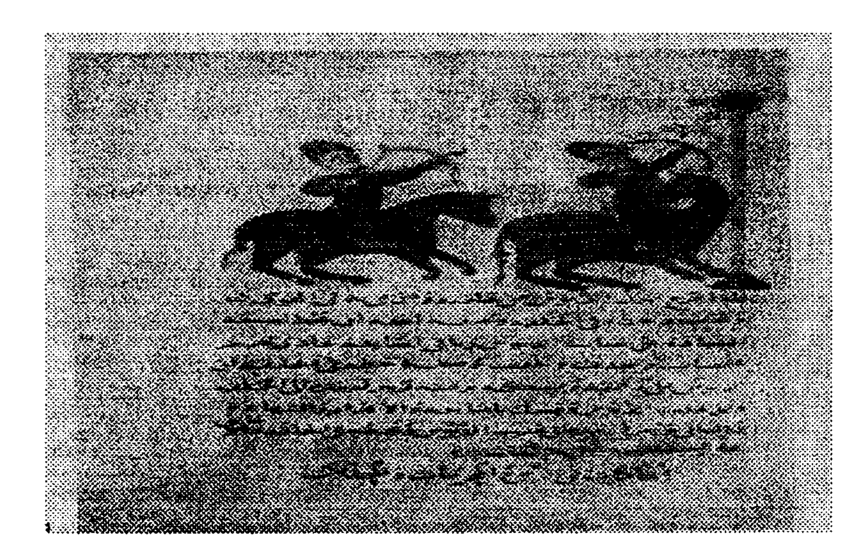
(لوحة III)



(لوحة IV)



(لوحة V)



(لوحة VI)

(لوحة VII)



(لوحة VIII)



www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

نشـأة ومهـام وظيفة "المشـير" في تاريخ مصر الإسلامية

د. البيومي إسماعيل الشربيني (*)

يقصد بلفظة المشير: "الذي يؤخذ رأيه"(١)، أو "الذي يشير على غيره بالرأي"(٢)، أو "الناصح الذي يؤخذ برأيه"(٣). أما عن الأصل الذي اشتقت منه الكلمة فقيل من: شرْت العسل: إذ استخرجته من كوارة النحل، لأن الرأي يستخرج من المشير؛ وقيل من: شرْت الناقة: إذا عرضتها على الحوض، لأن المستشير يعرض ما عنده على المشير(٤). وفي حالة إضافة اللفظة إلى ياء النسبة (المشيري) كانت تستخدم كلقب، وغالباً ما كان هذا اللقب يستخدم في المكاتبات دون النقوش، واعتبر من ألقاب الوزراء وكبار الأمراء من أرباب السيوف ممن لا تقل رتبتهم عن مقدم ألف(٥). وإذا كان "المشيري" من الألقاب الإسلامية المذكرة والمفردة، إلا أنه أضيف أحياناً إلى كلمات أخرى لتكوين بعض الألقاب المركبة مثل: مشير الدولة؛ مشير السلطنة: مشير الملوك والسلاطين، وهي جميعها من ألقاب الوزراء ومن على شاكلتهم(٦). وبالرجوع إلى معاجم اللغة بحثاً عن كلمة المشير تحت الفعل: شار، أو شور(٧)، لم نعثر عليها، ووجدنا كلمة أخرى مرادفة لها وهي: المستشار بمعنى: العليم الذي يؤخذ رأيه في أمر هام علمي أو فني أو سياسي أو قضائي أو غيره، "وهي كلمة محدثة"(٨). وبالرجوع إلى لسان العرب لابن منظور(٩) – المتوفى ٧١١هـ/١٣١١م – لم نجده أيضاً قد ذكر لفظتي: "المشير"، أو "المستشار" وإنما أورد بعض التفاصيل قريبة المعنى منهما: أشار عليه بأمر كذا: أمره به، وهي الشورى والمشورة، ويقال فلان وزير فلان وشيرُه: أي مشاوره، وجمعه شُورَاءُ. ومعنى هذا أن لفظة المشير – سواء كانت وظيفة أم لقباً – لم تكن متداولة أو معروفة (رسمياً) بذات الاسم حتى أوائل القرن الثامن الهجري، وإلا ذكرها ابن منظور في معجمه. وقد ذكر ابن الأزرق(١٠) أن أركان الملك وقواعده تنحصر في عشرين قاعدة وركناً، وقد عنون الركن العاشر منها باسم: "مشورة ذوي الرأي والتجربة" وفيه تحدث عن مشروعية المشورة، ثم تناول بالحديث المستشير، والمستشار، والمستشار فيه، مستقياً مادته العلمية من أبرز مشاهير كتاب تلك الفترة، أمثال: ابن الحاج، والنووي، والغزالي، وابن خلكان، وغيرهم.

(*) رئيس قسم التاريخ والحضارة كلية الآداب – جامعة قناة السويس

ولا ندري على وجه الدقة متى ظهرت وظيفة المشير – كوظيفة – في تاريخ نظام الحكم المصري قديماً؟ وماذا كانت اختصاصاته؟ هذا بالرغم من كثرة كتب المؤرخين القدماء والتي حضت على وجوب المشاورة وضرورة اعتمادها أسلوباً في التفاهم بين الحاكم والمحكومين. فنجد كتاب التحفة الملوكية[11] والمنسوب خطأ إلى الماوردي، يعقد مؤلفه فصلاً بعنوان: "في العقل والمشورة" مبيناً أهمية المشاورة بعد الاستخارة، وأورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تشرح ذلك، وفي موضع آخر ذكر أن علامات إدبار الملك ثلاث:

أ- اكتفاء الملك بالأحداث، وبمن لا خبرة له بالفكرة في العواقب.

ب- أن يقصد أهل مودته بالأذى.

جـ- استهانته بنصيحة العقلاء ممن هو أسن منه.

ومن مظاهر اهتمام المسلمين بموضوع الشورى: أن أفردوا لها فصولا في مؤلفاتهم للحديث عنها في الكتاب والسنة، والشروط الواجب مراعاتها فيمن يستشار، وكيفية المشورة وغيرها. ومن هؤلاء: ابن تيمية(١٢)، والثعالبي(١٣) والذي أوضح أنه يختار للمشورة أهل العقول والتجارب الكثيرة، ومن تقلبت عليهم الحوادث، "وإذا كان المشير دون المستشير في أصالة الرأي، فلا يضر بل ينفع، ويزداد به كما تزيد النار ضوءًا بالزيت الممد لها".

وقد اهتمت الحضارات القديمة بهذه الوظيفة وحضت عليها، بدليل ما نقله ابن الأزرق[14] عن أفلاطون في قوله: "ينبغي للملك السائس ألا يطلق الرأي إلا لمن نصبه لذلك، لئلا يحدث في مملكته الآراء الردية". ونظرا لخطورة منصب المشير أورد ابن الأزرق[15] ما فحواه: أن الملوك الأول إذا أرادوا أن يستشيروا رجلاً ما، كانوا يبعثون إليه "بقوته وقوت عياله لسنة، وليتفرغ له عقله".

نشأة وظيفة المشير في مصر:

عند ذكر السيوطي[16] لأرباب الوظائف بالدولة المصرية نقلاً عن ابن فضل الله العمري، لم يرد ضمن هذه الوظائف أي ذكر عن وظيفة المشير، كذلك حينما ذكر الوظائف التي استجدها الظاهر بيبرس تشبهاً بجنكيز خان، لم يرد بها أيضاً أي ذكر عن المشير. كذلك ترجم ابن حبيب[17] لبعض الأمراء مثل: الأمير علم الدين سنجر الجاولي، واصفاً إياه بأنه أحد أمراء المشور الذين يجلسون في حضرة السلطان. ووصف الأمير سيف الدين آل ملك الناصري بأنه: من كبار أمراء المشور ومشايخهم، وبأنه رفيع المنزلة، عالي القدر. ومع ذلك لم يمدنا ابن حبيب بشيء عن المشير وموقعه ضمن أمراء المشور. ولعل أول إشارة واجهتنا بخصوص هذه

الوظيفة، هي ذكر ابن إياس[١٨] لتولي الأمير منكوتمر مشيراً للدولة في عهد السلطان لاجين، وذلك عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م. ومعنى هذا: أن وظيفة المشير لم توجد في مصر قبل عصر سلاطين المماليك، وأنه يرجع إلى النظام العسكري المملوكي الفضل في استحداث هذه الوظيفة. ومما يؤيد ذلك ما ذكره القلقشندي[١٩]، والسحماوي[٢٠] عن وظيفة الإشارة بانها: "وظيفة مستحدثة، لم يعهد بها كتابة في الزمن القديم". وهناك من يرى أن استحداث هذه الوظيفة في مصر يرجع إلى عام ٧٠٦هـ/١٣٠٦م[٢١]. وأنها ترادف وظيفة المدبر أو مدبر الدولة، وكلاهما واحد[٢٢]. وعند قيامنا بعمل حصر لمن تولى وظيفة المشير تبين: أن المعز أيبك، والظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل، كان لدى كل منهم مستشار مصاحب له، وإن لم يعطه لقب مشير، كما يتبين بالنظر إلى ملحق(١).

أما عن موقع المشير في الجهاز الإداري بالدولة، فقد جاء في المرتبة الثالثة من ولايات أرباب السيوف ذوي التقاليد بمصر، وذلك بعد نيابة السلطنة والوزارة[٢٣]. أما السحماوي[٢٤] - المتوفى ٨٦٨هـ/١٤٦٣م - فقد صنف أصحاب الوظائف من الأمراء المقدمين أرباب السيوف، بمملكة مصر، إلى ثلاثة عشر مقدماً، بدءاً من النائب وانتهاءً بأمير إستادار، وقد احتل المشير طبق هذا التصنيف الوظيفة رقم تسع، ما بين الدوادار والوزير. ومعنى هذا أن المشير حتى عصر القلقشندي - توفى ٨٢١هـ/ ١٤١٨م - كان في مرتبة متقدمة، ثم بعد ذلك، وفي غضون أربعة عقود، انحدرت وظيفته من المرتبة الثالثة إلى المرتبة التاسعة في دولة المماليك. ولهذا الحدث دلالته في نزوع الحكام العسكر إلى السلطوية والانفراد بمقاليد الحكم. ويبرهن على ذلك: أن هذه الوظيفة كانت "تعمل أحياناً وتبطل غالباً"[٢٥]. كما يبين هذا التدهور أن ما لحق بوظيفة المشير لم يكن قاصراً عليها فقط، بل شمل غيرها من الوظائف، بدليل تأخر مرتبة الوزارة من الدرجة الثانية إلى العاشرة وفق تصنيف السحماوي.

مما سبق يتضح لنا ثمة تشابه، بل وتطابق لغوي، بين منصبي المشير والمستشار، وبالرغم من ذلك؛ فإنه يمكن استنتاجا القول بوجود بعض الفوارق بينهما مثل:

- من الممكن أن يوجد في الدولة الواحدة العديد من المستشارين في المجالات المختلفة، في حين يقتصر منصب المشير فيها على شخص واحد.
- المستشار شخص يطلب رأيه أو يستشار في مسألة ما، وللجهة المستشيرة الحق في الأخذ برأي هذا المستشار أو تركه. أي أن المسألة هنا اختيارية. أما المشير فيبدو من منطوق اسمه صفة الأمر والإلزام والتفرد، وأن مشورته كانت واجبة

التنفيذ. ولعل هذا ما أضفى على وظيفته تلك الأهمية والمكانة في الدولة. فها هو المشير تاج الدين أحمد بن سعيد الدولة المصري، كانت له مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة عند السلطان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وعندما أراد السلطان أن يوليه الوزارة، امتنع واستمر مشيراً، ولم يُقدم الجاشنكير على عمل أي شيء إلا بعد مشورة وإذن ابن سعيد الدولة[٢٦]. ولأهمية وخطورة هذا المنصب في بداية نشأته عند المماليك البحرية، يبدو أنهم لم يمنحوه إلا للمقربين منهم أو الواثقين بهم. نلحظ ذلك عندما عين السلطان لاجين مملوكه منكوتمر مشيراً للمملكة عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م[٢٧].

وعندما عين السلطان الناصر حماه تنكز. لذات المنصب، خلال فترة ولايته الثالثة[٢٨]. ولما كان أمير مشور، أو المشير، من أكابر الأمراء وأقربهم إلى السلطان، فقد ارتأى بعض المحدثين[٢٩] أنه لقب باسم "الأمير الكبير" وكان السلطان يستشيره في الأمور. وهذا الكلام نتفق معه فيما عدا ما ذكر من اللقب، حيث إن الأمير الكبير كانت وظيفة في وقت ما، وكان يستشار، لكنه يختلف عن المشير، وذلك لأن لقب الأمير الكبير أطلق على شيخون العمري عندما تولى الأتابكية، زمن السلطان حسن بن الناصر محمد (٧٤٨-٧٥٢هـ/١٣٤٧-١٣٥١م) وخاصة عندما أصبح الرجل الثاني في الدولة بعد السلطان، وذلك بعد أن أُلغي منصب نائب السلطنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م وأضيفت صلاحياته إلى أتابك العسكر[٣٠]. ولما كان المشير يعد من عليه القوم وممن يخشى بأسهم – لما له من سلطان وقوة أيام المماليك البحرية – فقد حرص الواقفون في وثائق وقفهم على إيراد عبارات تحذيرية، له ولغيره، لردعهم عن التعدي على الأوقاف، وإلا تعرضوا لغضب من الله والملائكة والناس أجمعين، وما تقبل منهم أعمالهم. وقد رأينا ذلك في وثائق عدة منها: وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري. فقد جاء في الأسطر ٣٢٠-٣٢٦ من الوثيقة الأولى، والأسطر ٧١-٧٣ من الوثيقة الثانية، ما نصه: "فلا يحل لأحد يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر ويعلم أنه إلى ربه الكريم صائر من سلطان أو وزير أو مشير.... نقض هذا الوقف ولا نقص شيء منه ولا تعطيله أو فسخه ولا تحويله ولا السعي في إبطاله..."[٣١]. وقد جاء مثل ذلك في وثائق أخرى كثيرة[٣٢]. أما في عهد الجراكسة فقد تراجع الحال، ولم تراع أية شروط في تعيين المشيرين. فها هو يلبغا السالمي أفرج عنه من سجن دمياط في رمضان ٨٠٥هـ/١٤٠٢م ثم خلع عليه وقرر مشيراً للدولة[٣٣]. وبعد ذلك دخل السجن ثانية في الإسكندرية، ثم أفرج عنه في رمضان ٨٠٧هـ/١٤٠٤م واستقر به مشيراً للدولة[٣٤]. وقد حدث ما يقرب من ذلك مع سعد الدين بن غراب، في عام ٨٠٧هـ/١٤٠٤م[٣٥]. وبالرغم من هذا إلا أنه من الواضح أن المشير ظل محتفظاً بقوته وسلطانه حتى نهاية الدولة، بدليل ما ذكره ابن إياس[٣٦] عن المشير أزبك اليوسفي، المعروف بالخازندار، ومساعدته للشرفي

يعقوب حتى تولى الخلافة بعد وفاة والدة عام ٩٠٣هـ/١٤٩٧م، وبالفعل تم ذلك، وتولى الخلافة تحت لقب المستمسك بالله. وهذا يقودنا إلى التساؤل حول: ما الشروط الواجب توافرها في المشير؟ وما النصائح التي حرص الكتاب على توجيهها له؟ وكيف كانت تتم الاستشارة؟ وسوف نرجئ الإجابة عن هذه الأسئلة إلى نهاية هذا المقال ريثما ننتهي من مناقشة بعض النقاط المهمة حول شخص المشير ومنصبه.

ارتباط وظيفة المشير بالعسكر وأرباب السيوف:

ثمة إجماع بين الكتاب والمؤرخين(٣٧) – ممن تعرضوا لوظيفة المشير- بأن متولي هذه الوظيفة كان من كبار الأمراء من جهة، ويحمل رتبة أمير مائة مقدم ألف من جهة أخرى، وهي أعلى درجات السلم العسكري في مصر المملوكية. لذا فإن لقب "المشير" كان من ألقاب الوزراء وكبار الأمراء، ولم يكن يطلق لأحد من أرباب السيوف ما لم تكن رتبته مقدم ألف(٣٨). وقد اتضح ذلك عند تعيين سعد الدين بن غراب مشيراً في يوم الأربعاء ١٩ من ذي الحجة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م، وهي حالة فريدة لم نصادفها في الدولة. فهذا الرجل لم يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، وقربه إليه السلطان الناصر فرج بن برقوق، ورقاه إلى أمير مائة مقدم ألف – برغم أنه لم يكن عسكرياً، بل كان ينتمي إلى طبقة الكتاب والمباشرين – ثم صار الرجل مشيراً، ويلي الأمير الكبير في المجلس، وغدا صاحب الحل والعقد آنذاك، وبناءً على ذلك، وتماشياً مع الوضع الجديد، جلس ابن غراب مع الأمراء المقدمين، ولبس الكلفتا(٣٩)، وتقلد السيف كهيئة الأمراء، وترك زي الكتاب، ونزع العمامة، وتزيا بزي الأتراك، ولبس الشاش والقماش، وخرج عن طور المباشرين(٤٠). وعبر عن ذلك ابن إياس(٤١) بقوله: "ولم يقع هذا لأحد من المباشرين قبله".

وتماشياً مع قاعدة أن رتبة المشير كانت أمير مائة، فقد لوحظ أن السلطان الناصر محمد بن قايتباي عند ما أراد أن يولي الأمير أزبك اليوسفي، المعروف بالخازندار، مشيراً للمملكة في المحرم ٩٠٣هـ/١٤٩٧م، رقاه إلى مقدم ألف أولاً ثم عينه(٤٢). ثم بعد ذلك أخرج عنه التقدمة عندما كبر سنه وعجز عن الحركة، ومنحها للأمير أزدمر من علي باي.

ومن الجدير بالذكر أنه واجهتنا حالة واحدة شذت عن القاعدة السابقة، وهي حالة الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشي. إذ قام السلطان الأشرف شعبان بن حسين، في يوم الاثنين ١٩ ذي الحجة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م، بتعيينه مشيراً للدولة بإمرة طبلخاناة(٤٣).

ومن الواضح أن عمليات تعيين المشيرين كانت، شأنها شأن باقي الوظائف، تتم في هدوء، ولم يصاحبها طقوس أو مراسم معينة أو احتفالات خاصة. لذا لم يكن

مألوفاً عند تعيين الصالح حاجي للصاحب كريم الدين بن مكناس مشيراً للدولة، عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م، أن ينزل أمامه من القلعة "زامر يزمر"، وعلق المقريزي[٤٤] على ذلك بقوله: "ولم يعهد مثل هذا بمصر قط".

ولما كان المشير ينتمي إلى طبقة كبار رجال الدولة؛ فقد كان يكتب له تقليد مثلهم، وعلى قطع ورق من الثلثين، ويكتب التقليد بقلم الثلث الثقيل، شأنه شأن نواب السلطنة والوزير وكاتب السر وقاضياً قضاة الحنفية والشافعية[٤٥]. ولما كان هذا التقليد على درجة من الأهمية، لما يحويه من معلومات تخص موضوعنا، نعرض هنا لنسخة تقليد بالإشارة كتبها المقر الشمسي العمري – كاتب الدست الشريف بديوان الإنشاء – للأمير جمال الدين يوسف البشاسي، في دولة الناصر فرج بن برقوق، في شعبان سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م، ثم نعرض بعد ذلك لما ورد في التقليد من معلومات، وفق ما أورد القلقشندى[٤٦] نصه: (انظر ملحق رقم (٣) نهاية البحث).

تحليل النص:

١- التقليد يأتي في الدرجة الثانية من المكاتبات بعد (عهود) الخلفاء والملوك، والتي يليها (تقاليد) كبار النواب والوزراء، ثم (تفاويض) القضاة، ثم (تواقيع) عامة الوظائف جليلها وحقيرها[٤٧].

٢- يبدأ التقليد في الفقرة الأولى بالتحميد أو الحمد عملاً بقوله (ﷺ): "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم" أي ناقص البركة[٤٨]. لذا افتتح التقليد بـ (الحمد لله)، وهذه هي المرتبة الأولى في الافتتاحيات التي كانت تكتب في التواقيع الكبار والمراسيم المكبرة[٤٩].

٣- جاء في بداية الفقرة الخامسة، وبعد التحميد والتشهد والصلاة على النبي (ﷺ): (أما بعد) وهذه تعتبر الرتبة الأعلى فيما كان متبعاً في العهود والتقاليد خاصة[٥٠]. وفيما عدا ذلك كان يكتب: (وبعد).

٤- في بداية الفقرة السادسة جاءت الألقاب المختصة بصاحب الولاية، مثل: الجناب، العالي، الأميري، الكبيري،.... الخ.

٥- أتبعت الألقاب السابقة مباشرة باسم المشير "يوسف الناصري".

٦- بعد التصريح بالاسم دعا له الكاتب بما يناسبه من الدعاء، إن كان مستحقاً لذلك.

٧- الفقرة السابعة خصصها الكاتب لذكر أوصاف المتولي، بما يناسب مقامه ومقام الولاية، من مدح وتقريظ. فيشيد بحسن سياسته مع الجند، وأداءه للمهمات الشريفة بنجاح، وجهوده في الحط من ارتفاع الأسعار.. "وتأسى في تعريفه

بنفسه بيوسف عليه السلام" وكأنه يعدد عليه أخطاءه التي لم تقع بعد، ليضعها نصب عينيه، ويجعله سليلا ليوسف الطاهر الأمين، وفي الوقت نفسه ينأى عنه باللائمة التي لم تحدث، وكأن السلطان قرأ ما بداخل النفس البشرية فعالج القصور بالتلميح دون غيره، مما يجعل لمنزلته رفعة بين محكوميه(٥١).

٨- في الفقرة الأخيرة جاءت عبارة: "أن تفوض" وهي من العبارات الشائعة في المكاتبات، والتي يتبعها ذكر نوع العمل المكلف به المتولي وهو: "الإشارة الشريفة" وألحق بها الكاتب ما لدى المتولي من وظائف أخرى مثل: الوزارة، وديوان الخاص، وديوان المفرد.

٩- يلي ذلك، في الفقرة التاسعة، وصايا لصاحب الولاية بما يناسب ولايته.

١٠- في النهاية تجيء فقرة الختام بما تتضمنه من كتابة التاريخ والحمد لله والتصلية والحسبلة. وهنا يوضح السيوطي(٥٢) أنه إذا كتب السلطان لأحد من النواب، كان يكتب اسمه فقط، وإن كان الشخص من ذوي السيوف ومن كبار الأمراء – كالمشير – كتب والده فلان، وإن كان الشخص من القضاة والعلماء كتب أخوه فلان.

وجدير بالذكر أنه من بين النقاط التي أثارها التقليد السابق، أن المشير – إلى جانب وظيفته – كان من الممكن له شغل وظيفة، أو وظائف أخرى في الوقت ذاته، إذا ما أراد أو إذا ما كلفته الدولة بذلك. وقد تبين لنا هذا عند دراسة ما عثر عليه من أسماء المشيرين في دولة المماليك. حيث تبين أن ثلث من عشر على أسمائهم كانوا يشغلون وظائف أخرى، إلى جانب عملهم بالإشارة. فالصاحب شمس الدين أبو الفرج المقسي عين، في شوال ٧٧٧هـ/١٣٧٥م، وزيراً "فجمع بذلك ما بين الوزارة ونظارة الخاص، فأطلق عليه مشير الدولة ومدبر المملكة ووزير الوزراء بالديار المصرية"(٥٣). وفي شهر رمضان ٧٨٣هـ/١٣٨١م، خلع السلطان حاجي بن شعبان على الأمير جركسي الخليلي أمير أخور كبير، واستقر به مشيراً للدولة(٥٤).

كذلك خلع السلطان برقوق، عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م، على الأمير جمال الدين محمود الإستادار، واستقر به مشيراً للدولة "فعظم أمره جدا"(٥٥). وإذا كان الأمير بدر الدين بن محب الدين قد عزل عن الإستادارية، في يوم الاثنين ٣٠ جمادى الأولى ٨١٦هـ/١٤١٣م، واستقر به مشيراً للدولة، فإنه في ٨ شوال من العام نفسه؛ خلع عليه باستقراره في نيابة الإسكندرية، إلى جانب كونه مشيراً(٥٦). كذلك كان الأمير فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج يشغل، في يوم الخميس ٤ جمادى الآخرة ٨١٩هـ/١٤١٦م، كشف الوجه البحري إلى جانب الإستادارية، ومشير الدولة(٥٧). أما المقر السيفي طومان باي فقد كان يشغل، في عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، وظائف:

أمير سلاح، وأمير دوادار كبير، والوزير، والإستادار، وكاشف الكشاف، ومشير المملكة "وما مع ذلك من الوظائف"(٥٨) ومن خلال هذه الفقرة يمكن الخروج بملاحظتين:-

١- كانت وظيفتا الإستادارية والوزارة من أكثر الوظائف التي يشغلها المشير إلى جانب وظيفته. ولما كان الإستادار هو المتحكم في أمر البيوت السلطانية كلها، من خدم وحاشية ومطبخ، وما تحتاجه من متطلبات(٥٩). فيبدو أنه بسبب قرب المشير من السلطان – وملازمته واطلاعه على أسرار السلطان والدولة – أسندت إليه الإستادارية لوجوده معظم الوقت داخل هذه البيوت السلطانية، أما الوزارة فقد أسندت إليه لدواع اقتصادية كما سيتبين لاحقاً عند الحديث عن اختصاصات المشير.

٢- إن وظيفة المشير كانت أقرب إلى الوظائف الشرفية التي يمكن تحميلها على غيرها من الوظائف. ومعنى هذا أنه لم يكن لها ديوان قائم بذاته، وإنما كان متولوها يستدعون من عملهم الأصلي لأداء مهمة محددة، في قضية محددة وفي فترة محددة قد تطول أو تقصر حسب انتهاء المهمة الموكولة للمشير، أو حسب ما يراه السلطان الحاكم. وهناك من الشواهد ما يؤيد ذلك. فمثلاً، في يوم الاثنين ٢٦ شوال ٨٢٠هـ/١٤١٧م، خلع على فخر الدين بن أبي الفرج خلعه الاستمرار على وظيفة الإستادارية فقط، بعد عزله من الوزارة "وأن يكون مشير الدولة"(٦٠) ومنطوق هذه الجملة يوضح أن الإشارة كانت مجرد إسناد أو إضافة إلى الوظيفة الأصلية، وهي الإستادارية. ولعل حالة طومان باي، التي عرضت آنفاً، في عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، تجسد هذا الوضع وتعبر عنه، حيث كان يشغل هذا الأمير ست وظائف كبرى في آن واحد، من بينها مشير المملكة!!

وقد لوحظ في تاريخ دولة المماليك بمصر: أن منصب المشير كان منصباً فردياً أي يتولاه شخص واحد شأنه شأن بقية المناصب الكبرى بالدولة ويستثنى من هذه القاعدة حالات ثلاث لكل منها ظروفها الخاصة:

الحالة الأولى: كانت في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، حيث كان لديه لجنة ثلاثية صورية يستشيرها، ولا يأخذ برأيها – إلا إذا كان في صالحه – استبداداً منه بالحكم، بعد أن تعرض للعزل من قبل. [الحالة رقم (٩) في ملحق (١)].

الحالة الثانية: كانت في عهد السلطان حاجي، إبان فترة انتقالية لم تستمر سوى شهور. [الحالة رقم (٢٣) في ملحق (١)]

الحالة الثالثة: وقعت عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، وفيها خلع السلطان الناصر فرج على الأميرين: نوروز الحافظي، ويشبك الشعباني، واستقر بهما مشيري الدولة ومدبري أمورها. [الحالة رقم (٢٩) في ملحق (١)] ولعل تفسير هذه الحالة هو ما كانت

تعانيه الدولة من اضطرابات مالية وسياسية في الداخل والخارج، تمثلت في : صغر سن السلطان، وتطلع أفراد مجلس الوصاية إلى التفرد بالأمور، ناهيك عما حدث من تراجع أمام الضغط التيموري على بلاد الشام في الخارج[٦١].

ومن النقاط المهمة ذات الصلة بموضوع المشير: أن هذه الوظيفة عالية القدر، لم ينج بعض متوليها – شأنهم شأن غيرهم من موظفي الدولة – من التلوث بتهمة البذل والبرطلة التي كانت سارية في الدولة. وقد ترتب على هذا أن بعض المشيرين لم يكونوا في مأمن من العقاب، ولم يكن لديهم حصانة ضد المصادرة.

وهناك حالات تدل على ذلك، منها: مصادرة المشير جمال الكفاة، ٧٤٥هـ/١٣٤٤م، بمبلغ عشرين ألف دينار لأسباب عدة، وكانت نهايته الموت خنقاً[٦٢]. سعد الدين بن غراب والذي قدم للسلطان الناصر فرج بن برقوق مبلغ ٦٠,٠٠٠ دينار، في يوم ١٩ ذي الحجة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م، فخلع عليه وجعله مشيراً[٦٣]. ومن قبله كان المشير جمال الدين محمود بن علي، والذي صودر بأكثر من مليون ونصف درهم، عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م، وانتهى به الأمر إلى العزل والسجن[٦٤]. أما المشير فخر الدين ماجد ابن غراب، فقد قبض عليه في يوم ٧ ذي القعدة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، وصودر، وفي الشهر التالي رضي عنه السلطان، واستمر به مشيراً ووزيراً وناظراً للخاص، وذلك بعد ما دفع عشرين ألف دينار[٦٥]. وهناك أيضاً حالة مشير الدولة فخر الدين عبد الغني، والذي خلع عليه في يوم الاثنين ٢٦ شوال ٨٢٠هـ/١٤١٧م، بعد أن قدم تقدمة كبيرة للسلطان[٦٦]. أما المشير بدر الدين ابن محب الدين، فلم تشفع له خبرته في العمل بالدواوين، إلى جانب الوظائف التي شغلها، وكان مصيره العقاب والمصادرة، وتوفى تحت العقوبة، في ١٧ جمادى الآخرة ٨٢٤هـ/١٤٢١م[٦٧].

مهام واختصاصات المشير:

بعد التعرض لمناقشة بعض النقاط ذات الصلة بشخص المشير، وما نشهده حالياً، في تاريخنا المعاصر، من أن لفظة المشير أصبحت لقباً يختص بالعسكريين من رجال الجيش دون الشرطة، ولا يوجد من بين رتب الجيش أفراد يحملون هذا اللقب سوى شخص واحد، وغالباً ما يمثل هذا الشخص قمة الهرم العسكري ويرأسه، للمرء هنا أن يتساءل: هل كانت وظيفة المشير، منذ نشأتها، هي نفسها الموجودة الآن؟ أي كانت عسكرية بحتة ولا دخل لمتقلدها بالشئون المدنية؟ فلكي نصدر حكماً صحيحاً على ذلك، نرجئ الإجابة قليلاً ريثما نتناول اختصاصات ومهام المشير وقت إنشاء هذه الوظيفة.

عندما أنشأ المماليك وظيفة المشير، كان الهدف من ورائها سياسياً بحتاً، ومع الوقت اضطلع المشير بمهام اقتصادية، وتحكم في الأمور المالية بالدولة. وإلى جانب هذا وذاك، كان للمشير دور محدود في النظام العسكري، لا بصفته مشيراً، بل أميراً.

دور المشير السياسي:

رغم أن السلطان المملوكي كانت لديه سلطات مطلقة في كل شيء، إلا أن ذلك لا يعني أنه لم يستمع إلى آراء كبار رجال دولته، بل استشارتهم قبل القيام بالأعمال الكبيرة أو الخطيرة(٦٨). والدليل على أن سلاطين المماليك أولوا موضوع الشورى اهتمامهم، أنهم استجدوا منصب المشير لهذا الغرض بعينه. وقد بين لنا خليل بن شاهين(٦٩)، وآخرون(٧٠)، مغزى وظيفة المشير، والدور الذي طلب منه تأديته، في أنه إذا واجهت الدولة – أو سلطان الدولة – مشكلة كبيرة، قام السلطان باستدعاء كل من: الخليفة، وقضاة القضاة الأربعة، والوزير، والأمراء مقدمي الألوف، والأتابك، ليشاورهم في الأمر "ويكون السلطان قد لقن جميع مقصوده للمشير" ثم يقوم هذا المشير بالتباحث مع الحاضرين، واحداً واحداً حتى يصل إلى حل لمواجهة تلك المشكلة التي تواجه الدولة، وكان الهدف من وجود المشير، أن يقارع الحاضرين الحجة والرأي، فإذا ما نقض رأيه، كان هذا يعلي من شأن السلطان، أما لو أن السلطان كان هو المتحدث ورد رأيه، فإن ذلك كان سينقص من قدره، وإن سكت المجتمعون مخافة رده "يحصل الخلل"، وكان هذا هو المقصود من وظيفة المشير في الرأي والتدبير.

وبناء على ما ذكر آنفاً؛ يمكن القول بأن المشير في المنظومة العسكرية المملوكية، كان شخصاً ذو سلطات مقيدة، ومفوضاً عن قبل السلطان، ومتحدثاً باسمه، ومعبراً عن آرائه في الاجتماعات التي تضم كبار رجال الدولة أثناء تباحثهم في قضية من القضايا. وقد كان الهدف من تعيين هذا المشير هو: الحفاظ على هيبة الحاكم في حالة ما لم تلق آراؤه قبولاً من قبل المجتمعين، ويكون هذا الرفض للرأي واقعاً على شخص المشير وليس شخص السلطان، ولم تنتقص منه. ووجود شخص المشير لأداء مهمته المحددة هذه؛ قضية لها إيجابيات وسلبيات، ويمكن حصر كل منهما في نقاط محددة:

الإيجابيات:

١- تفسح المجال للحكام من أجل النظر في قضايا أخرى متعددة، وعدم الإغراق في قضية واحدة.

٢- تحاور المشير مع كبار قيادات الدولة، وتبادلهم الآراء، يمثل دراسة متأنية للقضايا من مختلف الزوايا، بغية الوصول للحل الأصوب.

٣- تساعد كل طرف على إبراز ما لديه من آراء ووجهات نظر، بدون إحراج أو خوف من الطرف الآخر.

٤- تحفظ للسلطان هيبته ومكانته، وعدم التجرئ عليه.

٥- طريقة صائبة ذات مردود إيجابي على الدولة، إذا ما أخذ بما توصل إليه المجتمعون.

٦- طريقة تصلح مع الحاكم الذي يفتقر إلى الخبرة في التعامل مع الأشخاص أو المشكلات.

أما السلبيات:

١- تكرس مفهوم الطبقية والانفصال بين الحاكم والمحكومين، بسبب عدم وجود تفاعل أو حوار مباشر بينهما.

٢- تجعل من الحاكم أو السلطان كأنه شيء مقدس لا يجب المساس به، أورد كلامه حتى وإن كان على غير صواب. وهذه هي الدكتاتورية في أمقت صورها.

٣- يلعب المشير دوراً كبيراً في نجاح أو فساد هذه التجربة، بما يمتلك من خلق ورزانة وقدرة على التحاور واستخلاص النتائج. وعليه: فإن شخص المشير يجب أن تتوافر فيه صفات وشروط معينة، ولا يمكن أن يتولى بالرشوة كما رأينا، ولابد أن يكون رفيع القدر لكيلا يهاب المجتمعين. كما يجب أن يكون كيساً فطناً يلتقط بعضاً مما تخفيه الكلمات في الصدور. هذا إلى جانب صفات أخرى عديدة كالذكاء والتذكر والأمانة.

دور المشير الاقتصادي:

تبين أنه كان للمشير دور اقتصادي بالغ الأهمية، وهو التحدث على الدواوين السلطانية "وما يرد عليها وما يصدر منها"، ولم يكن من حق مباشري هذه الدواوين التصرف في أمر مهم يتعلق بالأموال، إلا بناءً على رأي ومشورة المشير(٧١). ولعل هذا الدور المهم ناله المشير بعد تأخر الوزارة إلى المرتبة العاشرة – حسب تقسيم السحماوي – بسبب استحداث منصب النيابة، وتقدم النائب على الوزير في التصرف والولاية والعزل، لذا برز هنا منصب المشير ليحتل المرتبة التاسعة – حسب تقسيم السحماوي – ليشارك الوزير في مهامه المالية، بل وأحياناً يقوم مقامه أو يرؤسه. ومن الإشارات الدالة على ذلك: أنه في يوم الاثنين ١٩ ذي الحجة

٧٧٦هـ/١٣٧٤م، أبطل السلطان الأشرف شعبان بن حسين الوزارة، وعين الأمير شرف الدين موسى ابن الأزكشي مشيراً للدولة "ورسم له بأن يحمل معه الدواة والمرملة كما هي عادة الوزراء"(٧٢). وهذه إشارة إلى قيام المشير بما كان يقوم به الوزير، وخاصة في النواحي المالية، لأنه مع تعيينه عين السلطان ناظري دولة(٧٣)، وأمرهما بالجلوس من وراء شباك الوزارة وهو مغلق، وخلع على اثنين آخرين في استيفاء الدولة(٧٤).

وفي يوم الأحد ٢٢ من ذي القعدة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م، عزل السلطان الأشرف شعبان الملكي من الوزارة، واستقر بناظر دولة جديد "بغير وزير" فانفرد الصاحب شمس الدين أبو الفرج المقسي ناظر الخاص بتدبير أمور الدولة، وخلع عليه واستقر مشيراً للدولة(٧٥). وفي شهر رمضان ٧٨٣هـ/١٣٨١م، خلع السلطان الصالح حاجي على الأمير جركس الخليلي – أمير أخور كبير(٧٦) – واستقر به مشيراً للدولة، ورسم للوزير ابن مكناس بألا يتصرف في شيء من أمور المملكة إلا بعد مراجعة المشير(٧٧). وهنا نلحظ، صراحة، ترأس المشير للوزير في حالة تواجده، وغدا المشير هو المرجع الأساسي في أمور الدولة المالية.

ويبدو أن هذا الوضع استمر إبان الفترة الانتقالية، ما بين نهاية دولة المماليك البحرية، وبداية دولة المماليك الجراكسة، بل وصار في ازدياد بعد ذلك. ففي جمادى الآخرة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، استقر الأمير محمود الإستادار مشيراً للدولة، فتحدث في: أمور الدولة، وديوان الخاص، وديوان المفرد، "وصار عزيز مصر" على حد قول المقريزي(٧٨)، وحضر عنده كل من: الصاحب علم الدين كاتب سيدي، وناظر الخاص موفق الدين أبو الفرج، وائتمرا بأمره. وهذا أيضاً يوضح أنه في حالة وجود المشير لم يكن للوزير تصرف دون الرجوع إليه. وعلى ذلك يمكن القول بأن قوة منصب المشير كانت على حساب ضعف منصب الوزير. ولم يقف الأمر عند ذلك، بل تعداه إلى ديواني: الخاص والمفرد المختصين بالإشراف على مالية السلطان نفسه، والصرف على مماليكه وأملاكه وحريمه(٧٩)، حيث رأينا أن مرجع ناظريهما كان إلى المشير، وكان تصرفهما بناءً على ما يتلقيانه من أوامره. ومعنى ذلك أن المشير في بدء دولة المماليك الجراكسة، كانت له سلطات مطلقة على مالية الدولة العامة، ومالية السلاطين الخاصة. أي بيده مفاتيح خزائن مصر. لذا أصاب المقريزي كبد الحقيقة في قوله: بأن المشير آنذاك صار عزيز مصر. ويبدو أن هذا الأمر لم يستمر طويلاً، ربما لخطورته على نفوذ السلطان نفسه، بسبب انفراد شخص ما بمالية البلاد من جهة، وتحكمه في الجهاز الإداري وخاصة الولاية والعزل من جهة أخرى، ناهيك عن إضعافه لمؤسسات الدولة الأخرى وخاصة الوزارة. وكتصحيح لهذا الوضع، قام السلطان برقوق، في ذي الحجة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م، بتعيين الأمير ناصر الدين محمد

بن الحسام الصقري وزيراً، ولم يجعل معه مشيراً يشاركه في التحدث والتصرف، بل جعله ينفرد بالولاية والعزل وتنفيذ الأمور(٨٠).

ومنذ ذاك الوقت يبدو أنه تقلص النفوذ الاقتصادي للمشير عما كان عليه سابقاً. وتوارت أخباره بين طيات المصادر، وذلك لأسباب عدة منها: الحالة الاقتصادية للدولة، ومدى قوة شخصية المشير، ومدى ما حصلت عليه الوظائف الأخرى من صلاحيات ونفوذ. ومن بين تلك الأخبار: أنه في يوم الجمعة ٤ شعبان ٨٠٩هـ/١٤٠٦م، قبض على الوزير والمشير فخر الدين بن غراب، وسلم للأمير جمال الدين الإستادار ليعاقبه، بسبب قطعه اللحم عن المعاملين وتعويضهم نقداً(٨١).

وجدير بالذكر: أنه في فترة ازدهار منصب المشير، على يد الأمير جركس الخليلي، قام هذا الرجل ببعض الأعمال ذات الطابع الاقتصادي، مثل:

- في عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م أجرى جركس الخليلي الماء إلى الميدان الموجود بجوار القلعة، فانتفع به الناس، لأن ذلك كان معطلاً منذ سبع سنوات(٨٢).
- في شوال ٧٨٣هـ/١٣٨١م – إبان حكم الصالح حاجي بن شعبان- نادى الأمير جركس الخليلي في القاهرة بأن تكون الفلوس القديمة (العتق) كل رطل بدرهم وثلث، بدلاً من درهم ونصف، ثم وزع على الصيارف فلوساً جديدة، مضروباً عليها رنكه. فتضرر الناس من ذلك، وتوقفت أحوالهم ومبيعاتهم ومشترواتهم خاصة المأكولات، وقل جلب البضائع. وإزاء هذا الضرر قام الأتابك برقوق بالمناداة، يوم الجمعة، بإبطال ذلك جميعه، واستمرت الفلوس العتق على حالها، وشكرت الناس برقوق على ذلك(٨٣).
- فيما بين شهري ربيع الأول ورجب من عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، قام جركس الخليلي بعمل جسر يصل ما بين الروضة وجزيرة أروي، بطول ثلاثمائة قصبة وعرض عشر قصبات. كذلك قام بصنع طاحونة في مركب عند المقياس، وجعلها تدور بالماء مثل الرحى لطحن القمح وجعله دقيقاً(٨٤).

دور المشير العسكري:

عثر على بعض الأدوار العسكرية للمشير، والمتمثلة في قيادته لبعض الحملات العسكرية لردع العربان، أو وأد فتنة بعض الولاة الخارجين على سلطان الدولة. ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه الحملات التي قادها المشير لم يقم بها لكونه مشيراً، بل لكونه أميراً عسكرياً مثل غيره من الأمراء العسكريين المشاركين معه في هذه الحملات، ومنها:-

- في النصف الأول من شهر جمادى الأولى ٧٠١هـ/١٣٠١م انتشر فساد العربان بالبلاد، وقاموا بقطع الطرق، فاتفق كبار الأمراء على تأديبهم، وكونوا عدة فرق توجهت إلى عدة مناطق مثل: الواحات والطور والقلزم وغيرها. وقاد هذه الفرق مجموعة من الأمراء مثل: سيف الدين سلار نائب السلطنة، وركن الدين بيبرس الجاشنكير مشير المملكة، وسيف الدين بكتمر أمير جاندار(٨٥).

- في عهد السلطان الأشرف جان بلاط، ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، خرجت تجريدة إلى بلاد الشام بسبب عصيان قصروه نائب الشام، وكان الباش عليها المقر السيفي طومان باي، والذي كان يشغل آنذاك عدة وظائف منها مشير المملكة(٨٦).

ومن هذين المثالين وغيرهما يتبين لنا: أن وظيفة المشير لم تمنح صاحبها صلاحيات عسكرية معينة تجعله ينفرد بها عن غيره من العسكريين أقرانه ممن كانوا يساوونه في الرتبة.

دور المشير في النظام القضائي:

ثمة إجماع بين العديد من المصادر والمراجع(٨٧) على أن المشير هو أكبر أمراء المشورة سناً ومقاماً، وهؤلاء كانوا يجلسون في دار العدل أثناء نظر المظالم، على بعد خمسة عشر ذراعاً، على يمين ويسار السلطان [انظر ملحق رقم (٢)] وبلا شك كان حضور المشير وجماعته في هذا المجلس بهدف الاستنارة بآرائهم وخبرتهم، فيما يعرض على هذه المحكمة من قضايا عجز القضاء العادي عن إصدار أحكام بشأنها.

بعد تناولنا لاختصاصات المشير؛ يمكن الإجابة عن السؤال الذي طرح آنفاً: هل كانت وظيفة المشير منذ نشأتها هي نفسها الموجودة الآن؟ بالقطع ستكون الإجابة بالنفي في ضوء ما ذكر عن مهام واختصاصات هذا الموظف الكبير، ولعل وجه التشابه ما بين المشير، قديماً وحديثاً، هو أن متولي الوظيفة يجب أن يكون عسكرياً.

كيفية الاستشارة :

مر بنا عند الحديث عن دور المشير السياسي، أنه كُلف بالتباحث مع الحاضرين واحداً واحداً، حتى يصل إلى حل للمشكلة(٨٨). ويبدو أن هذا هو الأسلوب الأمثل لمعرفة آراء كل طرف على حدة، منعاً للتأثير والتأثر. ثم على المشير أن يتفحص ما سمعه من آراء للوقوف على أنسبها لحل مشكلته. وبخصوص هذه النقطة أفرد الثعالبي(٨٩) الحديث عنها مبيناً أن: على المستشير أن ينفرد بكل مشير على حدة، ويسمع منه رأيه في القضية محل النظر، ولا يحدث به الآخرين، حتى إذا ما

اجتمعت لديه عدة آراء تفحصها جيداً، واستخار الله تعالى في أحدها، ثم جمع الجماعة، وفاوضهم أو ناقشهم في آرائهم – دون أن يحدد لهم أصحاب الآراء – وذلك حتى يتفق معهم على رأي، فإن خالفوه استشار غيرهم، فإن خالفوه وافقهم. وذلك لأن رأي الجماعة أبعد عن الخطأ من رأى الفرد الواحد.

شروط المشير ونصائحه :

تصدت بعض المصادر لمعالجة جانب أو أكثر من جوانب الحضارة الإسلامية، سواء في المجالات السياسية أو الاقتصادية، أو غيرها. ومن بين تلك المصادر ذات الصلة بموضوع هذا البحث كتاب: تحفة الوزراء للثعالبي، وكتاب السياسة للحضرمي، وكتاب بدائع السلك لابن الأزرق. فقد جعل الحضرمي كتابه ثلاثين فصلاً، خصص الفصل الثالث منها استشارة وصفة المستشار. في حين أن ابن الأزرق ألف كتاباً ضخماً، تناول في الباب الأول منه: أركان الملك وقواعده، وقد حصرها في عشرين قاعدة – كما ذكرنا في بداية البحث – وعنون القاعدة العاشرة منها باسم: مشورة ذوي الرأي والتجربة. وفيها ناقش موضوعات عدة من بينها: الشروط الواجب توافرها في المستشار أو المشير، والمطلوب من المستشير بعد حصوله على المشورة من المشير، مستنداً فيما ذكره على كتاب السياسة للحضرمي؛ والذي انفرد عنه بذكر النصائح الموجهة للمستشار أو المشير. وبناء على هذين الكتابين يمكن تناول عناوين هذه الفقرة:

أولاً: الشروط الواجب توافرها في المشير أو المستشار:

وقد حصرها ابن الأزرق[٩٠] في اثنى عشر شرطاً، هي: العقل الكامل مع الفطنة والذكاء، الدين والتقوى، المحبة الحاملة على خلوص النصيحة، سلامة الفكر من مكدرات صفوه، ألا يكون له في الأمر المستشار فيه هوى أو غرض، لديه علم بالأشياء التي سيستشار فيها وأن يكون مارسها، التساوي مع المستشير في الطبقة، كتمان السر الذي يطلع عليه عند استشارته؛ سلامته من غائلة الحسد؛ ألا يترتب على النصيحة ضرر للمشير أو أحد الأعزاء عليه؛ ألا يكون بخيلاً أو جباناً أو حريصاً لكيلا يؤثر سلباً على المستشير فيقصر فعله أو يخوفه أو يعده ما لا يرجى؛ أن يكون معتدلاً أو وسطاً بين السعادة وسوء البخت. وقد ذكر الثعالبي[٩١] مثل تلك الشروط من قبل، بل وزاد عليها: بأنه لا ينبغي أن تستشار النساء ولا الصبيان بسبب نقص عقولهم وضعف آرائهم في أصالة الرأي. وجاء من بعده الحضرمي[٩٢] وذكر الشروط نفسها، وزاد عليها أنه لا يستشار العدو إلا في موضع واحد، هو أن يكون صلاح

الرأي بصلاحه، وفساده بفساده، وضرب مثلاً على ذلك بعدوين في سفينة يستشير أحدهما الآخر في صلاحها ونجاتها من هلاكها. وبناءً على كثير مما ذكره الثعالبي والحضرمي جاءت شروح ابن الأزرق. وإن كان لنا من ملاحظات عليها، فإنها أغفلت مثلاً: شرط السن فيمن يجب أن يشغل هذه المرتبة. إذ لا يعقل أن يتولى مشير للدولة؛ ويصير صاحب الحل والعقد، وهو لم يبلغ من العمر ثلاثين عاماً. وهذا ما حدث مع المشير سعد الدين بن غراب، عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م(٩٣).

كذلك لم تحو الشروط نظافة اليد والمسعى!! فلا يعقل لمنصب هام كهذا أن يتولى بالرشوة، أو أن يتهم صاحبه بالفساد، وعلى إثر ذلك يزج به في السجن. ولدينا أمثلة على ذلك في قائمة المشيرين، مثل يلبغا السالمي. كذلك كان من بين شروط المشير ألا يكون حسوداً لمستشيره، ولم يراع ذلك، فوجدنا منكوتمر مشير السلطان لاجين يحسده ويؤلبه على الأمراء، ليتخلص منهم لكي يرث ملكه(٩٤).

ثانياً: النصائح الموجهة للمشير:

درج نفر من المؤرخين والكتاب على توجيه النصائح لرجال الدولة في عهدهم، لإرشادهم إلى الطريق الصحيح. ومن هؤلاء على سبيل المثال: السبكي في كتابه معيد النعم، والأسدي في كتابه التيسير والاعتبار، والحضرمي في كتابه السياسة. وقد جاء من بين النصائح التي ذكرها الحضرمي(٩٥) للمشير: ألا يكون خائناً في الرأي، أو مقصراً في الجهد، وألا يكثر من الافتخار إذا أشار برأي صواب ترتب عليه نجاح في ناحية ما، وعليه ألا يهون من رأى غيره، وعليه ألا يعتبر أن عدم الأخذ برأيه قدح وانتقاص من قدره، فيقابل ذلك بالإنكار والاحتجاج، وإذا خالفت آراء الحاكم رأى المشير، عليه ألا يزين له المحال من آرائه، لأن هذا يعتبر غشاً وخديعة، وعليه توضيح الصواب في رأي الحاكم حتى يتبين خطأه، فيتبع المشير ويزداد معرفة بقدره. وآخر هذه النصائح، أنه إذا أشار عليه أحد برأي أفضى إلى الخطأ، فلا يأخذ في تأنيبه أو توبيخه، لكيلا يمتنع الناصحون عن نصحه، ولكيلا يجازي بالقبيح كل من أراد مجاملته.

ملاحظات على ملحق رقم (١) الخاص بجدول حصر المشيرين :

١- أمكن التوصل إلى أسماء ما يقرب من خمس وأربعين شخصية، تولت منصب المشير، منذ بدء استحداثه، حتى بدايات الغزو العثماني للشام ومصر.

٢- حالة واحدة تولى صاحبها وظيفة المشير ورتبته أمير طبلخاناه، وهي رقم (١٧)، وذلك على خلاف المعتاد، من ترقية المشير إلى أمير مائة، مثل الحالة رقم (١٤).

٣- تولى بعض المشيرين - الحالة رقم ١٢ - هذا المنصب بعد توسط أحد وزراء الدول المجاورة له في شغله.

٤- قليلاً ما اقتصر المشير على وظيفته هذه فقط، بل شغلت الغالبية العظمى منهم أكثر من وظيفة في الوقت نفسه، كما في الحالة رقم (٤٠).

٥- تولى معظم الإستادارية في عهد الجراكسة منصب مشير الدولة، وذلك بما يقرب من الثلث.

٦- بعض من تولى وظيفة المشير، وصل إلى كرسي الحكم، والمثال على ذلك شيخ المحمودي وطومان باي.

٧- كانت سلطة تعيين المشير، يختص بها السلاطين فقط.

٨- من مجموع خمسين سلطاناً مملوكياً، وجد أن تسعة عشر منهم اهتموا بمنصب المشير، ولم يتركوا مكانه شاغراً. أي أن ٣٨% من حكام الدولة استعانوا بمشيرين، في حين أن ٦٢% منهم ألغوا المنصب، ونزعوا إلى الاستبداد.

٩- حرص سلاطين المماليك، منذ بدء دولتهم على الاستعانة بمشيرين خبراء لأخذ رأيهم في أمور الدولة. ويمكن تفسير ذلك في ضوء عدم خبرتهم بشئون الحكم والإدارة. لذا لم يكن غريباً أن يستشير المعز أيبك "الوزير المدني هبة الله بن صاعد الفائزي"، ولم يفعل شيئاً إلا بمشورته

١٠- بعض المشيرين أنعم عليه برتبة أمير مائة مقدم ألف ليتولوا المنصب، وبعد عزلهم سحبت منهم الرتبة.

١١- لم يل أحد من أهل الذمة منصب المشير، إلا أنه كان من بين المشيرين مسالمة.

١٢- برغم المكانة الأدبية التي كان يتمتع بها المشير، إلا أن ذلك لم يحل دون التعرض لهم بالإساءة. فتنوعت نهايات العديد منهم: ما بين المصادرة، والقتل والسجن.

١٣- وجود مثل هذه الوظيفة منذ عصر سلاطين المماليك حتى الآن - إلى جانب غيرها من المستحدثات الأخرى في هذا العصر - يبرهن على صحة فرضية بعض كبار الباحثين[٤١] بأن: عصر سلاطين المماليك هو العصر الذي نضجت فيه البيئة الاجتماعية المصرية، ورسخت فيه معظم العادات والتقاليد. بل ويمكن الإضافة على ذلك: نضج البيئة السياسة والإدارية.

ملحق رقم (١) جدول بأسماء من تولى وظيفة "المشير" منذ نشأتها حتى نهاية عصر المماليك

م	اسم السلطان	السنة	اسم المشير	ملاحظات
١-	المعز أيبك التركماني (٦٤٨-٦٥٥هـ) (١٢٥٠-١٢٥٧م)	٦٥٠هـ/١٢٥٢م	الأسعد هبة الله بن صاعد الفائزي	عمل وزيراً، لم يفعل المعز شيئاً إلا بمشاورته، قتل ٦٥٥هـ/١٢٥٧.[١]
٢-	الظاهر ركن الدين بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ) (١٢٦٠-١٢٧٧م)	٦٦١هـ/١٢٦٢م	شرف الدين البيرلي	اختصه الظاهر بمراكبته ومشورته.[٢]
٣-	المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨- ٦٨٩هـ) (١٢٧٩-١٢٩٠م)	٦٨٦هـ/١٢٨٧م	شمس الدين سنقر الأشقر	كان جليساً في الحضر وأنيساً في السفر ومشيراً في المهام.[٣]
٤-	الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ) (١٢٩٠ - ١٢٩٣م)	٦٩١هـ/١٢٩١م	عماد الدين أيوب ابن الأثير	استخلصه السلطان للمجالسة والشورى.[٤]
٥-	المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ) (١٢٩٦-١٢٩٨م)	٦٩٦هـ/١٢٩٦م	منكوتمر	عين مشير المملكة.[٥]
٦-			بدر الدين بكتاش الفخري	كان مشيراً، وأمير سلاح[٦].
٧-	الناصر محمد بن قلاوونII (٦٩٨-٧٠٨هـ)(١٢٩٨-١٣٠٨م)	٧٠١هـ/١٣٠١م	ركن الدين بيبرس الجاشنكير	عين مشير المملكة[٧].
٨-	المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير(٧٠٨-٧٠٩هـ/١٣٠٨-١٣٠٩م)	٧٠٨هـ/١٣٠٨م	تاج الدين أحمد بن سعيد الدولة	استمر مشيراً ورفض تولي الوزارة. ولم يعمل السلطان شيئاً إلا بخطه وإذنه[٨].
٩-	الناصر محمد بن قلاوون III (٧٠٩- ٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤١م)	—	بكتمر الأتابك، وتنكز نائب دمشق، وأيدمر الخطيري.	استشارهم السلطان في كل شيء، لكنه استبد ولم يعين مشيراً[٩].

م	اسم السلطان	السنة	اسم المشير	ملاحظات
١٠ -	المنصور أبو بكر بن محمد (٧٤١- ٧٤٢هـ/١٣٤١م)	٧٤٢هـ/١٣٤١م	الأمير قوصون الناصري	كان مدبر المملكة ورأس المشورة وشاركه في الرأي الأمير بشتك(١٠).
١١ -	الصالح إسماعيل بن محمد (٧٤٣-٧٤٦هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م)	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	الأمير أرغون العلائي	كان زوج أم السلطان ورأس نوبة ورأس المشورة، ومدبر السلطنة وكافل السلطان(١١).
١٢ -		٧٤٣هـ	جمال الكُفاة	أعيد للوزارة، واستقر مشيرا للدولة بسؤال وزير بغداد وشغل منصبي ناظر الخاص والجيش(١٢).
١٣ -	الناصر حسن بن محمد I (٧٤٨-٧٥٢هـ/١٣٤٧-١٣٥١م)	٧٥١هـ/١٣٥٠م	الأمير منكلي بغا الفخري	كان رأس المشورة وأتابك العسكر(١٣).
١٤ -		٧٥٢هـ/١٣٥١م	نوروز	رقى إلى رتبة أمير مائة وبعد ذلك جرد منها وأخرج لدمشق(١٤).
١٥ -	الصالح صالح بن الناصر محمد (٧٥٢-٧٥٥هـ/١٣٥١-١٣٥٤م)	٧٥٤هـ/١٣٥٣م	ناصر الدين محمد بن بيليك(١٥).	
١٦ -	الناصر حسن بن محمد II (٧٥٥-٧٦٢هـ/١٣٥٤-١٣٦١م)	قبل عام ٧٥٨هـ/١٣٥٦م	الأمير سيف الدين شيخو الناصري	كان كبير الدولة ومشيرها ومدبرها والمتكلم فيها(١٦).
١٧ -	الأشرف شعبان بن حسين بن محمد (٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٦م)	٧٧٦هـ/١٣٧٤م	شرف الدين موسى بن الأزكشي	تولى ورتبته أمير طبلخاناة وتوفى بالمحلة عام ٧٨٠هـ(١٧).

م	اسم السلطان	السنة	اسم المشير	ملاحظات
١٨ -	،	٧٧٧هـ/١٣٧٥م	شمس الدين أبو الفرج المقسى	كان مدبر الدولة في غياب الوزارة، وكان ناظر الخاص(١٨).
١٩ -	الصالح حاجي بن شعبان (٧٨٣-٧٨٤هـ/١٣٨١-١٣٨٢م)	٧٨٣هـ/١٣٨١م	جركس الخليلي	أيضاً شغل وظيفة أمير أخور وأقره برقوق على عمله(١٩).
٢٠ -	الظاهر برقوق بن آنص I	٧٨٦هـ/١٣٨٤م	جركس الخليلي	ظل مشيراً وأمير خور(٢٠).
٢١ -	(٧٨٤-٧٩١هـ/١٣٨٢-١٣٨٨م)	٧٩٠هـ/١٣٨٨م	جمال الدين محمود	كان مشيراً وإستادار(٢١).
٢٢	الصالح حاجي بن شعبان II	٧٩١هـ/١٣٨٩م	كريم الدين عبد الكريم بن مكناس	كان مشيراً للدولة(٢٢).
٢٣ -	(٧٩١-٧٩٢هـ/١٣٨٨-١٣٨٩م)	٧٩٢هـ/١٣٨٩م	أتبغا الحاجب، أسندمر أمير سلاح، الأشقتمري	اختصهم حاجي بالمشورة(٢٣).
٢٤	الظاهر برقوق II	٧٩٢هـ١٣٩٨م	جمال الدين محمود بن علي	أيضاً كان المشير والإستادار(٢٤).
٢٥	(٧٩٢-٨٠١هـ/١٣٨٩-١٣٩٨م)		كمشبغا	كان مشيراً وأتابكاً(٢٥).
٢٦			تاج الدين بن الرملي(٢٦).	
٢٧		٧٩٩هـ/١٣٩٦م	تاج الدين البولاقي(٢٧).	
٢٨ -	الناصر فرج بن برقوق I (٨٠١-٨٠٨هـ/١٣٩٨-١٤٠٥م)	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	الأمير أيتمش البجاسي	وكان يشارك الأمير تغري بردي(٢٨).
٢٩	الناصر فرج بن برقوق II	٨٠٣هـ/١٤٠٠م	نوروز الحافظي+ يشبك الشعباني	مشيران ومدبران أمر الدولة(٢٩)

م	اســـم السلطـــان	السنـــة	اســـم المتبـــر	مـــلاحظـــات
٣٠-	(٨٠٨-٨١٥هـ/١٤٠٥-١٤١٢م)	٨٠٥هـ/١٤٠٢م	يلبغا السالمي	كان إستادار ثم سجن بدمياط، وبعد الإفراج عنه خلع عليه مشيراً(٣٠).
٣١-		٨٠٧هـ/١٤٠٤م	يلبغا السالمي	بعد خروجه من سجن الإسكندرية(٣١).
٣٢-		٨٠٧هـ/١٤٠٤م	سعد الدين إبراهيم بن غراب	كان إستادار وقدم رشوة(٣٢).
٣٣-		٨٠٨هـ/١٤٠٥م	سعد الدين إبراهيم غراب	خلع زي الكتاب ولبس زي الأمراء(٣٣).
٣٤-		٨٠٨هـ/١٤٠٥م	فخر الدين ماجد بن غراب	كان وزيراً وصودر ثم قدم رشوة وعاد(٣٤).
٣٥-		٨١٢هـ/١٤٠٩م	جمال الدين يوسف بن أحمد البيري	كان وزيراً ومشيراً وكاشف الكشاف وناظر الخاص(٣٥).
٣٦-	الخليفة المستعين بالله العباسي	٨١٥هـ/١٤١٢م	الأمير شيخ المحمودي	كان مدبر الدولة ولقب بنظام الملك(٣٦).
٣٧-	المؤيد شيخ المحمودي	٨١٦هـ/١٤١٣م	بدر الدين حسن بن محب الدين	كان إستاداراً معزولاً ثم عين مشيراً، وبعد خمسة شهور عين نائباً للإسكندرية(٣٧).
٣٨-		٨١٩هـ/١٤١٦م	فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج	كان مشيراً وإستاداراً ووزيراً – عام ٨٢٠هـ – وكاشفاً للوجه البحري(٣٨).
٣٩-	الناصر محمد بن قايتباي II (٩٠٢-٩٠٤هـ/١٤٩٧-١٤٩٨م)	٩٠٣هـ/١٤٩٧م	أزبك اليوسفي المعروف بالخازندار	مشير المملكة(٣٩).

م	اسم السلطان	السنة	اسم المشير	ملاحظات
٤٠-	الأشرف جان بلاط (٩٠٥-٩٠٦هـ/١٤٩٩-١٥٠٠م)	٩٠٦هـ/١٥٠٠م	المقر السيفي طومان باي	كان يشغل أيضاً: أمير سلاح، وأمير دوادار كبير، ووزير، وإستادار، وكاشف الكشاف(٤٠).



هوامش البحث

(١) القلقشندى، صبح، جـ٦، ص ٢٨.

(٢) القلقشندى، صبح، جـ٦، ص ٧٠.

(٣) الباشا، الألقاب، ص ٤٧١.

(٤) القلقشندى، صبح، جـ٦، ص ٢٨.

(٥) القلقشندى، صبح، جـ٦، ص ٢٨؛ الباشا الألقاب، ص ٤٧١.

(٦) القلقشندى، صبح، جـ٦، ص ٢٨، ٧٠؛ الباشا، الألقاب، ص ٤٧١.

(٧) ورد بمعنى جنى واستخرج العسل من الوَقَبَة، وهي نقرة في الصخر يجتمع فيها الماء. المعجم الوجيز، ص ٦٧٧.

(٨) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، جـ١، ص ٤٩٩؛ المعجم الوجيز، ص ٣٥٤.

(٩) جـ٦، ص ١٠٣ – ١٠٦.

(١٠) بدائع، ص ٧٥.

(١١) الماوردي، التحفة، ص ٧٠، ٩٤.

(١٢) السياسة الشرعية، ص ١١٦.

(١٣) تحفة الوزراء، ص ٨٦ – ٨٩.

(١٤) بدائع السلك، ص ١٨٨.

(١٥) بدائع السلك، ص ١٩٠.

(١٦) حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٨٤–٨٥.

(١٧) تذكرة النبيه، جـ٣، ص ٧٥، ٨٢.

(١٨) بدائع الزهور، جـ١ق١، ص ٣٩٥.

(١٩) صبح الأعشى، جـ١١، ص ١٥٣.

(٢٠) السحماوي الثغر، جـ١، ص ٣٩١.

(٢١) حسن الباشا، الفنون، جـ٣، ص ١١٠٣.

(٢٢) البيبي، مجلس المشورة، ص ٢٥.

(٢٣) القلقشندى، صبح، جـ١١، ص ١٥٣.

(٢٤) السحماي الثغر، جـ١، ص ٣٨٧.

(٢٥) السحماوي، الثغر، جـ١، ص ٣٩١. ولعل هذا ما حدا ببعض المحدثين أمثال إيالون إلى القول بأن عدد الوظائف الرئيسية بالدولة كان تسع وظائف، ولم يذكر من بينهم وظيفة المشير.

Ayalon: Mamluk Army, T. 15/2, p. 468.

(٢٦) ابن حبيب، تذكرة، جـ٢، ص ٢٧.

(٢٧) ابن إياس، بدائع، جـ١ق١، ص ٣٩٥.

(٢٨) ابن تغري، النجوم، جـ٩، ص ١٧٤، ٣١٢.

(٢٩) ماجد، نظم، جـ٢، ص ٤٥.

(٣٠) السحماوي، الثغر، جـ١، ص ٣٨٨؛ شبارو، السلاطين – المماليك، ص ١٢٩؛ ليلى، نائب، ص ٢١٤-٢١٥؛ Abd ar – Raziq, Le Vizirat, p. 198.

(٣١) انظر وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري. نشر وتحقيق محمد محمد أمين ضمن ملاحق تذكرة النبيه للحسن بن عمر بن حبيب، جـ١، ص٣٧١، ٣٩٣؛

Halm: Ägypten, pp. 50-52; Ayalon, The Muslim City, p. 327; Humphreys, the expressive, p. 92.

(٣٢) انظر محمد محمد أمين، وثائق، ص ٤٣٣، ٤٥٣.

(٣٣) ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ٦٧٠، ٦٧١.

(٣٤) ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ٧١١.

(٣٥) ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ٧٢٢.

(٣٦) بدائع، جـ٣، ص ٣٨٠.

(٣٧) السحماوي، الثغر، جـ١، ص٣٩١؛ القلقشندى، صبح، جـ٦، ص٢٨؛ ابن إياس، بدائع، جـ٣، ص٣٧٨؛ عاشور، العصر المماليكي، ص ٤١٢.

(٣٨) القلقشندى، صبح، جـ٦، ص ٢٨.

(٣٩) الكلفتا أو الكلوتة أو الكلفة: وهي طاقية تمثل العمامة التي كان يلبسها كبار الأمراء العسكريين من أمراء المائة مقدمي الألوف. وكانت عبارة عن كلوتة صفراء ولها كلاليب بغير عمامة فوقها. ومعظم هذه الكلوتات كانت من الصوف الملطي، وعليها عمائم صغيرة.ماضي، زي، ص١٢٦؛ Quatremere,Histoire,T.1,p.138" 15؛ قاسم عبده قاسم، أسواق، ص ١٠ و ح٢؛ Dozy, Noms, p. 387.

(٤٠) ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ٧٢٢، ٧٤٢، ٧٥٥.

(٤١) بدائع، جـ١ق٢، ص ٧٥٥.

(٤٢) ابن إياس، بدائع، جـ٣، ص ٣٧٨، ٤٠٩، ٤١٤.

(٤٣) المقريزي، السلوك، جـ٣ق١، ص٢٤١؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ١٤٧.

(٤٤) السلوك، جـ٣ق٢، ص ٦٤١.

(٤٥) القلقشندى، صبح، جـ١١، ص١٠٧. وللمزيد عن هذه الأوراق وتلك الأقلام، يرجع إلى القلقشندى، جـ٣، ص٥٨ وما يليها.

(٤٦) صبح الأعشى، جـ١١، ص ١٥٣-١٥٦ وأيضاً: Poole, A history, p. 253.

(٤٧) العمري، التعريف، ص ٨٤-٨٥.

(٤٨) القلقشندى، صبح، جـ١١، ص ١٢٨.

(٤٩) القلقشندى، صبح، جـ١١، ص ١٢٩.

(٥٠) القلقشندى، صبح، جـ١١، ص ١٢٩.

(٥١) البيبي، مجلس المشورة، ص ٩٨.

(٥٢) حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٧٠.

(٥٣) المقريزي: السلوك، جـ٣ق١، ص ٢٥٦؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ١٦٠.

(٥٤) ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ٢٩٣.

(٥٥) ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ٤٣٨.

(٥٦) ابن تغري بردي، النجوم، جـ١٤، ص ١١، ١٦.

(٥٧) المقريزي، السلوك، جـ٤ق١، ص ٣٥٩، ٤٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ١٤، ص ٦٢.

(٥٨) ابن إياس، بدائع، جـ٣، ص ٤٤٩.

(٥٩) العمري، مسالك، ص ١١٨؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٣١؛ القلقشندى، صبح، جـ٤، ص ٢٠. Poole, A history, p. 247.

(٦٠) ابن تغري بردي، النجوم، جـ١٤، ص٦٢؛ المقريزي، السلوك، جـ٤ق١، ص٤٢٤.

(٦١) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص٥٣٦ وما يليها؛ المقريزي، السلوك، جـ٣ق٢، ص٨٠٣؛ السخاوي، الضوء، جـ٦، ص١٦٨؛ طقوش، تاريخ، ص٤٠٩ وما يليها؛

Glubb, A short, p. 224; Weit, L'Egypte Arabe, pp. 523-526, 532; Ayalon, the system, p. 273; Goldschmidt , A Concise, p.117; Poliak, le caractere, p. 241.

(٦٢) المقريزي، السلوك، جـ٢ق٣، ص٦٦٤؛ ابن حجر، الدرر، جـ١، ص٨٢؛ أحمد عبد الرازق، البذل، ص٨٨؛ البيبي، مصادرة، جـ٢، الملحق الثالث.

(٦٣) ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ٧٢٢.

(٦٤) ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص٤٩٧؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٣٩٥؛ ابن حجر، إنباء، جـ٢، ص ٣٣٣.

(٦٥) ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص٧٥٠-٧٥١؛ المقريزي، السلوك، جـ٤ق١، ص١٨؛ ابن الصيرفي، نزهة، جـ٢، ص٢١٩؛ البيبي، مصادرة، جـ٢، الملحق الثالث.

(٦٦) المقريزي، السلوك، جـ٤ق١، ص٤٢٤؛ أحمد عبد الرازق، البذل، ص ٥٨.

(٦٧) ابن تغري بردي، النجوم، جـ١٤، ص٢٣٧؛ أحمد عبد الرازق، البذل، ص ٥٧.

(٦٨) عاشور، العصر المماليكي، ص٣٦٤.

(٦٩) ابن شاهين زبدة، ص١٠٦.

(٧٠) القلقشندى، صبح، جـ٤، ص ٤٥؛ مجهول، تاريخ - زيتر ستين - ص١٤٦؛ على حسن، دراسات، ص٢٠٨؛ عاشور، مصر، ص ١٣٨.

(٧١) السحماوي، الثغر، جـ١، ص ٣٩١.

(٧٢) المقريزي، السلوك، جـ٣ق١، ص٢٤١؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ١٤٧.

(٧٣) ناظر الدولة. هو رئيس ديوان النظر، أو ناظر الدواوين، وكان يتحدث في كل ما يتحدث فيه الوزير، وهو المسئول الأول عن الحسابات إذا كان الوزير من أرباب السيف. للمزيد انظر: السحماوي، الثغر، جـ١، ص٤١٦؛ القلقشندى، صبح، جـ٥، ص٤٦٥؛ النويري، نهاية، جـ٨، ص ٢٩٤؛ البيبي، النظم، ص٤٣؛

Demombyens, La Syrie, p. LXIX.

(٧٤) مستوفي الدولة: موظف يقوم بضبط حسابات الدولة، وعمل التذاكر والمربعات وغيرها. للمزيد، انظر: السحماوي، الثغر، جـ١، ص ٤١٦؛ القلقشندى، صبح، جـ٤، ص٢٩؛ العمري، مسالك، ص١٢٠-١٤١؛ البيبي، النظم، ص ٤٢؛

Quatremere, histoire, T.1, p. 203.

(٧٥) المقريزي، السلوك، جـ٣ق١، ص ٢٥٦.

(٧٦) أمير أخور: هو المسئول عن اصطبل السلطان بما فيه من خيل وإبل. والكلمة من شقين الأول عربي والثاني أخور لفظ فارسي بمعنى المعلف. القلقشندى، صبح، جـ٥، ص ٤٦١؛

Quatremere, Histoire, T.1, p. 119 n3, Poole, A history, p. 247.

(٧٧) المقريزي، السلوك، جـ٣ق٢، ص ٤٥١؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ٢٩٣.

(٧٨) السلوك، جـ٣ق٢، ص ٥٨٠.

(٧٩) للمزيد عنهما انظر: القلقشندى، صبح، جـ٣، ص ٤٥٢-٤٥٣؛ ابن شاهين، زبدة، ص١٠٧-١٠٨؛ الأسدي، التيسير، ص٧٢؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٢٢؛

Quatremere, histoire, T.1, p. 187; Demombyne, La Syrie, p. 43; The Encyclopaedia of Islam, Vol.2, p.326, 330; علي محمد عمر، ديوان الخاص، ص١٣٥؛ الباشا، معلومات، ص ١٨٠.

(٨٠) المقريزي، السلوك، جـ٣ق٢، ص٧٢٧-٧٢٨.

(٨١) ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص٧٦٦.

(٨٢) المقريزي، السلوك، جـ٣ق٢، ص ٤٥١.

(٨٣) المقريزي، السلوك، جـ٣ق٢، ص٤٥٣-٤٥٤؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص٢٩٦؛ وعن الرنك انظر: قاسم عبده، أسواق، ص ٣٧ ح(١).

(٨٤) ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص٣٠٤، ٣٠٧.

(٨٥) المنصوري، مختار، ص ١١٩؛ Ashtor, Miscellanea, p. 109.

(٨٦) ابن إياس، بدائع، جـ٣، ص ٤٤٩.

(٨٧) العمري، مسالك - دولة، ص١٠٠-١٠٢؛ القلقشندى، صبح، جـ٤، ص ٤٤-٤٥؛ السيوطي، حسن، جـ٢، ص٨٣؛ المقريزي، خطط، جـ٢، ص٢٠٨-٢٠٩؛ الدواداري، كنز، جـ٩، ص٢٣٨، ٣٧٢؛ ابن بطوطة، الرحلة، ص٦٣؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ١٤، ص١١، ح(١)؛ The Encyclopedia of Islam, Vol2, p. 933. ؛ عاشور، العصر المماليكي، ص٤١٢ .

(٨٨) ابن شاهين، زبدة، ص ١٠٦.

(٨٩) تحفة الوزراء، ص ٨٩ ، ٩٥.

(٩٠) بدائع السلك، ص ١٨٨ - ١٩١.

(٩١) تحفة الوزراء، ص ٨٦.

(٩٢) السياسة، ص ٦٢ - ٦٤.

(٩٣) ابن إياس، بدائع، جـ١ق١، ص ٧٥٥.

(٩٤) ابن تغري بردي، النجوم، جـ٨، ص ٨٨؛ مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص٤٣؛ بيبرس المنصوري، التحفة، ص ١٥٠؛ النويري، نهاية، جـ٣١، ص ٣٢٥؛ ابن كثير، البداية، جـ١٣، ص ٣٨٩؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق١، ص٣٩٥.

(٩٥) السياسة، ص ٦٤ – ٦٦.

هوامش ملحق رقم (١):

(١) العيني، عقد الجمان، جـ١، ص ٦٨، ١٦٣؛ الصفدي، الوافي، جـ٩، ص٤٧٢؛ ابن كثير، البداية، جـ١٣، ص٢٢٥؛ Rabie, the Financial system, p. 124.

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص ٣٨٤.

(٣) بيبرس المنصوري، التحفة، ص ١١٨؛ فايز اسكندر، الأشرف خليل، ص ٩٢ ح(١)

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص ٤٠٥.

(٥) ابن إياس، بدائع، جـ١ق١، ص ٣٩٥.

(٦) الدواداري، كنز، جـ٨، ص ٣٨٠.

(٧) بيبرس المنصوري، مختار، ص ١١٩.

(٨) ابن حبيب، تذكرة، جـ٢، ص ٢٧؛ ابن تغري، النجوم، جـ٨، ص ٢٧٩؛ المقريزي، السلوك، جـ٢ق١، ص٨٥.

(٩) ابن تغري، النجوم، جـ٩، ص١٧٤، ٣١٢؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق١، ص٤٦٤، ٤٨٠؛ الكتبي، فوات، جـ١، ص٢٥٢؛ Rabie, The Financial, p.126.

(١٠) ابن تغري، النجوم، جـ١٠، ص ٣؛ المقريزي، السلوك، جـ٢ق٣، ص٥٥١.

(١١) ابن تغري، النجوم، جـ١٠، ص ٧٩؛ المقريزي، السلوك، جـ٢ق٣، ص ٦٢٠.

(١٢) ابن تغري، النجوم، جـ١٠، ص ٨٥؛ المقريزي، السلوك، جـ٢ق٣، ص٦٣٤، ٦٦٣، ٦٧٥.

(١٣) المقريزي، السلوك، جـ٢ق٣، ص٨٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ١٠، ص٢٢٠.

(١٤) المقريزي، السلوك، جـ٢ق٣، ص ٨٤٠.

(١٥) المقريزي، السلوك، جـ٢ق٣، ص ٨٨٩.

(١٦) ابن حبيب، تذكرة، جـ٣، ص ٢٠٤؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ١٠، ص ٣٠٥.

(١٧) المقريزي، السلوك، جـ٣ق١، ص٥٢ ح٣، ٢٤١؛ ابن حجر، إنباء، جـ١، ص٩٤؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص١٤٧؛ ابن تغري، المنهل، جـ٣، ص٣٧٢.

(١٨) ابن حجر، إنباء، جـ١، ص١٥٣؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص١٦٠؛ المقريزي، السلوك، جـ٣ق١، ص٢٥٦.

(١٩) المقريزي، السلوك، جـ٣ق٢، ص٤٥١؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص٢٩٣، ٣٢١؛ ابن حجر، إنباء، جـ٢، ص١٢٣؛ جـ٤، ص ٢٩١ ح(٥).

(٢٠) ابن حجر، إنباء، جـ٢، ص ٢١٣.

(٢١) ابن حجر، إنباء، جـ٢، ص ٢٨٣؛ ابن دقماق، النفحة، ص٢٨١ ح(١)؛ الصيرفي، نزهة، جـ١، ص ٤٢٥.

(٢٢) المقريزي، السلوك، جـ٣ق٢، ص ٦٢٣، ٦٤١.

(٢٣) ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص ٤٨٨.

(٢٤) ابن دقماق، النفحة، ص٢٨١ ح(١)؛المقريزي، السلوك، جـ٣ق٢، ص٥٨٠؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص٤٣٨؛ ابن تغري، النجوم، جـ١٢، ص٧؛ ابن حجر، إنباء، جـ٣، ص١١.

(٢٥) ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص ٤٩١.

(٢٦) ابن حجر، إنباء، جـ٣، ص٣١٧.

(٢٧) ابن حجر، إنباء، جـ٣، ص ٣١٧.

(٢٨) ابن تغري بردي، النجوم، جـ١٢، ص١٨٤؛ الصيرفي، نزهة، جـ٢، ص٧.

(٢٩) ابن دقماق، النفحة، ص٣٢١؛ المقريزي، السلوك، جـ٣ق٣، ص١٠٥٣؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ١٢، ص٢٤٨؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ٦٢٠.

(٣٠) المقريزي، السلوك، جـ٣ق٣، ص١١٠٤؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص٦٧٠؛ الصيرفي، نزهة، جـ٢، ص١٦٦.

(٣١) ابن إياس، بدائع، ج١ق٢، ص٧١١؛ المقريزي، السلوك، جـ٣ق٣، ص١١٤٩؛

Ayalon, Studies, p. 209.

(٣٢) ابن تغري، المنهل، جـ١، ص ١١١ ترجمة رقم ٤٨؛ المقريزي، السلوك، جـ٣ق٣، ص١١٦٤؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ٧٢٢.

(٣٣) ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص ٧٤٢.

(٣٤) المقريزي، السلوك، جـ٤ق١، ص١٨؛ ابن إياس، بدائع، جـ١ق٢، ص٧٥٠-٧٥١؛ الصيرفي، نزهة، جـ٢، ص٢١٩.

(٣٥) المقريزي، السلوك، جـ٤ق١، ص٩٠؛ الصيرفي، نزهة، جـ٢، ص٢٢١؛ ابن حجر، إنباء، جـ٢، ص٤٣١.

(٣٦) المقريزي، السلوك، جـ٤ق١، ص ٢٣٣.

(٣٧) الصيرفي، نزهة، جـ٢، ص٣٣٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ١٤، ص١٦؛ المقريزي، السلوك، جـ٤ق١، ص٢٧٢،٢٦٧ح جـ٤ق٢، ص٥٩٨؛ العيني، السيف، ص٣١٩، ٣٢١؛ حوادث، ص١٦٨؛ أحمد عبد الرازق، البذل، ص٥٧.

(٣٨) المقريزي، السلوك، جـ٤ق١، ص٣٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ١٤، ص٦٢؛ الصيرفي، نزهة، جـ٢، ص٣٦٤، ٣٩٧؛ احمد عبد الرازق، البذل، ص٥٨.

(٣٩) ابن إياس، بدائع، جـ٣، ص ٣٧٨.

(٤٠) ابن إياس، بدائع، جـ٣، ص ٤٤٩.

(٤١) قاسم عبده، رمضان، ص ٥٨.



معركة إسنجة (سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م) ودورها في الجهاد الإسلامي في الأندلس

د. عبيـــر زكريا سليمان (*)

مقدمـــــــة :

من المعروف أن الأندلس اتسمت بالطابع العسكري الجهادي على مدى ثمانية قرون منذ الفتح الإسلامي لها وحتى سقوطها ، في سنة٨٩٧هـــ/١٤٩٢م ، وذلك بحكم موقعها الاستراتيجي الهام في الجنوب الغربي للقارة الأوروبية، وكونها همزة الصلة بين القارتين الإفريقية والأوروبية، ومجاورتها للممالك الإسبانية، لذا فإن دراسة التاريخ العسكري للأندلس والاعتناء بتفاصيله أمر طبيعي اعتاد عليه المؤرخون القدامى والمحدثون، وهو ركيزة ارتكز عليها المعتنون بتاريخ الأندلس، بشكل عام،لما له من عظيم الأثر على النواحي السياسية والحضارية.

ولأن المعارك جزء هام من التاريخ العسكري الأندلسي، فقد أفردت العديد من الدراسات للمعارك الهامة والحاسمة في تاريخ الأندلس، مثل معركة الزلاقة والأرك والعقاب. وإن كانت هناك معارك على قدر كبير من الأهمية، ولكنها لم تحظ بعناية المؤرخين، ومنها معركة إستجة التي حدثت في سنة ٦٧٤هـــ/١٢٧٥م، وهي أول انتصار للمسلمين بعد معركة الأرك سنة٥٩١هـــ/ ١١٩٥م.

وقبل التطرق إلى المعركة لابد من التعرف على موقع مدينة إستجة(١) التي سميت المعركة بإسمها، وهي مدينة هامة بحكم موقعها وعراقتها التاريخية، حيث تقع جنوب غربي قرطبة، على منتصف الطريق بين قرطبة وإشبيلية(٢)، وهي مدينة عريقة القدم، من بناء الرومان، على الضفة اليسرى لنهر شنيل Genil أحد روافد الوادي الكبير، وتطل على الرصيف الأعظم الذي شيده الرومان بشبه جزيرة أيبيريا Via Augsta وهو الطريق الذي عرف بالمحجة العظمى، وطريق الرصيف الأعظم، شيده الرومان ليخترق موسطة الأندلس إلى جنوبها، وهو الذي تقع عليه مدينة إستجة، وكانت هناك طرق تربط قرطبة ببقية المدن، بحكم كونها مركز الحكم ومنها الطريق من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء مارا بإستجة(٣). وكانت هذه المدينة شديدة الحصانة والمناعة ويطوقها سور مزدوج ولها العديد من الأبواب، وبها العديد من المنشآت المعمارية(٤) من أهمها برج دفاعي يعرف بالقلعة الحرة (قلهره دي إستجة)(٥) وكنائس وأديرة، وقنطرة على نهر شنيل الذي كان صالحا للملاحة(٦)، وهي مدينة ثرية متنوعة المصادر الاقتصادية، حتى وصفت بأنها جمعت بين فوائد البر والبحر(٧)، وقد سقطت في أيدي القشتاليين سنة٦٦٢هـــ/١٢٣٧م، في عهد فرناندو الثالث ملك قشتالة (٨).

(*) أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة بورسعيد.

الظروف السياسية قبل المعركة

انتهجت مملكة غرناطة في عهد الغالب بالله (محمد بن يوسف بن نصر) (٦٢٩ـــــ٦٧١هـ) (١٢٣٢ـــــ١٢٧٣م) مؤسس دولة بني نصر سياسة مهادنة القشتاليين حفاظا على بقاءها، بل ومساعدتهم في الاستيلاء على بعض المدن الأندلسية الهامة، ولذلك قام بعقد معاهدة مع فرديناندو المقدس (سنة١٢١٧ـــــ١٢٥٢م) ملك قشتالة سنة٦٤٣هـ /١٢٤٥م كان من نصوصها تعهد قشتالة بعدم التعرض لأملاك بني الأحمر، مقابل تسليم مدينة جيان(٩).

وكان لهذا الاتفاق أسبابه وفوائده لدى الطرفين، فعلى الرغم من أن قشتاله في موقف أقوى، لأنها مملكة كبرى بالنسبة لممكة غرناطة، خاصة وأنها كادت أن تصل إلى هدفها في القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس، بعد استيلائها على العديد من المدن الأندلسية الكبرى، والمناطق الأكثر ثراءا في الأندلس، ولم يتبق في أيدي المسلمين إلا القليل، وبالتالي فإن هذه الاتفاقية ستعطل مسيرتها نحو تحقيق الهدف، ولكنها قبلت هذا الصلح لكي تتفرغ لحل مشكلاتها الداخلية، حيث كانت تعاني من حرب أهلية من جهة، ومن جهة أخرى رأى بعض المؤرخين أن قشتالة كانت تخشى من كثرة عدد السكان في غرناطة، بعد انتقال أعداد كبيرة من الأندلسيين من المدن الشمالية إليها، ومن تحصيناتها، وقربها من بلاد المغرب، وتماسك الجبهة الداخلية بها لذلك وافقت على الهدنة لكل هذه الاعتبارات (١٠).

وكان لهذا الاتفاق فوائده للجانبين، فبالنسبة لقشتالة استطاعت أن تضع يدها على العديد من المدن الأندلسية مثل قرطبة وإشبيلية وجيان(١١) بعد أن ضمنت ولاء بني الأحمر ومساعدتهم لها في حملاتها على الأراضي الأندلسية.

أما بالنسبة لمملكة غرناطة، فقد استقرت فترة طويلة تمكن فيها المسلمون من اللجوء إلى غرناطة وانتقال عدد من المحاربين الأقوياء النازحين من المدن التي استولى عليها الإسبان، وتمكنت غرناطة من زيادة التحصينات والاستحكامات الدفاعية، وزيادة أعداد القوات العسكرية استعدادا لأي هجوم(١٢).

الأسباب المباشرة للمعركة :

بعد وفاة الملك هرنده (فرناندو الثالث) ملك قشتاله وليون، والمعروف بفرناندو المقدس san Fernando، تولى ابنه الفونسو العاشر المعروف بالحكيم El sabio (١٢٥٢ـــــ ١٢٨٢م) الذي كان شديد الحماس لدينه ولمشروع الاسترداد الإسباني، وعلى الاتجاه الآخر فإنه قد تولى حكم غرناطة (محمد بن محمد بن يوسف بن نصر) المعروف بالفقيه (٦٧١ـــــ ٧٠١هـ/ ١٢٧٣ـــــ١٣٠٢م) الذي كان لديه نفس الحماس الديني في الحفاظ على أراضيه والوقوف أمام الزحف القشتالي. ويبدو أن الوقت قد حان لإنهاء هذه المعاهدة، خاصة أن الملك ألفونسو قد انشغل بالسعي للحصول على منصب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بعد فردريك الثاني سنة ١٢٥٠م، عن طريق إعلان حقوق أمه في دوقية سوابيا، وتكلفت الدولة أموالا طائلة لتحقيق ذلك مما أثر على اقتصادها، وتسبب

ذلك في قيام ثورة النبلاء ضد سياسة ألفونسو، بدأت سنة١٢٦٩م بزعامة نونيو دي لارا، وانضم ابنه سانشو Sancho الى النبلاء طمعا في الوصول الى الحكم(١٣).

لم تكن الظروف الداخلية لمملكة قشتالة هي السبب الوحيد الذي دفع السلطان محمد الفقيه إلى التفكير في وقف الهدنة وإعلان الحرب، ولكن تحالف قشتاله مع بني أشقيلولة(١٤) الذين نازعوه في الحكم، وكان ابن الأحمر قد طلب من الفونسو وقف التحالف معهم، ولكنه لم يوافق فكان ذلك عاملا رئيسيا في وقف الهدنة، خاصة وأن ألفونسو طالبه بدفع ضريبة سنوية عالية، كما اشترط عليه مقاطعة النبلاء القشتاليين، بينما جدد ألفونسو التحالف مع بني أشقيلولة، وهو شيء يشكل خطورة على مملكة غرناطة التي تعرضت لمخطط يهدف القضاء عليها من قبل القشتاليين وبني أشقيلوله(١٥) مما دفعها للبحث عن المساندة المغربية الممثلة في دولة بني مرين، لعمل توازن على الساحه السياسية في الأندلس.

والجدير بالذكر أن مملكة غرناطة كانت منعزلة، ومحصورة بين الإسبان في الشمال والبحر في الجنوب، وبالرغم من ذلك استمرت أكثر من قرنين، ولابد أن مؤسسها كان على قدر كبير من الذكاء، حيث دعا باسم الحفصيين في إفريقيا فضمن مساعدتهم له، ثم استقل عنهم بعد وفاة أبو زكريا الحفصي(١٦) وتحالف مع قشتالة فحافظ على أراضيه، وتمكن من تقوية بلاده وبناء جيشه، وتحالف أيضا مع ملوك تلمسان بني عبد الواد فحصل على معونتهم(١٧).

ولكن الظروف تغيرت في عهد ابنه محمد الفقيه، بظهور قوة جديدة في المغرب الأقصى وهي دولة المرينيين(١٨)، فكان لابد له أن يتعاون معها، خاصة بعد احتدام النزاع مع بني أشقيلولة، والتخوف من الاصطدام المباشر مع قشتالة، وسعيها لاستكمال السيطرة على الأندلس وتحالفها مع بني أشقيلولة.

ومن جهة أخرى، فإن هناك العديد من الأسباب التي دفعت دولة بني مرين لتلبية الدعوة للحرب من قبل ابن الأحمر وبني أشقيلولة، فالمصادر العربية تركز على نقطة الجهاد الذي كتب على المغاربة في مساعدة الأندلسيين، لحماية حدودهم والدفاع عن بلاد الأندلس، بينما تشير المصادر المسيحية إلى أن الأسباب الدينية لم تكن هي الوحيدة التي دفعت بني مرين إلى تلبية النداء، ولكن التطلع إلى السيطرة التي كانت تتوق إليها دولة بني مرين، والحلم في أن ترث ملك الموحدين الذين حكموا الغرب الإسلامي، بالإضافة إلى الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لمضيق جبل طارق - هو الدافع وراء التحالف بينها وبين بني أشقيلولة (١٩) فيما بعد. ولعل استيلاء بنومرين على سجلماسه سنة٦٧٣هـ/١٢٧٥م(٢٠) وهي مصدر الذهب، كان دافعا لهم للاستيلاء على طريق التجارة، ويؤكد ذلك سيطرتها على المدن المطلة على المضيق: سبتة ومليلة وطنجة(٢١)، وهو مادفع الأرغونيين للاتجاه نحو السيطرة على سجلماسة والمغرب(٢٢)، وهو نفس الدافع لدى القشتاليين للاستيلاء على شمال إفريقيا (٢٣).

ومن الممكن إضافة سبب آخر، على نفس الدرجة من الأهمية، للأسباب الآنفة الذكر، وهو أن الوضع الحرج الذي كان يعيشه الأندلس، وتضاءل قوته مع تزايد الزحف الإسباني

جعل بني مرين في خشية على ملكهم ودولتهم، ولذلك أرادوا المساعدة في الحفاظ على مملكة غرناطة لتكون حاجزا بينهم وبين الممالك الإسبانية، خاصة أن مدينة سلا المغربية تعرضت للهجوم، سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م[٢٤]. ومما يؤكد ذلك حرص بني مرين على الإستيلاء على مدينتي سبته وطنجه، وتأمين حدودها، احتسابا لسقوط مملكة غرناطه والوقوع في مواجهة القشتاليين[٢٥].

الإستعدادات للمعركة :

أ ـ السيطرة على الحصون الجنوبية في الأندلس :

توالت السفارات على السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني (٦٧٣-٦٨٥هـ) (١٢٧٤-١٢٨٦م) من الجانبين: ابن الأحمر وبني أشقيلولة للدفاع عن الأندلس والهجوم على قشتالة، استجاب أبو يوسف لدعوى الجهاد، ولكنه اشترط على ابن الأحمر التنازل له عن بعض الحصون الجنوبية من الأندلس، كطريف Tarifa[26] ورندهRonda[٢٧] والجزيرة الخضراء Al geciras [٢٨] لتصبح قواعد عسكرية تنطلق منها الجيوش، وبالفعل تم له ما أراد[٢٩]

ب ـ إرسال حملة إستطلاعية :

استخدم أبو يوسف الأسلوب الذي اعتاد عليه المسلمون وهو: إرسال حملة استطلاعية نحو الأندلس قوامها خمسة آلاف مقاتل، تحت قيادة ابنه أبو زيان، وكان انطلاق الجيش من فرضة المجاز إلى قادس[٣٠] وعاد محملا بالغنائم والسبايا إلى الجزيرة الخضراء التي اتخذها الجيش مركزا للتجمع أو معسكرا للقوات[٣١] فكانت نتائج الحملة مبشرة للسلطان المريني بالعبور إلى الأندلس[٣٢] وكان قد خرج من مدينة فاس في شوال سنة٦٧٣هـ /٣٠ مارس ١٢٧٥م حتى وصل إلى طنجة، حسب إشارة ابن أبي زرع، ثم أمر والي سبتة أبو القاسم العزفي[٣٣] بتجهيز الأساطيل للجهاد، فجهز عشرين أسطولا لكي يعبر عليها الجيش المغربي الذي نزل بجزيرة طريف، في ١٦ ذي القعدة سنة ٦٧٣هـ/ ١٣ مايو ١٢٧٥م[٣٤].

جـ ـ عقد مهادنة مع بني عبد الواد ملوك تلمسان :

بعد أن اطمئن أبو يوسف يعقوب على الوضع في الأندلس؛ أرسل حفيده تاشفين بن عبد الواحد إلى يغمراسن بن زيان ملك تلمسان، يطالبه بعقد الصلح حتى يؤمن دولته قبل الاتجاه إلى الأندلس، وبالفعل تم الصلح بينهما وساد جو من الاستقرار في بلاد المغرب [٣٥].

د ـ مؤتمر الجزيرة الخضراء :

عبر السلطان أبو يوسف المنصور من قصر المجاز إلى جزيرة طريف سرا، ومعه خاصته ووزراءه وخدام دولته، وجهز جيوشه للحرب[٣٦] ثم انتقل إلى الجزيرة الخضراء حيث اجتمعت القوى المتفقة على محاربة النصارى، والمتمثلة في أبى يوسف يعقوب المريني ومحمد الفقيه بن الأحمر وأبو محمد ابن أشقيلوله صاحب مالقه، وأخيه أبو إسحاق صاحب وادي آش، وتمت المفاوضات حول الحرب، وأرجئت أمور الخلاف بين ابن الأحمر وبني أشقيلوله بشكل أغضب ابن الأحمر، واتجه كل منهم إلى مقر حكمه[٣٧]، وفسر البعض ذلك بأن

أبا يوسف المريني قد التقى ببني أشقيلوله أولا ثم بمحمد الفقيه، مما أغضبه وأشعره بالإهانة[٣٨]، بينما يرى آخرون أن سبب غضب ابن الأحمر تدخل السلطان المريني في شؤون الأندلس بصورة مريبة، وتحالفه مع بني أشقيلولة[٣٩].

ومن الواضح أن حل المشكلات السياسية لم يكن هو الهدف الحقيقي من المؤتمر، ولكنه كان يهدف إلى الاتفاق على تنفيذ خطة المعركة، وتقسيم القوات بأن تتجه الجيوش المغربية إلى قرطبة، بينما تتجه الجيوش الأندلسية إلى جيان لإحكام القبضة على العدو. ويؤكد بعض الباحثين أن هذا المؤتمر جعل أمير المسلمين أبا يوسف يخشى من اشتراك الطرفين في المعركة، ويقرر الاعتماد على قواته فقط [٤٠]، على الرغم من إشارة المقري إلى اشتراك محمد الفقيه في المعركة[٤١]، وإشارة ابن أبي زرع إلى إشتراك بني أشقيلولة في المعركة[٤٢] ومن الواضح أن الاعتماد الأكبر والدور الرئيسي في هذه المعركة كان للمرينيين.

هـ - حشد القوات :

قام السلطان المريني المنصور بحشد القوات للحرب، وكانت القبائل العربية النازحة إلى المغرب، في عصر الموحدين، قد انتهجت سياسة الإفساد والتخريب وقطع الطرق والسلب والنهب فدعاهم إلى الجهاد للإفادة من قدراتهم وتوجيه طاقاتهم، فحشد عددا كبيرا من هذه القبائل، بالإضافة إلى القبائل المرينية والمتطوعين والبربر، وكان النفير عاما، وقد وصف ابن أبي زرع ذلك (وأخذ في تجويز أجناده وأهل دواره فكان الناس يجوزون فوجا بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة، وطائفة بعد طائفة، فلما تكامل الناس بالجواز واستقروا في الأندلس وانتشرت عساكر المسلمين بها من مدينة طريف إلى الجزيرة الخضراء)[٤٣].

أما الاستعداد الأندلسي للمعركة

الحقيقة أن الأندلس في هذه الآونة كان في حالة استعداد دائم للحرب، واستغل ابن الأحمر فترة الهدنة مع قشتالة في الاعتناء بالجيش عناية بالغة والاهتمام بتقويته وتنظيمه وخاصة فرقة الفرسان التي حظيت باهتمام كبير من السلطان محممد الفقيه[٤٤]، كما قام بتحصين غرناطه بإنشاء العديد من الحصون والقلاع والأبراج الدفاعية، وأبراج المراقبة لترصد حركة العدو، وتشكيل حزام دفاعي عن غرناطة[٤٥]، بالإضافة إلى وجود مشيخة الغزاه، وهي قبائل زناتية مغربية جاءت لمساعدة بني الأحمر، وتم اتحاد الجيش الغرناطي مع بني إشقيلوله والقيادة العليا لمشيخة الغزاة[٤٦].

أحـــداث المعركـــة :

مرحلة الطلائع :

انطلقت الجيوش المرينية إلى منطقة الوادي الكبير سرا حتى يفاجئوا العدو، كما كون أبويوسف المنصور قوة قوامها خمسة الآف جندي، وجعل ابنه يوسف على قيادة هذه القوة لاستطلاع أحوال العدو، وتألفت هذه القوة من جيش بني مرين والقبائل العربية، مستخدمة أسلوب التخريب والسلب والنهب والفتك بالعدو ومباغتته، وقد اصطحبوا معهم الأدلاء فوصلوا إلى حصن بلمه[٤٧] على أحواز قرطبة، واستولوا عليه، ووصلوا إلى حصن المدور[٤٨] وبياسة

(٤٩) وأبذة (٥٠)، كما وصلوا إلى حصن المقورة[٥١] بين قرطبة وإشبيلية، واستولوا على ست قرى ووضعوا عليها أمناء، وواصلوا السلب والنهب والتخريب والحرق والهدم، حتى وصلوا إلى إستجة[٥٢]. ومن ذلك يتضح أن الخطة العسكرية، التي اتبعها أبو يوسف يعقوب، تقوم على إرهاب العدو بفرقة من الجيش لإضعاف روحه المعنوية قبل بداية الحرب. أما دور الجيش الأندلسي فكان واضحا في الإغارات على الطريق بين غرناطة وجيان، وكان يهدف الوصول إلى جيان حسب الاتفاق، وشملت الإغارات المنطقة الواقعة بين قرطبة وإشبيلية[٥٣]

الاستعداد القشتالي للمعركة :

من الواضح أن الاستعداد للمعركة، بالنسبة للجانب القشتالي، لم يحدث إلا بعد وصول الجيش الإسلامي إلى منطقة الوادي الكبير، وقيامه بالتخريب والسلب والنهب، وكان ألفونسو في ذلك الوقت يعقد مفاوضات مع البابا في فرنسا[٥٤]، فاحتشد الجيش القشتالي في قوة قوامها ثلاثين ألف فارس وستين ألف راجل، وعين ألفونسو عليه القائد نونيو دي لارا Niño Don Gonzalo De Lara وهو زوج ابنته، والمفوض على جيوشه، الذي لم يهزم قط، وعرف في المصادر العربية باسم ذننه (ونسبت المعركة إليه وقيل معركة الذنونية)، وقد وصلت هذه الأخبار إلى الجيش الإسلامي عن طريق أحد الجواسيس الأندلسيين (٥٥)، أما نونيو دي لارا فكان في قرطبة حينما هاجم المسلمين المنطقة، وأرسل إلى فرناندو بأنباء هجمات الجيش الإسلامي والذي أرسل إلى الأمراء والنبلاء وجهز البحارة (٥٦).

عقـد مجلس حربي استشاري :

دعا السلطان أبويوسف يعقوب لعقد مجلس استشاري بعد أن وصلت الأنباء عن أعداد واستعدادت الجيش القشتالي، وذلك للاتفاق حول الخطة المتبعة للقاء العدو الذي حشد قواه، وقد رتب صاحب الذخيرة العناصر المحاربة وترتيبها في أخذ المشورة، وهم شيوخ بني مرين وشيوخ العرب وشيوخ المطوعة والقادة الأندلسيين والأغزاز والفقهاء والصلحاء[٥٧]، وقد يتضح التكوين القبلي في هذا الجيش. كما يظهر جليا دور الجواسيس في هذه المعركة، حيث وصلوا أخبار العدو ليستعد لهم المسلمين، على أية حال؛ فإنه أخذ رأي الجيوش واستقر الأمر على القتال، ونصحهم السلطان المنصور بالصبر والثبات في لقاء العدو.

أحداث المعركة :

ترأس أمير المسلمين أبو يوسف الجيش، وجعل ابنه على المقدمة وهي فرقة الرماة والرجالة، أما هو فكان في وسط الجيش، وكان السلطان المنصور قد ألقى خطبة على الجيوش قبل المعركة وهي نفس الخطبة التي ألقاها الرسول صلى الله عليه وسلم يوم بدر، كما توضأ وصلى ركعتين قبل لقاء العدو، فكان لهذا عظيم الأثر في رفع الروح المعنوية لديهم (٥٨).

أما الجيش القشتالي فقسم إلى خمسة أقسام وفقا لفرق وعناصر الجيش، وكان القائد في وسط الجيش، واعتمد بجيشه على كثرة العدد والأسلحة، وقد وضع في مقدمة الجيش الرجال والرماة، واصطحب جيشه بالبنود والأبواق والأعلام، وكانت خطتهم قائمة على

الصفوف المتراصة، حسب إشارة أحد المصادر العربية (صفوفا صفوفا)[٥٩] وهي نفس خطة المسلمين تقريبا.

كان للفرسان الزناتية دور هام في هذه المعركة أشار إليه ابن خلدون (وراجعت زناته بصائرها وعزائمها وتحركت هممها وأبلت في طاعة ربها والذب عن دينها، وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقفها....) [٦٠].

التقى الجيشان وكان النصر حليفا للمسلمين، ومني القشتاليين بالهزيمة وقتل القائد نونيو دي لارا، وتم تعيين دون جيل غومس Don Gel Gomes قائدا للجيش[٦١]، وكان أسقف طليطلة دون سانشو دي أراجون من ضحايا المعركة، كما قتل عدد كبير من الإسبان اختلفت المصادر في تحديده، ومن الواضح أن خسائر الجيش الإسباني كانت كبيرة أسهبت المصادر العربية في وصفها، حتى انتابها نوع من المبالغة فأشار ابن أبي زرع إلى أن عدد الضحايا أكثر من ثمانية عشر ألف رأس، اجتمعوا على شكل جبل طلع المسلمون عليه وأذنوا لصلاة العصر[٦٢]، أما ابن خلدون فذكر أن عدد الضحايا حوالي ستة آلاف قتيل[٦٣] وأشار المقري إلى أن عدد الضحايا وصل إلى أربعين ألفا[٦٤].

أما خسائر الجيش الإسلامي فكانت أعدادهم قليلة اختلفت المصادر في تحديدها، فذكر أن عددهم لايتجاوز أربعة وعشرين جنديا من بينهم ستة من بني مرين، وسبعة من العرب، وثمانية من المطوعين، وثلاثة من الأندلسيين[٦٥] بينما ذكرت بعض المصادر أنهم في حدود الثلاثين جنديا[٦٦]. وربما يكون في ذلك شيئ من المبالغة، وأن عدد الضحايا يزيد عن ذلك [٦٧].

عاد أمير المسلمين أبو يعقوب (المنصور) بجيوشه المنتصرة إلى الجزيرة الخضراء في احتفال كبير وخطابات أرسلها إلى بلاد العدوة يبشرهم بالنصر، وكتب أبو القاسم العزفي خطابات إلى الفقهاء والصلحاء في المغرب بأنباء هذه الغزوة[٦٨]، وقد دخلت الجيوش محملة بالغنائم والسبي والأسلحة المتنوعة بأعداد كبيرة(مبلغ الغنائم من هذه الغزوة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفا من السبى، ومن الأسارى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثون، ومن الكراع أربعة عشرا وستمائة) [٦٩]، ووزع أمير المسلمين الغنائم بينهم بالعدل، للراجل سهم واحد والفارس سهمان، بعد أن أخذ الخمس لبيت المال[٧٠]، كما أرسل رأس القائد نونيو دي لارا إلى ابن الأحمر الذي عطرها وأرسلها لألفونسو تقربا إليه [٧١].

عادت الجيوش المرينية بحملة متوجهة من الجزيرة الخضراء إلى إشبيلية عاصمة قشتالة، متبعة نفس سياسة التخريب والحرق والإفساد ضاربة الحصار حول المدينة حتى طلب أهلها الصلح فوافق عليه السلطان واتجه إلى شريش[٧٢] مركز القيادة العسكرية لقشتالة وحاصرها أيضا مدة ثلاثة أيام، وفعل معها مافعله في إشبيلية، حتى اضطر رهبانها إلى طلب الصلح [٧٣].

توالت النجدات على الجيش القشتالي، فحينما وصلت أنباء الهزيمة إلى الوصي على العرش دون فيرناندو دي لا ثيردا، اتجه بقواته ليواصل الدفاع ولكنه مرض وتوفي، فهب

لنجدته أخوه وخليفته على العرش، الأمير دون سانشو، الذي وضع رجاله في النقاط الإستراتيجية وحاجزا عن الوصول إلى إشبيلية [٧٤].

وبرغم الانتصار الباهر الذي حققه المسلمون في المعركة، إلا أنهم لم يستردوا أي مدينة من المدن التي تم الهجوم عليها أو حصارها للأندلس، بل اتبعوا سياسة الحملات الخاطفة والسلب والنهب، والإضعاف الإقتصادي للجانب الآخر، وكان بإمكانهم إستعادة إشبيلية إذا طالت فترة الحصار. وإذا كان أبويعقوب يهدف من الهجوم على إستجة الوصول إلى إشبيلية عاصمة القشتاليين، كما تشير بعض الكتابات[٧٥] ولكنه لم يستردها للمسلمين واكتفى بالحصار الاقتصادي لها.

وهناك إشارات في أحد المصادر الإسبانية إلى حدوث مناورة بحرية في مضيق جبل طارق أجبرت الجيش الإسلامي على فك الحصار عن إشبيلية والعودة إلى المغرب قبل أن يحال بينه وبين مملكته، ويشير إلى أن ألفونسو أرسل ابنه سانشو لإغلاق المضيق[٧٦]وهو أمر لم يشر إليه في المصادر العربية، ويبدو أن في ذلك شيئا من المبالغة، لأن السلطان المريني عقد صلحا مع إشبيليه ثم بنى مدينة البنية [٧٧] وترك قوات في الجزيرة الخضراء وطريف، ثم عبر إلى المغرب، ولو كان هناك خطر في المضيق ما تمكن من أداء كل هذه الأعمال.

النواحي العسكرية في المعركة :

يعتبر التكتيك الحربي للمعركة ركيزة أساسية من ركائز النصر، وقد نجح المرينيون في إحكام خطة المعركة، فاعتمدوا على عنصري السرية والمفاجأة، وظهر ذلك جليا في الحملة الاستطلاعية التي أرسلها أمير المسلمين أبو يوسف يعقوب، بقيادة ابنه أبو منديل زيان إلى قادس، والحملة التي عرفت بحملة الطلائع، بقيادة ابنه يوسف، حيث فاجأ القشتاليين بهجماته على منطقة الوادي الكبير. كما أن تقسيم الجيش إلى مقدمة ومؤخرة وقلب وميمنة وميسرة[٧٨]، ووجود القائد في القلب حاملا الراية[٧٩]، وحوله فرقة الحراسة[٨٠]، وابنه قائدا للمقدمة[٨١]، كما أن عقد المجلس الحربي، ونظام تعبئة الجيش واتباع إسلوب الكر والفر، واستخدام سياسة الإضعاف الإقتصادي بتخريب المدن والقرى والحرق والسلب والنهب[٨٢] وحصار مدينة إشبيلية العاصمة القشتالية، وشريش مركز القيادة العسكرية لارهاب العدو وإضعاف روحه المعنوية والتأثير على اقتصاده بشكل سلبي - كلها أمور ليست جديدة بل عرفت منذ عصري المرابطين والموحدين[٨٣]، وإن كانت عاملا من عوامل النصر.

كذلك اتخذ المرينيون بعض الإجراءات العسكرية التي تقضي بوضع كافة الأسرى والغنائم داخل مناطق الخطوط الأمامية، وعليها حرس أو أمناء حتى لاتعوق حركة الجيش أو يستولي عليها الجيش القشتالي [٨٤].

استخدم الجيش القشتالي نفس الخطة الخماسية، وكان القائد أيضا في القلب[٨٥] واعتمد في خطته على الكثرة لإرهاب العدو[٨٦].

لا يمكن إغفال التأمين البحري للمعركة للجانبين، فالأسطول المريني يحمي القواعد العسكرية في الجنوب، وهي الجزيرة الخضراء ورنده وجزيرة طريف[٨٧]، والأسطول الأندلسي

يقوم بحماية شرق الأندلس في مالقة ووادي آش وانتشار القراصنة المسلمين في البحر المتوسط والإغارة على الموانيء المسيحية[٨٨]، وتشير بعض المصادر المسيحية إلى مناورة بحرية حدثت عند مضيق جبل طارق؛ أجبرت السلطان المريني على فك الحصار عن إشبيلية، بل ذكر أنه تم غلق المضيق من قبل القوات القشتالية للضغط على الجيش المغربي[٨٩] ولكن المصادر العربية لم تشر إلى ذلك، بل تؤكد أن رهبان إشبيلية طلبوا الصلح من السلطان المريني[٩٠].

ولسنا هنا بصدد وصف تفصيلي لمراتب الجيش وعناصره وملابسه والأسلحة التي كانوا يستخدمها فيما يخص الجانبين: الجانب الإسلامي، بشقيه المغربي والأندلسي، والجانب القشتالي لأن هناك كتابات أسهبت في وصف كل هذه الأمور والتعرض لها بالتفصيل، ولكن نكتفي بالتعرض السريع لها، فيما يخدم البحث، بغرض وضع تصور كامل للمعركة، فبالنسبة لمراتب الجيش: فإن القيادة لم تكن موحدة في الجيش المغربي، فكان لكل قبيلة رئيس والقيادة العليا تكون لكبار رجال قبائل بني مرين أو من هو على صلة نسب بهم[٩١]، ويحيط بالقائد طائفة من الحراس من جند الأندلس تسمى بأهل الدوار أو الوصفان[٩٢] أما الجيش الأندلسي فالقيادة العليا محصورة أيضا في أقارب السلطان وصنعائه[٩٣] لأن الدولتين قامتا على العصبية والغلبة [٩٤].

أما مراتب الجند في الجيش المغربي فقسمها القلقشندي إلى أشياخ كبار وأشياخ صغار ثم عامة الجند من الأندلسيين وغيرهم من العلوج الفرنج[٩٥]، وبالنسبة للجيش الأندلسي فيشير ابن الخطيب إلى صنفين: أندلسي وتكون قيادته محصورة في قرابة السلطان، ومغربي وقيادته محصورة في بني مرين، والقائد الأعلى هو الذي يعين قادة القبائل[٩٦]، ويشير بعض الباحثين إلى أن هذا التقسيم متناسب مع الخصوصية الجغرافية والحضارية المرتدة إلى السيادة الوطنية[٩٧].

فبالنسبة لفرق الجيش المغربي، فإنه مكون من مقاتلة بني مرين والقبائل الأخرى وهم الفرسان، وتسمى فرقة البادية، وفرقة الأغزاز[٩٨] وهم حوالي ألف وخمسمائة فارس، وفرقة الرماة وهم من جند الأندلس، بالإضافة إلى عناصر شامية ويمنية وهندية[٩٩]، إضافة إلى المماليك والخصيان، وفرقة النشابة وتتألف من جند الأندلس، ومن عناصر الجيش النصارى ولهم معسكر خاص بهم يسمى ربض النصارى[١٠٠]، بالإضافة إلى طائفة الوصفان أو الحرس الخاص[١٠١]. ومن ذلك يتضح أن هناك فرقا بين عناصر الجيش وفرق الجيش، فالفرق منها ماهو نظامي وماهو تطوعي في سائر الفريقين، وهم فرسان ثقيلة وفرسان خفيفة، ورجالة وهم مقسمين إلى راجل كامل بأسلحة، وراجل غير كامل بسلاح واحد، والرماة ويكونوا في مقدمة الجيش[١٠٢]

وقد أشار صاحب الذخيرة السنية إلى العناصر المشتركة في هذه المعركة تحديدا (فدعا أمير المسلمين أشياخ قبائل بني مرين وأمراء العرب وقواد الأندلس والأغزاز ومن في عسكره من الفقهاء والصلحاء والقبائل وشيوخهم المتطوعين ليشاورهم كيف يكون العمل في لقاء العدو)[١٠٣] وهذا النص يوضح وجود الفقهاء والصلحاء ومرافقتهم للجيش، بالإضافة إلى فرق

المتطوعين من القبائل البربرية تحت قيادة شيوخ هذه القبائل، ويمكن إضافة عناصر أخرى إلى الجيش وهم: الشعراء لإثارة الحماسة لدى الجيش، خاصة وأن المرينيين أحبوا الشعر وولعوا به، حتى ترك الشعراء وصفا كاملا للمعركة لكثرة من رافق الجيش إلى بر العدوة (١٠٤).

أما الجيش الأندلسي فعناصره تشبه عناصر الجيش المغربي إلى حد كبير، ويحتوي على فرقة الفرسان وهي من الأندلسيين، وقد نالت هذه الفرقة اهتماما بالغا من السلطان محمد الفقيه كما سبقت الإشارة، والأغزاز الذين جلبهم الموحدون من مصر، والمماليك وهم الحرس الخاص بالقائد، إضافة إلى عناصر النصارى، وهناك إشارة إلى استخدام جزء منهم كحرس للسلطان، ولكن رئيسهم لابد أن ينتمي إلى بيوتات أندلسية كبرى(١٠٥)، بالإضافة إلى مشيخة الغزاه وهؤلاء هم الذين يعينون القادة على القبائل(١٠٦)، وبني أشقيلولة الذين كانت لهم القيادة الكبرى، وذلك لحماية شرق الأندلس، ولاتغفل مرافقة التجار للجيش، وغالبا ما يكونون في الساقة لشراء كل مايقع تحت أيديهم(١٠٧)، إضافة إلى تواجد الأطباء و بعض أرباب المهن من النجارين والحدادين والبنائين(١٠٨).

لسنا بحاجة إلى التفصيل عن وجود ديوان للجندية للجيوش الإسلامية، وهو أمر اعتادوا عليه منذ عصر الخليفة عمر بن الخطاب، وأخذه عنهم الإسبان، ومهمته تحديد مرتبات الجنود وتسجيل أسمائهم وألقابهم وعناصرهم(١٠٩)، كما اعتنى القادة في المغرب والأندلس على تدريب الجنود على الحرب والعرض على السلطان بشكل دوري، وهناك وظيفة صاحب العرض في الجيش الأندلسي، كان يقابلها في الجيش الإسباني قيادة التموين الحربي(١١٠).

أما الجيش القشتالي: كانت فرقة الفرسان هي الأساس في الحرب خلال العصر الإقطاعي(١١١) ثم بدأت تقل الحاجة إليهم خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وبدأت فرقة الرماه تكون أكثر أهمية من الفرسان(١١٢)، ويبدو أن المقصود بذلك فرقة الفرسان الثقيلة، ولذلك ظهرت فرقة من الفرسان تسمى **Genates** وهي على غرار فرسان زناتة يلبسون الدروع الجلدية والركاب المرتفع، معروفين بسرعة الحركة والفر والكر(١١٣).

ولكن من المرجح أنهم استخدموا في معارك لاحقة لزمن المعركة المعنية بالدراسة، لأن استخدام فرسان زناته أو الفرسان الخفيفة، جاء نتيجة الاحتكاك العسكري والتأثير المغربي على قشتاله، وهو أمر حدث بعد العبور الأول من الجيش المغربي إلى الأندلس، وهذا يعني أن الجيش المريني استخدم فنا خاصا اشتهروا به أثناء حروبهم، وهو الفرسان الزناتية التي تقوم بالحركات والوثبات السريعة ونظام الكر والفر في الحروب، ساعدهم على ذلك الدروع الجلدية والخيل الخفيفة ذات الركاب المرتفع(١١٤)، وقد عرفه الإسبان لأول مرة في هذه المعركة، ومن المرجح أن الفارق بين الفرسان الثقيلة القشتالية وبين الفرسان الزناتية؛ كان سببا من أسباب النصر في معركة إستجة، مما دفع القشتاليين إلى إضافة عنصر الفرسان الخفيفة في جيوشهم بعد ذلك. أما الأندلسيون فقد عرفوا فرقة الزناتية المعروفين بمشيخة الغزاه، والذين أبلوا بلاءا حسنا في المعركة(١١٥).

أما بالنسبة للعناصر الإسبانية المشتركة في المعركة، فهناك حشود خرجت من قشتالة وليون، ومن الواضح أنهم متطوعون، ودعا رئيس أساقفة طليطلة جميع فرسان الملك الذين عاشوا في طليطلة وقلعة رباح، كما قام رئيس أساقفة جيان بدعوة قائد قلعة رباح ومارتس[١١٦].

كان لجماعات الفرسان الدينية دور رئيسي في الجيوش القشتالية، وهي الفرق الأكثر حماسا للحرب، خاصة وأن القرن الثاني عشر الميلادي شهد تطورا لهذه الجماعات، حيث ترسخ العامل الديني وأصبح يشكل أساسا في الصراع العسكري بين القوات النصرانية والإسلامية[١١٧]. ومن أشهر هذه الجماعات: جماعة فرسان قلعة رباح وجماعة فرسان إقليش[١١٨] ولهاتين الجماعتان دور رئيسي في الجيش القشتالي خلال هذه المعركة، حتى إن القائد نونيو دي لارا قائد الجيش القشتالي، في معركة إستجه كان قائدا لجماعات فرسان قلعة رباح[١١٩]. وكان نشاط الجماعات الرهبانية العسكرية القشتالية: سانتايجو، وكالاترافا، والقنطرة، الدفاع عن الحدود القشتالية والاستيلاء على مدن الحدود ضد المسلمين[١٢٠].

ومن المرجح أيضا استخدام عناصر المدجنين كجزء من الجيش في هذه المعركة، خاصة أنهم كانوا ملزمين بتأدية الخدمة العسكرية، وأن الإعفاء منها كان نظير جزية سنوية، ويشير أحد المؤرخين إلي أن انضمامهم للجيش يقع في حدود نسبتهم العددية [١٢١].

ومن المؤكد أن هذا الجيش احتوى على عدد كبير من فرق المتطوعة التي اشتركت في هذه المعركة، ويوضحه ما ورد عند ابن خلدون (وأن زعيم الروم وعظيمهم ذننه خرج في طلبهم بأمم النصرانية من المحتلم فما فوقه)[١٢٢] على أية حال فإن بعض المستشرقين أشار إلى أن هذا النفير للقتال، الذي قام به هو فرناندو ولي العهد الذي كان مقيما في بروغوس، لأن ألفونسو كان في الإمبراطورية، أما نونيو دي لارا وجميع النبلاء فكانوا ماكثين في قرطبة [١٢٣] وربما يكون النفير من الاثنين، من نونيو دي لارا بصفته قائدا لقوات قلعة رباح، وفردناندو بصفته وليا العهد ونائباً عن الإمبراطور.

وقد أشارت أحد كتابات المستشرقين إلى العناصر المشتركة في المعركة وهم: الإقطاعيون والفرسان والمورس [١٢٤].

وعن زي هذه الجيوش: فإن زي المرنيين قد وصفه القلقشندي(لبسوا العمائم الطوال من الكتان ومن فوقها إحرامات يلقونها على أكتافهم وتقلدهم السيوف ولبس الخفاف في أرجلهم الأنمقة ويشدون المهاميز فوقها (حديدة في مؤخرة الخف) ومن الواضح أنه لم يكن للجند لباس محدد أو لون محدد في زيهم ولم يتميزوا إلا بلبس العمائم[١٢٥].

وعن زي الجيوش الأندلسية: فكانوا يلبسون معطفا قرمزيا مقلنسا فضفاضا ويلبسون الدروع ويحملون التروس الطويلة، ويضعون على رؤسهم خوذا بسيطا، ورماحهم طويلة والأسنة عريضة والسروج تغطي ظهور الخيل، والفارس الأندلسي يستخدم السيف والقوس والفأس والخنجر[١٢٦].

وقد أشار ابن الخطيب إلى التأثر الأندلسي بالزي القشتالي[١٢٧] ولم يكن ذلك قاصرا على عصر بني الأحمر، ولكن هذا التأثير ظهر منذ عصر المرابطين[١٢٨].

أما زي الجيوش القشتالية فكان الفارس يكسو الجزء الأسفل من ساقيه بأربطة من القماش والجلد تمتد من الركبة إلى أسفل الساق، والدرع المزرد الذي يكسو جسمه ويتألف من حلقات معدنية، وعلى رأسه خوذه حديدية مخروطية يمتد مقدمها إلى أسفل ليحمي الأنف، ويحمل معه سيفا مربوطا بحزام علي وسطه، ويحمل درعا ويمسك حربة وبلطة[١٢٩] هذا بالنسبة للفرسان الثقيلة أما الفرسان الخفيفة فقد سبق الإشارة إلى زيها، والواضح فيه التأثير الإسلامي، ولم يكن التشابه بين الفرقتين في الزي فقط ولكن في الأسلحة أيضا[١٣٠].

أما عن الأسلحة المستخدمة في المعركة فقد أشارت المصادر العربية إلى الأسلحة التي استخدمها الطرفان وهي: السيوف والدروع الحديدية أو الزرود والمغافر والرماح والسهام والسنان والقنا والفؤوس، والمصفحات والدروع الجلدية والبيضات (الخوذ) والتروس الأمداس، والمعارج والملاقي والسلالم والأكباش والعرادات والدبابات، واستخدام الآت النقب أثناء الحصار وغيرها[١٣١]

بالنسبة للجيش الأندلسي؛ استخدم الدروع الجلدية والرماح الطويلة، والقسي بنوعيها العربية والأفرنجية[١٣٢] كما استخدم الجيش المغربي مكاحل البارود وقوارير النفط والمفرقعات، وكان المرينيون قد استخدموها في الاستيلاء على سجلماسة سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م[١٣٣].

واستخدم الطرفان الرايات والأعلام والألوية، وكانت هناك فرقة ترافق الجيش الأندلسي تسمى فرقة حملة الرايات[١٣٤] وهناك فرقة مماثلة لها في الجيش القشتالي.

وقد ظل السيف المستقيم يستخدم في الأندلس حتى عهد عبد الرحمن الداخل، حتى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، حيث بدأ استخدام السيف المقوس ذى النضل الواحد[١٣٥] ومن المعروف أن الأندلسيون فضلوا الأسلحة الخفيفة، وكانوا يتجنبون الأسلحة الثقيلة على عكس الأوروبيين[١٣٦]، ومن الأسلحة الهجومية المعروفة في أوروبا: السيف المزدوج والحربة وقوس النشاب[١٣٧].

واستخدم الجيش الإسلامي الأبواق والبنود والطبول، وكانت الطبول لاتدق إلا بوجود السلطان[١٣٨] في بداية المعركة، أو إعلانا عن الانتصار في نهاية المعركة، أو عند رحيل الجيش فيما عرف بطبل الرحيل[١٣٩]، بينما استخدم الجيش الإسباني القيثارة والغيطات والأناشيد الحربية أثناء القتال[١٤٠].

ويعتبر التبادل التجاري أحد عوامل انتقال الأسلحة بين الطرفين، فالسيوف الغرناطية انتقلت إلى أوروبا[١٤١] بينما استوردت الأندلس السيوف البوردية[١٤٢]، ولذا فإن هناك تشابه بين الأسلحة والزي وأساليب القتال بين الطرفين: الأندلسي والإسباني، وهو أمر أكدته المصادر.[١٤٣]

العوامل التي ساعدت الجيش الإسلامي على النصر في المعركة :

ــــ الحقيقة أن الحماسة الدينية والرغبة الجامحة في الجهاد لدى المحاربين بكل أجناسهم وفرقهم وأصولهم، تجمعهم راية الجهاد في سبيل الله متمنين النصر أو الشهادة، وهو الأمر الذي يفسر تواكب أعداد غفيرة من المتطوعين من المغرب والأندلس تلبية للنفير إلى الجهاد – كان له دورا رئيسي في تحقيق النصر.

ــــــ كما أن حماسة القائد وورعه وتدينه كان لهما عظيم الأثر في هذا النصر، وفي النصوص العربية إشارات متعددة إلى ذلك سواء وضوء أمير المسلمين وصلاته قبل المعركة، والخطبة الحماسية التي ألقاها قبيل المعركة، والدعاء الذي دعاه الرسول (ص) يوم بدر، والمجلس الاستشاري الذي عقده لأخذ رأي الجيش في الحرب، ووضوءه وصلاته قبل المعركة(١٤٤) وغيرها من الأمور التي حمست الجنود للقتال، وأعادتهم للأجواء الدينية والروحانية التي كانت سائدة في عصر النبوة والخلافة الراشدة.

ــــــ حنكة القائد أبي يوسف يعقوب المريني المنصور السياسية والحربية، وحسن إدارته للأمور وإحكام خطته الحربية، وقدرته على التنظيم - كانت سببا مباشرا في الانتصار.

ــــــ استخدام المسلمين لعناصر المفاجأة والمباغتة والسرية، كلها عوامل ساعدت على الانتصار وأربكت صفوف العدو.

ــــ تجمع القوات المغربية والأندلسية وتكتلها لتحقيق الهدف، ونبذ أسباب الفرقة والانقسام، من العوامل الرئيسية لتحقيق النصر.

ــــــ برغم الفارق العددي بين الجيوش الإسلامية والقشتالية، حسب ما ورد في المصادر العربية، وإن كان يشوبه بعض المبالغات، فإنه من المرجح أن سلاح البارود الذي استخدمه المرينيون في الهجوم على سجلماسه سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م، قد استخدم في هذه المعركة التي تمثل العبور الأول للمرينيين إلى الأندلس، برغم عدم تصريح المصادر بذلك.

ــــــ ولا يمكن إغفال دور الأدلاء في توجيه خط سير المعركة، خاصة وأن الجيش المغربي ليست لديه دراية بالطرق في الأندلس، سواء في حملة الطلائع التي قادها يوسف بن أمير المسلمين يعقوب المنصور(١٤٥)، واستعان القشتاليين بالأدلاء لمعرفة الطرق أيضا(١٤٦) والجواسيس في جلب أخبار العدو، وإعطاء الفرصة للجيش الإسلامي للاستعداد(١٤٧)، وكان الجانب المسيحي يستعين بالجواسيس أيضا، وكانوا غالبا من عناصر اليهود الذين يعرفون اللغتين العربية والإسبانية (١٤٨)، والأمناء المكلفين بالحفاظ على المغانم التي حصل عليها الجيش المريني من الهجمات على منطقة الوادي الكبير(١٤٩) وكانت المغانم توضع في المقدمة أمام الجيوش.

النتائج المترتبة على المعركة :

ــــــ أهم النتائج التي ترتبت على المعركة لصالح بني مرين: ما نتج عن العبور الأول للمرينيين إلى الأندلس وهو تثبيت أقدامها في ثلاث قواعد، وإنشاء قاعدة جديدة وهي مدينة البنية.

ــــ عودة العلاقات بين غرناطة وقشتالة، بعد أن خشي السلطان محمد الفقيه على دولته، وأحس بأطماع بني مرين وتحالفهم مع بني أشقيلولة(١٥٠) حتى أنه حينما تحقق النصر أرسل له أبو يوسف المنصور رأس نونيو دي لارا ليفتخر بالنصر على القشتاليين، فعطرها وأرسلها إلى ألفونسو محاولا إرضاءه والتقرب منه(١٥١) وكان نتيجة هذا التحالف: سقوط طريف والجزيرة الخضراء واحتلال القشتاليين لجبل طارق(١٥٢). وكانت هذه الدولة قائمة على سلسلة

من التحالفات وفق المصالح، ولذا دخلت أراغون[١٥٣] ومملكة تلمسان وبنو حفص ضمن حلفائه وأرجع البعض ذلك إلى الضعف العسكري والذكاء السياسي [١٥٤].

ـــــ استيلاء السلطان المريني أبو يوسف يعقوب على مدينة مالقة، وكانت تحت حكم بني أشقيلولة ثم توفي حاكمها أبو محمد بن أشقيلولة، فتنازل عنها بني أشقيلولة لأبي يوسف الذي أرسل من ينوب عنه في حكمها حتى عبر إلى الأندلس عبوره الثاني، سنة٦٧٦هـــــــ / ١٢٧٧م [١٥٥] وهو أمر غاية في الخطورة، لما تتمتع به هذه المدينة من الأهمية، حيث تشكل حماية للجزء الشرقي من الأندلس، ومركزا للقيادة البحرية، وبها درا لصناعة السفن في الأندلس، ولذا فهي حصن دفاعي بري وبحري[١٥٦] وتشير كتابات المستشرقين إلى استغلال أبو يوسف للخلاف بين ابن الأحمر وبني أشقيلولة لتحقيق أطماعه في الإستيلاء على مالقة [١٥٧].

ـــــ من المحتمل دخول سلاح البارود إلى الأندلس مع الجيش المغربي واستخدامه في هذه المعركة، قبل أن يصل إلى أوروبا، مما كان له عظيم الأثر في تطور الأسلحة الأندلسية[١٥٨].

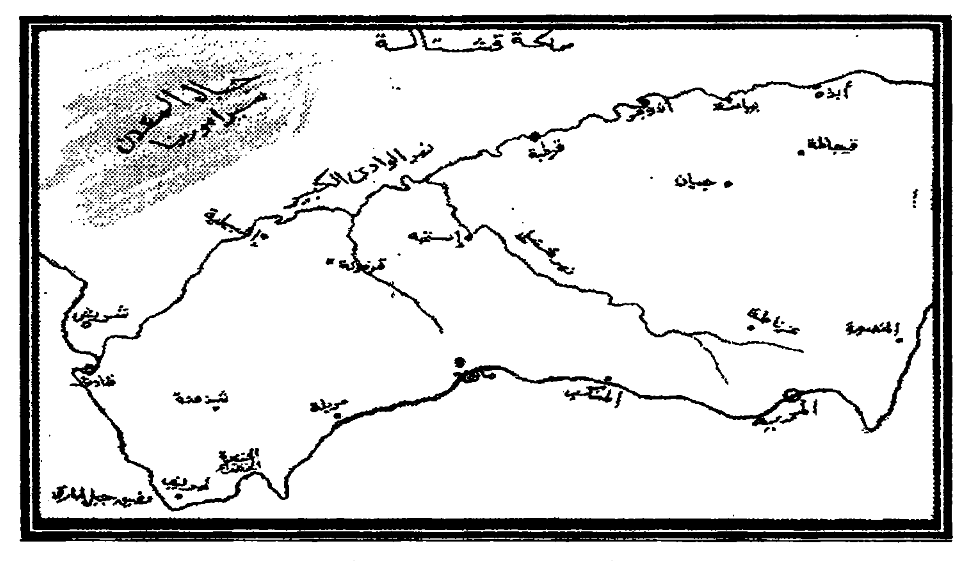
ـــــ بناء مدينة البنية بجوار الجزيرة الخضراء كقاعدة عسكرية، وعين عليها حاكما من ذويه لتكون مقرا للقيادة العسكرية ومعسكرا للجنود، بعيدا عن سكان الجزيرة الخضراء الذين من الواضح استياؤهم من وجود أعداد كبيرة من الجنود في مدينتهم [١٥٩].

ـــــ كان للعامل الاقتصادي دوره البارز في هذه المعركة، سواء من خلال تعمده الإضعاف الاقتصادي، وإتباعه سياسة السلب والنهب، وتخريب المدن وحصارها اقتصاديا والحصول على كم هائل من المغانم والأسلاب والسبي، ووضع أمناء للمحافظة عليها، ومن ناحية أخرى أشار بعض المؤرخين إلى أن الهدف من المعركة، أو الدافع للسلطان المريني في محاربة القشتاليين، وهو الاستيلاء على مضيق جبل طارق، وتأمين التجارة مع القارة الأوروبية[١٦٠]، ولايعد ذلك نوعا من المبالغة، لأن الأحداث التالية واستيلاء القشتاليين على مضيق جبل طارق، يؤكد أن معركة إستجة هي بداية ظهور أهمية هذا المضيق، وجعله محورا للصراع بين جميع الأطراف.

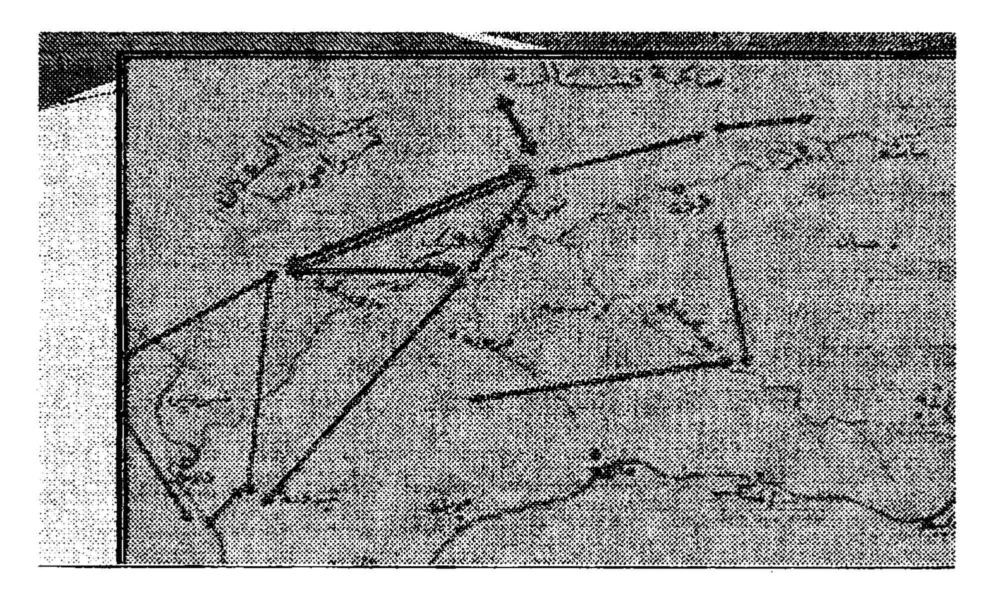
ـــــ أشار بعض المؤرخين إلى أن المرينيين لم يكن هدفهم من العبور إلى الأندلس الاستيلاء عليها أو ضمها إلى أملاكهم، كما فعل المرابطون والموحدون من قبل، ولكن كان هدفهم الجهاد لإضفاء نوع من الشرعية على حكمهم، خاصة وأنهم وصلوا إلى الحكم بالقوة والغلبة، بالإضافة إلى الاستفادة المادية من هذه الحروب من المغانم التي زادت في ثروة الدولة وقوة الجيش، وتوجيه طاقات القبائل، التي كانت تتجه إلى الإفساد وقطع الطرق، إلى الجهاد دفاعا عن الإسلام، وبالرغم من ذلك لم يحققوا النتائج التي استطاع المرابطون والموحدون تحقيقها، بسبب انشغالهم مع منافسيهم بني عبد الواد من ناحية، أو ربما لأنهم أرادوا تهديد النصارى ليبتعدوا عن المغرب فقط، ولذلك لم يستردوا أيا من المدن الأندلسية، ولم يغيروا في الحدود القشتالية الغرناطية[١٦١].

ـــــ ومن النتائج التي ترتبت على هذه المعركة أيضا: وفاة فرديناندو ابن حاكم قشتالة ألفونسو العاشر الحكيم، وولي عهده، وتعيين ابنه سانشو مكانه، ولكن أبناء فرديناندو لم

يرضوا بهذا الوضع، ومن هنا قامت مشكلات سياسية داخل مملكة قشتالة بين سانشو وأبناء فرديناندو (١٦٢).



الأندلس في عهد محمد الفقيه ابن الأحمر



معركة إستجة

الحواشـــي

(1) إستجة تنطق بالكسر ثم السكون وكسر التاء فوقها ونقطتان وجيم وهاء، وتنطق أحيانا إستجه بفتح الهمزة وتشديد السين، أو إسجة بكسر الهمزة والسين، ومن الواضح أن نطقها العربي توافق مع الإسم الروماني القديم للمدينة Astigi، في أن النطق الإسباني الحالي يتوافق مع نطق العامة في العصر الإسلامي، وأصبح كلا الإسمين متداولا في أخريات العصر الإسلامي للتأثير المتبادل بين اللغتين القشتالية والعربية. ابن هشام اللخمي : المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان، تحقيق خوسيه بيريث لاتارو، مدريد، سنة١٩٩٠م، ج٢، ص٢٤٨.؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج١، دار صادر ـــ بيروت، سنة١٩٧٧م، ص١٧٤.؛ إبراهيم عبد المنعم سلامة : التاريخ السياسي لمدينة إستجة حتى نهاية الدولة الأموية، مجلة المؤرخ العربي، ع٨، مج١، سنة٢٠٠٠م، ص ٣٩٧.

(2) تشير المصادر إلي أنها تقع بين القبلة والمغرب من قرطبة، وذكر الإدريسي أن المسافة بينها وبين قرطبة ٣٥ميلا. الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،ج٢، مكتبة الثقافة الدينية، سنة١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٥٧٢ وذكر الحموي أنها على بعد عشرة فراسخ من قرطبة. الحموي : معجم البلدان، ج١، ص١٧٤.؛ وذكر الحميري أنها على بعد مرحلة من قرطبة. الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: إحسان عباس، ط٢، سنة١٩٨٥م، ص٥٣. وأشار المقري أن بينها وبين قرطبة ٣٦ميلا. وأنها من أعمال قرطبة وبينها وبين إشبيلية ٨٠كم. المقري : نفح الطيب، ج١، ت: يوسف البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، سنة١٩٨٦م، ص١٥٨، ١٩٢.

(3) حسين مؤنس : الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس، ط٢ سنة ١٩٨٦م، ص٢٨٨، ٢٨٩.

(4) محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجي ـــ القاهرة، سنة ١٩٧٧م ، ص٧٦ ـــ ٧٨.

(5) باسيليو بانون مالدونادو : العمارة في الأندلس، عمارة المدن والحصون، ت : علي إبراهيم المنوفي، محمد حمزه الحداد، مج١، المجلس الأعلى للثقافة، سنة ٢٠٠٥م، ص٦١٧

(6) يصنف الإدريسي هذه المدينة على أنها تابعة لإقليم الكنبانية la campaina ويضم هذا الإقليم قرطبة والزهراء وإستجة وبيانة وقبرة والليسانة.الإدريسي : نزهة المشتاق ، ج٢، ص٥٧٢. عن هذه المدينة : ابن الشباط : وصف الاندلس قطعة من كتاب صلة السمط سمة المرط لابن الشباط،المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، مج ١٤، سنة١٩٦٧،١٩٦٨م، ص١١٥،١١٣،٨٥، ٢٧٨.

(7) إبراهيم عبد المنعم سلامة : التاريخ السياسي لمدينة إستجة، ص٣٩٦، ٣٩٩، ٤٣٣.؛ شكيب أرسلان : الحلل السندسية في ذكر الأخبارالأندلسية، ج١، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، سنة ١٤١٧هـ،/١٩٩٧م، ص٥٠، ١٣٨.

(8) محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية، ص ٧٩.

(9) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة، ت: محمد عبد الله عنان، ج٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ص٩٨.

(10) أسعد حومد : محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٨م، ص١٢٤ ـ١٢٦.

(11) ابن خلدون: تاريخه، ج٧، ت: سهيل زكار، خليل شحاته، دار الفكر، بيروت، سنة١٩٨١م، ص٢٥٢.

(12) ورد عند ابن رضوان المالقي ت سنة ٧٨٣هـ (يجب على العاقل أن يكون متأهبا للحرب حال سلمه ، خائفا من العدو في حال صلحه، فإن العدو الذي يصالحك لأمر يضطر إليه لا يخرج بالصلح عن طبعه) فكأن الغالب بالله فطن إلى هذا الأمر قبل نصائح ابن رضوان بأكثر من قرن، ابن رضوان : الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ت: علي سامي نشار، دار الثقافة، الدرا البيضاء، المغرب، ط١، سنة ١٩٨٤م، ص٤٠٣.

(13) محمود النشار : علاقة مملكة قشتالة وأراغون بسلطنة المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط١، سنة ١٩٧٩م، ص٦٢ ـ ٦٧

. ؛Martin : le peninsula en la Edad , Barchelona, 1978 ,p. 424 .؛ Martin : Historia de Espana , v111,Baracelona p.113

(14) بني أشقيلولة قبائل زناتية اختلفت مع بني مرين في المغرب، فأرسلوا عددا منهم إلى الأندلس برسم الجهاد سنة٦٦٠هـ/١٢٦٢م، وساعدوا بني الأحمر في تأسيس دولتهم وقاموا بمهمتهم العسكرية على الوجه الأمثل وصاهروا الغالب بالله، فأعطاهم حكم مالقه ووادي آش، ولكن بعد وفاته اختلفوا مع ابنه محمد الفقيه لمنازعته في الملك. ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ج٢، القسم الأندلسي، ت: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط٢، بيروت ـ لبنان، سنة١٩٥٦م، ص٢٨٩، ٢٩٠.؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية، تصحيح : محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، سنة١٣٤٧هـ، ص٤٤.؛ ابن خلدون : تاريخه، ج٧، ص٢٦٠.؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص٤٣٠.؛ يشير د/ حسين مؤنس إلى معركة حدثت بين ابن الأحمر وبني أشقيلولة استعان فيها بالقائد القشتالي فيليب دي نونيو دي لارا الذي كان مختلفا مع الفونسو. معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط٣، دار الرشاد، سنة ١٩٩٩م، ص٤٤٥.

(15) Menendez Pidal : Historia De Espana, El reinio Nazari De Granada, V111, p.94,95

(16) الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي مؤسس الدولة الحفصية في إفريقيا تولى الحكم سنة٦٢٧هـ وتوفي سنة ٦٤٧هـ فكانت مدة حكمه عشرين عاما. الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ت: محمد ناضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط٢، سنة ١٩٦٦م، ص٢٤ ـ ٣١.؛ ابن خلدون : تاريخه، ج٧، ص٢٥٢.

(17) ابن الخطيب : الإحاطة، ج١، ص٩٥، ٩٧.

(18) دولة بني مرين تأسست على يد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق (المنصور) في منطقة المغرب الأقصى وأسس لنفسه عاصمة تعرف بفاس الجديدة وكان له دور كبير في محاربة الإسبان في الأندلس حيث عبر إليها أربع مرات. مؤلف مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ت: سهيل زكار، عبد القادر زمامه، دار الرشاد الحديثة ـ الدار البيضاء، ط١، سنة ١٩٧٩م، ص ٧١.؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٤٢.؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، روض القرطاس في أخبارملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة ـــــ الرباط ـــ سنة ١٩٧٢م، ص٢٧٨، ٢٧٩.؛ ابن أبي زرع : الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية، الرباط، سنة ١٩٧٢م، ص١٦١.؛ ابن الخطيب : الإحاطة، ج١، ص٥٥٠.

(19) Menedez Pidal : Historia ,p.94

(20) كانت سجلماسة تحت حكم يغمراسن بن زيان سلطان دولة بني عبد الواد حتى استولى عليها بني مرين. الذخيرة، ص١٤٠

(21) المدن الحدودية عند بحر الزقاق المقابلة لجنوب الأندلس وهي محط صراع دائم بين المغرب والأندلس. الإدريسي : نزهة المشتاق، ج ٢، ص٥٢٧ ـ٥٣٤.؛ ابن الوزان: وصف إفريقيا، الرباط، سنة١٩٨٠م، طنجة من ص٣١٥،٣١٤،مليلة ص٣٤٤، عن سبتة من ص٣١٧ ـ ٣٢٠.

(22) Miguel Angel Manzano Rodriguez : la intervencion De los Beni merino En la peninsula Iberia , Consejo superior de Invistacion cientificas, Madarid , 1992 ,p.13.

(23) Miguel Angel : la Interrvencion de Bani merine , p.11

(24) وكانت قد تعرضت هذه المدينة للهجوم من قبل القشتاليين الذين استولوا عليها مدة٢٤يوما حتى استطاع أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق استعادتها.ابن خلدون، ج ٧، ص ٢٣٥.؛ ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، ت : محمد إبراهيم الكتاني ــــــ محمد بن تاويت ـــ محمد زنبير ـــ عبد القادر زمامة، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي ـــ بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ص٤١٨ ـــ ٤٢٠.؛ ابن أبي زرع : الأنيس، ص٣٠١.؛ الذخيرة، ص٩٣.؛ السلاوي : الاستقصا، ج٣، ص٢١.؛ حمدي عبد المنعم حسنين : مدينة سلا في عصرها الإسلامي، التاريخ السياسي والحضاري، مؤسسة شباب الجامعة، سنة ١٩٩٣م، ص٥٢ ـ ٥٧ يشير إلى وجود وثائق بابوية تؤكد أن الاستيلاء على شمال إفريقيا حرب صليبية. اعتبر بعض المؤرخين أن حملات قشتاله على شمال إفريقيا حرب صليبية رغم عدم دقة ذلك. جوناثان رايلي سميث، الحروب الصليبية والمؤرخون، من كتاب تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ت: قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، سنة ٢٠٠٨م، ص٣٠.؛ محمود النشار : علاقة مملكة قشتالة بالمماليك، ص٦٩.؛ Martin : Historia de Espana , p.40., Martin : la peninsula , p.427.

(25) محمد عيسى الحريري : تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، دار القلم، الكويت، ط٢، سنة ١٩٧٨م، ص٤٠، ٤١.

(26) جزيرة طريف على البحر الشامي وغربها يطل على المحيط الأطلنطي وبينها وبين الجزيرة الخضراء ١٨ميلا ويواجهها في المغرب قصر مصمودة ونسبت إلى طريف البربري والي موسى بن نصير. الإدريسي : نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٢٧، ٥٣٩.؛ شكيب أرسلان : الحلل، ج١، ص١٣٥

(27) رنده معقل حصين بالأندلس من أعمال تاكرنا ، يفصل بينها وبين مالقه منطقة وعرة وهي حصن لمنطقة غرب الأندلس في عصر بني الأحمر وبسقوطها سنة ٨٩٠هـ سقطت مالقة سنة ٨٩٢هـ. الحموي : مج٣، ص٧٣.؛ الحميري، ص٢١٩.؛ محمد عبدالله عنان : الآثار الأندلسية، ص٢٧١.

(28) من المدن المطلة على بحر الزقاق والمواجهة لمدينة سبته في المغرب وفتحت سنة ٩٠هـ على يد موسى بن نصير، ويشير الإدريسي إلى أن الجزيرة الخضراء وجزيرة طريف تابعتان لإقليم البحيرة ص٥٢٧، ٥٣٦،٥٣٩.؛ الحموي:المعجم، مج٢، ص١٣٦.؛ الحميري : الروض المعطار، ص٥٥٦.

(29) ابن خلدون : تاريخه، ج٧، ص٢٥٤.؛ المقري : نفح الطيب، ج١، ص٤٣٠.

(30) من المدن الهامة في جنوب الأندلس تطل على المحيط الأطلنطي، ذكر الإدريسي أنها تابعة لأقليم البحيرة، سقطت في أيدي القشتاليين سنة٦٥٨هـ. الإدريسي، ص٥٣٦.؛ سحر عبد العزيز سالم: مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري للأندس، مؤسسة شباب الجامعة، سنة١٩٩٠م، ص١٢٠

(31) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص٣١٣، ٣١٤.؛ ابن خلدون : تاريخه، ج٧، ص٢٥٣ . Menendez pidal : p. 94 ؛ إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ، ج٢، من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٨م، ص٢٣.؛ الحريري : المرجع السابق، ص٤٣.؛ أشار احد الباحثين إلى أن حملة أبى زيان منديل وصلت إلى قرطبة وآبذة وبياسة، ويبدو أنه قصد حملة أخيه يوسف. نضال مؤيد مال الله الأعوجي : الدولة المرينية في عهد يوسف بن يعقوب المريني ـ دراسة سياسية حضارية ـــ كلية التربية ــــ جامعة الموصل، سنة ٢٠٠٤م، ص٢٤.

(32) روض القرطاس، ص٣١٤.؛ ابن خلدون : تاريخه، ج٧، ص٢٥٣.

(33) حكم أبو القاسم العزفي مدينة سبتة تحت حكم الموحدين ثم استقل بها بعد ضعف دولتهم وكان معارضا لسياسة ابن الأحمر لأنه كان محبا للجهاد وقد حارب القوات الإسبانية وصد غاراتها سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م، وهو ينتسب لبيت مشهور بالعلم والدين والرئاسة وقد ورث أبنائه من بعده حكم المدينة. ابن عذاري : البيان المغرب، ص٣٩٧.؛ روض القرطاس : ص٣١٣، ٣١٤.؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٧، ص٢٥٣.؛ السلاوي الناصري: الاستقصا في أخبار المغرب الأقصا، ج٣، الدار البيضاء، سنة١٩٥٥م، ص٣٤.عن الأسرة العزفية أنظر هاشم العلوي القاسمي : سبتة استراتيجية الموقع وظاهرة الإمارة العزفية، من ص٤٣ ـــ٥١، جامعة سيدي محمد بن عبدالله،

فاس، أعمال الندوة الدولية ـــ سبتة في التاريخ المغربي، سنة ٢٠٠٨م، مؤتمرات كلية الأداب ـ سايس بفاس.

(34) روض القرطاس، ص٣١٣.

(35) نفس المصدر، ص٣١٤.؛ الحريري : بنو مرين، ص٤٣، ٤٤.؛
Menedez Pidal : Historia , p.395

(36) ابن أبي زرع : الذخيرة السنية، ص ١٤٥.

(37) ابن الخطيب : الإحاطة، ج١، ص٥٦٥.؛ روض القرطاس، ص١٤٥ يشير إلى أنه أصلح بينهما.؛ ابن خلدون : تاريخه، ج٧، ص٢٥٣.؛ السلاوي : الاستقصا، ج٣، ص٤٠.

(38) Menedez Pidal : Historia , p. 95

(39) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس، ص٩٩.؛ فرانشيسكو بيدال : الأندلس والمغرب من ق ١١ ـــــ ق١٥م، . من كتاب روائع أندلسية إسلامية، ت: صبري التهامي، المجلس الأعلى للثقافة، سنة ٢٠٠٤ م، ص٢٠٦.

(40) محمد فهمي إمبابي : التاريخ السياسي لمدينة الجزيرة الخضراء الأندلسية منذ سقوط الدولة العامرية، حتى استيلاء القشتاليين عليها، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة طنطا، سنة ١٩٩٧م، ص٢٢٤. أشار إلى أن السلطان المريني لم يعتمد عليهم بعد هذا المجلس ثم أشار في ص٣٢٥ إلى اشتراك بني أشقيلولة في المعركة.

(41) نفس المصدر، ص٤٣٠

(42) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص٣١٩.؛ الذخيرة : ص١٥١.

(43) نفس المصدر، ص٣١٥.؛ الذخيرة السنية، ص١٤٥.

(44) Menendez pidal : Historia , p. 92
أحمد الطوخي : مظاهر الحضارة في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة ١٩٩٧م، ص٣٢

(45) Nacional las Armas en la Historia(Siglo x –x1v) issn Gladuis, Vol.espiecial ,Actas del Simposio I.1988,p.197-217.
محمد عنان :الآثار الأندلسية، ص١٨٩، ١٩٠.؛ يوسف فرحات:غرناطة في عصر بني الأحمر، دار الجيل، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٣م، ص٧٣.؛ نجد ابن رضوان الذي كتب كتابه بعد وفاة محمد الفقيه بحوالي قرن من الزمن يذكر أن (العاقل يجب أن يكون متأهبا للحرب في حال سلمه، خائفا من العدو في حال صلحه فإن العدو الذي يصالحك لأمر يضطر إليه لايخرج بالصلح عن طبعه). الشهب اللامعة ، ص٤٠٣.

(46) نشأت المشيخة من القبائل الزناتية التي نشبت بينهم وبين بني عبدالحق عداوة، بدأت مشيخة الغزاة تدخل إلى الأندلس سنة٦٧٠هـ لمساعدة الأندلس في الجهاد وعرفت بالقوة والخبرة العسكرية، كان قدومهم إلى الأندلس كوسيلة لإبعاد بني أشقيلولة. المقري : نفح الطيب، ج١،

ص٤٣٤.؛ يوسف فرحات : المرجع السابق، ص٧١.؛ هلال فؤاد : خطة مشيخة الغزاة، رسالة ماجستير، الجامعة الجزائرية، سنة ٢٠٠٨/٢٠٠٩م، ص٥٦،٥٥.

(47) الذخيرة، ص١٤٧.

(48) من الحصون التابعة لقرطبة.الإدريسي : ص٥٧

(49) بياسة بينها وبين جيان عشرون ميلا، وهي مطلة على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة، وقعت تحت حكم القشتاليين سنة ٦٢٣هـ. الحموي، مج١، ص٥١٨.؛ الحميري : الروض المعطار، ص١٢١. ؛ محمد عنان : الآثار الاندلسية، ص٢٢٨ ـــ ٢٣٠

(50) تأسست على يد عبد الرحمن الثاني، وهي مدينة قريبة من بياسة على بعد سبعة أميال منها وتقع على مقربة من النهر الكبير، تشكل جزءا من كورة جيان. الحميري : روض المعطار، ص٦.؛ ليوبولد توريس : المدن الإسبانية الإسلامية، ت : إليو دورو دي لابنيا، مراجعة : نادية محمد كمال الدين، عبد الله إبراهيم العمير، ط١، سنة ٢٠٠٣م، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ص٩١.؛ محمد عنان : المرجع السابق والصفحة.

(51) الذخيرة، ص١٤٨.

(52) الأنيس المطرب، ص٣١٥.؛ الذخيرة السنية، ص١٤٧.؛ ابن خلدون : تاريخه، ج ٧، ص٢٥٥.؛ السلاوي : الاستقصا، ج٢، ص٣٠

(53) chronicle of Alfonso x Translated by Shelby Thacher , Jose Escobar, University Press of Ferman Sanchez de Valladolid , p. 25

(54) Miguel Aviles , Santos Madrazo,Emilio Maître : Isabel Redondo :Historia de Espana nuves , los Reinios Cristianos en La Alta Edad Media, Madrid , 1973 , p. 306.

(55) الذخيرة السنية، ص١٤٨.

(56) chronicle of Alfonso, p. 202 .

(57) الذخيرة، ص ١٤٨.؛ روض القرطاس، ص٣١٦.

(58) الذخيرة، ص١٤٩ .

(59) روض القرطاس، ص٣١٦.

(60) ابن خلدون، ص٢٥٥.

(61) Chronicle of Alfonso, p. 203.

(62) روض القرطاس، ص٣١٨.؛ الذخيرة، ص١٥٠.

(63) ابن خلدون : تاريخه، ج٧، ص٢٥٧.

(64) المقري : نفح الطيب، ج٦، ص١٦٦.؛ السلاوي : الاستقصا، ج٣، ص٤١.أشار إلى أنهم عدة آلاف.

(65) الذخيرة : ص١٥٠.

(66) المقري : نفسه، ص٣١٨.؛ السلاوي : نفسه، ص٣٠

(67) محمد إمبابي : الجزيرة الخضراء، ص٣٢٥.
(68) الذخيرة، ص١٥٢، ١٥٣.
(69) الأنيس المطرب ، ص٣١٨.؛ ابن خلدون : ص٢٥٦.
(70) الذخيرة، ص١٥١.؛ ابن خلدون، ص٢٥٦ يشير إلى أن عدد الأسرى بلغ سبعة آلاف أسير .
(71) نفس المصدر والصفحة.
(72) شريش Jerez إحدى مدن كورة شذونه قريبة من البحر من جهة الغرب، عند مصب نهر الوادي الكبير على المحيط الأطلنطي، واعتبرها الإدريسي ضمن كورة البحيرة، وبينها وبين إشبيلية مرحلتان كبيرتان، وهي قريبة من قادس، وكانت قد سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٦٣هـ في عصر ألفونسو العالم.الإدريسي : ص ٥٧٢،٥٧٣.؛ الروض المعطار، ص٣٤٠.
(73) الذخيرة، ص ١٥٨.
(74) Miguel Aviles: los Reinos cristianos ,p. 306.
(75) إبراهيم حركات : المغرب عبر العصور، ج٢، ص٢٣.
(76) Menendez Pidal , p. 95 .
(77) Buniyya أشار ابن خلدون إلى بناءها سنة ٦٧٤هـ . ص٢٥٦.؛ السلاوي : الاستقصا، ج٣، ص٤٣.؛ بينما يشير البعض إلى بناءها سنة٦٧٨ هـ؛ الحريري : المغرب والأندلس في عهد بني مرين، ص٤٥.؛ يؤكد ألفونسو العاشر في مدونته أن هذه المدينة تأسست سنة٦٧٨هـ بينما يرى البعض أنها تأسست سنة٦٨١هـ وهذه المدينة عرفت بالجزيرة الجديدة. ليوبولدو توريس بلباس : المدن الإسبانية، ص١٠٣ ــ ١٠٥.؛ محمد إمبابي : الجزيرة الخضراء، ص٢٢٩.
(78) عامر أحمد : بنو مرين، ص٢٢٢.؛ فتحي زغروت : الجيوش الإسلامية في عصر المرابطين والموحدين، دار النشر والتوزيع الإسلامية، ط١، القاهرة، سنة ٢٠٠٥م، ص٢٣٩.
(79) عامر عبدالله : بنومرين، ص٢٢١.
(80) ابن فضل الله العمري: مسالك الإبصارفي ممالك الأمصار، ت: محمد عبد القادر خريسات، عصام مصطفى هزايمه، يوسف أحمد بن ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات،سنة٢٠٠١م، ص١٠٨.
(81) روض القرطاس، ص ٣١٥.؛ الذخيرة، ص١٤٦.
(82) محمد جمال الدين محفوظ : موقع المعلم المصري على الانترنت بتاريخ ١٢/٢ / ٢ ٢٠١ م.
(83) فتحي زغروت : الجيوش الإسلامية، ص٢٣٩، ٢٤٧.
(84) رغم إشارة المصادر إلى وجود الغنائم أمام الجيش. الذخيرة، ص١٤٧، ١٤٨.؛ ابن خلدون : ص٢٥٥ ؛ إلا أن أحد الباحثين يشير إلى وجودها في الخطوط الخلفية. عامر عبد الله حسن : بنومرين وسياستهم الخارجية، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، ص١٧١.
(85) روض القرطاس : ص ٣١٦.؛ الذخيرة، ص١٥٠.

(86) الذخيرة : ص١٤٨.؛ أشار الطرطوشي إلى المقولة القديمة وتبعه ابن رضوان أن (للكثرة الرعب وللقلة النصر) سراج الملوك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ، ص١٥٥.؛ الشهب، ص٣٩٩.

(87) Chronicle of Alfonso : p. 202.

(88) op.cit

القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٥، ت: نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص٢٦

(89) Menendiz pidal, p. 95 .؛chronicle of Alfonso,p.202 ,.Historia de Espana, p. 306

(90) الذخيرة، ص١٥٨

(91) القلقشندي : صبح الأعشى، ج١١، ت : محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية،سنة ١٩٨٧م، ص١١.

(92) العمري : ص١٠٩.

(93) ابن الخطيب : اللمحة البدرية، ص ٢٧.

(94) رابح عبد الله المغراوي : الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة في عهد بني الأحمر، حوليات كلية الآداب والعلوم الإجتماعية، جامعة محمد الأول، مجلس النشر العلمي، الكويت، الحولية العشرون، سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٠٠.؛ يحيى صلاح : العلاقات بين غرناطة وفاس، ص٥٤.

(95) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص١٩٢.

(96) ابن الخطيب : اللمحة البدرية، ص٢٨

(97) رابح المغراوي : المرجع السابق والصفحة.

(98) هم قبائل تركية تعيش في وسط آسيا من الصين إلى البحر الأسود واشتهروا كرماة وفرسان بالقوس والنشاب، دخلوا إلى المغرب والأندلس في عصر الخليفة أبو يوسف يعقوب الموحدي وتوسع المرينيون في استخدامهم في الجيش لتميزهم بسرعة الحركة. أمين توفيق الطيبي : الأغزاز وقدومهم إلى بلاد المغرب والأندلس، ص٨٧، ٩٢، ٩٨، ضمن كتاب دراسات في بحوث تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، ج٢، د.ت.

(99) أشار ابن رضوان في كتابه أنه يستحب للسلطان أن يكون جنده أجناسا متفرقة وقبائل شتى بحيث لا يتهيأ منهم الاتفاق على رأي واحد في الخلاف. الشهب اللامعة، ص٣٧٩.

(100) عامر عبدالله : بنو مرين وسياستهم الخارجية، ص٢١٨

(101) ابن فضل الله العمري : مسالك، ص١٠٩.

(102) الذخيرة، ص١٤٩.

(103) نفسه، ص١٠٢.

(104) العمري : مسالك الأبصار، ص١٣٢.؛ يحيى صلاح الدين أحمد : العلاقات السياسية والثقافية بين فاس وغرناطة في الفترة من (سنة ٦١٤ ـــ ٨٦٢هـ/ ١٢١٧ـــ ١٤٥٨م)، رسالة الماجستير ـــ جامعة جنوب الوادي، سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٠م ، ص٦١.

(105) الطوخي : مظاهر الحضارة، ص٢٢٠.؛

Cristobal Torres del Gdo : El ejercito y las fortificaciones del Renio Nazari De Granada,Actas del Simposio nacional las arames en Historia (Siglo x –x1v) , p. 5.

(106) نفس المصدر، ج١، ص٦،٥

(107) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب في أوروبا، ط سنة ١٣٥٢م، ص٢١٧.

(108) أحمد مختار العبادي : صور من حياة الحرب والجهاد، منشأة المعارف، ط١، سنة ٢٠٠٠م، ص٢٣٧.

(109) Cristobal Torres : El ejercicto , p. 6.

(110) ابن فضل الله العمري : مسالك الإبصار، ص١٣١.؛ العبادي : صور من حياة الحرب، ص٧٠.

(111) لم تعرف الجيوش الإسبانية إلا عنصر المشاة في معظمهم وراثة عن الجيوش الرومانية والإغريقية، ولم يدخل نظام الفرسان في جيوشهم إلا في القرن السابع الميلادي. واشنطن إيرفنج : ترجمة يحي نصري : أخبار سقوط غرناطة، لندن، ط١ سنة ٢٠٠٠م، ص٥٣.

(112) جوزيف نسيم : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، دار المعرفة الجامعية، سنة ١٩٨٨م، ص١٤٥.

(113) الطوخي : مظاهر الحضارة، ص٢٢٧.

(114) عامر عبدالله : بنو مرين وسياستهم الخارجية، ص٢٢٣.

(115) أحمد الطوخي : مظاهر الحضارة في عصر بني الأحمر، ص٢٢٧.

(116) Claudio Sanchez Aldomoz : La Espana Muslmana, Segon los Autares, Tom 1 ,Madrid, Esposa- clape S.A, 1974 , p. 456.

(117) سعد بن عبد الله البشري : جماعات الفرسان الدينية الإسبانية وحروبها مع المسلمين في الأندلس، مجلة جامعة أم القرى، ع٧، السنة الخامسة، سنة ١٤١٣هـ، ص ١٨٧، ٢٠٥.

(118) Chronicle of Afonso : p. 213 .

(119) هذه الجماعة صدر بها مرسوم سنة ١١٦٤م، وجماعة سانتايجو تأسست سنة ١١٧٥م، وجماعة القنطرة تأسست سنة ١١٧٧م. محمود سعيد عمران : الجماعات العسكرية الدينية في البرتغال في العصور الوسطى، بحث ألقي في ندوة أ.د. سعد زغلول عبد الحميد، المؤرخ الإنسان سيرة ومسيرة ـــ ملامح من التاريخ الإسلامي فكره وعطائه، إبريل سنة ٢٠٠٨م.

(120) كان ظهور هذه الجماعات في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر، وهي طريقة دينية امتزجت بالقتال وتشبه الرباط عند المسلمين إلى حد كبير، وهي تتألف من الأخوة العلمانيين بصفة أساسية وتضم قساوسة بين أعضائها، ويتم تجميعهم في رتبتي الفرسان والمشاة. بالاضافة

إلى تقديم بعض هذه الجماعات خدمات للجيش برعاية الجرحى والمصابين. Chronicle.p. 213 انتوني لوتريل : النظم الرهبانية العسكرية، سنة ١٣١٢م ـــــ ١٧٩٨م، ص ٢٦٩.؛ آلان فوري : النظم الرهبانية العسكرية الأصول والتأسيس، ص٧، ٨، ٢١، بحثين ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، تحرير : جونثان رايلي سميث، ترجمة : قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، سنة ٢٠٠٨م.

(121) محمد عبد الله عنان : نهاية العرب المنتصرين ـ العصر الرابع ـ مكتبة الخانجي، سنة ١٩٨٧م، ص٥٧.

(122) ابن خلدون : تاريخه، ج٧، ص٢٥٥.

(123) **Clauidio Sanchez , p. 457**

(124) **Sanchez : p . 458**

(125) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص١٩٧.

(126) يوسف فرحات : غرناطة في عصر بني الأحمر، ص٧٨.

(127) ابن الخطيب : اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية، ص٢٨.

(128) الطرطوشي : سراج الملوك، ص١٥٥.؛ فتحي زغروت : الجيوش الإسلامية، ص١٣٢،١٣٣.

(129) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا في العصور الوسطى، ج٢، ص٢٧٩،٢٨٠.

(130) المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢١٠.

(131) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٢، ص١٤٨.؛ المقري : نفح الطيب، ج١، ص٢١٠،٢١١.؛ الطوخي : مظاهر الحضارة، ص٢٣٧، ٢٣٨.

(132) القلقشندي، المصدر السابق، ص١٤٨ ـــــ ١٥٤.؛ الذخيرة، ص١٤٩.

(133) ابن أبي زرع : ص٣١٢.؛ السلاوي، ص٣٦ يشير إلى أن استخدام البارود كان موجودا ومستخدما عند فتح سجلماسة أما ابن الوزان فيشير إلى أنه في سنة ٦٧٤هـ تم بناء مدينة فاس الجديدة وكان فيها جزء من رماة النبال من الأغزاز حيث لم تنتشر بعد قاذفات البارود. ابن الوزان : وصف إفريقيا ، ج١، من ص٨ ـ ٢١٩.؛ بينما يشير البعض إلى أن الموحدين استخدموا البارود سنة١١١٨م. فتحي زغروت : الجيوش الإسلامية، ص١٧٠.

(134) ابن الخطيب : اللمحة البدرية، ص٢٧.

(135) فتحي زغروت : الجيوش الإسلامية، ص١٦٦.

(136) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب في أوروبا، ص٢١٧.

(137) ألفارو سولر دي كامبو : الأسلحة المحمولة والنارية في ق.١٤م، ت: إسحاق عبيد، ندوة ابن خلدون، سنة٢٠٠٦م، ص١٤٢.

(138) الذخيرة، ص١٤٩.؛ العمري، ص١٣١.

(139) فتحي زغروت :الجيوش الإسلامية، ص١٣٨.

(140) أحمد مختار العبادي : صور من حياة الحرب والجهاد، ص٢٣٧.؛ ميخائيل روتليدج : الأغاني، ص١٧٧، ضمن بحوث تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ت: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، سنة٢٠٠٨م.

(141) الطوخي، مظاهر الحضارة، ص٢٣٤.

(142) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس، ت: أحمد مختار العبادي، مطبعة جامعة الإسكندرية ، سنة ١٩٥٨م، ص ٩.؛ شكيب أرسلان : المرجع السابق، ص٢١٦.

(143) ابن الخطيب : نفس المصدر والصفحة.؛ اللمحة البدرية، ص ٢٧،٢٨.؛ المقري : نفح الطيب، ج١، ص٢١٠.؛ أحمد مختار العبادي : صور من حياة الحرب والجهاد، ص٢٠٤.

(144) الذخيرة السنية، ص١٤٩.

(145) نفسه، ص١٤٦.

(146) الطوخي : مظاهر الحضارة، ص٢١٣.

(147) نفس المصدر، ص١٤٧

(148) أحمد مختار العبادي : صور من حياة الحرب والجهاد، ص٢٣٧.

(149) الذخيرة، ص١٤٧.

(150) فرانشيسكو بيدال كاسترو : الأندلس والمغرب في العصر الوسيط، ص١٨٣.

(151) ابن أبي زرع، ص٣١٩.؛ الذخيرة، ص ١٥١.

(152) **Middle East : p. 135.**

(153) **Miguel Angel Manzano Rodrigues :la Intervacion , p. 13.**
www.eltareekhh.com

عن العلاقات بين غرناطة وأراغون. انظر إلى وثائق قصر التاج ببرشلونة. موقع على النت بتاريخ ٣/١١ /٢٠١٢م.

(154) **Menendez Pidal : p. 94.**

نكر ابن رضوان في كتابه (إذا كثر أعداؤك فصالح بعضهم واطمع بعضهم في صلحك واستقبل بعضهم بحربك). الشهب، ص٤٠٣ .

(155) ابن خلدون، ص٢٦٥.

(156) القلقشندي :صبح الأعشى، ج٥، ت : نبيل خالد الخطيب، ص٢١١، ٢١٢.

(157) **Migue Angel : la Interrvencion ,p. 15l.**

(158) محمد جمال الدين محفوظ : مدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، موقع المعلم المصري، موقع على النت، بتاريخ ٢٥ /٢٠١٢/١٠م

(159) ابن خلدون : ج٧، ص٢٥٦.؛ عامر أحمد عبد الله : بنو مرين، ص٢٣٣.

(160) **SalahEazah alzahrani: Revisionesy nueveos datos sobre batalla le vega de Garanada atraves de las Fuentes sarabes**

فرانشيسكو بيدال : الأندلس والمغرب، ص٢٠٥ .

(161) هلال فؤاد : مشيخة الغزاة، ص٥٤

(162) MiguelAngel: La Interrvencion p. 27 .





في التاريخ العسكري للدولتين السعوديتين الأولي والثانية

د. عبد الله صالح العثيمين (*)

مقدمـــة:

شهد منتصف القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي بداية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وبدأ تطبيق ما دعا إليه في بلدة العُيَيْنَة، التي كان أميرها عثمان بن مُعمَّر، والتي كانت مسقط رأس ومكان نشأته، ومع أن المنضمين إلى دعوته، في تلك الفترة، كانوا أقل من المعارضين لها؛ إلا أنه كان لديهم من عزيمة الإيمان ما جعلهم واثقين بالنصر. ولما فشل العلماء المَحليون المعارضون لدعوته؛ استنجدوا بالعلماء من خارج نجد، لكن الجميع فشلوا، فلجأوا إلى زعيم بني خالد، الذي كان له من النفوذ على ابن مُعمَّر ما أهّله للضغط عليه؛ ليتخلى عن مساعدة الشيخ محمد أو يَتخلَّص منه، واضطر عثمان إلى الرضوخ لمطلب الزعيم الخالدي، فطلب من الشيخ مغادرة العُيَيْنَة. فاختار الشيخ الانتقال إلى الدِّرعية، التي كان أميرها حينذاك محمد بن سعود، وكان كثير من وجهائها - وفي مقدَّمتهم إخوة الأمير وابنه عبد العزيز - قد تَحمَّسوا للدعوة. ونتج عن المقابلة التي تمَّت بين الشيخ والأمير، سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، أن تبايعا على نصرة التوحيد، وبذلك بدأت الدولة السعودية الأولى.

ومضى عامان على استقرار الشيخ في الدِّرعية، وهو يبذل كل ما يستطيع لنشر دعوته بطرق سلمية. وقد نجح في كثير مما كان يهدف إليه؛ إذ انضمَّت إلى الدولة الجديدة عدَّة إمارات نجدية، وهاجر إلى عاصمتها عدد غير قليل ممن كانوا يُؤيِّدونها في الإمارات التي لم تنضمَّ إليها. وكان ذلك النجاح أكبر عامل في انتقال تلك الدولة إلى مرحلة جديدة؛ يُنال فيها بالقوة ما لم يُنَل بالإقناع. ومع أن مواجهتها لخصومها كانت مريرة شاقة، فإنها تمكنت في مستهل القرن الثالث عشر الهجري من توحيد منطقة نجد، وما إن نجحت في ذلك حتى بدأت تكتسح الكيانات السياسية المجاورة لها، التي كانت قد ناصبتها العداء وبدأتها بالحرب. وقبل نهاية العقد الأول من ذلك القرن؛ تمكن قادة آل سعود من إلحاق شرقي الجزيرة العربية بدولتهم، ثم دخلت تحت حكمهم منطقة عسير بفضل زعمائها الذين اقتنعوا بدعوة الشيخ محمد. وكان لهؤلاء الزعماء دور كبير في دخول منطقة جازان ومنطقة الحجاز تحت الحكم السعودي، وقد بلغت الدولة السعودية أوج عظمتها في عهد سعود بن عبد العزيز، الذي شمل حكمه أكثر مناطق جزيرة العرب. بل إنه بسط نوعاً من النفوذ له خارج هذه الجزيرة؛ تمثّل في دفع عدَّة قبائل في كل من العراق والشام الزكاة إليه.

(*) أستاذ بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة الملك سعود - المملكة العربية السعودية.

وكان القادة العثمانيون غير مُهتمين كثيراً بالدولة السعودية عندما كانت تُوحِّد نجداً. لكن موقفهم تغيَّر بعد أن وَحَّدتها، ووَحَّدت معها شرقي الجزيرة العربية؛ بل وحققت انتصارات عسكرية على أشراف الحجاز؛ أبرزها معركة الجَمَّانية سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥م. ولذلك أرسلوا حملتين عسكريتين ضدها من العراق، لكنهما باءتا بالفشل. ولما دخلت الحجاز تحت الحكم السعودي؛ ازداد تصميم العثمانيين على حرب آل سعود، وعهدوا بذلك إلى والي مصر محمد علي باشا. وكانت نتيجة الحرب؛ بين قوات ذلك الوالي والسعوديين، أن اضطر الإمام عبد الله بن سعود إلى الاستسلام لإبراهيم باشا سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م. وبذلك انتهت الدولة السعودية الأولى.

ولقد قامت محاولات لإعادة توحيد البلاد، وتَكللت بنجاح تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود في إخراج بَقيَّة قوات محمد علي باشا من نجد عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م. وبهذا بدأت الدولة السعودية الثانية، التي توحَّدت في ظلها تلك المنطقة، ثم منطقة الأحساء والقطيف، كما دخلت أجزاء من جهات البلاد العمانية. على أن هذه الدولة نُكبت بالانقسام الداخلي بعد وفاة الإمام فيصل بن تركي، فنتج عن ذلك استيلاء العثمانيين على شرقي البلاد، ثم تَمكن الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد من إنهاء تلك الدولة عام ١٣٠٩هـ/١٨٩٣م.

مظاهر الهجوم والدفاع:

لقد كان وسط الجزيرة العربية، قبل قيام الدولة السعودية الأولى، يشهد صراعاً مريراً، سواء كان ذلك الصراع مَحلياً، أو نتيجة هجمات يَشنها أشراف الحجاز أو زعماء بني خالد على بعض بلدان نجد أو قبائل باديتها.

والمُتأمِّل في المصادر، التي تناولت تاريخ تلك الفترة، يجد أنها تُعبِّر عن قيام غزو أولئك الأشراف بعبارات مختلفة. فَمَرَّة تقول: "سار الشريف إلى نجد". ومَرَّة تقول: "ظهر الشريف على نجد". وحيناً تقول: "خرج على نجد"، وحيناً تقول: "طلع على نجد". وكل هذه التعبيرات صحيحة من الناحية اللغوية؛ وبخاصة إذا رُوعي أن السير قد ابتدأ من مكة؛ وهي مدينة تهامية بعرف الجغرافيين العرب، إلى هضبة نجد المرتفعة عن تلك المدينة.

ومما يجده المُتأمِّل في تلك المصادر، أيضاً، أن من بين الإجراءات التي كان يقوم بها أولئك الأشراف المهاجمون، ربط زعيم القبيلة المُهاجَمَة ما أمكنهم ذلك حتى يدفع لإطلاق سراحه ما يرضيهم، وأنهم كانوا يأخذون من القبيلة التي يرون أنها قد ارتكبت جرماً ضريبة تقول عنها المصادر حيناً "أخذوا عليهم العقال"، وتقول عنها حيناً آخر: "عاقبوها بما هو معتاد من أخذ الشّعثاء والنّعامة؛ وهي خيار أوائل الإبل وخيار تواليها"[1].

أما الإجراءات التي كان الأشراف يتخذونها ضد البلدان النّجدية فكانت مُتعدِّدة: منها قتل عدد من رجالها، وهدم قصر إمارتها، ونهب أموال أهلها، وفرض ضرائب سنوية عليهم. ومنها ما تعبِّر المصادر عن هوله بقولها: "فعل فيها – أي في البلدة المُهاجَمَة – ما فعل من القبح والفساد"[2]. أو "وفعل بهم – أي بأهل البلدة – من القبح ما لا يعلمه إلا الله"[3].

ومما يلفت نظر المُتأمِّل في المصادر المذكورة؛ أن جيوش الأشراف كانت، أحياناً، كثيرة العَدَد قويَّة العُدَد، كما حدث، سنة ٩٨٦هـ/١٥٧٨م، عندما حاصر أحد الأشراف قرية معكال – التي هي جزء من بلدة الرياض الحالية – بجيش قال عنه العصامي: إنه مكوَّن من نحو خمسين ألفاً[4]، وكما حدث بعد ذلك بثلاث سنوات عندما هاجم بلدان البديع والخرج والسلميَّة بجيش كثيف ومدافع كبار[5] .

وللمرء أن يتصور أن هناك مبالغة غير قليلة في خبر العصامي عن عدد جيش الشريف المذكور. لكن لو فُرِض أن نصف ذلك العدد، أو ثلثه، كان صحيحا، لكان كبيراً جداً في ظروف مثل تلك الظروف، ولأوحي بأن المقاومة النجدية المُهاجَمَة كانت قوية، بحيث احتاج التغلب عليها إلى مثل ذلك العدد وتلك القوة.

ولقد أشار ابن بشر إلى وجود مدافع مع أحد زعماء بني خالد؛ في غزوة من غزواته ضد نجد[6]. على أن غزوات الزعماء الخالديين، ضد البلدان النجدية، كانت أقل من غزوات أشراف الحجاز على أيِّ حال.

وكان من أكبر عوامل حدوث الصراع بين بلدة نجدية وأخرى، التنافس على السلطة. وكثيراً ما كانت الغزوات بينها ذات طابع هجومي مباغت عَبَّرت عنه المصادر في كثير من الأحيان، بالسَّطْو، وكان هذا السَّطْو يحدث، عادة، من فئةٍ لها علاقة بحكم البلدة، كأن يكون حكمها قد انتُزِع منها سابقاً. ومن الإجراءات التي كان يَتخذها المهاجمون المَحليون: وضع كمين في مكان مُعيَّن يباغت الخصوم المُستدرَجين في وقت مناسب. ومنها ما هو ذو طابع اقتصادي يراد به إنهاك الخصم اقتصادياً حتى يضطر إلى الرضوخ والاستسلام؛ مثل إحراق محصولات المزاع، أو إتلافها، وقطع النخيل، ونهب الأغنام التي تخرج من البلدة نهاراً للرعي.

ذلك ما كان من بعض مظاهر الهجوم في تلك الفترة، فماذا عن بعض مظاهر الدفاع؟

كانت أهمَّ وسائل الدفاع لأبناء البادية ظهور خيولهم، وما يَتسلحون به من سيوف ورماح، وكان استعمال البنادق لديهم قليلاً جداً.

أما أبناء الحاضرة فكانت الأسوار من أهمّ وسائل دفاعهم إضافة إلى وسائل أخرى كالبنادق. ومما هو جدير بالذكر أن بناء الأسوار لم يقتصر على إحاطة مساكن البلدة بل إن بعض المزارع كانت تحيط بها أسوار مستقلة. وربما وُجِد سوران للبلدة الواحدة: أحدهما يحيط بمساكنها، والآخر يحيط بالمزارع المحيطة بتلك المساكن. ومع أن بناء الأسوار ليس بالأمر الهَيِّن؛ إلا أن مما كان يساعد في التغلب على مشكلته ذلك التعاون الموجود بين أبناء البلدة؛ سواء كانت الأسوار عامة لبلدتهم، أو خاصة بمزرعةٍ واحد منهم.

وكانت مواد بناء الأسوار، بأبراجها، مواد مَحلية مكوَّنة من الطين والحجارة وخشب الأثل وجريد النخل وسعفه. وكان بناؤها يَتمُّ بطريقتين:

أولاهما وضع أسس من الحجارة يُبنى فوقها جدارٌ من اللَّبِن، ثم يُكسَى هذا الجدار بطين مخلوط بالتبن، أو هَدَب الأثل لحمايته من الأمطار. وثانيهما بناؤها بالعروق، وذلك بأن يُخلَط الطين خلطاً جيداً بالتبن، ثم يُبنَى الجدار عِرقاً عِرقاً بحيث يكون ارتفاع كل واحدٍ منها نحو ذراع. وبناء الأسوار بهذه الطريقة يُستغنَى به عن الأسس الحجرية واللَّبِن واللياسة. وكان

لابد من وجود أبراج في الأسوار لمراقبة طلائع المهاجمين، والدفاع عن البلدة من خلال فتحات فيها.

وإذا كان ما سبق ذكره هو الوضع القائم قبل الدولة السعودية الأولى، هجوماً ودفاعاً فماذا عن هذين الأمرين بعد قيام تلك الدولة؟

لقد كان الصراع الدائر في وسط الجزيرة العربية، قبل الحكم السعودي، ذا طابع سياسي واقتصادي. أما الحكم السعودي القائم على أساس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد طرح أمراً آخر؛ وهو العامل الديني. وهذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن العاملين السياسي والاقتصادي لم يكن لهما أثر، أو أن كل من التحق بالجيش السعودي كان دافعه دافعاً دينياً.

في بدء القتال، بين أتباع الدولة السعودية وخصومهم، اتبع المقاتلون من الطرفين الأساليب نفسها التي كانت مُتبعة في المنطقة، هجوماً ودفاعاً. كانت هناك محاولات لمباغتة الخصم، وكان هناك كمينٌ يُوضَع ليخرج في الوقت المناسب. وكان هناك تَخريبٌ للمحصولات، ونَهبٌ للحيوانات، واستيلاءٌ على القوافل التجارية من كلا الجانبين.

وكان اهتمام قادة الدولة السعودية الأولى مُركزاً، في بداية دولتهم، على حاضرة نجد. فقد كان عماد جيشهم من الحاضرة، وكانت أكثر هجماتهم على الحاضرة أيضاً. وكان ذلك الجيش مُكوَّناً من الخيَّالة، وراكبي الإبل، والمشاة. على أن الخيل كانت قليلة في المراحل الأولى من توحيد نجد. ثم أخذ عددها يزداد؛ وبخاصة لدى القادة. وكان من الإجراءات ذات الطابع الهجومي، التي اتخذها القادة السعوديون، بناء قصور حول البلدان التي تطول مقاومتها لهم. وكانت مَهمَّة الذين يُوضَعون في تلك القصور: مضايقة أهل البلدة المقاومة اقتصاديا؛ وذلك بأخذ ما يخرج منها من غنم أو إبل للرعي، ومصادرة ما يَتوجَّه إليها من قوافل تجارية إضافة إلى رصد حركة أهلها العسكرية. وقد أدَّت تلك القصور أهدافها بنجاح كبير.

ولقد جرت عادة القادة السعوديين أن يضعوا غرامة مالية على القبائل والبلدان التي تطول مقاومتها لهم. ومن الأسماء التى سمَّت بها المصادر تلك الغرامة النكال.

أما أهم وسائل الدفاع لدى السعوديين الأوائل فكانت الأسوار. ولعلَّ من المستحسن الحديث بشيء من التفصيل عن أسوار الدَّرعية عاصمة دولتهم الأولى، بصفتها أكبر رمز وأهمَّه.

لقد ذكر ابن بشر أن الزعيم الخالدي عندما هاجم الدَّرعية، عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، نهب فيها بيوتاً. وقد يُفهَم من ذلك أنه لم يكن لها سور حينذاك، أو أن البيوت المنهوبة كانت خارج السور، وأن السور كان محيطاً بحيٍّ الطَّريف، مقر إمارة آل سعود فقط.

على أن المصادر المتوافرة لم تَشر إلى إقامة أسوار أو تحصينات للدّرعية، في الفترة المبُكِّرة التي أعقبت المبايعة بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود. ولعل ذلك عائد إلي أن قادتها كانوا يحاربون أمراء البلدان النجدية القريبة منها، والذين لم يكن لديهم من القوَّة العسكرية ما يوجب إقامة دفاعات جديدة.

ولما بدأت القوى الأكبر حجماً، وغير النجدية، في محاربتها؛ بذل أولئك القادة جهوداً كبيرة لعمل الدفاعات اللازمة.

وكان أوّل تهديد للدّرعية من خارج نجد قد حدث سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م عندما قام الزعيم الخالدي، عُرَيْعِر بن دُجَين، بالزحف على نجد. وما إن علم القادة السعوديون بذلك؛ حتى أمروا أتباعهم في البلدان المختلفة ببناء التحصينات المناسبة لدرء الخطر. أما الدّرعية ذاتها فأُنيط الدفاع عنها بعبد العزيز بن محمد بن سعود، الذي كان يَتولى قيادة الجيوش؛ ابتداء من عام ١١٦٣هـ/١٧٤٩م. ومن الإجراءات التي اتخذها لتحصين تلك البلدة – ما قال عنه ابن غَنَّام:

"وقام عبد العزيز – حرسه الله تعالى – بالجِدّ والاجتهاد، وشَمَّر ساعده في البناء والاستعداد. فبنى على الدّرعية سورين منضودين بالبروج، خشية التّسوُّر والعروج"[7].

وليس من الواضح من العبارة السابقة ما إذا كان المراد بناء سور على المباني السكنية وآخر على المزارع المحيطة بها أو بناء السور المحيط بالبلدة من جدارين متوازيين. غير أن بقايا الأسوار للبلدة تَرجّح أن المعنى الثاني هو المراد؛ إذ تتكوّن هذه البقايا من جدارين بينهما طينٌ وحجارة صغيرة الحجم. ومع أن ما بناه عبد العزيز بن محمد من تحصينات للدّرعية، عام ١١٧٢هـ/١٧٥٩م، لم تُجرَّب قُوّته في ذلك العام، لعدم وصول الزعيم الخالدي إليها، فإن تلك التحصينات ساعدت في الدفاع عنها حينما وصل إليها الزعيم نفسه بعد ست سنوات من ذلك التاريخ. على أنه لم تصل إلى المنطقة أيُّ قوة بعد ذلك؛ إلا تلك التي أتت بقيادة إبراهيم باشا قائد قوات محمد علي حاكم مصر عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م. ومن المُرجَّح جدًّا أن تعديلات قد أدخلت على تلك الأسوار وأبراجها، خلال الفترة الممتدة من سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م، إلى سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م. ومن دواعي تلك التعديلات تَأثُّر المباني بعوامل الطبيعة المعتادة، وتأثرها خاصة بالسيل الجارف الذي دفع سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م؛ إضافة إلى اطلاع قادة الدّرعية على أسوار وأبراج في بلدان غير نجدية دخلت تحت حكمهم، أو تعرَّضت لهجماتهم، وإضافة إلى هجرة بعض المعماريين من تلك البلدان إلى العاصمة السعودية، بعد أن أصبحت قاعدة دولة عظيمة في الجزيرة العربية.

ومن المُرجَّح أن البنائين، الذين شَيَّدوا أسوار الدّرعية وأبراجها عام ١١٧٢هـ/١٧٥٩م، لم يخطر ببالهم أن يعملوا أمكنة في الأبراج تُطلق من خلالها نيران المدافع ضد المهاجمين. ذلك أن الدولة السعودية لم تكن تملك مدافع حينذاك. ولَعل امتلاكها لها لم يحدث قبل عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م؛ وذلك عندما استولت على جنوبي الخرج، ووجدت ما ترك حاكم الأحساء هناك من مدافع. ولما استولى قادة تلك الدولة على الأحساء بعد ذلك باثنى عشر عاماً؛ أصبحت المدافع الموجودة فيها مغنماً لهم. وازداد عدد المدافع لديهم من جَرَّاء ما غنموه من حملة والي العراق المُوجَّهة ضدهم، سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م، وما اشتروه بعد تَوسُّع دولتهم وازدياد ثروتها. وكان لدى سعود بن عبد العزيز – مثلاً – ستون مدفعاً[8]. ولَعلّ هذا العدد زاد عند ابنه عبدالله، الذي أصبح يدافع عن كيان الدولة ووجودها.

والمُتتبِّع لتاريخ قادة الدولة السعودية الأولى يرى أن نشاطهم العسكري كان، في أغلبه، هجومياً، وأنهم لم يستعملوا المدافع – باستثناء مدافع سفن حلفائهم القواسم – في حروب هجومية. على أن حروبهم تَحوّلت إلى حروب دفاعية بعد أن قام محمد علي باشا بمحاربتهم.

ولقد تَحدَّث المؤرخ ابن بشر بتفصيل جيد عن البطولات التي أبداها المدافعون عن الدِّرعية، وعن صمودِهم أكثرِ من ستة شهور أمام قوات تفوقهم عدداً وعُدَّة.

ولَعلِ من اللطيف الإشارة إلى نوع من الأسلحة الهجومية، أشبه ما يكون بالدبَّابة الحديثة، استعمل في عهد الدولة السعودية الأولى. وقد ذكره ابن غنَّام عندما أشار إلى عمليات زعيم بني خالد العسكرية في القصيم سنة ١١٩٦هـ/١٧٨١م؛ إذ قال:

"وقد صنَع منتريساً من الخشب يُسمَّى عجلاً عند أولئك العرب يردُّ الرصاص عَمَّن فيه فلا يَضرُّه ولا يُؤذيه"(9). وفي عام ١٢١٢هـ/١٧٩٧م حاول خصوم الدولة أن يقتحموا قصر أتباعها في وادي الدواسر، وسعوا - كما يقول ابن بشر - "في ذلك بأسباب من الصناعات والزحَّافات، وجعلوا صناديق من خشب فيها شجعان ومفاتيحها بأيديهم، وساروا بها محمولة علي دراريج عَجَلٍ يريدون إذا قربوا من السور يهدمون ولا يخافون؛ في كل صندوق ثلاثون بطلاً. فلما قربوا من الجدار وقفت الزحَّافات دونه، وانكسر واحد منها، وظهر الرجال الذين فيه، وقَتَل منهم أهل القصر تسعة رجال بالبنادق(10).

ومن يقرأ تاريخ الدولة السعودية الأولى؛ يجد أنه لم يَمرَّ عام واحد من بدء حربها لخصومها، سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م، حتى نهاية دفاعها عن كيانها، سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م، إلا وفيه عدَّة غزوات كان بعضها دفاعاً عن أراضيها، لكن أكثرها كان هجوماً لتوسيع رقعتها. ولم يكن لهَا جيش دائم؛ بل كانت قُوَّاتها المحاربة تتكوَّن بطريقة إلزامية، أو بطريقة تطوُّعية، حسب مُتطلبات الحال. فقد كان الحاكم أو نائبه في الغزو يطلب من أمراء المناطق ورؤساء القبائل، أو من بعض هؤلاء وأولئك، عدداً مُعيَّناً من المقاتلين لينضمُّوا إلى الغزو الذي يراد القيام به. وكان على كل من يُطلَب منه ذلك أن يقوم بتنفيذه. وربما انضمَّ إلى العدد المطلوب أناس مُتطوِّعون أقدموا على المشاركة في الغزو تديُّناً أو رغبةً في الحصول على نصيب من الغنائم؛ وبخاصة بعد أن أصبحت أكثر الغزوات السعودية ناجحة. على أنه كان هناك فئات من الجنود الدائمين قليلي العدد؛ مثل الحرس الخاص للحكام في الدِّرعية، وللأمراء في قاعدة كل منطقة من مناطق الدولة. وكان هناك عدد من الجنود الذين يقضون فترات في قلاع، أو حصون؛ مثل أولئك المرابطين في الحصون المبنيَّة قرب بلدان لم يكن من السهل الاستيلاء عليها، أو المناطق التي لم تكن الدولة مطمئنة إلى ولاء سكانها.

وكان على كل منطقةٍ، أو قبيلة، أن تُجهِّز أفراد غزوها بما يلزمهم من عتاد ورواحل وأطعمة تكفيهم المُدَّة المُتوقَّعة للغزو. لكن الدولة كانت تساعد هؤلاء إذا طالت مُدَّة الغزو.

ومن الأساليب الناجحة التي اتبعها السعوديون الأوائل في أعمالهم العسكرية: سرعة الحركة، وسرِّيتها، وتضليل الخصوم؛ إضافة إلى بناء القصور أو القلاع قرب البلدان التي تطول مقاومتها؛ لمضايقتها اقتصادياً وعسكرياً.

ولقد أعطي كلٌّ من: ابن بشر وبوركهارت - تفصيلات عن أحوال تلك الدولة العسكرية يحسن إيرادها. يقول ابن بشرٍ وهو يَتحدَّث عن سعود بن عبد العزيز، الذي بدأ قيادة الجيوش عام ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م، وظل يقودها حتى سنة وفاته ١٢٢٩هـ/١٨١٤م:

"وأما سيرته في مغازيه فكان إذا أراد أن يغزو إلى جهة الشمال أظهر أنه يريد الجنوب أو الغرب. وإذا كان يريد جهة من تلك الجهات ورَّى بغيرها، وأرسل إلى جميع البوادي حواويش رجال يحوشونهم من أقطار الجزيرة للغزو معه، ويُنبّونهم بخطة إليهم، ويواعدهم يوماً معلوماً على ماء معلوم، فلا يتخلف أحد منهم عن ذلك اليوم ولا عن ذلك الموضع، وواعد، أيضاً، جميع المسلمين من أهل البلدان موضعاً معلوماً، فيسارع الجميع إليه قبله. ثم يركب من الدَّرعية إما يوم الخميس وإما يوم الاثنين، فيخرج الناس قبله بيومين أو ثلاثة. وفي كل هذه الأيام والوادي يستاسع ويضيق لا يجد السالك فيه طريقاً من عظم ما يمشي فيه من الخيل الجياد والنجائب العُمانيَّات الثمينة ورحائل الخيام والأمتاع والأزواد. ويُخرج رحائل زهبه وزهابه وآلات ضيف وعليق الخيل قبله بنحو خمسة عشر يوماً. فإذا أراد الخروج من الدَّرعية وقفت له كتائب الخيل في الوادي وعند القصر، والرجال والنساء والأطفال ينتظرون خروجه. ثم يخرج من القصر، ويدخل مسجد الجامع الذي عند قصره، فيصلي فيه، ويُطيل الصلاة. فإذا فرغ من صلاته ركب جواده. فلا يتكلم بكلمة إلا السلام حتى يأتي الموضع الذي يريد نزوله بين الدِّرعية والعُيَيْنَة. ويسير معه في ذلك اليوم أكثر من الضعفاء والمساكين والولدان وأهل الحاجة، فيقضي حاجتهم تلك الليلة ثم يرحل. فإذا سار وجد جميع المسلمين مجتمعين على موعدهم. فيسير بهم الحاضر والبادي؛ ينزل في المنزل قبل غروب الشمس، ويرحل قبل شروقها، ويقيل الهاجرة. ولا يرحل حتى يُصلِّي صلاتي الجمع الظهر والعصر. ويجتمع الناس عنده للدرس بين العشاءين كل يوم إلا قليلاً، وعند كل ناحية من نواحي المسلمين. ورتَّب في كلِّ ناحية إماماً يُصلِّي بعد الإمام الأول، الذي يُصلِّي بالعامة، فيصلِّي الثاني بالمتخلفين عند المتاع والطبَّاخين وغيرهم من الموكلين بإصلاح الأحوال؛ وذلك لئلا يُصلُّوا فرادى. فإذا قرب من العدو بنحو ثلاثة أيام بَث عيون أمامه، ثم عدا. فلا يلبث حتى يبغتهم، وينزل قريباً منهم، فلا يُوقَد عند جموع المسلمين تلك الليلة نار، ولا كأنهم نزلوا بتلك الديار. ثم ينادي المُنادي لجميع المسلمين بعد صلاة المغرب أن احضروا عند سعود، فيجتمعون عنده، ثم يقوم فيهم، ويذكرهم ما أنعم الله به عليهم من الاجتماع على كلمة الإسلام، والعمل بطاعة الله، والصبر في مواطن اللقاء، وما وعدهم من النصر والثواب الجزيل، وما توعَّد به الفارِّين المُدبرين، ويتلو عليهم قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. ويزجرهم عن الغلول، الذي هو سبب الكسر والخذلان، ويتلو عليهم ما توعَّد الله في كتابه من غل، وما ورد عن النبيِّ، صلَّى الله عليه وسلم، في ذلك من الترهيب عنه، ويزجرهم، أيضاً، عن العُجْب بالكثرة والزيادة في النفوس التي هي سبب الفشل والانهزام. ويذكرهم مقالة الرجل في حُنين: "لن نُغلب اليوم عن قلة حتى ولوا مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين. فإذا فرغ انصرفوا إلى مواضعهم ومحاطهم حتى يَتبيَّن أول الصبح. وكان قد أمر بعض الأعراب أن يُبكروا بالصلاة على أوله، ويشنوا الغارة. فإذا صلَّى الصبح ركب بالمسلمين، وضجُّوا بالتكبير، وأغاروا. فتظلم السماء والأرض من إثارة النقع وضجيجهم بالتكبير، فيغيب الذهن في تلك الساعة، ويُوقن المسلمون بالنصر. فَيُوقع الله باسه فيمن قصدته تلك الجموع، فلا يرفع السيف إلا عمَّن لم يبلغ الحلم، أو امرأة،

أو شيخ كبير. ويأخذ جميع الأموال. ثم يرحل عن معارة القوم بجميع تلك المغانم مع البادي والحاضر. وينزل قريباً منم على بعض المياه. فتعزل الأخماس، وتباع الغنائم بدراهم، وتقسم على جميع المسلمين: للراجل سهم، وللفارس سهمان. ثم يرحل إلى وطنه، ويأذن لأهل النواحي يرجعون إلى أوطانهم"[11].

ويقول بوركهارت:

"لم يكن لسعود ولا لأبيه جيش نظاميٌّ، أو جماعة من الجند، باستثناء مئات قليلة من الرجال المختارين. وكان سعود إذا نوي هجوماً أمر شيوخ القبائل وأمراء المناطق أن يكونوا في يوم مُحدَّد في موضع مُعيَّن؛ وغالباً ما كان حول مورد ماء في الصحراء وكان يطلب، أحياناً، من الشيخ أو الأمير عدداً مُعيَّناً من المحاربين، فيقوم الشيخ أو الأمير بإعدادهم بنوعٍ من التجنيد الإلزامي من كل فريق أو قرية تحت نفوذه. فإذا طلب – مثلاً – من أمير القصيم ألف رجل فإن على كل بلدة في تلك المنطقة أن تسهم بإعداد هؤلاء حسب نسبة سكانها. وحينئذ يَحل سكان البلدان، أو رجال الفريق، الأمر وُدِّيًّا بينهم. فينقسم كل من لديهم ركائب إلى قسمين: قِسم يذهب للحرب التي يُراد القيام بها حينذاك، وقسم يذهب للحرب القادمة. ويجب أن يحارب كلُّ من عمره بين الثالثة عشرة والستين؛ سواء كان مُتزوجاً أو غير مُتزوج أو كان أباً لأسرة. وعلى كلِّ من لدية فرس أن يَلتحق بالغُزَاة ما لم يُذكر أن الغزو لا يحتاج إلى خَيَّالة.

وكانت الدعوة العامة للتجنيد تَتمُّ، أحياناً، دون ذكر للعدد المطلوب. وفي هذه الحالة يجب على كلِّ من لدية ذلول أن يحضر. وفي بعض الأحيان يقول سعودٌ:

" لن نَعدَّ من التحق بالغزو، وإنما من تَخلَّف". وعندئذ يشعر كل رجل قادر على حمل السلاح بأن عليه أن يغزو معه. ومن كان فقيراً أمدَّه الغنيُّ براحلة وسلاح، أو جُهِّز من بيت المال[12]. وحين تكون الغزوة إلى جهة بعيدة؛ مثل تلك التي وُجِّهت إلى دمشق سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م، أو ضد عُمَان، يأمر سعود القادة أن يوافوه بالسِّلَّة وحدها؛ وهم النخبة الممتازة من الخَيَّالة وراكبي الإبل. وفي هذه الحالة لا يلتحق بالجيش أكثر من نصف عشرة[13].

وحين يُخطِّط سعود لغزو ما فإنه لا يطلع على هدفه أحداً، ويواعد أمراءه عند موردٍ ماء مُعيَّن يختاره دائماً بطريقة تَخدع العَدوَّ الذي يريد مهاجمته. فإذا نوي أن يكون الغزو باتِّجاه شمال الدِّرعية جمع جيشه عند مورد يبعد مسافة عدَّة أيام جنوبها. ثم ينطلق فعلاً في اتجاه جنوبي، لكنه يعود مُسرعاً، وينقضُّ على العَدوّ الذي يُفَاجأ، عادة، بالهجوم. وهذه الحيلةُ ضرورية جداً لأن الأخبار تنتشر كالبرق في جزيرة العرب. ولو بدت من مكان انطلاقه للهجوم أيُّ إشارة إلى هدف هجومه لكان في إمكان العَدوّ أن يمتلك وَقتاً يُعدُّ خلاله نفسه للمقاومة أو للهروب.

وقد كوَّن سعود من أعظم شجعان قومه وأشهر مغاويرهم حرساً خاصاً يُسمَّى المَنقيَّة، وجعله موجوداً لديه في الدِّرعية باستمرار. وهو وحده الجند الدائم من جيشه[14]. وكان كلما سمع بفارسٍ مشهور دعاه إلى قاعدة حكمه، وضَمَّه إلى خدمته على أن يمدُّه هو وأسرته بمؤونه سَنَويَّة من القمح والتمر والسمن، كما يُمدُّه بفرس أو ذلول طَيِّبة. ويصحب ذلك

الحرس سعوداً دائماً في غزواته. وكان ذكر أفراده مرعباً لكلّ الاعداء لأنهم لم يخسروا أبداً سمعتهم العالية في الشجاعة. وكان سعود يحتفظ بهم قوّة احتياطية في المعركة، ويبعث أعداداً صغيرة منهم لمساعدة جنوده الآخرين. ويصل عددهم إلى ثلاث مئة رجل مُجهّزين ساعة الحرب بكل الأسلحة تقريباً. وخيولهم مكسوّة بلبس؛ أي مادة صوفية مَحشوّة لا تخترقها السيوف والرماح.

وإضافة إلى المنقيّة، أو الحرس الخاص، فإن سعوداً كان يأخذ معه إلى الدّرعية كثيراً من عُقَداء القبائل البدوية أو قادة حروبها. وبأخذه لهؤلاء العُقَداء أضعف قوة تلك القبائل، وقَوّى نفسه. وكثيراً ما أسند إليهم قيادة الغزوات إذا رأى تَحمُّسهم الصادق لقضيته[15] .

وكان لكل أمير، أو رئيس، علَمُه الخاص في الغزو. ولسعود عدة أعلام ذات ألوان مختلفة. وخيامه جميلة جداً مصنوعة في دمشق أو بغداد. لكن خيام قومه هي تلك البيوت السوداء المتداولة بين البدو. وأغلبهم ليست لديهم خيام على الإطلاق. وتحمل مؤن سعود وأثاثه على مئتي بعير. ويأخذ معه كمّية كبيرة من المؤن في غزواته ذات المسافة البعيدة ليتمكن من مساعدة الذين تنتهي مؤنهم الخاصة من جيشه، ولأنه كلما مَرَّ بمنطقة تسكنها حاضرة أو بادية عامل كل ضيوفه بالطريقة التي يعاملهم بها في الدّرعية. وإذا سار الجيش ليلاً أوقدت المشاعل وحُملت أمام الزعيم وكبار القادة. ولا يُسَار ليلاً إلا إذا كانت نقطة الهجوم قد حُدّدت. وعندئذ تقطَع المسافة التي تستغرق، عادة أربعة أيام، أو خمسة، في يومين فقط. ويَتقدَّم الجيش دائماً طليعة من ثلاثين فارساً، أو أربعين، يقال لهم: سبُور. ويسير هؤلاء قبل مسير الجيش بيوم أو يومين. ويَتبع البدو تقليداً مثل ذلك؛ إذ يرسلون طليعة تسير أمامهم بعدَّة ساعات.

وعند الاقتراب من العدو ينقسم الجيش إلى ثلاث فرق أو أربع؛ كُلّ واحدة خلف الأخرى. فالتي تهاجم أوّلاً مكوّنة – من الخيَّالة الذين هم عمادة قوة الجيش، وتساعدهم الفرقة الثانية المكوّنة من راكبي الإبل الذين يَتقدَّمون إذا هُزم الخيَّالة[16] .

على أن سعوداً كان يعطي الأمان بسهولة لأعدائه إذا استسلموا طواعية. وكثيراً ما فعلوا ذلك لأنه لم يُعهَد أنه نقض عهده في أيّ مناسبة. وشهرته في محافظته الدقيقة على العهد من الأمور التي أقرَّ بها ألدُّ أعدائه، ومَجَّدها أصدقاؤه منذ بداية الحرب مع محمد علي باشا بصفتها مناقضة تماماً لغدر الأتراك.

وإذا استسلم العرب المُهدَّدون لسعود قبل أن ينتقم منهم فإنه، عادة، يعطيهم أمان الله بشرط أن يُسلّموا له الحَلَقة؛ وهي الخيل والإبل والدروع والبنادق والسيوف وكل الأواني المعدنية. أما باقي ثروتهم فيحتفظون به. وفي بعض الأحيان يعطي سعود أماناً غير مشروط، فيشمل الأنفس والثروات على حدّ سواء. وقد أصدر أوامر صارمة لكل قادة جيوشه أن يقبلوا كل طلب استسلام من الأعداء، وأن يحافظوا على الأمان الموعود بدقَّة[17] .

ما سبق ذكره ملامح مختصرة عن الأمور العسكرية في الدولة السعودية الأولى، التي هي الركيزة للحكم السعودي. أما الدولة السعودية الثانية، فإن مما هو جدير بالذكر، أنها وجدت تجاوباً ملحوظاً من أهل نجد عند بدايتها، عام ١٤٠٢هـ/١٨٢٤م، على يد تركي بن

عبد الله؛ إذ انضمت إليه البلدان النجدية مختارة، بصفة عامة، خلال سنتين من تلك البداية. ولعلّ من أكبر عوامل هذا التجاوب: مؤهلات الإمام تركي القيادية، وتقدير أكثر سكان المنطقة للأسرة السعودية، وإدراكهم لفوائد الوحدة.

ومن الواضح أن المشكلات التي واجهتها الدولة السعودية الثانية، في الفترة الأولى من حكم الإمام فيصل بن تركي، كانت مشكلات خارجية تمثّلت في الغزو الذي وجّهه ضدها محمد علي باشا. أما في فترة حكمه الثانية؛ فإن المشكلات التي واجهته كانت داخلية. ثم جاءت الطامة الكبرى بالانقسام الأسري الذي حدث بين أبنائه بعد وفاته.

ولعلّ مما يلفت النظر أن العامل السياسي، في الدولة السعودية الثانية، كان في مُقدّمة العوامل للصراع الداخلي والخارجي. أما طبيعة الأعمال العسكرية، وطرق تنفيذها، والأسلحة المستخدمة فيها، فلم تختلف كثيراً بين الدولتين السعوديتين الأولى والثانية .



الهوامش

(1) انظر عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبد الرحمن آل الشيخ، طبعة وزارة المعارف السعودية الثانية، ١٣٩١هـ، ج٢، ص٢١١.

(2) المصدر نفسه، ص٢٠٨.

(3) إبراهيم بن عيسي، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، نشر الشيخ حمد الجاسر، دار اليمامة، ١٣٨٦هـ، ص٧٠.

(4) ابن بشر، (نقلاً عن العصامي) مصدر سبق ذكره، ج٢، ص١٩٥.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) المصدر نفسه ج٢، ص٢٣٣.

(7) ابن غنّام، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص ص ٥٤ – ٥٥.

(8) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص ٢٣١.

(9) ابن غَنَّام، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص١١٦.

(10) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص١٠٢.

(11) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص ص ٢٢٦ – ٢٢٨.

(12) من المعروف – وكما ذكر المؤلف نفسه في موضع آخر – أن بعض أفراد جيش سعود كانوا مشاة؛ أي لم تكن معهم خيل ولا إبل.

(13) تدل عبارة ابن بشر (مصدر سبق ذكره، ج٢، ص١٩٨) على أن جيش سعود في غزوه للشام تلك السنة كان كبيراً جداً؛ إذ "استنفر النواحي من جميع الحاضر والبادي من وادي الدواسر إلى مكة والمدينة، إلى جبل طيء والجوف وما بين ذلك".

(14) المنقيَّة : هي الفرقة المختارة التي يُنتَقي أفرادها.

(15) المتتبِّع للتواريخ المحلِّية يرى أن قادة الغزوات من غير الأسرة السعودية كانوا، في الغالب، من الحاضرة لا من البادية، وأن القادة إذا كانوا من البادية هم رؤساء القبائل الرسميون بصفة عامة.

(16) لم يذكر بوركهارت الفرقة الثالثة من الجيش. ومن الواضح أنها المشاة.

(17) بوركهارت، مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة عبدالله العثيمين،الرياض،١٤٠٥هـ، ص ص٦٥-٧٦.

التاريخ العسكري لمصر في عهد عباس باشا الأول (١٨٤٩-١٨٥٤م)

د. صلاح أحمد هريدي علي (*)

تتناول هذه الدراسة موقف عباس باشا(١٨٤٩-١٨٥٤م) من معاهدة لندن ١٨٤٠م، وفرمان ١٨٤١م، والذي حدد عدد الجيش المصري بثمانية عشر ألف جندي في أوقات السلم، على أن يزداد هذا الجيش في أوقات الحرب، طبقاً لما يراه الباب العالي. والصعاب التي واجهته، سواء من جانب الدولة العثمانية أو من بعض أفراد عائلته في استانبول، وأيضاً في الجيش، سواء في التجنيد أو الخدمة العسكرية وكيف تغلب عليها، ثم ننتقل بعد ذلك لمدة التجنيد، وأعداد الجيش، والفرق العسكرية،وملابسه وأسلحته والتعليم العسكري، والخاتمة حيث نتعرض للتعديلات التي أدخلها سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦١م).

ورث عباس باشا الحكم طبقاً لنصوص فرمان يونيو ١٨٤١م، وما اشتمل عليه من قيود أهمها ما يتعلق بالجيش، وتحديده بثمانية عشر ألف جندي في أوقات السلم، على أن يزداد هذا العدد في أوقات الحرب طبقاً لما يراه الباب العالي، وترسل مصر أربعمائة جندي سنوياً إلى الآستانة على سبيل العون العسكري، مع وجوب مطابقة زي الضباط والجنود ونياشينهم، ورايات السفن، لما هو مستعمل بالدولة العثمانية، على أساس أن الجيش المصري مُعد لخدمة الباب العالي. وحرصت الدولة العثمانية، كل الحرص، على التمسك بهذا القيد، وإن ترك جانب من الحرية في اختيار القماش الذي يناسب جو مصر[١]. ومنح الوالي حق الترقية إلى رتبة أميرلاي (عميد) وأما فوقها من الرتب فمن حق الباب العالي، وحُظر عليه بناء أي سفن حربية من أي نوع، وجعل حق الوراثة مرهون بتنفيذ تلك الشروط[٢].

أما مدة الخدمة العسكرية فحددت بخمس سنوات. وكان عباس يتحايل ويعمل على زيادة عدد الجيش، ووضح ذلك في عام ١٨٤٩م، حيث ازدادت قوة سلاح الطوبجية (المدفعية) من ٤٠٦٧ إلى ١٠٥٠١ جندي، وضباطها من ١٩٦ إلى ٢١٧، وزادت قوة الخيالة (الفرسان) من ٧٦٠٠ إلى ٨٣٦٠ جندياً، وضباطها من ٤٠٠ إلى ٤٤٠، ولم يزد عدد الباش بوزق، وبقي عدد السفن وجندها، في هذه السنة، كما كان في عام ١٨٤٨م، مع زيادة عدد الأطباء إلى ٧ والصيادلة ٦ في القوة البرية وزاد عدد الكتبة ثلاثة.[٣]

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة دمنهور.

وفي عام ١٨٥٠م"، استمر عدد المشاة من الجند على ما هو عليه، وزاد عدد الجند من المدفعية من ١٠٥٠١ إلى ١٠٠٦٧ جندياً، وضباطها من ٢١٧ إلى ١٩٦، ولم يتغير عدد عساكر الباشا بوزق وكذلك عدد السفن والمدافع. ونقص عدد الصيادلة واحداً، وزاد عدد الكتبة سبعة، والقوة البحرية زادت ضابطاً عن العام الماضي(٤).

وفي عام ١٨٥١م زاد عدد عساكر المشاة وبلغ ١٠٦٠٣٩ جندياً بعد أن كان ٧٤٠٣٩، وزاد عدد ضباطهم من ٢٣٨١ إلى ٣٢٧١، ولم يزد عدد عساكر الفرسان، ونقص عدد عساكر المدفعية من ١٠٠٦٧ إلى ٩٦٣٣، ونقص عدد ضباطهم من ١٩٦ إلى ١٧٥، وبقيت عساكر الباش بوزق كما كانت، كذلك ظل عدد العساكر البحرية والسفن والمدافع كما كان في السنة الماضية، وزاد عدد الكتبة خمسة(٥).

وفي عام ١٨٥٢م، ازدادت العساكر المشاة من ١٠٦٠٣٩ إلى ١١٠٠٣٩، وضباطهم من ٣٢٧١ إلى ٣٢٨١، وبقيت عساكر الفرسان على ما هى عليه ونقص عدد عساكر المدفعية من ٩٦٣٣ إلى ٩١٩٩، وضباطهم من ١٧٢ إلى ١٥٤، ولم يتغير عدد الباش بوزق ولا العساكر البحرية، ولا السفن البحرية وما بها من مدافع. وزاد عدد أركان الحرب إلى اثنين والأطباء ١٧ والصيادلة ٤ ونقص عدد الكتاب ٥(٦).

أما عدد الجيوش البرية والبحرية في عام ١٨٥٣م، إلى أخر حكم عباس باشا الأول وأول حكم محمد سعيد باشا، كان كما يأتي(٧):

	عساكر	ضباط
المشاة	١١٠٠٣٩	٤٣٨١
الخيالة (الفرسان)	٨٣٦٠	٤٤٠
المدفعية	٨٧٦٥	١٣٣
الأركان حرب		٦٥
	١٢٧١٦٤	٥٠١٩
باش بوزق	٥٣٧٧	
طبيب		١٠٠
صيدلي		٨٠
كاتب		٩٣

أما أعداد هذه الجيوش في عصر محمد علي فكانت كما يأتي:

ضباط	عساكر	
٥٦٤١	١٧٤٠٣٩	نحو المشاة
٢٩٤	٣٨٨٠٨	الفرسان
٣٢٤	٤٧٣٦	المدفعية
٧١		الأركان حرب
٦٣٣٠	٢١٧٥٨٣	

وكان يتبع هذه القوة النظامية من العساكر غير النظامية (باش بوزق) وكان عدد هذا النوع من العساكر في عام ١٨٣٢م، ٤٧٣٧٧، ويتبع القوة البرية ١٧٣ طبيبا، ١٠٦ صيادلة، ١٥ كتبة خلاف الممرضين.

أما عدد القوة البحرية في عام ١٨٥٣ م فكانت على النحو التالي:

ضباط	عساكر بحارة
١٠٤	٣٤٥٠

وعدد المراكب الحربية ٤، وبها من المدافع ١٣، و١٦ مركب طرادة[٨]، ومراكب نقل ١٤، وأطباء ١٨، والصيادلة ١٨، والكتبة ١٨، وكانت القوة البحرية ٢٠٣ ضابط، ١٤٨٤٠ جندياً بحرياً ويتبع هذه القوة ١٨ طبيباً، ٦٨ صيدلياً خلاف الممرضين و ٦٨ كاتباً وجملتها ١٥١٩٧، ويشمل الأسطول البحري على ٦٨ سفينة مسلحة بمقدار ٩٥٠ مدفعاً، وأربعة مراكب طرادة، ١٤٤ نقالة، وجملة القوتين البرية والبحرية ٢٥١٩١٨، وهذا عدا نحو ٥٠٠٠٠ يتدربون على التدريبات العسكرية والمناورات الحربية كل يوم، من عمال دور الصناعات والفابريقات.

وينقسم هذا الجيش إلى قوتين: إحداهما للدفاع عن القطر المصري، والثانية متحركة للفتوحات وهذه الأخيرة لضم الحجاز والسودان وتنظيمه، وكريت وموره، وألوية الشام بأجمعها.

	ضباط	جند	كتبة	طبيب	صيدلي
القوة البرية	٦٣٢٠	٢١٧٥٨٣	١٥٢	١٧٣	١٠٦
الباش بوزق بروسائهم	–	٤٥٣٨٧	–	–	–
القوة البحرية	٢٠٣	١٤٨٤٠	٦٨	١٨	٦٨
رجال دور الصناعات	–	٥٠٠٠٠	–	–	–
	٦٥٢٣	٣٢٧٨١٠	٢٢٠	١٩١	١٧٤

وهذا عدا القائمين بالأعمال بديوان الجهادية

وكان مرتب ناظر البحرية عشرة آلاف قرش شهرياً(٩)، والقائمقام ستة آلاف، والأغا ألفان، واليوزباشي الأول واليوزباش الثاني تسعمائة، والملازم الأول سبعمائة وخمسين، والملازمين الثواني خمسمائة، والصولات مئتان والباشجاويش مائة وعشرة، والجاويشية سبعين، وأمناء البلوك سبعين والأونباش خمسين، والنفر ثلاثين، والبورجية النفر بخمسة وثلاثين، وأنفار الموسيقية خمسة وثلاثين قرشاً وتضاف علاوة مقدارها خمسة قروش شهرية لضباط ولأنفار المدفعية والمهندسين، ورجال الكباري على مرتباتهم الأصلية(١٠).

أما الصعاب التي واجهت عباس فهي كثيرة، بعضها يخص الدولة العثمانية، وبعضها يخص المؤامرات التي كان يدبرها أعداؤه ضده في الأستانة، والبعض الأخر يخص الجيش نفسه من حيث التجنيد وغير ذلك.

اما فيما يخص الدولة العثمانية: فكما سبق القول تمسك الدولة بنصوص فرمان ١٨٤١م، والذي حتم على والي مصر قبول جميع المعاهدات والاتفاقيات التي يعقدها السلطان مع الدول الأوروبية، وتنفيذ القوانين والتنظيمات السائدة في الدولة العثمانية وممتلكاتها، وإرغام الوالي على قبول التنظيمات الخيرية العثمانية وتطبيقها في مصر. فقبول هذا الطلب معناه تخلي مصر عن مركزها المحتاز الذي كفلته لها الفرمانات، واعتبارها مجرد ولاية عثمانية تتبع الدولة العثمانية في أنظمتها وقوانينها، ولكن والي مصر لم يرضخ لطلب الباب العالي الذي كانت تؤيده فرنسا، ورأى بعد تجربة محمد علي الفاشلة في الاعتماد على تأييد فرنسا، في صراعه مع السلطان، أن مصلحته تحتم عليه الانضمام إلى جانب إنجلترا. ورحبت بهذه الخطوة، وكانت على استعداد لتأييد عباس للاحتفاظ بكامل حقوقه وامتيازاته، في مقابل تدعيم نفوذها في مصر على حساب النفوذ الفرنسي. وبفضل تأييدها له، تمكن عباس من الخروج من هذا الصراع محتفظاً بحقوقه من الناحية النظرية، بينما باتاحته لإنجلترا فرصة التدخل في شئون مصر؛ قد قضى من الناحية الفعلية على سلطانه، ومهد السبيل للمزيد من التدخل، مما سيكون له أوخم العواقب. وفي الوقت نفسه كان أقارب عباس بالآستانة يوقعون بينه وبين الباب العالي لإبعاده عن الحكم، وشغلت تلك المشاكل عباس(١١).

فكان عباس إذا يعيش في خوف دائم من السلطان، ومن أعدائه، فلا عجب إذا ما احتفظ بقوة حربية كبيرة تبلغ ٨٠٠٠٠ جندي نظامي، و ٢٠٠٠٠ من الجنود الباشبوزق أي أن قوته الحربية بلغت، في وقت معين، ما يقرب من المائة ألف جندي، وهذا العدد يخالف بطبيعة الحال ما هو منصوص عليه في فرمان يونيو ١٨٤١م(١٢).

ودفعه خوفه إلى تحصين الاستحكامات والطوابى والقلاع في الإسكندرية، وطبق ما رسمه رئيس هيئة الاستحكامات (جليس بك) فأقام معظم حصونها، وأضاف إليها بعض حصون رأي أهميتها، فأدخلها في النقط المهمة، ومن ذلك: قلعة مقابر اليهود، وقلعة أبي قير وانشأ فيها مخبزاً وطواحين تدار بالهواء ومستشفى لمرضى العساكر المقيمن بها، وما جاورها من القلاع، وقلعة العجمي، مع إنشاء مبان ملحقة بتلك القلاع، فأنشأ في قلعة مقابر اليهود

جبخانة[١٣] كبيرة تسع تسعة آلاف قنطار[١٤] من البارود[١٥].

وتم إنشاء ثكنات بقلعة أم كتيبة وطابية محرم بك[١٦]. وأنشأ في عام ١٨٥٣م ثمانية أبراج وستة وعشرين متراساً بين أدكو وبوغاز رشيد، وتكلفت ثلاثة آلاف وسبعمائة وسبع وتسعين كيسة وثلاثمائة وسبعين قرشاً[١٧]. وأنشأ جبخانة جديدة بحبل الجيوشي، لإنتاج ثلاثين ألف قنطار بارود، مع حمايتها ضد المخاطر[١٨] وأهتم بالثكنة الخاصة بالاي الخيالة الموجودة بباب الحديد، في عام ١٨٥٠م، واعتمد لها ثمانية وثلاثين ألف وخمسمائة وأربعة وعشرين قرشاً وست عشر بارة[١٩]، وأنشأ إشارات حربية جديدة بين الإسكندرية ودمياط عام ١٨٥٣م[٢٠].

أما بالنسبة للمشاكل الخاصة بالعساكر المجندين، فقد واجهته مشكلة عام ١٨٤٩ وهي إهمال العساكر في تأدية خدماتهم وإهمال وظائفهم، وإقبالهم على الزواج، فأصدر أمراً بمنع زواجهم، ولكن كان هذا الأمر قد حرم الممتازين في تأدية واجباتهم وأجيز لهم الزواج، وذلك لتهذيب الأخلاق الحسنة[٢١].

والمشكلة الثانية ظهرت في العام نفسه أيضاً، وهي عن: تجنيد الحرفيين والتجار، والمهتمين بتعليم المهن والفنون الجميلة، ووجد من الأفضل إخلاء هؤلاء من العسكرية وإرجاعهم لأعمالهم[٢٢].

أما ملابسهم فيعطي الجنود، كل أربعة أشهر، كسوتين للصيف ومثلهما للشتاء، لأن كسوة واحدة لا يستطيع الجندي الاهتمام بنظافتها، ويراعى أن تكون كسوة الشتاء من الجوخ السميك، على أن تكونا محكمتين على الجسم في المناطق الباردة زمن الحرب. أما ملابس الصيف فيراعى أن تكون بطبيعة الحال، خفيفة وواسعة وفاتحة اللون في السلم والحرب، لسرعة الحركة والمشي، ومن الطبيعي وجود ملابس خاصة للنوم تعطي للعساكر حيث ينبغي لأوبناشي الأوضة أن لا يسمح للأفراد بالنوم ليلاً بطرابيشهم التي يرتدونها نهاراً، بل يأمرهم بارتداء طرابيشهم المعدة للنوم. ولم تكن ملابس الجنود تختلف عن ملابس الضباط سوى في نوع الجوخ، وما يزين الأخيرة من تطريز، ثم أحدث اختلاف في اللون بملابس الضباط، عندما أصبحوا يلبسون على نفقتهم الخاصة. وكانت ملابس الفرسان ورجال المدفعية ورجال الحرس، كانت عبارة عن سترة خفيفة "صديرية" زرقاء اللون شتاءاً، على الرغم من أن هذا حدث فعلاً، فما لبث أن صدر أمر بعدم صبغ الجنود الملابس بهذا اللون، لأنه عرضة للتغيير بمرور الزمن، فصاروا يرتدون "صدرية" حمراء مع أحذية تركية حمراء، كسائر رجال الجيش [٢٣].

أما ملابس الآيات الفرسان الخمسة؛ فإنه بدل البنطلون لأفراد هذه القوة بالسروال والحزام. إذ أن التمنطق بالحزام فوق البنطلون شيء غير لائق، أما القمصان فهي نفس القمصان الخاصة بعساكر الفرسان النظامية[٢٤].

وفيما يلي جدول يوضح ما يتم إعطاؤه للنفر من ملابس ومفروشات[٢٥].

	المرتب من ملابس ومفروشات لدرجة نفر من عساكر البرية والبحرية
	مركوب كوندره بميعاد سنة واحدة، أن كل ستة شهور مركوب من البرية البيادة والبحرية، أما السواري والطوبجية، السواري العربجية، الكوندرة، الواحد بميعاد سبعة شهور.
	حزام طويل بميعاد ثلاثين شهراً للسوارى والطبجية السواري والعربجية.
	لباس في السنة الواحدة كل أربعة شهور.
	قميص شرحه
	بنطلون في السنة الواحدة
	بنطلون من جوخ تخين "سميك"
	سترة في السنة الواحدة.
	١ من جوخ تخين، وسترة البحرية تكون قصيرة أي زكيته ٢ من بفته.
	صديري بفتة بميعاد سنة واحدة كل ستة أشهر صديري
	طربوش بميعاد سنة كل ستة شهور
	زر حرير بميعاد سنة
	حمالة بنطلون بميعاد سنة
	حزام بفتة بميعاد سنة واحدة، وكل حزام ذراعان ونصف عرض أربعة أذرع بطول.
	كبود من الموجود آلاف، بميعاد ثمانية أشهر.
	سجادة صوف من عينة الموجود بالمخزن، بميعاد سنتين بحيث يعمل معدل عن سجادة واحدة لزوم نفر واحد ويجري تشغيل اللازم كما المعدل لكل نفر سجادة بعد خلاص صرف الموجود آلاف.

هذا بالنسبة لملابسهم، أما أسلحتهم فهي عبارة عن بندقية فرنسية ذات شظف(٢٦).

أما بالنسبة للمدارس الخاصة بالتعليم العسكري، فقد ألغيت مدرسة السواري عام ١٨٤٨م، التي افتتحت في عام ١٨٣٠، ومكتب البيادة (المشاة) الذي افتتح عام ١٨٣٩م(٢٧).

أما مدرسة أركان حرب، والتي أنشئت في عام ١٨٢٥م، وقام بتأسيسها الضابط الفرنسي بلانا Planat، فيعين خريجو هذه المدرسة، بعد اتمام دراستهم، في الوحدات الهندسية في الجيش أو المدفعية أو في المناجم أو في الإدارة الحربية أو المدنية(٢٨).

وقد أدت هذه المدرسة خدمات جليلة، وجنى إبراهيم ثمار تعليمها أثناء حرب المورة وفي حملات الشام، ولم تقم لهذه المدرسة قائمة في عهدي عباس وسعيد(٢٩).

وألغيت مدرسة الفرسان عام ١٨٤٩م، وأصبحت قسيماً من أقسام مدرسة المفروزة[٣٠] وأمر عباس بإنشاء قسم خاص للمحاسبة عام ١٨٤٩م بمدرسة الألسن، ولم يدم هذا القسم طويلاً، بل ألغي بعد عامين في أغسطس ١٨٥١م[٣١]. وأبقى على مدرسة الطوبجية (المدفعية) بعد ولايته، وألحقها بديوان الجهادية في فبراير ١٨٤٩م. وكان عدد تلاميذها ١٨٦ تلميذاً وميزانيتها ٥٧٠،٦٤٠ ثم أمر بإلغائها، وأمر بإنشاء مدرسة المفروزة، وفضل من كان من أبناء المماليك واولاد الترك للالتحاق بها. أما بالنسبة لمدرسة الطب البيطري، فأصدر عباس قرارا بعقد امتحان للأطباء البيطرين، فمن حاز منهم قبولاً ألحق بفرق الجيش، ومن لم يحز فصل من الخدمة[٣٢]. وكان ينوي إلغاء المدارس الحربية جميعاً. فأمر بنقلها من القاهرة تواطئة لإلغائها، فنقلت إلى اصطبل منوف، مع ستة عشر طالباً وثلاثة مدرسين، ثم ألغاها بعد ذلك بشهرين، ولم تظهر مرة أخرى في عهد سعيد[٣٣].

أما الجيش في عهد سعيد، فقد ألغى فرقة الجراكسة التي كان قد جندها عباس، وقصر التجنيد على المصريين والأتراك، ورغم ذلك فقد احتفظ بأقليات الشراكسة الذين كانوا في الفرق الأخرى. كما حاول رفع مستوى الجيش من الناحيتين المادية والمعنوية، فاهتم بغذاء الجندي ومسكنه وملابسه وصحته وسلاحه، وأقام المستشفيات العسكرية، وجعل معظم وقته بين جنده، لا يتحرك خارج القاهرة إلا في ركابه قوة من الجيش، وهو في أغلب أوقاته بين أقاليم القطر[٣٤].

لقد أدخل عليه تعديلات أساسية فجعل الخدمة العسكرية إجبارية مدتها سنة واحدة. وضيق من نظام الإعفاء، كما أمر بتجنيد المسيحيين وأبناء العمد الأقباط وأقاربهم، كما جند أبناء العمد المسلمين لتتم المساواة.

وأمر بقبول مقطوعي الإبهام والسبابة إذا كانوا صالحين للتجنيد، ومن تكون اعينهم اليمنى سليمة، وعلى أحد أعينهم نقطة صغيرة، على أن يجري تحقيق في سبب قطع السبابة والإبهام. بحيث إذا كان قد قطع حديثاً، عوقب من تسبب في إحداث هذه العاهة. كما أنشأ دفاتر عامة للمواليد في أنحاء القطر، ولهذا أصبح التجنيد يعمل بانتظام، واظهر الشدة والصرامة في معاملة المخالفين[٣٥].

ولم يكن عدد الجيش في عهد سعيد ثابتاً، ويلاحظ أن سعيد كان يطلب دائماً موافقة السلطان كما فعل عندما أرسل يطلب زيادة العدد إلى ٣٠ ألف، وبرر ذلك بأن ١٨ ألف لا تفي بحاجة الدفاع عن مصر، نظراً لكبر مساحتها وامتداد شواطئها، وأهمية الدفاع عن مناطقها وما تتطلبه إدارة الحكومة المحلية والمحافظة على داخلية البلاد. كما أن الحالة الدولية لم تكن قد استقرت، خاصة بعد حرب القرم. ووافق السلطان على جعل الجيش المصري ٣٠ ألف، ولما كان سعيد قد سرّح معظم الجنود الذين جمعهم عباس، وتخلص من الضباط الذين عينهم عباس، فقد كون جيشاً جديداً من الفتيان، تقودهم ضباط قام باختيارهم بنفسه وصرف بسخاء على تسليحهم، وتوفير الغذاء والكساء الجيد، وفي سبيل ذلك أمر سعيد في أوائل ١٨٥٧م

بتجنيد الفتيان (الصبيان) من القاهرة والإسكندرية والأقاليم، إلا أن رئيس البوليس استخدم الخشونة في تنفيذ الأوامر، مما سبب تذمر الأهالي. ولقد علل القنصل البريطاني تجنيد سعيد للصبيان بأنه أراد أن يكون جيشاً ممن يدينون له بالولاء، وقد اختارهم من صغار الشباب، حتى يكون لديه عذره في عدم إرسال نجدات جديدة إلى ميادين القتال. وفي ظل هذه الأحوال اضطر سليمان باشا لتقديم استقالته وتخلى عن قيادة الجيش المصري أيام سعيد، ويرجع ذلك لكراهية الأهالي قسوته التي يجند بها أبناءهم، وأدى ذلك لتدخل إنجلترا للمطالبة بعدم زيادة الجيش بمنع تجارة الرقيق، واعتبرت تجنيد السودانيين نوعاً من الاسترقاق وضغطت على الباب العالي لكي يطالب سعيد بمنع تجارة الرقيق في مصر والسودان[٣٦].

واهتم سعيد بالزي العسكري وأناقته وتميزه، لذا فقد أمر بإحضار عينات للملابس من فرنسا وإنجلترا والولايات الألمانية، لكي يختار منها الزي المناسب، وذلك قبل بدء التزرية في تفصيل زي الجنود، كما تعاقد مع متعهدين أجانب لعمل ما يلزم من الأحذية والطوزلق (جورب يلبس على السيقان لوقايتها من الغبار والوحل وله أزرار عظيمة) ولقد ألبس سعيد الجند أفخر الثياب القطنية والصوفية، المزركشة بالقصب والمحلاة بالفضة والذهب، وكانت فرسانة تشبه أفخر فرسان أوربا. أما ملابس الجنود السعيدية "مناويشية" اللون بينما سائر الطرابيش حمراء اللون والأحذية من الجلد الأسود اللامع أو العادي، وكانت "البفتة" من أهم أنواع الأقمشة المستخدمة في تفصيل ملابس الجنود الداخلية وبنطلوناتهم، وفي حالات خاصة يصنع "صديري" الفرسان من الجوخ الأخضر أو الوردي أما الجوخ الأحمر القاني، فلم يكن مفضلا. ومن التعديلات التي أدخلها سعيد علي الملابس العسكرية: استبداله بالسراويل بنطلونات، وكذلك صنع الجيب الأيمن من الجلد بدلاً من القماش، حتى يتحمل وضع الكبسول "أجزاء نارية" كما أمر بفك الأشرطة القطن وتركيب صوف بدلاً منها[٣٧]. وقد استمر التميز في نوعية الملابس والأكسية والمفروشات المغطاة للجنود، باختلاف الرتب، فكانت ملبوسات الأنفار حتى درجة الصولات "المساعد" علامات لتمييزهم، وكانت أقمشة ملابس الملازمين واليوزباشية "النقيب" أعلى من أقمشة الأنفار وصف الضباط، كما تكون السترة أطول نوعاً، وعليها علامات لتميز رتبهم.

هذا وقد رأت المجالس العسكرية، فترة اشتراك مصر بحرب القرم، أن يكون صرف البرنس والكيون والسجادة لمدة سنتين، وطقم الجوخ والويجة القطنية والحذاء لمدة سنة واحدة، والقميص واللباس من البفتة "الدموز" لمدة خمسة أشهر، ومراعاة تحديد مدة معينة لتلك الأكسية، ومن يتلف ملابسه قبل المدة المحددة يدفع قيمتها. وكانت قيمة دست الجوارب أربعين قرشاً والقميص الصوف ستة قروش ونصف[٣٨].

أما بالنسبة للتعليم العسكري في عهد سعيد، فقد ألغى مدرسة المشاة "البيادة" عام ١٨٦١م. وحلت محلها المدرسة الحربية بالقلعة السعيدية، التي ظلت إلى ولاية إسماعيل في يناير ١٨٦٣م، وأعيد فتح هذه المدرسة في عصر إسماعيل عام ١٨٦٤م[٣٩]. وألغى أيضاً

مدرسة المدفعية، وكان جميع تلاميذها من الأتراك والشراكسة، وليس لأبناء البلد فيها حظ كبير، كما دخلها أبناء الأوربين، وخاصة بعد نقلها للإسكندرية[٤٠]. كما ألغى مدرسة الفرسان، وظهرت من جديد كأحد أقسام مدرسة القلعة السعيدية التي استمرت إلى عصر إسماعيل[٤١]. وأيضاً مدرسة الأركان حرب[٤٢].

[٤٣]وساهمت تلك القوات في حرب القرم، حيث أرسلت ولاية مصر عام ١٨٥٢م، ١٢ بطارية من المدفعية، وآلاي من الخيالة، وبلغت القوة عشرين ألف مقاتل، ونقلت على الأسطول المصري المكون من ثلاث قبقات[٤٤] بكل واحد ستون مدفعاً وثلاث قراويط[٤٥] بكل واحدة أربعة وعشرين مدفعاً، وباخرتين بكل باخرة أثنا عشر مدفعاً للمشاركة في تلك الحرب[٤٦].

هكذا انقضت مدة حكم عباس دون أن يحدث تغيير في نصوص فرمان ١٨٤١م، وخاصة فيما يتعلق بالجيش. ومع أن عباس احتفظ بعدد من الجنود أكبر مما نص عليه الفرمان المذكور؛ إلا أن هذا الإجراء لم يكن خروجاً على الباب العالي ونصوص الفرمان، بل إن عباس قد استغل حالة الحرب القائمة بين الدولة العثمانية وروسيا، في الاحتفاظ بهذا العدد الكبير. ويرجع السبب في عدم حدوث تغيير في نصوص فرمان يونيه ١٨٤١م، إلى أن عباساً لم يكن يرضى وجهة جدة الغربية، ولا نزعته الاستقلالية الإمبراطورية. واعتقد أنه يستطيع أن يحقق أغراضه بمساعدة إنجلترا وحدها، دون أن يحسب للباب العالي أي حساب، ولهذا لم ينجح في تحقيقها[٤٧].



ثبت بالمراجع

- أحمد السعيد سليمان

تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨.

- أحمد عزت عبد الكريم

- تاريخ التعليم في مصر، عصر محمد علي، الجزء الأول، تقديم محمد شفيق غربال، قدم هذه الطبعة أحمد زكريا الشلق، وزارة الثقافة، الهيئة العامة للقصور، القاهرة ٢٠١١.

- تاريخ التعليم في مصر، عصري عباس الأول وسعيد، تقديم محمد شفيق غربال، الجزء الثاني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١١.

- تاريخ التعليم في مصر، عصر إسماعيل، الجزء الثالث، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الجزء الثالث، القاهرة ٢٠١١.

- أمين سامي باشا

تقويم النيل، الجزء الثالث، المجلد الأول، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، دار الكتب والوثائق القومية.

- درويش النخيلي

السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٤.

- عبد الرحمن فهمي

النقود المتداولة أيام الجبرتي، ضمن كتاب عبد الرحمن الجبرتي، دراسات وبحوث، تقديم أحمد عزت عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦.

- علي مبارك

الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الطبعة الثانية عن طبعة بولاق ١٣٠٥هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء السابع، القاهرة، ١٩٨٧.

- عمر طوسون

الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم ١٨٥٣ - ١٨٥٦م، مطبعة المستقبل، الإسكندرية ومصر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

- فالترهنتس

المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن الألمانية، كامل

العسلي، منشورات جامعة الأردن، عمان، ١٩٧٠.

- محمد محمود السروجي

الجيش المصري في القرن التاسع عشر، دار المعارف، الإسكندرية. ١٩٦٧.

- نيفين علوان

التجنيد العسكري وأثره على المجتمع الريفي في مصر، ١٨٢٠ - ١٨٢٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، طبعة ٢٠٠٩.

- وزارة الدفاع

التاريخ العسكري في عصر خلفاء محمد علي، القاهرة.بدون تاريخ.



الهوامـــش

(١) عمر طوسون، الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم، مطبعة المستقبل، الإسكندرية ومصر ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، ص١٠٦.

(٢) محمد محمود السروجي، الجيش المصري في القرن التاسع عشر، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٧، ص٢٩.

(٣) أمين سامي باشا، تقويم النيل، الجزء الثالث، المجلد الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، دار الكتب والوثائق القومية، ص٣٥.

(٤) أمين سامي باشا، المرجع السابق، ص٤٣.

(٥) المرجع السابق؛ ص٥٢.

(٦) نفسه، ص٥٩.

(٧) نفسه، ص٨٦-٨٧.

(٨) الطراد: هو سفينة صغيرة سريعة السير والجري، والعامة تقول تطريده، وإنها مفتوحة المؤخرة بأبواب تفتح وتغلق معدة لحمل الخيل بسبب الحرب (أنظر، درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٤، ص٨٩).

(٩) أمين سامي، تقويم النيل، الجزء الثالث، المجلد الأول، ص٩٣.

والقرش: في الأصل تعريب Grosehen الألمانية، وهي تصف البياستر Piastre أي النقد الأسباني الفضة، الذي بدأ ضربه وتداوله في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، ثم استقر في التعامل التجاري مع بلدان الشرق العربي، فأطلق على "البياستر" الفضة التركي اسم "غرش" وقرش، أو إرش كما يسيمه العامة في مصر. وتقدر قيمته بأربعين نصف فضة أو أربعين بارة. (للمزيد أنظر عبد الرحمن فهمي، النقود المتداولة أيام الجبرتي، ضمن كتاب عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث، القاهرة، ١٩٧٦، ص٥٧٤).

(١٠) أمين سامي، تقويم النيل، الجزء الثالث، المجلد الأول، ص١٠٤.

(١١) محمد محمود السروجي، الجيش المصري في القرن التاسع عشر، ص٣٠.

(١٢) محمد محمود السروجي، المرجع السابق، ص٣١.

(١٣) جبخانة: من التركية 'جبة' أي الدرع المكون من أكثر من جزء، وفي العصر المملوكي كان يقال للجبة جي وهو صانع الدروع "زردكاش"، وسع الإنكشارية معنى الجبة جي، فأطلقوها على صناع الأسلحة والذخائر والقائمين على حفظها وإصلاحها، وكان في جيشهم قسم يعرف بسلاح الجبة جبه (جبه جي أو جاغي) يصنع الأسلحة والذخائر، ويحملها إلى الجيوش في القلاع والطوابى، ويستردها بعد المعارك، ويصلح ما يحتاج منها إلى الإصلاح، وقد ألغى سلاح الجيه جيه هذا مع الجيش الانكشاري سنة ١٢٤١هـ، والجبه خانة هي في التركية المكان الذي تودع فيه الأسلحة والذخائر، ولكن الجبرتي يستعملها بمعنى الذخيرة (انظر أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد في

تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص٦٥).

(١٤) قنطار: القنطار الواحد يساوي من حيث الأساس ١٠٠ رطل بيد أنه قد يكون أيضاً ١٠٠ من الدنانير وإذا أطلق اسم القنطار على كمية كبيرة من الذهب فيكون حينئذ ١٠٠٠٠ دينار = ٤٢،٣٣ كجم ذهب. في مصر كانو يميزون في العصور الوسطى بين خمسة أنواع من القناطير.

١- القنطار الفلفلي للبهارات والتوابل وما شاكلها. ٢- القنطار الليثي

٣- القنطار الجروى ٤- قنطار المن ٥- قنطار ثقيلاً للغاية

انظر فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة عن الألمانية، كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠. ص ص ٤١- ٤٣

(١٥) علي مبارك، الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الطبعة الثانية عن طبعة بولاق ١٣٠٥هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧، جـ٧، ص ١٦٣.

(١٦) علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، جـ٧، ص١٨٣.

(١٧) أمين سامي، تقديم النيل، الجزء الثالث، المجلد الأول، ص٥٩.

(١٨) أمين سامي، المرجع السابق، ص٦٥، علي مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٧، ص١٦٤.

(١٩) المرجع السابق، ص٣٨.

(٢٠) أمين سامي، المرجع السابق، ص ص ٦٥، ٦٦.

(٢١) نفسه، ص٩.

(٢٢) نفسه، ص١٤.

(٢٣) نيفين علوان، التجنيد العسكري وأثره على المجتمع الريفي في مصر ١٨٢٠- ١٨٨٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، طبعة ٢٠٠٩، ص ص ١٠٤- ١٠٥.

(٢٤) وزارة الدفاع، التاريخ العسكري في عصر خلفاء محمد علي، ص ص ٨، ٩

(٢٥) نيفين علوان، التجنيد العسكري وأثره على المجتمع الريفي، ص ص ١٠٧، ١٠٨.

(٢٦) عمر طوسون، الجيش المصري، في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم، ص١٠٦.

(٢٧) أمين سامي باشا، تقويم النيل، الجزء الثالث، المجلد الأول، ص١٣.

(٢٨) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في مصر عصر محمد علي، الجزء الأول، قدم هذه الطبعة أحمد زكريا الشلق، وزارة الثقافة، المجلس الأعلى لقصر الثقافة القاهرة، ٢٠١١، ص٢٩٠.

(٢٩) محمد محمود السروجي، الجيش المصري في القرن التاسع عشر، ص ص ١٧٥، ١٧٦.

(٣٠) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في مصر في عصر محمد علي، الجزء الأول، ص٣٢٥.

(٣١) محمد محمود السروجي، الجيش المصري في القرن التاسع عشر، ص ١٥٧.

(٣٢) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في مصر في عصري عباس سعيد، ص ص ٦٥، ٦٦.

(٣٣) محمد محمود السروجي، الجيش المصري في القرن التاسع عشر، ص ص ١٩٢، ١٩٣.

(٣٤) وزارة الدفاع، التاريخ العسكري في عصر خلفاء محمد علي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٩.
(٣٥) وزارة الدفاع، المرجع السابق، ص ٤٠.
(٣٦) وزارة الدفاع، المرجع السابق، ص ص ٤٠، ٤١.
(٣٧) نيفين علوان، التجنيد العسكري وأثره على المجتمع الريفي، ص١٠٦.
(٣٨) نيفين علوان، المرجع السابق، ص ص ١٠٦، ١٠٧.
(٣٩) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في مصر في عصر إسماعيل، جـ٢، القاهرة، ٢٠١١، ٦٤٧
(٤٠) محمد محمود السروجي، الجيش المصري، ص ١٥٧.
(٤١) المرجع السابق، ص ص ١٧٥، ١٧٦.
(٤٢) نفسه، ص ص ١٨٤، ١٨٥.

(٤٤) قباق والجمع قباقات: نوع من المراكب الحربية الكبيرة المدرعة ويعني بالتركية "الغطاء" ومنه كوز "قباغي" أي المركب الحربي الكبير.
وقد عرف العثمانيون هذا النوع من السفن الحربية منذ أوائل القرن السابع عشر عندما تغيرت أسماء السفن في ذلك الوقت، فعرف الغيلون باسم قباق واستعمله الفرنسيون والإنجليز واليونانيون في أساطيلهم العاملة في البحر المتوسط وكذلك الروس في البحر الأسود، في حين كان هذا النوع من السفن أحد قطع الأسطول المصري في القرن التاسع عشر (انظر درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص١١٩).
(٤٥) قراويط والقرويط معروف في الإنجليزية باسم Corvet أو Corvette ويعني نوعاً من المراكب الحربية المزودة بصنف واحد من المدافع على الجانبين ويطلق عليه بالفرنسية لفظ Corvette أيضاً، ويفسر على أنه سفينة حربية قديمة وسط بين الفرقاطة والإبريق ويميل البعض إلى ارجاع لفظ قرويت إلى أصل عربي فهو لديهم مأخوذ من كلمة غراب السفينة الحربية المعروفة في العصور الوسطى، ولم يستعمل هذا اللفظ الجديد إلا في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ليدل على نوع من السفن الحربية الخفيفة (انظر درويش النخيلي، المرجع السابق، ص١٥٧).
(٤٦) أمين سامي باشا، تقويم النيل، الجزء الثالث، المجلد الأول، ص٥٧.
(٤٧) محمد محمود السروجي، الجيش المصري في القرن التاسع عشر، ص ص ٣١، ٣٢.

معركة أنوال بين أسبانيا والمغرب يوليه ١٩٢١

أ.د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم (*)

مقدمـــــة :

من المعارك الحاسمة في تاريخ المغرب العربي، وفي تاريخ نضال الشعوب الأفريقية والعربية، ضد الاستعمار الأجنبي، تلك المعركة التي سجلت بحروف من نور انتصار المغاربة، بقيادة الزعيم محمد عبد الكريم الخطابي، ضد القوات الأسبانية بقيادة الجنرال سيلفستر قائد حامية مدينة مليلة، في يوليه ١٩٢١، لبسط النفوذ الأسباني على كل منطقة الريف، والقضاء على المقاومة الوطنية للنفوذ الأسباني.

لقد تقدم الجنرال سيلفستر في الدروب الجبلية بجبال الريف، التي شهدت صراعا مريرا بين أهل الريف والأسبان الغزاة، ونجح الريفيون في الاستيلاء على قمة جبال إيران، وفي قطع الطريق نحو منطقة أنوال التي وصل إليها الأسبان، وقد استطاع أهل الريف إطلاق الذخيرة التي كانت معهم صوب الأسبان، وانجلى القتال على معركة تعد من أخطر المعارك في تاريخ النضال العربي ضد الأسبان، حيث انقض أهل الريف بزعامة الخطابي على القوات الأسبانية التي منيت بهزائم عديدة، واستسلم الأسبان بعد الفتك بقائدهم سلفستر، وبهذا النصر الساحق الذي حققه سكان الريف، صار الطريق مفتوحا نحو مليلة التي حاصرها محمد عبد الكريم الخطابي، الذي جمع غنائم وأسر أعدادا كبيرة من الأسبان، وأعلن الخطابي، بعد انتصاره في أنوال، تأليف حكومة وطنية لوضع ميثاق قومي، وصار الخطابي زعيم الريف بلا منازع.

<u>وسوف نحاول في هذا البحث القاء الضوء على النقاط التالية :</u>

<u>أولا</u> : ظروف المغرب بعد الحرب العالمية الأولى، وتقسيم المغرب بين فرنسا وأسبانيا

<u>ثانيا</u> : ظهور محمد عبد الكريم الخطابي وتوليه القيادة المغربية.

<u>ثالثا</u> : معركة أنوال عام ١٩٢١ وانتصار المقاومة.

<u>رابعا</u> : أثار المعركة وقيام دولة الريف.

<u>خامسا</u> : الصراع المغربي بين الأسبان والفرنسيين، واستسلام الخطابى ونفيه إلى جزيرة رينيون في عام ١٩٢٦

<u>الخاتمـــة:</u>

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة.

أولا : ظروف المغرب بعد الحرب العالمية الأولى :

وكانت بلاد المغرب تمر بمرحلة حاسمة من تاريخها بعد الحرب العالمية الأولى، فقد كانت الدول الإستعمارية تعقد الإتفاقات فيما بينها لضمان عدم الإضرار بمصالحها وأطماعها الإستعمارية في المغرب.

وكانت فرنسا بالذات تطمع في مد نفوذها للمغرب "مراكش"، بعد أن غزت الجزائر في ١٨٣٠، وتونس في ١٨٨١ – ولم يمنع فرنسا من تحقيق أطماعها في المغرب – إلا تحذيرات انجلترا لها، واتجاه أنظار إيطاليا وألمانيا وأسبانيا أيضاً لهذه البلاد.

لذلك ركزت فرنسا جهودها لتسوية مشاكلها مع هذه الدول الأوروبية فيما يتعلق بالمغرب قبل أن تتخذ خطوة حاسمة لتحقيق أطماعها في المغرب، لذلك عقدت فرنسا عدة اتفاقيات من أهمها : (١)

١- الاتفاق الفرنسي الإيطالي :(١٩٠٢) وبموجبه أتفق علي أن تترك فرنسا لإيطاليا الحرية في مد نفوذها إلي طرابلس، في مقابل ترك حرية التصرف لفرنسا في المغرب.

٢- الاتفاق الودي مع إنجلترا (إبريل ١٩٠٤) : وفيه اتفق علي ألا تعرقل فرنسا عمل إنجلترا في مصر فلا تطلب تحديد اجل للاحتلال الإنجليزي، ولا تحرج إنجلترا بأية صورة أخرى – في مقابل أن تترك إنجلترا فرنسا حرة في بلاد المغرب (٢).

٣- الإتفاق الفرنسي الأسباني (أكتوبر ١٩٠٤) : أتفق فيه علي تحديد منطقة نفوذ لأسبانيا في شمال المغرب، حينما تضع فرنسا يدها علي هذه البلاد.

٤- الاتفاق الألماني الفرنسي " ٤ نوفمبر ١٩١١: تنازلت بموجبه فرنسا عن قطعة من مستعمراتها في (الكونغو الفرنسي) – في مقابل أن تطلق ألمانيا يدها في المغرب فلا تعرقل قيام حماية فرنسية علي المغرب ولا تعترض علي ممارسة فرنسا لشئون المغرب الخارجية. وهكذا سوت فرنسا مشاكلها مع الدول الأوربية ذات الأطماع في المغرب.

وبعد هذه الاتفاقيات فرضت فرنسا علي المغرب معاهدة الحماية، في٢٠مارس ١٩١٢، وألزمت السلطان المغربي بتوقيعها(٣).

وتفاهمت فرنسا مع أسبانيا، وتوصلت الدولتان إلي اتفاق في ٢٧ نوفمبر ١٩١٢، بموجبه اعترفت الحكومة الفرنسية بنفوذ أسبانيا في المنطقة الشمالية من المغرب التي عرفت باسم (المنطقة الخليفية) وأصبحت تطوان عاصمة للمنطقة الاسبانية(٤).

ولقد لقى الأسبان مقاومة عنيفة من المواطنين المغاربة، منذ اللحظة الأولى التي حاولوا فيها تثبيت أقدامهم في المنطقة التي خصصت لهم من المغرب.

ومن الشخصيات التي برزت في مجال الكفاح ضد الأسبان: أحمد بن محمد ريسولي، وقد ظهر في منطقة " جبالا" بشمال المغرب، وأصبح يمثل قوة في هذه المنطقة – لكن الأسبان

نجحوا في مهادنته، والوصول لاتفاق معه ليتفرغوا للعدو الحقيقي لهم: الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي.

وحاول الأسبان إرهاب محمد عبد الكريم الخطابي - فأحرقوا دار الأسرة في "أجدير"، ولما لم يأبه الأمير بهذا الإرهاب، سعوا لإغرائه بالمناصب، فعين في عام ١٩١٣ مستشاراً لدى محكمة الجنايات، ثم رفع بعد سنتين إلي منصب رئيس العدل(٥).

ولم تؤثر هذه المحاولات من المستعمرين علي موقف الأب عبد الكريم الخطابي، أو إبنه الأمير محمد عبد الكريم.

وفي نهاية عام ١٩١٩، حين كان الأب عبد الكريم الخطابي يتجول في الريف، ويعقد الإجتماعات منبهاً قومه إلي أهداف الأسبان ومراميهم - دبر الأسبان مكيدة للتخلص منه، فقد إستضافه أحد زعماء القبائل الموالية له، وقدم له طعاماً مسموما فقضى نحبه في سبتمبر ١٩٢٠، فخلفه في زعامة القبيلة، وفي قيادة حركة الكفاح ضد المستعمرين الأسبان، محمد عبد الكريم(٦).

ثانيا : ظهور الأمير محمد عبد الكريم الخطابي وتولي المقاومة الوطنية ضد الأسبان في المغرب

اقترنت المقاومة الوطنية في المغرب العربي بوجه عام، وإقليم الريف الأسباني بشكل خاص بتلك الانتصارات الرائعة التي سجلها الزعيم المغربي محمد عبد الكريم الخطابي بحروف من نور، علي صفحات كلها عز وفخار، لكل مسلم يريد أن يقرأ عن هذه البطولات العربية ضد قوتين أوروبيتين، هما أسبانيا وفرنسا، وكانت مقاومته عاملاً قوياً في هز كيان الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا، بل وأثر على كل النظم الاستعمارية هناك.

ولد الأمير عبد الكريم الخطابي (الوالد) في منطقة الريف(٧)، في الوقت الذي تطلعت فيه الدول الأوروبية نحو استعمار شمال أفريقيا، وكانت قبيلة ورياغل التي تقطن إقليم الريف من أشهر القبائل هناك، وكان الأمير عبد الكريم رئيس القبيلة الحاكمة في الريف على علاقة بالعالم الأوروبي، ولما أعلن الأسبان الحماية عام ١٩١٢ على المنطقة التي خصصت لهم، حسب اتفاقهم مع الفرنسيين، وقف الأمير وأعلن رفضه لهذه الحماية.

فما كان من المندوب السامي إلا أن أصدر أوامره بالقبض على إبنه، وإلقائه في السجن(٨).

انتظر الشيخ لحين عودة أبنه الأكبر من السجن، وعودة إبنه الثاني محمد من مدريد، وأعلن القطيعة بينه وبين الأسبان، وصمم على مقاومة الأسبان وإخراجهم من بلاده، ودارت معارك طاحنة بين الأسبان والوطنيين أبرزها: معركة أنوال، التي أحرز فيها الوطنيون المغاربة انتصاراً ساحقاً على الأسبان.

ثالثا : معركة أنوال يوليو ١٩٢١ :

قبل دراسة هذه المعركة التاريخية الحاسمة، يجدر بنا أن نلقي نظرة على الوضع الأسباني في المغرب، ثم وضع الريف، وأحداث هذه المعركة الهامة، وأهم ما ترتب عليها من أحداث.

حاولت أسبانيا استخدام القوة لإخضاع الريف، في الوقت الذي كانت فيه أكثر تخلفاً من فرنسا في المجال العسكري، وكان الجنود الأسبان يفتقرون إلى التدريب الحديث، وكانت القوات الأسبانية في المغرب تنقسم إلى ثلاث قيادات: الأولى في (مليلة) في الشرق، والثانية في (سبته) أمام المضايق، والثالثة في (العرائش) على المحيط الاطلسي، وبلغ قوام الجيش الأسباني بقيادة الجنرال سيلفستر أربعة وعشرين ألف جندي.

بدأ الأسبان عملياتهم الحربية من قواعدهم الثلاث، في سبتمبر، واحتلوا طنجة عام ١٩١١، ولم يتوغلوا في بلاد الريف لأنها صعبة المسالك. وقد حاول الأسبان استمالة الزعماء المحليين، وخصوصا أحمد الريسولي الذي رفض التعاون معهم، وهاجم الأسبان في شفشاون(٩).

وفي عام ١٩٢٠ حاول الأسبان تطويق منطقة الجبالا، وهاجموا الريسولي، وأعطاه القائد الأسباني مهلة للاستسلام، ولكن تغير الموقف بسبب هزيمة الأسبان على أيدي قبائل ورياغل في قطاع مليلة بقيادة الزعيم محمد عبد الكريم الخطابي.

وكان الجنرال سيلفستر قد تقدم إلى نهر القرط، واحتل دار داريوس في مايو ١٩٢٠، ولم يلق مقاومة من قبائل ورياغل، حتى وصل إلى أطراف منطقة أنوال في مايو ١٩٢٠ فأرسل إليه الأمير الخطابي يحذره من احتلال الإقليم.

وأصدر الجنرال برينغير أوامره لسلفستر بعدم التقدم إلى الأمام، لكنه لم يعر أدنى اهتمام لهذه الأوامر، وتوجه مباشرة نحو أنوال للسيطرة على الموقع، وهناك نشبت معركة حامية الوطيس، دامت خمسة أيام، شارك فيها العدو بخمسة وعشرين ألف من الجنود، ولم يحضر إلى أنوال من مجاهدي عبد الكريم سوى ألفي مجاهد، أما الجنود الآخرون فكانوا ينتظرون الفرصة السانحة، ويترقبون الأوضاع مع زعيمهم عبد الكريم بأجدير، وفي الساعة السادسة من مساء ٢٠ يوليو ١٩٢١، وصل عبد الكريم بـ ١٥٠٠ جندي إلى موقع أنوال، لتشتعل الحرب حتي صباح ٢١ يوليو من نفس السنة، وانتهت الحرب بانتحار سلفستر، وموت الكولونيل موراليس الذي أرسل عبد الكريم جثته إلى مليلية، لأنه كان رئيسه في إدارة الشؤون الأهلية سابقا. وقد اتبع عبد الكريم في هذه المعركة خطة التخندق حول " إغريبن " ومنع كل الإمدادات والتموينات التي تحاول فك الحصار عن جيش العدو. وكانت الضربة القاضية لمركز (إغريبن) عندما أدرك المجاهدون نقطة ضعف الجنود الأسبان المحاصرين؛ المتمثلة في اعتمادهم على استهلاك مياه (عين عبد الرحمن) ب (وادي الحمام) الفاصل بين (إغريبن) و(أنوال)، فركزوا حصارهم حول هذا النبع المائي، وبذلك حرم الجنود الأسبان من الماء، واشتد عطشهم إلى درجة اضطرارهم إلى شرب عصير التوابل وماء العطر والمداد، ولعق

الأحجار، بل وصل بهم الأمر إلى شرب بولهم مع تلذيذه بالسكر... كما جاء في المصادر الأسبانية.

واضطر الجنرال سيلفستر إلى تركيز قواته في أنوال، خصوصاً أنه فشل في الحصول على دعم من القيادات الأخرى، وحصن أهل الريف المكان وردوا الأسبان القادمين للموقع في أنوال، وعندئذ حاول سيلفستر إنقاذ الموقف، وقرر الانسحاب، بعد أن أحس بالتهديد لقواته المطوقة في أنوال، وفقد القائد الأسباني السيطرة على الموقف، ووقعت الكارثة في الثاني والعشرين من يوليه عام ١٩٢١، حيث حلت الهزيمة الساحقة بالقوات الأسبانية، ولقى القائد الاسباني نفسه حتفه في هذه المعركة.

وهرب الأسبان في ذعر وخوف، بعد أن واصل رجال الريف مهاجمة القوات المنسحبة. وفي ٢٥ يوليه استولى أهل الريف على كل مواقع الإقليم، وامتدوا حتى أسوار مليلة ذاتها، والتي وصل إليها الجنرال الأسباني بيرنجر في ٢٣ يوليه – ولكنه فشل في إنقاذ الموقف المتدهور، وظل هذا القائد محاصراً حتى التاسع من أغسطس، وسلم للوطنيين الذين أرسلوه للأمير الخطابي، واستخدم الأمير حرب العصابات غير النظامية، حيث استدرج الأسبان إلى منطقة محاطة بالتضاريس الوعرة، ووجد الأسبان أنفسهم محاصرين..

ورغم أن الجيش الأسباني كان يفوق الجيش المغربي في الريف عدداً وعتاداً، فقد نجح الريفيون في تحرير معظم المنطقة التي كان الأسبان قد استولوا عليها في عام ١٩١٢، وظل حزام المدن الساحلية فقط تحت السيطرة الأسبانية.

وكانت حروب الأمير الخطابي من أغرب الحروب في التاريخ، حيث لم تكن حرباً بين جيشين متساويين، كما لم تكن حرباً بين بلدين، بل إنها كانت نضالا بين دولة أوروبية قوية، وبين زعيم قبلي ليس لديه من الموارد سوى ما تدره عليه المنطقة الحدودية، وكان يقودهم زعيم لم يدخل يوماً من الأيام باب مدرسة حربية(١٠).

وكانت هزيمة الأسبان قاسية حيث قضت على جيش سيلفستر، وخسر الأسبان ١٤٧٧٢ رجلاً، ٥٩٫٥٠٤ بندقية، ٣٩٢ مدفعاً رشاشا، ١٢٩ مدفع ميدان، بالاضافة إلى حوالي ٧٥٠ أسيراً وهو نصر عملاق بالمقاييس العسكرية المحايدة، يصعب تحقيقه من طرف الجيوش الكبرى، وقد استولى المغاربة على مائة وثلاثين موقعا(١١).

لقد كانت كارثة أنوال هزة عنيفة في تاريخ أسبانيا الحديث.

ولكن ما هي العوامل التي ساعدت الأمير الخطابي على تحقيق هذا النصر على الأسبان ؟

١- لقد استعان الأمير الخطابي بالأسلحة الحديثة التي حصل عليها من الأوربيين.

٢- كما حصل على الأموال اللازمة من الأسرى؛ الذين كان يطلق سراحهم مقابل المال والسلاح.

٣- يضاف إلى كل ذلك طبيعة المنطقة الجبلية، ووعورة مسالكها.

٤- عدم تنسيق القيادات الأسبانية لخططها أو الاتفاق على خطة واحدة، وقيام الجنرال سيلفستر بالهجوم من مليلة على مناطق الريف دون استشارة القائد العام للقوات الأسبانية في المغرب.
٥- وفي تقرير لجنة التحقيق، بمدريد، إشارة إلى أن إقامة المراكز دون الاهتمام بتحصينها تحصيناً قوياً، وتعبيد الطرق التي تربط بينها، كان من أهم أسباب الهزيمة.
٦- كما أشار التقرير أيضا: إلى أن فساد الضباط وتغيبهم في المدن وترك الحاميات كان أيضا من أسباب الهزيمة(١٢).

رابعا : آثار المعركة وقيام دولة الريف :

كان في وسع الأمير الخطابي أن ينهي الحرب لو أنزل قواته وقضى على القوة الأسبانية في مليلة، لكن افتقار أهل الريف لوسائل الدفاع البحري جعلت الأمير يحجم عن الإطباق على مدينة مليلة.

واختلفت التفسيرات حول عدم الإقدام على احتلال مدينة مليلة المحاصرة والقضاء على القوة الأسبانية بها، ولعل أهم التفسيرات هو أن الأمير أدرك أن قواته في حاجة إلى إعادة تنظيم، وأنه خشى من تفكير الأسبان في الانتقام، في وقت لم يكن هو فيه على استعداد لتوسيع عمليات القتال، بالإضافة إلى خوفه من إحداث نوع من العداء الأوروبي ضده، وخصوصاً من جانب بريطانيا؛ التي كان يطمع في الحصول على تأييدها لتحقيق استقلال الريف، وكان الأمير يعتقد أن الأسبان سوف يسعون إليه لعرض شروط الصلح، بالطريقة التي يفرضونها، بعد هزيمتهم في أنوال.

وعلى العموم، فإن عدم الإقدام كان غلطة كبرى في استراتيجية الأمير الحربية، ولو أحسن إستغلالها لاستطاع القضاء على بقية القوة الأسبانية في المدينة، ولكن والأمر كذلك، فقد أعطى هذه الفرصة للأسبان لكي يعيدوا تنظيم قواتهم، واستمرار الحرب مع الأمير، فقد دعم الأسبان قواتهم ووصلت إليهم الإمدادات، وبدأ الجنرال الأسباني دعم الصفوف، حيث بلغت القوات الأسبانية في المغرب ١٥٠٠٠٠ مقاتل(١٣).

واعتمدت خطة الأسبان، في المرحلة التالية لمعركة أنوال، على التفاوض مع الريسولي حتى يركزوا قواتهم ضد الأمير الخطابي.

وفي ٢٨ سبتمبر ١٩٢٢ تم الاتفاق مع الريسولى، الذي قرر الاستسلام للأسبان مقابل تركه سيد الموقف في منطقته، وجلاء الأسبان عن تازاروت، ودفعوا للريسولي تعويضاً عن الأضرار التي لحقت به.

واستطاع الأمير الخطابي بسط نفوذه على كل الريف وغمارة، واتحدت المنطقة تحت حكومة موحدة، وصارت (أجدير) عاصمة لتلك الدولة الجديدة، وأخذت أسبانيا تسعى للتفاوض مع الأمير في يناير ١٩٢٣، وإخلاء سبيل الأسرى مقابل أربعة ملايين بسيطة أسبانية، وعرضت أسبانيا على الأمير حكم منطقة الحماية الأسبانية، التي حصلوا عليها في اتفاقهم مع الفرنسيين لكن الأمير رفض ذلك وفشلت المفاوضات بين الأسبان والأمير. وواصل أهل الريف

الضغط على الأسبان، وتمكن رجال القبائل من قطع الطرق بين تطوان وشفشاون، وحاصروا قوة من الأسبان قوامها ثلاثة آلاف جندي، وهاجموا الأسبان في مقرهم في تطوان التي اتخذوها عاصمة لمنطقة الحكم في المغرب.

وكان الأمير قد قرر في صيف ١٩٢٤ القيام بهجوم عام، وكانت تطوان أول الأهداف في هذا الهجوم، ونجحت قواته فعلاً في الوصول إلى نواحي المدينة، وسقطت قنابل مدفعيتها في الشوارع – لكنها عجزت عن اجتياح أسوارها، واضطر بريمودي ريفييرا إلى ترك العاصمة الأسبانية، والحضور إلى المغرب للإشراف بنفسه على القتال، وكانت مهمة صعبة جدا(١٤).

ونجح الأسبان في فك حصار شفشاون بعد معارك استمرت عشرة أيام، وعينت أسبانيا الماركيز (دي إستيلا) مندوباً سامياً وقائداً عاماً بالمغرب، وبدأ هذا القائد في سحب القوات الأسبانية، في الوقت الذي استولت فيه قوات الريف على (القصر الصغير)، وقد كلفت هذه العملية أسبانيا حوالي ٢١ر٢٥٠ ما بين قتيل ومفقود وأسير، من الجنود والضباط.

وحاول الأسبان إعادة فتح الطريق بين طنجة وتطوان، واحتلوا القصر الصغير في يناير ١٩٢٥، وكان الأمير الخطابي يواصل تدعيم سلطته الثورية في منطقة جبالا، ونجح في القبض على الريسولي، ونقله إلى أجدير حيث مات هناك، وبعد موته صار عبد الكريم رئيسا وزعيما وقائداً للثورة دون منافس.

ورفض الأمير لقب سلطان، وفضل لقب أمير الريف، كما رفض إنشاء بلاط، وظل يعيش في منازل ريفية، وجعل أخاه قائداً للجيش النظامي، وأعد جيشاً مجهزاً بأحدث الأسلحة الأوروبية، ووضع نظاماً لجباية الضرائب، كما وضع قوانين جديدة، وقرر تأليف حكومة وطنية تدير شؤون البلاد (جمعية وطنية)، وأعلن الميثاق الذي تضمن الاعتراف بالاستقلال التام للدولة الريفية، من خطوط الحدود مع مراكش حتى البحر المتوسط، وأعلن قيام الجمهورية بالريف، ودعى جميع الدول إلى إقامة خدمة قنصلية ودبلوماسية في مقر حكومة الريف في أجدير(١٤).

وأعلن الخطابي عن أهداف حكومته في عدم الإعتراف بالحماية الفرنسية، وجلاء الأسبان عن كل ما احتلوه عدا سبته ومليلة، وإقامة علاقات طيبة مع كل الدول.

وفي مايو من نفس العام ١٩٢٤، بدأت أسبانيا تسعى للوصول إلى هدنة مع الأمير، على أساس بقاء القوات الأسبانية في أماكنها التي احتلها، ولكن فشلت المفاوضات بسبب اشتراك كل من الأسبان والفرنسيين في حرب الأمير.

خامسا : الصراع المغربي بين الأسبان والفرنسيين :

في بداية ثورة الأمير عبد الكريم ضد الأسبان؛ رحب الفرنسيون ووجدوا فيه فرصة للانتقام من أسبانيا، لموقفها أثناء الحرب العالمية الأولى مع ألمانيا، والعناصر الثورية المعادية لفرنسا، والتي اتخذت من المنطقة الأسبانية قاعدة للعمل، وأعطت فرنسا الأمير الأسلحة والذخيرة بصورة علنية، إنتقاما من موقف الأسبان خلال الحرب، وكان وفد الريف

يتنقل بسهولة وحرية بين المنطقة الفرنسية وبين الجزائر والريف، وكان هذا الموقف الفرنسي أكثر من مجرد الانتقام من الأسبان(١٥).

وكان اعتقاد الفرنسيين أن ظروف ما بعد الحرب العالمية الأولى سوف تسمح لهم بالمطالبة بتعديلات في المنطقة، وكانوا يأملون في أن سيطرة عبد الكريم على الريف تساعدهم للحصول على امتيازات في البحث عن المعادن في الريف لكن في عام ١٩٤٢ تغير الموقف الفرنسي تماما من الأمير عبد الكريم الخطابى.

ولعل أسباب التغير في السياسة الفرنسية يعود إلى ما يلي :-

أولا : كان المقيم العام الفرنسي (Lauty) يعتقد أن ثورة عبد الكريم مجرد اضطراب لإحراج موقف أسبانيا، ثم يحصل بعد ذلك على تعديلات في حدود المنطقتين الفرنسية والأسبانية باحتلال وادي ورغة على الأقل، لكن خيبت ثورة الريف ظنون الفرنسيين، وأثبت الخطابي أنه قائد عسكري وزعيم سياسي نجح في خلق دولة حديثة، وأوجد نظاماً إدارياً ومالياً، وصار بطل الريف بطلاً للتحرير في نظر مسلمي شمال إفريقيا، ولقد كشف ليوتي عن وجهة نظره لأحد كبار أعوان عبد الكريم بقوله " إنني أحب الريفيين كما هم ولكني لا أريد أن يصبحوا كباراً "(١٦).

ثانيا : كانت عملية البحث عن المعادن من أبرز الدوافع التي غيرت موقف فرنسا، لأن منطقة الريف كانت في نظر الأوربيين منطقة غنية بالمعادن.

من هنا بدأ يتغير موقف الفرنسيين فجأة، وأغلق ليوتي الحدود مع الريف، وضبط قوافل التموين وهي في طريقها إليه، وقرر مهاجمة الريف برغم عدم وجود حجة لذلك، ومن الطبيعي بعد انتصارات الأمير عبد الكريم ضد الأسبان وتكبيده لهم الخسائر الفادحة، وإنشاء جمهورية الريف أن يعكس هذا التطور صفو الحياة عند الفرنسيين الذين اقتسموا المنطقة مع الأسبان، فكانت هذه العوامل سبباً في تحالف فرنسا وأسبانيا ضد الأمير.

وتقدم الفرنسيون في مايو عام ١٩٢٤، وعبروا أعالي نهر الورغة دون أن يلقوا مقاومة عنيفة من سكان الريف.

وأمضى ليوتي شتاء عام ١٩٢٥ يعد الخطط لسحق عبد الكريم؛ الذي بادر بالهجوم في منتصف إبريل ١٩٢٥، واندفع كالعاصفة ونجح في احتلال خمسين مركزاً فرنسياً، وصار على بعد سبعة وعشرين كيلو متراً من مدينة فاس (١٧).

والسؤال الآن : لماذا أقدم الأمير على حرب فرنسا برغم أنه كان يدرك صعوبة تحديهم ؟

إن تمسك الأمير بالتقاليد الريفية، واحترام هذه التقاليد، كان من أسباب الاحتكاك معهم، وذلك عندما استنجدت قبيلة (بني زروال) التي تقطن إحدى المقاطعات جنوب الريف، برغم ما يترتب على ذلك من عواقب وخيمة، وقال الأمير نفسه لمستشاريه، " لسوف أرتكب حماقة لكن لابد لي من ارتكابها"(١٨)، ويحاول المؤرخون الفرنسيون تحميل الأمير الخطابي

مسؤولية الاشتباك معهم، حيث يدعون أن مبعوثي الريف قد تسللوا إلى وادي ورغة وحرضوا القبائل هناك على العصيان ضد الفرنسيين(١٩).

ولقد كان هجوم الأمير عبد الكريم على الفرنسيين سبباً في تحرج موقف ليوتي، الذي طلب إمدادات من فرنسا، لكنها لم تصله في الوقت المناسب، وهبطت أرصدة ليوتي السياسية وزاد خصومة وانهالت الهجمات عليه من كل صوب، وبدأ المستوطنون الفرنسيون يرسلون برقيات ينتقدون فيها سياسة ليوتي، ويطالبون بإرسال قائد عسكري قوي مع نجدة قوية، والانتقال من الدفاع للهجوم(٢٠).

وزاد الأمر سوءاً عندما تقدمت القوات الفرنسية شمالاً، على أمل اللقاء بالقوات الأسبانية، لكن قيادة الأسبان كانت قد اتخذت قراراً بالانسحاب، ووجدت القوات الفرنسية نفسها وجهاً لوجه أمام ثوار الريف.

وتمكنت قوات الريف من إذاقة الفرنسيين مرارة الهزيمة في أكثر من لقاء، وصارت الجهة الشمالية للقوات الفرنسية مكشوفة، ولذا قرر الفرنسيون إنشاء خط دفاعي ثابت للدفاع عن منطقتهم من هجوم أبناء الريف.

وفي نوفمبر ١٩٢٤ أبرق المقيم العام الفرنسي في المغرب، إلى الحكومة الفرنسية، بأن المناطق الواقعة تحت السيطرة الأسبانية والمتاخمة للمنطقة الفرنسية، أصبحت مراكز عصيان، وأن أهلها صاروا خاضعين لزعيم واحد يخلصون له كل الاخلاص، وأن نجاح هذا الزعيم قد شجع القبائل الأخرى على الانضمام إليه. وفي برقية أخرى لاحقة؛ أشار ليوتي إلى أن عبد الكريم لا يخفى أطماعه في مهاجمة المنطقة الفرنسية وتحرير المغرب كله(٢١).

وبناء على هذه التقارير، أقرت الحكومة الفرنسية مخطط ليوتي للحملة ضد الريف، وكان ليوتي بارعاً، حيث أدرك أن هذه الثورة ليست ثورة قبائل، بل هي بدء ظهور دولة مغربية موحدة، ولذا استغل المنافسات الشخصية للأيقاع بين زعماء الثورة المغربية ولإحداث الفرقة في صفوف الثوار - لكن نجاح عبد الكريم وقضائه على خصمه الريولي جعل القبائل المترددة تنضم إليه، وفشلت دبلوماسية ليوتي في الايقاع بين الزعماء في منطقة الريف(٢٢).

لقد أدركت فرنسا أن نجاح ثورة الريف، بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي، تعني ضياع كل المغرب الأقصى والجزائر وتونس، ومن هنا جاء التفكير في إرسال الجنرال (بيتان) إلى المغرب في يوليه ١٩٢٥، وحدث اجتماع بين الجنرالين ليوتي وبيتان، والمارشال الأسباني بريمودي دي ريفيرا، لوضع إمكانياتهم معاً، وللتخطيط سوياً من أجل إخضاع الزعيم المغربي(٢٣).

وقد نص الاتفاق الفرنسي الأسباني على ما يلي :-

١- ألا تعقد الدولتان أي صلح منفرد مع قبائل الريف.

٢- تتفق الحكومتان على أن تحقق لقبائل الريف الاستقلال الذاتي طبقاً للمعاهدات الدولية، وتحت سلطة رئيس تختاره هذه القبائل، وأن تتضمن المقترحات التي

ستعرض على القبائل عملية قبول الاحتلال الأسباني السلمي لقطاع معين، وتبادل الأسرى.

٣- استمرار الأعمال العسكرية حتى تنتهي المفاوضات إلى نتيجة.

٤- في حالة فشل المفاوضات تعلن الدولتان مقترحاتهما، ويحملان الأمير محمد عبد الكريم الخطابي مسؤولية استمرار النزاع (٢٤)

وواضح من هذا الاتفاق أن الدولتين قد تجاهلتا تماماً الأمير، ولهذا عندما عينت الحكومتان مندوبيهما رفض عبد الكريم استقبالهما ما لم تقبل الحكومتان الاعتراف باستقلال الريف.

كان عدد القوات الفرنسية في المغرب في عام ١٩٢٤ حوالي ٦٥٠٠٠٠ جندي، في الوقت الذي بلغت فيه قوات المجاهدين حوالي ٦٠٠٠٠ رجل، واعتمد الأمير عبد الكريم على خطة خاصة تتلخص في: إرسال عدد من المتطوعين إلى ما وراء خطوط العدو لإثارة القبائل، وكان زحف الجيش تحت هذه الستارة من القبائل يسمح بحمايته في حالة تقهقره، وبالفعل وجد القائد الفرنسي أنه أمام جيش يضم سلاح مشاة ممتاز، ويمكنه أن يقف نداً لأي جيش في العالم.

وفي ١٣ أبريل ١٩٢٥ بدأ رجال الريف الهجوم على القوات المعادية، وتوغلوا في الخطوط الفرنسية، وأثاروا القبائل خلفهم واضطرت القيادة إلى إخلاء المواقع التي انقطعت صلتها بقواعدها الأصلية، وتأزم الموقف في منطقة (تازا) التى أخلاها الفرنسيون بعد معركة عنيفة مع رجال الريف.

هزت هزيمة الفرنسيين في تازا الرأي العام الفرنسي بشكل أجبر الحكومة على تغيير قيادتها، فعين القائد تاولان قائدا عاماً للقوات الفرنسية في المغرب، وكانت الهزيمة قاسية على الفرنسيين، وكانت فرصة لكي يشن الحزب الشيوعي الفرنسي هجومة على البورجوازية الاستعمارية، ويظهر تأييده لقضية الريف، وردت الحكومة الفرنسية على ذلك بأن أعلن أمام مجلس الأمة أن سياستها سلمية ودفاعية، ولقد أخطأ الأمير عبد الكريم حينما ضيع الفرصة، ولم يستول على فاس وتازة، قبل أن تصل التعزيزات للقوات الفرنسية بهما.

إزاء كل هذا كان على فرنسا أن تتعاون مع أسبانيا للقضاء على هذه الثورة الريفية التي صارت تهدد الكيان الفرنسي والاسباني في شمال القارة، وأرسل الأمير عبد الكريم إلى الأسبان في تطوان؛ يصر على ضرورة الاعتراف باستقلال الريف، كشرط أساسي للدخول في مفاوضات للصلح – لكن الدولتين (فرنسا وأسبانيا) أعلنتا شروط الاتفاق، وأقرتا عدم الاعتراف بإعطاء الاستقلال للريف (٢٥).

وهكذا أصبح واضحاً أن طريق التفاهم مع الأمير قد أوصد، وأن السلاح هو الفيصل الوحيد لتقرير مصير هذه المنطقة.

وبدأ الفرنسيون بضرب القطاع الخاص بوادي نهر الورغة بالمدفعية الثقيلة، في العاشر من سبتمبر ١٩٢٥، ثم أخذت القوات الفرنسية تتقدم بشكل منظم، ولمسافات صغيرة،

حتى تتمكن من تطهير كل موقع قبل البدء في معركة جديدة، واستمرت فرنسا في عملياتها حتى أواخر اكتوبر، ولكنهم فشلوا في الوصول إلى محاصرة بني ورياغل في الجنوب، أو إجبارهم على طلب الاستسلام

وفي الثاني من أكتوبر عام ١٩٢٥، بدأت القوات الفرنسية تتوغل في سهل أجدير، في الوقت الذي كان مجاهدوا الريف يهددون تطوان نفسها، وكانت خطة فرنسا سرعة التوغل، والالتقاء بالقوات الأسبانية القادمة من مليلة وأجدير.

واضطر الأمير عبد الكريم إلى نقل عاصمته ومقر قيادته إلى الداخل في الجنوب الغربي من تارجت، واستطاع الأمير تحطيم خط الدفاع الفرنسي عند الورغة، ووصل إلى أبواب تازا، ولكنه فشل في الدخول إلى فاسٍ، في الوقت الذي فشل فيه الفرنسيون والأسبان في القضاء على جيش الأمير، وفشلوا أيضاً في إغراء القبائل للخروج على طاعته.

من هنا يتضح أن الموقف الحربي لم يحسم المعارك لأي من الطرفين، وأن الصراع طويل ومستمر وصعب، وأنه ليس من السهل القضاء على هذه المقاومة الإسلامية في جمهورية الريف، كما توهم الفرنسيون والأسبان.

ولقد استطاع هذا الأمير المسلم الذي يجاهد في سبيل الله والوطن – أثناء العمليات – أن يستولى على تسعة مواقع فرنسية، مع إجبارهم على إخلاء إثنين وثلاثين موقعاً، وتكبيد الفرنسيين الخسائر الفادحة في أشرس حرب يواجهونها في شمال أفريقيا.

واضطرت فرنسا، أمام هذه المقاومة المغربية العنيفة، أن تطلب الامدادات بين الحين والحين وأن تغير القيادات، وأن تعيد تشكيل القوات لمواجهة هذا العدو القوي العنيد.

وبلغت القوات الفرنسية في المغرب في أكتوبر عام ١٩٢٥ حوالي ١٥٨،٠٠٠ جندي، وبرغم كل هذه الاستعدادات والقوات الضخمة التي فاقت جيش الأمير – إلا أنه استطاع أن يكبد الفرنسيين في معارك يونيه وأغسطس وسبتمبر وأكتوبر، حوالي ٨٩١ قتيلاً، ٢٩٩١ جريحاً. وإلى جانب هذه الخسائر فقد كلفت حروب فرنسا مع الأمير حوالي ٩٥٠ مليون فرنك، ناهيك عن ثمن المعدات التي أرسلتها فرنسا، وتقدر بحوالي ٤٥٠ مليون فرنك.

ولم يكن الأمير يواجه هذه الجحافل الفرنسية فقط، بل كانت هناك القوة الأسبانية التي قدرت بحوالي ٨٥،٠٠٠ جندي – ومع الإمدادات التي وصلت إليها بلغ عدد الجيش الأسباني هناك ١١٨ ألف جندي، وإذا أحصينا قوات الجانبين، نجد أن هناك حوالي ٣٠٠ ألف جندي أسباني وفرنسي أمام قوات الأمير؛ التي لم تصل إلى ستين ألف مسلم من الريف، وهذا يدل على ضخامة العبء الملقى على كاهل الأمير أمام هذه القوى الصليبية والمسلحة بأحدث أنواع السلاح الأوربي، والأساليب الحربية التي لم يكن الأمير على دراية بها.

وفي أوائل عام ١٩٢٦، قامت فرنسا بمحاولة استدراج بعض رجال القبائل الثائرة إلى صفها، مستخدمة نفس الاسلوب الذي كان الأمير يتبعه فيما وراء خطوط العدو، وفي نفس الوقت قامت قوات غير نظامية بالدخول في أراضي الأقاليم المجاورة للحدود، وأجبرتها على الدخول في طاعة الفرنسيين(٢٦).

وجرت محاولات للصلح بين الطرفين ولكن دون جدوى، وأخيراً استعد الطرفان لمواصلة العمليات الحربية - ووضع كل من (بيتان) والماركيز (دي إستيلا) خطة جديدة في مدريد، وفي نفس الوقت أرسل الأمير عبد الكريم خطاباً إلى جريدة التايمز، عن طريق مراسلها في طنجة، أعلن فيه استعداده للصلح - لكن الحكومتين الفرنسية والأسبانية أصرتا على فرض الشروط على الأمير ورجال الريف.

مؤتمر الصلح في وجدة (مايو ١٩٢٦) :

وبرغم هذا فقد انعقد مؤتمر الصلح في الفترة من ٢٧ أبريل حتى السادس من مايو، وحدثت أزمات في هذا المؤتمر، بسبب مسألة نزع السلاح والاستقلال الذاتي، ومسألة إطلاق سراح الأسرى قبل الانتهاء من المفاوضات، وفي السادس من مايو أصبح واضحاً عدم الوصول إلى اتفاق، وانصرف مندوبو فرنسا وأسبانيا بعد بدء الاجتماع بربع ساعة، وسافر مندوبو الريف من وجدة في نفس المساء، وفي صباح اليوم التالي بدأ الهجوم الفرنسي الأسباني على الريف(٢٧).

وتقدمت القوات الفرنسية والأسبانية، واحتلت أنوال يوم ١٨ مايو ١٩٢٦، وكان لهذا التحالف الأسباني الفرنسي أثره في إضعاف مركز الأمير، بالاضافة إلى قلة إمكانياته، وفرض الحصار البحري عليه - وأدرك الأمير أن الاستمرار في الحرب يعني عمليات انتحارية، وأن نزع السلاح من الوطنيين يعني الخراب والنهب والسلب، ولذا خاض المعركة الأخيرة مع تلك الفئة من الرجال المؤمنين التي ساندته وأزرته في تلك الحرب الصليبية، وكان عليه أن يشرف بنفسه على هذه المعارك، وفي ٢٧ مايو ١٩٢٦ استسلم الأمير الخطابي وأخوه للقائد الفرنسي، وباستسلامه إنهارت المقاومة في الريف (٢٨).

وقد فضل الأمير تسليم نفسه للفرنسيين، ذلك لأن الأسبان كانوا يطالبون بمحاكمته كعاص يستحق الإعدام، أما الفرنسيون فنظروا إليه باعتباره أسير حرب، ونفوه إلى إحدى مستعمراتهم النائية في المحيط الهندي.

وبرحيل الأمير انتهت المقاومة المغربية، ولم ينته عام ١٩٢٦ حتى صارت المنطقة الأسبانية من المغرب تخضع لأول مرة لحكم أجنبي حقيقي (٢٩)

وثبت الفرنسيون أنفسهم في المنطقة التابعة لحمايتهم - وانعقد مؤتمر باريس بين الفرنسيين والأسبان، في الفترة ما بين ١٤ يونية و١٠ يولية ١٩٢٦ لتسوية المشكلات السياسية المترتبة على استسلام الأمير - وانتهى المؤتمر بتوقيع اتفاقية خاصة لتحديد خطوط الحدود بين المنطقتين على أساس اتفاقية ١٧ نوفمبر ١٩١٢ - واتفق في المؤتمر على إرسال الأمير الخطابي إلى المنفى، واختاروا له جزيرة (رينون) في المحيط الهندي كمقر له.

وفي عام ١٩٤٧ سمح للأمير عبد الكريم وأسرته بالاقامة في فرنسا، وفي ٢١ مايو من نفس العام، بينما كانت الباخرة التي تقل الأمير وأسرته ترسو في ميناء بورسعيد - هبط الأمير وطلب اللجوء السياسي في مصر، ورحبت القاهرة به، وعاش الأمير بها حتى مات في ٦ فبراير عام ١٩٦٣، لتنتهي حياة الأمير الخطابي الذي حارب فرنسا وأسبانيا، وأسس دولة

الريف، وكان علما بارزاً في حركة التحرر الوطني المغربي، حيث ظهرت جهوده في استقلال المغرب في عام ١٩٥٦.

الخاتمـــة

من هذا العرض لثورة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي، ضد الاستعمارين الفرنسي والأسباني، نجد أن هذه الثورة تمثل نمطاً آخراً من زعامة القبائل وقيادتها عن طريق الثورة، وطلب الاستقلال بعيداً عن الحكم الأسباني – فهي تمثل نقطة انتقال هامة في حياة القبائل، ولم يكن زعيم الثورة مرابطاً محلياً قائداً للجهاد، ويعد الشهداء بالجنة، بل كان زعيماً سياسياً واسع الطموح، يتطلع إلى الفكرة القومية.

لقد ظهر أن إعداد محمد عبد الكريم الخطابي كان يؤهله إلى أن يلعب هذا الدور الخطير في حياة المغرب – فهو ابن لأحد علماء بني ورياغل، وهو الذي تربى على الثقافة الإسلامية في فاس، وهو الذي درس في (مدريد) واحتك بالأسبان في مليلة، ولهذا عندما تزعم ثورة الريف لم يكن مجرد قائد عادي، بل كان مزوداً بثقافة إسلامية واعية صقلتها تجاربه واحتكاكه مع المغاربة في فاس، ومع الأسبان في مليلة.

لقد نشبت ثورة الريف دفاعاً عن استقلال الريف عن أسبانيا، وهي تشبه كل الثورات التي قامت في المغرب، بسبب ما أحرزه الأمير محمد عبد الكريم الخطابي من انتصارات على الأسبان، واستيلائه على كميات ضخمة من الأسلحة التي سهلت له الكثير من التفوق والانتصار.

فبعد انتصاراته الأولى لم يعد عبد الكريم مجرد زعيم ثورة فحسب، بل اتجه إلى بناء دولة تجمع بين تقاليد القبيلة، وأفكار العصر الحديث، فأسس الجمهورية، وتلقب بالأمير، وأوجد مجلساً تمثيلياً، وأعلن استقلال الريف واتخذ (أجدير عاصمة لدولته).

وقد كان لإعلان الجمهورية والاستقلال أثر في بلبة الافكار وتضارب الأراء، واتهم البعض الأمير بأنه رفض الاعتراف بسلطة السلطان مولاي يوسف، لأنه (أي السلطان) ليس إلا أداة في أيدى الفرنسيين.

ومهما يكن من أمره، فإن ثورة محمد عبد الكريم الخطابي، ضد الأسبان والفرنسيين، قد لعبت دوراً ضد هذين الاستعمارين، وكانت علامة بارزة في حركة المقاومة السياسية في المغرب، ومصدراً للإلهام والإرشاد للشباب المغربي؛ فقد هزت هذه الثورة الريف هزاً، ودكت

عروش الإمبراطوريتين الفرنسية والأسبانية، ووضعت لبنات المقاومة الوطنية التي لم ينطفئ نورها إلا بإعلان استقلال المغرب في الخمسينات من القرن العشرين.

لقد كانت الثورة درساً أفاد الوطنيين، واستفادوا منه في معارك التحرير – حيث محا عبد الكريم آثار نصر الحرب العالمية الأولى أمام الفرنسيين – ولقنهم دروساً في القتال لم يألفوها في شمال أفريقيا، ووضع بذور الحركة القومية أمام الشباب المغربي؛ الذي استلهم الرشد والصواب من حركة هذا الزعيم، وحارب وقاوم حتى تحقق الاستقلال النهائي للمغرب كله

لقد كانت معركة أنوال، ضد الأسبان، فاتحة الطريق لبناء دولة مغربية حديثة، وكان ثاني انتصار للعرب على القوى الأجنبية، وخاصة الأسبان والبرتغال، وبعد هزيمة البرتغال في معركة وادي المخازن ١٥٧٨، ومصرع ملك البرتغال جون ساسبتيان، وألت أملاك البرتغال إلى أسبانيا حتى عام ١٦٤٠. وبعد معركة الأنوال وهزيمة الأسبان صار الخطابي زعيما قويا وتحدى الفرنسيين، ورفض الاعتراف بالحماية، وظل يقاوم الدولتين حتى استسلامه في عام ١٩٢٦ ونفيه إلى جزر رينيون.



مكتبة البحث

١- شوقي الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ١٩٩٧، ص ٣١٧ وما بعدها – وأيضا أزمة المغرب الاقصى – ترجمة إسماعيل على وحسن الحوت، القاهرة ١٩٦٦ ص ١١٥.

٢- شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرازق إبراهيم – الوثائق التاريخية، القاهرة ٢٠١١ ص ٧٥.

٣- Cambon, Henri : Histoire du Maroc (Paris 1952) pp.419-420

٤- أنظر نص الاتفاق في

Klark, Rachid : Le Conterntieux Territorial entre le Maroc et L.Espagne (Casa blanca 1974) P.250

٥- روم لاند: أزمة المغرب الأقصى، ترجمة إسماعيل علـى وحسن الحـوت، القـاهرة ١٩٦٦، ص١٧.

٦- محمود كامل فريد : انتصار عبد الكريم الريفي، القاهرة ١٩٢٥، ص ٥٢

٧- كلمة ريف ليس لها المعنى الشائع في الشرق العربي والذي يعني المناطق الزراعية، ولكنهـا تعني في المغرب طرف الشئ أو نطاقه الخارجي، وهي تعني الساحل الشمالي، وصارت تطلـق على المنطقة المحيطة بسبته غرباً حتى حدود الجزائر شرقاً، وطبقا لهذا التحديد فإن بلاد الريف تمتد بمحاذاة البحر على مسافة طولها ١٢٠ ميلاً وعرضها ٢٥ ميلاً، وتقطن هذه المنطقة قبائل الجبالا ذات الأصل البربري، إلى جانب سكان المدن العرب الذين اختلطوا بالبربر، ومن القبائل البربرية التي تسكن الريف قبيلة ورياغل التي ينتسب إليها الزعيم محمد عبد الكريم الخطابي.

– أنظر صلاح العقاد : المغرب العربي، القاهرة ١٩٦٩، ص ص ٢٧٩ – ٢٨٠.

٧- جلال يحيي : المغرب العربي الحديث والمعاصر، الاسكندرية ١٩٨٢، ص ١١٤

٨- كان أحمد الريسولي قد درس القانون في شبابه، لكنه استسلم لحياة المغامرات، وصار يـسرق الماشية، ثم يردها لأصحابها مقابل ديه تدفع له، وقد قويت شوكته بين قبائل الجبالا ولذا عينه السلطان عبد الحفيظ باشا على قبائل جبالا، ولما بدأ الاحتلال الأسباني لبلاده، كان من الطبيعي أن يصطدم بقوة الريسولي وتقدمت القوات الأسبانية إلى تطوان واحتلتها عام ١٩١٣، وقـام الريسولي بمهاجمتهم وأرسلت أسبانيا تعزيزات للمنطقة واضطرت أسبانيا لمهادنته وعقدت معه صلحاً اعترفت فيه بحكمه في منطقة الجبالا لتتفرغ لمواجهة محمد عبد الكريم الخطابي.

٩- Walter, Harris: France, Spain and the Rif,London 1927, pp.332-372

١٠- جلال يحيي : مرجع سابق، ص ١٢٢.

١١- صلاح العقاد : مرجع سابق، ص ٢٨٤.

١٢- كريم خليل ثابت : عبد الكريم والحروب الريفية، القاهرة ١٩٢٥، ص ٣٢.

١٤- صلاح العقاد : مرجع سابق، ص ٢٨٦.

١٥- أنظر إعلان حكومة الريف في إبراهيم شحاته حسن : نصوص ووثائق في تاريخ المغرب تحت حكم الحماية، الإسكندرية ١٩٨٢، ص ٢٣٨.

١٦- محمد خير فارس : تنظيم الحماية الأسبانية في المغرب، دمشق ١٩٧٢، ص ١١٠.
١٧- Fontaine, p. : Abdel Kerim, Paris 1958, p.61.
١٨- محمد خير فارس : مرجع سابق، ص ١١٤.
١٩- فوريو روبرت : عبد الكريم أمير الريف، ترجمة فؤاد أيوب (دمشق بدون تاريخ) ص ١٤٣.
٢٠- صلاح العقاد : مرجع سابق، ص ٢٨٦.
٢١- جلال يحيي : مرجع سابق، ص ١٤٥.
٢٢- Gabrielli, L. : Abdel kerim et les developments du Rif (Casablanca, 1953), p. 120.
٢٣- من شروط الاتفاق قبول الأمير لمبدأ الحماية والاعتراف بسلطان المغرب، ومغادرة الأمير الخطابي للبلاد وأخيراً تجريد قبائل الريف من السلاح، وقد ضرب الخطابي المثل الرائع في إنكار الذات بقبول هذه الشروط كأساس للتفاوض وعلى أمل أن يحفظ لأهل الريف قدراً من الاستقلال الذاتي :
- صلاح العقاد : مرجع سابق، ص ٢٩١.
- وأيضا محمد خير فارس : مرجع سابق، ص ١٢٥.
٢٤- جلال يحيي : مرجع سابق، ص ١٦٦.
٢٥- محمد خير فارس : مرجع سابق، ص ١٢٥.
٢٦- شوقي الجمل : مرجع سابق، ص ٣٥٧.
٢٧- جلال يحيي : مرجع سابق، ص ١٧٧.



دور قوة دفاع السودان في تحرير ليبيا وارتريا في الحرب الأوروبية الثانية من الاستعمار الايطالي ١٩٣٨ - ١٩٤٥م "دراسة في الأوجاع السودانية"

أ.د. أحمد إبراهيم دياب(*)

تمهيـــد:

السودانيون معروفون منذ القدم بأنهم أشداء أقوياء في الحرب والزراعة وأي أعمال رجولية وقد وصلت صفتهم هذه إلى أوروبا ناهيك عن البلاد العربية، مما دعي نابليون بونابرت أن يرسل الخطاب التالي إلى السلطان عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور (١٧٨٧-١٨٠١) طالباً منه مده بشباب ليكون منهم جيشاً لمهمات خاصة.

سيدور في السنة السابعة للجمهورية الفرنساوية سنة ١٧٩٩م (بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله) إلى السلطان عبد الرحمن سلطان دارفور تناولت كتابتكم وفهمت فحواه واعلموا أن قافلتكم قد وصلت في حين كنت متعقباً في بلاد الشام أعاقب أعداءنا وأدربهم والآن طلبي إليكم أن ترسلوا إلى مع أول قافلة إلفي شاب من الشباب الأشداء والمتجاوزين السنة السادسة عشر من العمر إذ مرادي أن يكونوا بجني والأمل أن توعزوا إلى القافلة بسرعة القيام ومواصلة السير الحثيث وها أنا أمرت من يلزم لحمايتها ووقايتها حيث تكون:-

الإمضاء بونابرت القائد العام للجيش الفرنساوي وأرسل السلطان عبد الرحمن الرشيد ألف شاب سوداني من قبائل سودانية شمالية مختلفة من دارفور ومن جبال النوبة ومن الدناقلة والسكوت والمحس ودربهم نابليون وجعلهم جيشه الخاص وتم إرسالهم بعد ذلك عندما انهزم الجيش الفرنسي في أمريكا الجنوبية (الأرجنتين والمكسيك...) أرسلهم لرد اعتبار فرنسا وقاموا باسترداد المواقع الفرنسية وعاشوا هناك وتزوجوا من بنات أمريكا الجنوبية وأبسط دليل اسم أو كامبوا وهي كلمة (نوبية/ دنقلاوية/ نوباوية) تعني أنا بصحة جيده وعلى خير وهناك كثير من الأسماء السودانية في الأرجنتين والمكسيك من أبناء وحفدة القوات السوداني.

وفي عهد حكم محمد على باشا وأبناءه للسودان (فترة الحكم العثماني) أرسلت إدارة السودان حملة مكونة من السودانيين معظمهم من مسلمي جبال النوبا لردع الوضع في يوغندا وقامت القوة السودانية بردع التمرد في يوغندا وحافظت على حراسة منطقة البحيرات ولم ترجع للسودان بل بقيت هنالك وتزوج أفرادها من بنات يوغندا وكان الرئيس عيدي أمين والاسم الصحيح عيد أمين حفيد أحد أفراد تلك القوة وهو الذي حكم يوغندا في ثمانينات القرن الماضي وبعدها جاور في الحرم المكي، ومازال أحفاد تلك القوة في يوغندا إلى اليوم ويشكلون نخبة إسلامية انتشرت حتى شمال كينيا.

(*) أستاذ بجامعة الخرطــوم.

من نحن:-

لقد أورد كثير من المؤرخين أسماء عده أطلقت على أرضنا الواقعة جنوب مصر وكل اسم أطلق في حقبة معينة من الزمن ولفترة حتى جاء الاسم الثاني وهي:-

١- ارض كوشتى، نبته، مروي.

٢- النوبة.

٣- تهاتو وأرض الذهب (الذهب الآن موجود على سطح الأرض في الصحراء الممتدة من مدينة بربر على النيل شرق حتى جبال البحر الأحمر ويقوم الأهالي بغربلة الرمال لالتقاط الذهب).

٤- وعندما حكم الإغريق مصر سمونا (بالإثيوبيين).

٥- ودخلت المسيحية السودان وقامت دولة المقرة وصارت لها علاقات مع شرقي البحر الأحمر (بلاد الحجاز حاليا) فسمونا بلاد الجيش وملكها سمى بنجاشي الحبشة في دنقلا واستمر الاسم إلى أن جاء الحكم العثماني في القرن السادس عشر لبلاد الحجاز وأسس سواكن غرب البحر الأحمر وعين واليا لجده وسمي والى جده وسواكن وبلاد الحبش أي الأرض الممتدة من سواكن غربا حتى النيل دنقلا. والإثيوبيين الآن لا يقبلون ولا يرضون باسم جيش لأنها ليست لهم وهجرة المسلمين الأولى إلى دنقلا بلاد الحبش ومقابر الصحابة مازالت فيها وزرت أديس ابابا ولم أجد أي وثائق أو دلائل توضح هجرة عربية لأرضهم.

٦- السودان وهو اسم أطلقه العرب وتعني أرض/ بلاد السود فالمقطع الأول (سود) وهو واضح المعنى والثاني (ان) تعني بلاد أو ارض ونجدها في أسماء كثير من البلاد مثل:- باكستان، أفغانستان، كردستان ففي كل هذه الأسماء (أن) تعني أرض وزد على هذه ممن عنده زيادة وهي كثيرة.

تكوين قوة دفاع السودان :

تكونت قوة دفاع السودان في أوائل ١٩٢٦ وهو الاسم الانجليزي الذي أطلقة الانجليز على العسكريين الذين كانوا ضمن القوات المصرية الموجودة معهم في السودان والتي تم ترحليها بعد ثورة ١٩٢٤م ومقتل سيرلي استاك والتي قامت الجنود السودانية فيها بالثورة العسكرية بقيادة على عبد اللطيف وعبدالفضيل وغيرهم من الضباط والجنود في (الأورطه) السودانية في القوات المصرية (تم إرجاع القوات المصرية بعد اتفاقية ١٩٣٦ السودان) وأصبحت بعد ذلك القوات المسلحة السودانية عند الاستقلال في يناير ١٩٥٦م.

وافتتحت الكلية الحربية وأصبحت تخرج ضباط انضموا لقوة دفاع السودان التي كانت جزء من حكومة السودان البريطانية وقامت الحرب الأوربية الثانية بقيادة كل من ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية (دول المحور) ضد انجلترا وفرنسا وروسيا وأمريكا وبقية الدول الأوربية من أجل مصالح كل دولة ولكن التقت كل من ألمانيا وايطاليا في جانب والبقية في

جانب آخر سموا أنفسهم بالحلفاء ولم يدخل صف الحلفاء أي دولة من العالم الثالث لأننا كنا تحت حكمهم سواء الحلفاء أو المحور (ألمانيا وايطاليا).

وكان الشعب السوداني ممثلا في مؤتمر الخرجين الذي كان يضم كل مثقفي السودان.

مؤتمر الخريجين والحرب الأوربية الثانية:

في عام ١٩٣٩ نشبت الحرب العالمية الثانية، وسرعان ما أعلن مؤتمر الخريجين سياسة التأييد المطلق الصريح للديمقراطية، فأرسل رسالة للحاكم العام يعلن فيها موقفه قائلا:

(في هذه الظروف العصيبة وبالنسبة لتحرج الأحوال الدولية وزعزعة أركان السلام نقدر كل التقدير ما قامت به حكومتنا الساهرة على مصالح الشعب من عمل كل الاحتياطات الممكنة لحماية الشعب ومصالحة الحيوية).

ومع قيام كثير من أعضاء المؤتمر بالتطوع بالاشتراك في أعمال الاحتياطات ضد الغارات بواسطة مكاتبهم وأنديتهم، فان المؤتمر على استعداد لتقديم أية خدمة ممكنه تطلب منه وهو يبتهل إلى الله أن تنقشع هذه السحب القائمة وأن تتغلب مساعي السلام.

أم درمان — المطيع

في ١/ سبتمبر/ ١٩٣٩ — إسماعيل الأزهري

سكرتير مؤتمر الخرجين العام[1]

وكتب السكرتير الإداري ردا على رسالة المؤتمر في ٥/سبتمبر قال فيه (كلفت بإفادتكم باستلام كتابكم المؤرخ أول/سبتمبر وأن أخبركم أن معالي الحاكم العام قد قرأه بارتياح تام وقد أعرب معالي في الرسالة التي أذاعها على أهالي السودان عن ثقته بولائهم وشجاعتهم وحسن إدراكهم، وليعلم أن حربا واسعة ألمدي كالتي نشبت بين الدول الديمقراطية وألمانيا قد تجر آلاما وتضحيات شخصية كثيرة أو قليلة في كثير من البلاد.

ويرى معاليه في كتابكم أوضح تأكيد ممكن بأن السودان لا يعوزه رجال عاملون ممن لا تنقصهم العزيمة لعمل كل ما في وسعهم لتأييد انتصار العقل على القوة الوحشية ودمتم.

د. نيوبولد

نائب السكرتير الإداري[2]

([1]) جريدة النيل (السودانية) العدد ١٢٤٢ بتاريخ ١٨/٩/١٩٣٩.

([2]) المرجع السابق نفس العدد في نفس التاريخ.

وفي ١٥ سبتمبر وجه مؤتمر الخريجين العام نداء على الشعب السوداني يناشده باعتباره شعبا يقدر مصالحه ويشعر بوجوده (أن يساهم مساهمة فعليه فيما ينشأ عن هذا الموقف. أن حركات التطوع دلت على استعداد السودانيين لمواجهة الحالة متضامنين مع الحكومة التي أولوها ثقتهم ولكن هناك واجبات أخرى يستطيع أن يؤديها كل فرد من أبناء هذه البلاد، ومن أهم تلك الواجبات التزام الهدوء والسكينة والتذرع بالصبر والثبات كما يجب علينا أن نعين الحكومة على القيام بالأعباء الثقيلة الملقاة على عاتقها ببذل ما تتطلبه من التضحيات وإتباع إرشاداتها وتلقي نصائحها بالقبول التام.

أن الحرب مع ما تجره علينا من مصائب فأنها فرصة للتعاون بين أفراد الأمة وإتحادهم وتذوقهم معنى التضامن وهي في ذات الوقت تزيد من توسيع مدى التعاون وتوطيد الثقة بيننا وبين الحكومة[3].

دارت كل هذه المكاتبات وغيرها في أثناء الدورة الثانية للمؤتمر التي بدأت في أول/فبراير/ ١٩٣٩. وقد وضح التعاون بين المؤتمر وإدارة السودان في الرسالتين المتبادلتين وفي نداء المؤتمر. ولم يكن موقف المؤتمر ذلك نتيجة حرصه على الديمقراطية في العالم وكراهيته الفاشية والدكتاتورية. بل كان خوفه من أن يصير السودان عرضة لأواء الدول الاستعمارية. فقد اخضع الإنجليز السودان لحكمهم في أعقاب القرن الماضي بقوة الحديد والنار وفرضوا سلطانهم عليه تحت اسم الإدارة الثنائية وبحق الفتح وفي ذلك قال أزهري (وكنا نعمل جاهدين لتحرير بلادنا إذ لم يكن من المعقول ولا المقبول أن نرضى باستبدال سيد بسيد مهما كانت الظروف[4]) كما أن المؤتمر وجدها فرصة مواتيه لمخاطبة الشعب السوداني مباشرة وأن يتكلم باسمه ولم تعترض إدارة السودان على هذه المخاطبة وهذا التمثيل لأنها تعتبر هذا المسلك في صالحها.

وأنخرط كثير من أعضاء المؤتمر متطوعين في قوة الطوارئ التطوعية التي أنشأتها إدارة السودان للدفاع عن السودان ضد أي خطر إيطالي مقبل وكان بين أعضاء المؤتمر من يرى أنه على السودان إلا يتدخل لنصرة فريق في الحرب ولذلك ينبغي عليها أن تبتعد عن أتون الحرب ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. وكان هناك فريق آخر يري غير هذا الرأي بل كان رأيه أن يكون للسودان وأهله دور فعال في الذود عن حياض الوطن[5]. ولكن كان هناك شبه

([3]) جريدة النيل (السودانية) العدد ١٢٤٢ بتاريخ ١٩٣٩/٩/١٨.

([4]) مذكرات أزهري – الحلقة ٢٣ – ١٩٥٧/٦/٢٨ – جريدة الأيام .

([5]) المرجع السابق – مذكرات أزهري.

إجماع بين الخرجين بأنه يلزم أن تمنح قوة دفاع السودان[6] كل تعضيد في الذود عن حياض الوطن. ولكن على شرط إلا يمتد نشاطها وراء ذلك أو يزيد عنه. بل أن لجنة المؤتمر رفضت قبول دعوة الحكومة إلى قيادة حملة تجنيد السودانيين في قوة الدفاع السودانية[7]. ويقول أحمد خير- وكان في ذلك الوقت عضوا في الهيئة الستينية للمؤتمر - وقد عرض على المؤتمر في هذه اللحظات أن ينتهز فرصة الحرب فيقود حملة لإنشاء جيش وطني أو لتشجيع التجنيد في صفوف قوة دفاع السودان[8].

دور قوة دفاع السودان في الجبهتين الارترية والليبية:

تمركزت الحرب بين الدول الأوربية للحفاظ على مستعمراتها في إفريقيا في ثلاث محاور:-

١- ضد ألمانيا في تنزانيا.
٢- ضد ايطاليا في ارتريا والحبشة (البحر الأحمر) الخوف البريطاني على السودان.
٣- ضد ايطاليا في ليبيا.

الجبهة الارترية:

مع بداية الحرب دخلت القوات الايطالية الأراضي السودانية من محورين:

١- من الأراضي الإثيوبية حيث تمكنت من احتلال الأراضي الواقعة شرق مدينة القضارف السودانية حتى مدينة القضارف نفسها.
٢- وفي المحور الثاني دخلت القوات الايطالية إلى مدينة كسلا زاحفة من ارتريا وكسلا يبعد عن العاصمة الارترية بحوالي ٢٥٠ كيلو متر ومن كسلا بدأت استعداداتها في الجبهتين للتحرك صوب الخرطوم. وكانت الخطة الايطالية أن يتم الزحف على مصر من الجنوب بعد احتلال السودان ومن الشرق من بنغازي المستعمرة الايطالية وتحركت قوة دفاع السودان لاسترداد المدن الشرقية (القضارف وكسلا) وضخامة سكانها، بل أنها بعد انسحاب القوات الايطالية إلى داخل ارتريا متكبدة الخسائر لاحقتها القوات السودانية وقامت بتحرير المدن والقرى الارترية بدأ من تسنى حتى وصلت إلى مدينة كرن وهي المدينة الثانية بعد العاصمة (اسمرا) وتبعد من كسلا

---

(6) أنشت قوة دفاع السودان أوائل ١٩٢٥ بعد أن أمرت السلطات البريطانية القوات المصرية بالانسحاب من السودان بعد اغتيال سيرلي ستاك في القاهرة في نوفمبر ١٩٢٤ وقد كونت من الجنود والضباط السودانيين الذين كانوا في الفرق السودانية ضمن القوات المصرية.

(7) Henderson K.D.D: Modem sudan, P, 537.

(8) أحمد خير – كفاح جيل ص ١٠٢.

(١٥٠) كيلو متر ومن اسمرا (١٠٠) كيلو متر وقامت بتحريرها وهنا قالت الأغاني السودانية مسجلة هذا الحدث في هذا الشعر الشعبي:

أجوا عابديـــــن بالله الحرروا كـرن بينيـن يا الله

ضبـــــاط ومهندسـين الزين حسن وعلى حسين ياالله

واصلت القوات السودانية زحفها إلى العاصمة اسمرا حيث قامت بمحاصرتها حصارا تاما حتى استسلمت وبعدها توجهت إلى سواحل البحر الأحمر وتم تحريرها وهكذا تم تحرير ارتريا من الاحتلال الايطالي على يد قوة دفاع السودان التي تكونت من الجنود العاملين فيها والمتطوعين السودانيين الذين وقفوا مع الحلفاء ضد دولتي المحور إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية.

الجبهة الليبية:

تمركزت القوات الايطالية والألمانية (قوات المحور) شرق مدينة بنغازي استعدت لدخول مصر لاحتلال قناة السويس والبحر الأحمر والشرق الأوسط وسافرت القوات السودانية عن طريق دنقلا درب الأربعين إلى جنوب فزان ومن هناك بدأت معاركها مع القوات الايطالية حيث استطاعت بسط سيطرتها حتى العاصمة وكانت المعارك دائرة في نفس الوقت على ساحل البحر الأبيض منطقة طبرق والتي انتهت بمعركة العلمين وهزيمة القائد الألماني روميل على يد القوات المصرية والبريطانية وسيطرت القوات السودانية على بنغازي ونظفتها من الجنود الايطاليين الذين كانوا يدخلون منازل الليبيين لسرقتها والنيل بأسرها وعروضهم.

وبعد انتهاء المعركة سلمت القوات السودانية بنغازي والمدن الأخرى في برقة التي حروقها للقوات البريطانية ومن ثم اتجهت نحو الإسكندرية ورجعت للسودان عن طريق القاهرة/ أسوان/ حلفا / الخرطوم، وكان سكان شمال السودان سيتقبلونهم وهم في القطار بالزغاريد والهدايا والتهليل والتكبير حتى محطة الخرطوم.

وقد سافر مع قوات دفاع السودان فنان السودان الأول أحمد المصطفي الذي غنى وانشد لهم.

خاتمة الرمية:

الكســـــــرة:لحرب ورجوع القوات السودانية من الجبهتين الارترية والليبية تم تسريح المتطوعين ورجعوا إلى أعمالهم ولكن عندما قامت حرب فلسطين في ٩٤٨ تطوع هؤلاء وذهبوا تحت قيادة القائد حامد صالح المك وهو من الضباط السودانيين القدامى، وانضموا للقوات المصرية وكان عددهم مائتين وخمسين (٢٥٠) وحقق هؤلاء المتطوعين إعمالا مجيدة في الميدان واستشهد منهم عدد كبير بينهم خمس ضباط.

الكســـرة :

من الملاحظ أن جنود وضباط قوة دفاع السودان الذين اشتركوا في جبهتي ارتريا وليبيا لم يكن بينهم من جنوب السودان آنذاك أي فرد بل كانوا من السودان الحالي الذي انفصل عنه الجنوب وكانوا من دارفور وجبال النوبا وقبائل شمال وشرق السودان.

لقد اشترك في المعارك ضد الايطاليين في الجبهتين الارترية والليبية كثير من الضباط السودانيين ومنهم من مات في تلك المعارك مع الجنود ومنهم من بقي على قيد الحياة وكانوا ضباطاً صغار وهذه رتبتهم العسكرية التي تقاعدوا بها للمعاش على سبيل المثال لا الحصر:-

١- الأمير الاى عبد الله بك خليل.
٢- الفريق أحمد محمد.
٣- الفريق إبراهيم عبود.
٤- الفريق بشير محمد على.
٥- اللواء طلعت فريد.
٦- اللواء محمد رضا فريد.
٧- اللواء حسن بشير.
٨- اللواء محمد احمد التجاني.
٩- عــروه.
١٠- اللواء عثمان محمد عثمان.
١١- اللواء الزين حسن الطيب هاشم.
١٢- اللواء على حسين.
١٣- اللواء أحمد عبد الوهاب.
١٤- اللواء حامد صالح المك.

المصـــادر والمراجع

١- المتحف الحربي رئاسة الجمهورية الخرطوم.
٢- مذكرات خضر محمد، مذكرات إسماعيل الأزهري.
٣- وثائق مؤتمر الخريجين ١٩٣٥ - ١٩٤٧.
٤- مقابلات شخصية بأسر الضباط الذين شاركوا أن المعارك وأسمائهم في الملحق احمد خير: كفاح جيل.



سياسة بريطانيا إزاء مصر من العدوان الثلاثي ١٩٥٦ إلي قيام الحرب المصرية الإسرائيلية ١٩٦٧

(دراسة وثائقية)

د. مرفت أسعد عطا الله (*)

المقدمـــة :

إن العقد الذي أعقب العدوان الثلاثي على مصر، في عام ١٩٥٦، لم يجد اهتماما من المؤرخين لبيان سياسة بريطانيا في منطقة الشرق الأوسط، نظرا لضعفها في أعقاب تسوية النزاع في المنطقة، وخروجها منها خروجا غير مشرف. لاسيما وأن الولايات المتحدة الأمريكية قد ظهرت في ذلك الوقت كوريث للإمبراطوريتين : بريطانيا وفرنسا.

ومن ثم اهتم المؤرخون بإبراز دور الولايات المتحدة الأمريكية، في هذا العقد، الذي شهد حرب ١٩٦٧ بين مصر وإسرائيل. ولذا أصبح دور بريطانيا في تلك الفترة غير واضح.

ومهما كان دور بريطانيا ثانويا بالنسبة لدور الولايات المتحدة الأمريكية، فقد وقع اختياري عليه لبحثه من واقع الوثائق البريطانية التي اعتمدت عليها اعتمادا يكاد يكون كليا.

بريطانيا والعمل سرا وعلنا ضد مصر فيما بين حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ :

ذكر وزير الدفاع الأمريكي روبرت ماكنمارا[١] Robert McNamara (١٩١٦–٢٠٠٩): " لعبت بريطانيا دورا صغيرا في النزاع العربي الإسرائيلي في العقد التالي للسويس، اقتصر دورها على التصفيق للجهود الأمريكية في إيجاد حلول للنزاع حول حقوق مياه نهر الأردن، ومشكلة أسلحة الدمار الشامل في الستينيات. وقد علق كل من روبرت كومر[٢] Robert Komer (١٩٢٢–٢٠٠٠) وماك جورج باندي[٣] Mc George Bundy (١٩١٩– ١٩٩٦) على قصر النظر البريطاني في الشرق الأوسط، فأشارا في عام ١٩٦٤ إلي أن البريطانيين عندما يذكرون الشرق الأوسط فهم يعنون عدن واليمن "[٤].

ثم يعود ماكنمارا ليقول : " على أية حال، بريطانيا كانت ولا تزال تحتفظ ببعض الالتزامات في النزاع العربي الإسرائيلي، وتلك الالتزامات هي :

- الإعلان الثلاثي[٥] The Tripartite Declaration عام ١٩٥٠.
- الوعود التي قطعها رئيس الوزراء هارولد ماكميلان Harold Macmillan (١٩٥٧–١٩٦٣) في مجلس العموم House of Commons لإبقاء المرور الحر للسفن الإسرائيلية خلال مضايق تيران، في بدايات ١٩٥٧[٦].

(*) أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر بكلية التربية – جامعة الإسكندرية.

والحقيقة أن دور بريطانيا لم يكن صغيرا، بهذا الشكل، في العقد الذي تلى العدوان الثلاثي، إنما كان غير واضح. وفيما يلي سوف أتتبع مواقف بريطانيا- خلال هذا العقد – في النزاع العربي الإسرائيلي لإثبات ذلك.

كانت بريطانيا الأكثر معارضة للقومية العربية التي كان أهم دعاتها الرئيس جمال عبد الناصر (١٩٥٤-١٩٧٠)، الذي تعهد بدوره بإبعاد بريطانيا من المنطقة. ونتيجة لذلك، دخلت كل من بريطانيا ومصر – فيما بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٦٧ – في مجابهات عسكرية وسياسية ودبلوماسية في الشرق الأوسط. وتوترت العلاقات المصرية البريطانية وكان النزاع بينهما أشبه ما يكون بالحرب الباردة[٧].

وقد رأي رجال الدولة البريطانيون، خصوصا المحافظون منهم، أن عبد الناصر وراء كل نشاط معاد للغرب ولبريطانيا في الشرق الأوسط، وفي الوقت الذي اعتبرت فيه الولايات المتحدة الأمريكية عبد الناصر خطرا بسيطا، بالمقارنة بخطر الإتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط، اعتبره الزعماء البريطانيون أكبر عدو لهم في المنطقة، ولم يستطع أي من رؤساء الوزراء البريطانيين الخمس لهذه الفترة : ونستون تشرشل Winston Churchill (١٩٥١-١٩٥٥)، وأنتوني إيدن Anthony Eden (١٩٥٥-١٩٥٧)، وهارولد ماكميلان، واليك دوجلاس هيوم Alec Douglas–Home (١٩٦٣- ١٩٦٤)، وهارولد ويلسون Harold Wilson (١٩٦٤- ١٩٧٠) " الوصول لأي طريقة للعيش Modus Vivendi مع ناصر"[٨].

فقد فند جوليان إيمري[٩] Julian Amery (١٩١٩-١٩٩٦)، في أحد تقاريره، الوسائل الممكنة لإعادة بريطانيا توطيد نفوذها في العالم العربي، فوجد أمامه عدة طرق منها: الاتفاق مع عبد الناصر، أو بالعمل السري أو العلني ضد مصر.

بالنسبة للطريق الأول، وجد انه يستلزم إجراء تحول جذري في السياسة البريطانية تجاه العالم العربي، حيث يجب عليها أن تسحب دعم الحكومات العربية الموالية لها، وتتخلى عما تسيطر عليه من حقول النفط، ولكن ذلك سيترتب عليه عواقب عسكرية، وسياسية، واقتصادية خطيرة بالنسبة لبريطانيا، إذ ستفقد بريطانيا قواعدها في ليبيا والخليج العربي وشبه الجزيرة العربية، وستهتز مكانتها في شرق ووسط أفريقيا. وسيهتز ولاء القوى غير العربية في المنطقة (تركيا – إيران – باكستان – إسرائيل – إثيوبيا) لها بشكل خطير جدا. كذلك ستدفع بريطانيا أكثر للحصول على النفط اللازم لها، وتقبل الخسائر في الدخل والربح، ورغم كل ذلك كما يقول إيمري " لن نكون متأكدين من أننا في النهاية سننجح في جعل ناصر حليفا، أو حتى محايدا لنا. فالمجازفة بالاتفاق مع ناصر على الشروط الوحيدة المقبولة من قبله، تبدو أمرا غير مقبول"[١٠].

ومن ثم كان الطريق الثاني هو الواجب اتباعه، وهنا اقترح إيمري وسيلتين لذلك : الأولى " تقوية أنشطة دعاياتنا الهدامة في الشرق الأوسط"، والثانية " يجب أن نبقى في الشرق الأوسط قوات مستعدة لاغتنام الفرصة المناسبة"[١١].

أولا : النشاط الدعائي :

أولت إدارة المخابرات البريطانية Secret Intelligence Service (M.I.6) عناية فائقة لهذا النشاط.

كانت هناك وجهة نظر بريطانية في هذا الشأن، وتتلخص في التركيز على نقد تصرفات عبد الناصر، سواء كان منسوبا إليها أو منسوبا إلى الجانب العربي، وهى تفضل أن يكون من الجانب العربي، لاسيما وهى كانت تعتقد أن أسهم عبد الناصر قد قل تأثيرها عما كانت عليه من قبل، لكنها لا تريد الظهور بمظهر "الشامتين أو المساهمين في سقوط ناصر التدريجي"(١٢). ومهما كانت الأوضاع في منطقة الشرق الأوسط، فما زال عبد الناصر يتمتع بشخصية قوية، وهيبة كبيرة ترفعه، لدى العديد من المسئولين العرب، لمكانة أعلى بكثير من مجرد رئيس دولة. "ولا تزال الجمهورية العربية المتحدة تحتفظ بقدرة هائلة للإساءة إلينا .. ولا زال تأثير القاهرة قويا في الشرق الأوسط، ولديها عدة أسلحة فعالة تحت تصرفها"(١٣). وكانت الدوائر السياسية في بريطانيا ترى: أن الطريقة الأفضل والأكثر فعالية لتقليل تأثير مصر في الشرق الأوسط، هو التقليل من أهميتها قدر المستطاع، وإظهار المملكة المتحدة كما لو كانت غير مهتمة بالتطورات في العالم العربي، " فلفترة طويلة كانت هناك مناورة مفضلة لآلة الدعاية المصرية لتصوير لندن كما لو أنها ترقص على أنغام القاهرة To portray London as dancing to Cairo's tune ومثال على ذلك العناوين البارزة في الأهرام التي تقول: لندن مذعورة من التحركات المصرية، مما يوضح الإحساس بالغرور لدى المصريين، ورغبتهم في قيادة كل تطور يحدث في الشرق الأوسط، خصوصا في الميدان السياسي، ونحن يجب أن لا نمنحهم ما يدعم شعورهم هذا "(١٤).

ومن أمثلة هذا النشاط الدعائي :

- **إثارة الشبهات حول وجود تأثيرات شيوعية في مصر**

حيث قدم ارنست كوبر Ernest Cooper رئيس شركة برايس، ووتر هاوس، بيت وشركاهم Price , Waterhouse , Beit & Co، وهى شركة محاسبة قانونية في القاهرة، تقريرا ذكر فيه أسماء الشركات الأجنبية التي "استولى" عليها المصريون وختم تقريره بقوله: "يبدو أن ناصر... ينتهز فرصة الأزمة لكي يكسر العمود الفقري للمصالح الغربية في مصر... وبالتأكيد فإن هناك تأثيرات شيوعية في الموضوع"(١٥). وقد أشر وكيل وزارة الخارجية البريطانية إيفون كيركباتريك Yvonne Kirkpatrick بما يلي : " لابد أن نثير حملة دعائية حول هذا الاستيلاء بالقوة على المصالح الغربية ولابد أن نلاحظ أن يكون تركيز الحملة بعيدا عما أصاب الرعايا البريطانيين بحيث ينصب كله على غيرهم من الأجانب، ولكي لا نكون بمثابة من يعلن عن ضعفه "(١٦).

وتكشف وثيقة أخرى: إن أكبر خبراء وزارة الخارجية البريطانية، في مسألة التغلغل السوفيتي، كتب تقريرا لوزير الخارجية يقول فيه : " إنني لا أرى بموجب كل ما لدينا من

معلومات أن هناك دليلا يؤيد تغلغل الاتحاد السوفيتي، أو أي من الدول الدائرة في فلكه في الحياة الاقتصادية في مصر "، ومع ذلك فإن وكيل وزارة الخارجية أضاف إلى البرقية تأشيرة قال فيها : " أوافق على أن هذا صحيح، ولكني أتساءل : أليس بوسعنا أن نفعل شيئا بالشواهد التي توحي بأن ناصر: يعتمد على مشتريات السوفيت من القطن المصري، ويسمح لعدد من خبراء الكتلة السوفيتية بالوجود في المصانع المصرية "(١٧).

وكان لدى الانجليز اعتقاد بأن " روسيا تنوي طرد النفوذ الغربي من الشرق الأوسط والسيطرة على بتروله وعلى قناة السويس "(١٨).

لذا كان أول رد فعل لبريطانيا لزيارة رئيس الوزراء السوفيتي نيكيتا خوروشوف Nikita Khrushchev (١٩٥٨-١٩٦٤) لمصر، في مايو ١٩٦٤، هو دعم حكومة البعث في سوريا وأفراد حزب البعث في جميع أنحاء العالم العربي، وتوجيه هؤلاء إلى الانحياز إلى الصين ضد روسيا في ادعائهم الاشتراكية، " كما أن بريطانيا تبذل الآن جهودها وأموالها لمحاولة تنفيذ حلمها القديم بفصل بغداد عن القاهرة، وتفضل العمل في بغداد باعتبارها أضعف النقطتين"(١٩).

- **لفت الأنظار للنشاط النازي في مصر :**

اهتمت بريطانيا بشكل واضح بالحملة المعادية للسامية Anti – Semitic التي ظهرت عام ١٩٦٠، وقد ألمحت إلى أن النازيين السابقين في مصر مساهمون فيها " هناك... بعض النازيين السابقين في مصر، وبدون شك هم مفيدون بالنسبة للمصريين في عدة مجالات منها على سبيل المثال الجيش " وعلى الرغم من أنه " ليس هناك دليل بأنهم انغمسوا في أي نشاط سياسي هام، أو بأنه كان لهم نشاط في الحملات المعادية للسامية الأخيرة، فيجب أن نعمل مهما فسر تناولنا لهذا الأمر في الأمم المتحدة على انه تدخل في شئون الجمهورية العربية المتحدة "(٢٠).

- **استغلال الاضطرابات الداخلية في مصر :**

وجدت بريطانيا أنه يجب " التركيز على ذكر متزايد، ومنتقى بدقة، لحالات الفشل الداخلية والإقليمية للجمهورية العربية المتحدة.... لاسيما إعيائها المالي "(٢١)، فمصر " تواجه أزمة اقتصادية خطيرة بسبب نمو الكثافة السكانية. وبدون استمرار المساعدات الخارجية، ستكون هناك أزمة شديدة ستعرقل كثيرا التطور الاقتصادي"(٢٢).

وقد اضطر عبد الناصر أن يرهن قطن مصر لمدة سنوات، كي يدفع ثمن الأسلحة التي اشتراها (٢٣). مما أدى – ولأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية – : تغطي جزءا كبيرا من ثلث الحصة بالقطن المكسيكي بدلا من المصري(٢٤).

وبدأت الجماهير في مصر بالتذمر بشكل لم يحدث منذ عقد كامل " فكان النقد في الماضي دائما موجها ضد أتباع ناصر أما الآن فالنقد يتضمنه هو أيضا "(٢٥). وليس أدل على ذلك من " الهتافات العدائية للناصرية التي أطلقت أثناء تشييع جنازة رئيس الوزراء السابق النحاس باشا (١٨٧٦-١٩٦٥) "(٢٦).

وإلى جانب المشكلة الاقتصادية العميقة؛ واجه عبد الناصر مشاكل من صغار الضباط، فلقد تميزت السنوات العشر التي أعقبت عدوان ١٩٥٦ بظاهرة انتشار عسكري مصري خارج حدود مصر في بعض البلدان العربية، فابتعد ضباط القوات المسلحة عن وحداتهم وجنودهم عدة سنوات، وراحت التساؤلات تنتشر حول جدوى تشتيت القوات هنا وهناك، وما يتعرض له رجالها من متاعب وما يتحملونه من تضحيات[٢٧].

وحتى على المستوى السياسي الداخلي: فقد خفت قبضة عبد الناصر عن الإمساك بمقاليد الأمور مما كان عليه سابقا، ففي ١٩ يوليو ١٩٥٧ أعلنت الحكومة المصرية عن اكتشاف مؤامرة لاغتيال عبد الناصر وكل وزرائه، واستبدالهم بحكومة على رأسها محمد صلاح الدين – وزير الخارجية الوفدي السابق– وقد وجدت بريطانيا أنه " يمكن أن نعتبر ذلك تطورا مشجعا، فالمحاولة التالية للتآمر ضد ناصر ستكون أكثر دقة وتنظيما، وحتى تلك المؤامرة الأخيرة أظهرت أن استقرار النظام الحاكم كان مهزوزا "[٢٨].

كما أن المشير عبد الحكيم عامر (١٩١٩ – ١٩٦٧) لم يكن صالحا لتولي قيادة القوات المسلحة، في ظروف الصراع الضخم الدولي والإقليمي، الذي كانت تخوضه مصر في تلك السنوات. وليس هناك شك في أن هذه كانت واحدة من المسؤوليات الكبرى التي يتحملها جمال عبد الناصر[٢٩]. وقد مر وقت ليس بالقصير بعبد الناصر لم يكن فيه قادرا على أن يتدخل في قليل أو كثير في شئون القوات المسلحة. صحيح كان أحيانا يعطي بعض التعليمات التي لم تكن تنفذ، وكان يعلم ذلك ولا يحرك ساكنا، حتى لا يقع الصدام[٣٠] بينه وبين عبد الحكيم عامر.

أضف لذلك ما يواجهه عبد الناصر من مشاكل مع الإخوان المسلمين[٣١]، واضطرابات الطلاب الأفارقة في الأزهر، وبناء على ما سبق: وجد الإنجليز أنه يمكنهم استغلال تلك الظروف للإطاحة بالنظام " الآن والقيام بعمل يحقق أهدافهم "[٣٢].

ثانيا : النشاط العسكري :

تسلمت الإدارة الأمريكية، في ٢٤ سبتمبر ١٩٥٧، طلبا سريا للغاية من ماكميلان؛ يستفسر عن الخيارات العسكرية الواجب توافرها لدى بريطانيا للدفاع عن العراق، إذا وجدت الأخيرة نفسها في حالة حرب مع مصر أو سوريا. وفي فبراير ١٩٥٨ نظرت لندن للوحدة بين مصر وسوريا على أنها تأكيد لمسعى عبد الناصر للهيمنة الإقليمية[٣٣]. والحقيقة أن مصر لم تسعى للوحدة مع سوريا، بل إن الظروف الداخلية والخارجية المحيطة بسوريا – أكثر من أي شئ أخر – هى التي اقتضت ضرورة الوحدة حفاظا على كيانها. وفي يونيو ١٩٥٨ بعث الرئيس اللبناني كميل شمعون (١٩٥٢–١٩٥٨) إلى الرئيس الأمريكي دوايت آيزنهاور Dwight Eisenhower (١٩٥٣–١٩٦١) بطلب رسمي لإرسال قوات أمريكية إلى لبنان فورا لأن الأمن يتدهور نتيجة "للتدخلات السافرة من الجمهورية العربية المتحدة "، وذكر شمعون أن كلا من البريطانيين والفرنسيين قد أبدوا استعدادهم لمساعدته[٣٤]. وقد أصدرت وكالة أنباء تاس Tass الروسية بيانا، مساء يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٨، جاء فيه أن " اتهام

الغرب لـ ج.ع.م. بالتدخل في لبنان، ومساعدة الثوار، زعم لا يؤيده الواقع، وما هو إلا ذريعة تريد أن تتخذها كل من الولايات المتحدة وبريطانيا لتبرير تدخلهما في شئونه "[٣٥].

وبعد قيام الوحدة بين مصر وسوريا؛ أخذت الولايات المتحدة " تستعد استعدادا خاصا لحماية الوضع القائم بالأردن... حيث يتوقع الأمريكيون أن تكون الأردن هى الهدف الثاني... إذ أن انهيار النفوذ الأمريكي في الأردن يعني: إضعاف النظام الملكي في الدول العربية الملكية الأخرى، وسيؤدي انتصار العناصر القومية في الأردن إلى التأثير المباشر على العراق "[٣٦].

وفي ١٤ يوليو ١٩٥٨ اهتزت كل من لندن وواشنطن للسقوط المفاجئ للنظام العراقي- المؤيد للغرب- على يد حركة " الضباط الأحرار " في الجيش العراقي، فقد أزال هذا الانقلاب المعقل الرئيسي الأخير للنفوذ البريطاني في العالم العربي[٣٧].

وقد اختلفت الآراء في بريطانيا بشأن قواتها التي وجدت في العالم العربي، فقد رأى رئيس الوزراء أنه من الضروري توفير " حماية حقيقية من قبل الأمم المتحدة للبنان والأردن بينما قواتنا (القوات البريطانية) لا تزال هناك، حيث إنه بمجرد انسحابنا سترتمي تلك البلدان في أحضان ناصر، وتذهب عملياتنا هناك هباء "[٣٨].

أما جوليان إيمري – كما سبق القول – فقد رأى إبقاء قوات بريطانية مستعدة في الشرق الأوسط. بينما ذهب رأي ثالث إلى أن وجود " قواتنا في الأردن سيكون ذا قيمة عظيمة لكبح جماح العراق... ولتفادي التزامات أكثر من اللازم، فإنه يجب علينا أن نشير إلى استخدام إسرائيل للقيام بنفس دور الرادع لمصر وسوريا "[٣٩]. وهذان الرأيان الأخيران يتوافقان مع رغبة إسرائيل حيث " أبدى بن جوريون David Ben-Gurion (رئيس وزراء إسرائيل ١٩٤٨ – ١٩٦٣) خوفه من انسحاب بريطانيا من الأردن ولبنان مما يعرض كل شئ للضياع،... ويعود بالضرر على إسرائيل "[٤٠].

وتوالى العمل البريطاني المباشر ضد مصر سرا وعلنا :

❖ **محاولات تصفية جمال عبد الناصر**

تميز ماكميلان بعدائه لعبد الناصر، فقد رأى فيه " موسوليني سوفيتي الولاء" Pro-Soviet Mussolini، وبدأ التخطيط للعمل السري ضد عبد الناصر، في أوائل عام ١٩٥٧ "[٤١]، فقد روى بيتر رايت Peter Wright (١٩١٦ – ١٩٩٥) نائب رئيس جهاز الخدمة السرية البريطاني، المعروف باسم M.I.5 ، أن جهاز M.I.6 وضع خطة لاغتيال عبد الناصر، عن طريق نوع من غاز الأعصاب، وخطة أخرى لاستعمال أنواع من السموم، كذلك وضعت خطة اشترك فيها ضابط مصري، على صلة بالإنجليز، لضرب عبد الناصر بالرصاص، ولكن الخطط كلها لم تنجح[٤٢].

❖ **تحريض حكومة السودان ضد مصر**

تناولت إذاعة لندن، في ١٧ مارس ١٩٥٧، موضوعا تحت عنوان " عزل مصر" مما جاء فيه: " هناك حقيقة لا شك في صحتها عند الدول الغربية وهى أن مصر هى الباب الذي

سوف تدخل منه الشيوعية إلى القارة الأفريقية. ولذلك فإن عزل مصر عن المنطقة كلها – العالم العربي والقارة الأفريقية – تبدو للدول الغربية في الوقت الحاضر السياسة المنطقية التي يمكن اتباعها "[٤٣].

وقد جاء بمذكرة للملحق الصحفي بالسفارة المصرية بواشنطن: أنه قابل موظفا يشغل منصبا حساسا في وزارة الخارجية الأمريكية حيث قال له إن : " السودان قال ما يؤيد معلوماتنا السابقة عن أن الإنجليز سوف يدفعون حكومة السودان... إلى إثارة مشكلة الحدود[٤٤] وأن تدفع بها إلى أبعد الحدود مع رفض أي محاولات لحلها أو التفاهم عليها وقال ضاحكا إن وزارة الخارجية البريطانية قد قررت عدم العثور على الوثائق الخاصة بالحدود المصرية السودانية في ملفاتها القديمة "[٤٥].

وفي أواخر شهر سبتمبر ١٩٥٨ ما إن كاد يُعلن نبأ الاتفاق بين مصر والاتحاد السوفيتي على تمويل المرحلة الأولى من مشروع السد العالي، حتى فوجئت القاهرة بأن حكومة الخرطوم تعلن إسقاط اتفاقية مياه النيل[٤٦]، وتضيف إلى ذلك أنها سوف تنفذ مشروعا جديدا لبناء سد على النيل في منطقة الرصيرص. وأحست القاهرة أن موقف حكومة السودان ينطوي على منطق سياسي أكثر مما يعتمد على حقائق اقتصادية وكان الإحساس العام أن الحكومة البريطانية هى الطرف الذي يحرض الخرطوم على كسر اتفاقية مياه النيل[٤٧].

❖ **موقف بريطانيا إزاء انفصال مصر وسوريا في سبتمبر ١٩٦١**

حتى شهر أكتوبر لم تصل الحكومة البريطانية إلى قرار حاسم بشأن هذا الموضوع، إلا أنها قررت الاعتراف بالانفصال " خصوصا إذا قرر الأمريكيون نفس الشئ. نحن (البريطانيون) نسعى للحصول على موافقة بالاعتراف خلال ٤٨ ساعة من الأمريكيين، كما نشجع الألمان والإيطاليين للاعتراف في الوقت نفسه، في حين يقوم سفير بريطانيا في فرنسا بإخبار الحكومة الفرنسية أيضا"[٤٨].

❖ **السياسة البريطانية ضد مصر خلال حرب اليمن**

كتب جوليان إيمري كتيبا عن " الصراع على اليمن " في ديسمبر ١٩٦٢ – وكانت طلائع القوات المصرية قد وصلت إلى اليمن في أكتوبر ١٩٦٢ – وكان أبرز ما قاله:" إن نجاح الكولونيل ناصر في الحصول على موطئ قدم لمشروعاته الانقلابية في شبه الجزيرة العربية – وهى موطن أهم مصادر البترول واحتياطياته في العالم – هو نذير شؤم يجب أن يتعاون على مقاومته كل الأطراف "[٤٩].

وفي مذكرة صادرة عن إدارة M.I.6 جاء أن: الحل المطروح " في هذا المنعطف الهام من سير الأمور في اليمن... قبول بقاء الجيش المصري في اليمن، ورفع تكاليف بقائه فيها بما يؤثر على نظام ناصر في القاهرة... وهنا تكمن فرص هائلة إذا أُحسن استغلالها خصوصا وأن طبيعة الأرض في اليمن وقبائله... تقدم ظروفا مواتية للاستنزاف "[٥٠]. وبالفعل ففي حديث لوزير الخارجية المصري محمود رياض (١٩٦٤-١٩٧٢) مع السفير البريطاني في القاهرة قال : " إن العبء المالي الذي يسببه بقاء القوات المصرية في اليمن عبء ثقيل... غير مرغوب فيه بالنسبة لدولة نامية في حاجة لاستغلال مواردها في زيادة الإنتاج "[٥١].

ذلك في الوقت الذي لم تجدد فيه الولايات المتحدة الأمريكية اتفاقيات مشتريات مصر من القمح الأمريكي بتسهيلات، بمقتضى القانون ٤٨٠، وعرضت القمح على مصر بشروط تجارية قاسية " ونعتقد بأنهم لو واصلوا ذلك سيجبرون ناصر على مواجهة مشاكله الاقتصادية المحلية... وربما قلل هذا من نشاطاته في اليمن وفي أي مكان آخر "(٥٢).

أضف لذلك تقرير المشير عامر الذي قدمه بعد عودته من اليمن، وقد جاء فيه أن " القوات المصرية أصبحت على عتبة التمرد "(٥٣).

وفي مذكرة مقدمة من وزارة الدفاع في بريطانيا جاء فيها أنه :" من الممكن أن يؤدي انسحاب القوات المصرية، أو تخفيض أعدادها، أو وضع قيود على حرية حركتها، يساعد كثيرا في... إيجاد فرص لانسحاب قواتنا بشكل منظم مع الحفاظ على ماء الوجه... لذا نشعر بضرورة إيجاد بعض الوسائل، كاستخدام القوات المصرية للغاز السام في اليمن، لشكوى مصر في الأمم المتحدة... وفي الوقت نفسه إثارة تهم سابقة ضد مصر من الأفعال المناقضة لإعلان الأمم المتحدة الخاص بحقوق الإنسان، التي قامت بها مصر في اليمن كأحكام الإعدام العاجلة، والسجن بدون محاكمة "(٥٤).

أضف لذلك جيش المرتزقة الأجانب، حيث كانت لندن أهم الأسواق لتوريدهم لليمن، وكان جوليان إيمري أبرز شخصيات هذا المجال، وقامت جريدة الأهرام – في مايو ١٩٦٤ – بنشر خطابات متبادلة بين لندن والميجور جون كوبر John Cooper، وهو أحد الضباط المحترفين في اليمن، كلها مليئة بالتفاصيل عن السلاح والأجور والمرتبات(٥٥).

وعلى أية حال، فإن هارولد ويلسون كان يرى بأنه " طالما أن ناصر غارق في الأعمال الحربية ضد بريطانيا في عدن وجنوب شبه الجزيرة العربية، حيث يفقد الجنود البريطانيون حياتهم، فلن يكون هناك تحسن في العلاقات المصرية البريطانية "(٥٦). لكل هذه الضغوط التي مارستها بريطانيا على مصر خلال حرب اليمن كان المصريون تواقون " لسحب قواتهم إذا ما استطاعوا أن يفعلوا ذلك بدون إذلال واضح "(٥٧).

وفي عام ١٩٦٥ قطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا، تنفيذا لقرار منظمة الوحدة الأفريقية الذي اتخذته الدول الإفريقية بالإجماع ضد بريطانيا في الدورة غير العادية السادسة لمجلس وزراء منظمة الوحدة الإفريقية في أديس أبابا، ٣-٥ ديسمبر ١٩٦٥، بسبب سياستها التعصفية ضد الشعب الإفريقي في روديسيا الجنوبية (زيمبابوي) حيث مكنت الأقلية البيضاء التي لا يزيد عددها عن ٢٥٠ ألف نسمة معظمهم من أصل إنجليزي، في التحكم في الأغلبية الإفريقية التي يصل تعدادها ٤ مليون نسمة(٥٨).

ومنذ نهاية العدوان الثلاثي، تمتع الشرق الأوسط بعوامل الاستقرار، ولو أنه " استقرار هش "، إلا أن بريطانيا عملت جاهدة للإبقاء عليه(٥٩). وحدثت واقعتان أطاحتا بهذا الاستقرار:

الأولى: إنه في سبتمبر ١٩٦٠ شعر البريطانيون والأمريكيون بالقلق فور علمهم بأمر المفاعل النووي الذي تبنيه إسرائيل قرب بئر سبع في صحراء النقب، بمساعدة فرنسا، طبقا لاتفاقية غير معلنة، فهذا الأمر من شأنه أن يؤدي لانسياق عبد الناصر أكثر تجاه الاتحاد السوفيتي،

وبدأت بريطانيا تفكر في أفضل طريقة لتهدئة المخاوف التي سببها الكشف عن برنامج إسرائيل النووي في الشرق الأوسط. وبدأوا في مشاورات مع الأمريكيين لمحاولة إقناع الفرنسيين إعلان شروط اتفاقهم مع الإسرائيليين، فربما اشتملت على ترتيبات وقائية تعمل على إرضاء الرأي العام العربي. كما اقترحوا على الأمريكيين والفرنسيين أن يقوموا جميعا بالضغط على إسرائيل، لتعلن ترحيبها بتطبيق نظام الحماية الخاص بالوكالة الدولية للطاقة الذرية، كمحاولة لزيادة إرضاء الرأي العام في الشرق الأوسط. وعندما أظهرت مصر اهتماما للحصول على مفاعل من ألمانيا الغربية بنفس حجم المفاعل الإسرائيلي " فيجب توفير نظم الحماية الكافية له، ويجب أن نقترح على الأمريكيين أن نأخذ الضمانات الكافية من الألمان في هذا الخصوص "(٦٠).

الثانية: النزاع حول مياه نهر الأردن عام ١٩٦٤، حيث رأت إسرائيل أن الدول العربية تتعاون لتحويل جزء كبير من مياه نهر الأردن، مما يهدد وجود إسرائيل بسبب قطع إمدادات المياه.

وكان رأي هارولد ويلسون، بأنه على إسرائيل أن تتقدم بالشكوى إلى الأمم المتحدة، حيث إنهم إذا اتخذوا إجراءا منفردا فهم بذلك سيخيبون أمل الكثير من أصدقائهم، بما فيهم بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. حيث رأى ويلسون أن أي عمل وقائي من جانب إسرائيل سيوحد العالم العربي ضدها و" لا يجب أن تقلل (إسرائيل) من قيمة مشاعر الصداقة التي تكنها كل من بريطانيا والولايات المتحدة لإسرائيل، ففي أوقات الأزمات تكون هذه الصداقة مهمة ولا يمكن أن تستبعد"، ولكن في قرارة نفسه " تساءل ويلسون عما إذا كان من الممكن أن تقدم بريطانيا تأييدا رسميا لإسرائيل في الوقت الحاضر "(٦١).

والحقيقة أن بريطانيا – خوفا على مصالحها – رأت أن أفضل موقف تتبناه هو: أن تتفادى أي عمل أو بيان عام، حتى لا يترجم على أنه تأييد لجانب ضد الآخر، واتخذت دور المراقب النزيه الذي يستمع بعناية إلى الحجج المقدمة من كلا الجانبين لكن تطبيقاته مقتضبة بقدر الإمكان(٦٢).

والواقع أن السياسة البريطانية -: رغم زعمها الحياد – كانت متحيزة ضد القضية العربية، وقد لخص مايكل ستيوارت Michael Stewart وزير خارجية بريطانيا (١٩٦٥-١٩٦٦) تلك السياسة خلال حديثه مع السفير البريطاني في إسرائيل مايكل هادو Michael Hadow (١٩٦٥-١٩٦٩) قائلا:" أنتم (الإسرائيليون) لا يجب أن تتوقعوا منا الانحياز، أو نظهر الانحياز لكم ضد العرب. من جهتنا نحن سنتيقن من أنكم قادرون على نيل الأسلحة للدفاع عن أنفسكم،... نحن نتوقع أن تعملوا على عدم وصول النزاع لدرجة الغليان وذلك بالعمل على ضبط النفس، وبإبقاء علاقة معتدلة مع الأمم المتحدة، حتى إذا ما احتجتم للمساعدة فيمكن أن يتم ذلك تحت غطائها. نحن نفهم صعوبات موقفكم، لكن طبقا لقانون وضع اليد Law of Possession ، فإن الحفاظ على الوضع الراهن The Status quo سيكون بدرجة كبيرة في صالحكم"(٦٣).

فقد سبق وأبدت جولدا مائير Golda Meir وزيرة خارجية إسرائيل (١٩٥٦-١٩٦٦) امتنانها للمساعدات البريطانية لإسرائيل فيما يتعلق بالدبابات. هذا بالإضافة للسفن الحربية، فعلى سبيل المثال: " السفينة البريطانية لوياثان Leviathan التي التحقت مؤخرا بالبحرية الإسرائيلية، لتنضم إلى الأسطول الإسرائيلي في البحر المتوسط"[٦٤]. وقالت بأن إسرائيل كانت قلقة بشأن عدم التكافؤ مع مصر في مجال الطيران، فإحدى المشاكل الرئيسية هي النسبة في المطارات، فقد كانت ١٠ : ١ لصالح عبد الناصر[٦٥]. وكانت قد أكدت أن تقوية إسرائيل، في جميع المجالات، هي الوسيلة الرئيسية لتقريب السلام[٦٦].

وقد كان الاشتراط الوحيد، للحكومة البريطانية، لإجراء محادثات بشأن الأسلحة بينها وبين إسرائيل " أن تبقى سرية "[٦٧]. وفي إحدى جلسات مجلس الوزراء البريطاني جاء أن " هناك اتفاقا عاما على أنه من المهم ضمان عدم توقف إمداد إسرائيل بالأسلحة، طالما استمر الاتحاد السوفيتي في إمداد الدول العربية بها "[٦٨]، بالإضافة لذلك، فإن ليفي أشكول Levi Eshkol رئيس وزراء إسرائيل (١٩٦٣-١٩٦٩) في حديث له مع نظيره البريطاني هارولد ويلسون قال: " إن إسرائيل أرادت أن تحسن علاقاتها بالبلدان الأخرى في المنطقة فهم يودون أن يقيموا علاقات أفضل مع الهند، وفي الوقت الحاضر علاقتهم جيدة مع الحبشة وتركيا. وتمنى أشكول أن تستغل بريطانيا نفوذها لتشجيع هذه البلدان على إقامة علاقات جيدة مع إسرائيل، فأشار ويلسون بأن بريطانيا جاهزة لذلك "[٦٩].

أما عن استفادة إسرائيل من الحفاظ على الوضع الراهن، فيرجع ذلك إلي أن تسوية ما بعد السويس، أفادت إسرائيل كثيرا، حيث أمكنها الوصول إلى خليج العقبة الذي كان سابقا مغلقا، ووجود قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة على الجانب المصري للحدود وفي شرم الشيخ، حمى إسرائيل من الهجمات الفدائية والتهديد بالهجوم من مصر. علاوة على ذلك: صرحت كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة بتصريحات تدعم حق إسرائيل في حرية المرور في الخليج. والأكثر أهمية، حددت التسوية بشكل صارم الحيز المتاح لعبد الناصر للقيام بمناورة تجاه إسرائيل[٧٠].

حرب ١٩٦٧ وموقف بريطانيا

جاءت الشرارة التي فجرت برميل بارود الشرق الأوسط، في ١٦ مايو ١٩٦٧، عندما طلبت مصر سحب قوات الطوارئ الدولية، ذلك القرار الذي نال اعتراضات دولية واسعة، فمن أهم الحجج التي تقدمت بها الدوائر المناهضة لسحب قوة الطوارئ من الأراضي المصرية، ومن إقليم غزة " إن قوة الطوارئ الدولية كان من مهامها ضمان حرية الملاحة في خليج العقبة، فكان يجب قبل انسحابها إنشاء جهاز جديد يتكفل بضمان تلك الحرية، أو إبرام معاهدة دولية بين الدول المعنية لتحقيق هذه الحرية "[٧١]. وقد انتقد جورج براون George Brown وزير خارجية بريطانيا (١٩٦٦- ١٩٦٨) يوثانت U Thant الأمين العام للأمم المتحدة (١٩٦١-١٩٧٢) - لموافقته على سحب هذه القوات - بشدة ووصفه بأنه " متهور، وبكل تأكيد، فإن القرار غير ضروري كلية وغير متوقع "[٧٢].

وترتب على قرار سحب قوات الطوارئ قرار أخر، أكثر خطورة، وهو قرار إغلاق خليج العقبة في ٢٣ مايو ١٩٦٧، في وجه السفن الإسرائيلية، وحظر مرور البضائع الإستراتيجية الواردة إليها عن طريق هذا الخليج.

وهنا من الأهمية بمكان أن نستطرد قليلا في إيضاح الموقف القانوني لهذين القرارين، وذلك لتفسير رد الفعل البريطاني الشديد تجاههما نظرا لأن بريطانيا - كما سبق القول - كانت حريصة على إبقاء الوضع الراهن.

طبقا لرجال القانون والسياسة الدولية، فإن القرارين من حق مصر تماما فبالنسبة

للقرار الأول:

فإنه في ٤ نوفمبر ١٩٥٦ أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا كلفت فيه الأمين العام داج همرشلد Dag Hammarskjold (١٩٥٣ - ١٩٦١) بحث إنشاء قوة طوارئ دولية تكون مهمتها تنفيذ قرار وقف إطلاق النار، وسحب جميع القوات إلى ما وراء خطوط هدنة عام ١٩٤٩. وأرسل همرشلد خطابا إلى وزير الخارجية المصري محمود فوزي (١٩٥٢ - ١٩٦٤) بتاريخ ٨ فبراير ١٩٥٧. وقد جاء في الفقرة ٤٤ من الخطاب:" بمجرد موافقة حكومتكم على هذا الاقتراح تعتبر تلك الرسالة وردكم عليها بمثابة اتفاق بين الأمم المتحدة ومصر "، يستخلص من ذلك أن تاريخ انسحاب قوة الطوارئ الدولية من مصر، ومن قطاع غزة، يحدد بمعرفة الطرفين المعنيين اللذين وقعا اتفاق ٨ فبراير ١٩٥٧، أي حكومة مصر والأمين العام للأمم المتحدة[٧٣].

أما القرار الثاني:

فمن وجهة النظر القانونية المصرية: يعتبر قرارا مشروعا يتمشى مع قواعد القانون الدولي، ويدور الجدل القانوني حول هذه القضية في ثلاث نقاط:

أ- المركز القانوني لخليج العقبة

يستند رجال القانون المعارضون على سابقة تدويل البحر الأسود، وهى حجة للعرب وليست حجة عليهم. ذلك أن البحر الأسود الذي كان بحرا وطنيا عثمانيا، لم يصبح بحرا دوليا إلا بعد إبرام معاهدة كوتشك قينارجي Kuchuk Kainarji بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٧٧٤، وقد تلا تلك المعاهدة سلسلة من المعاهدات بين الدولة العثمانية والدول الأخرى المعنية بالملاحة في البحر الأسود. وما دامت الدول العربية، ذات السيادة على خليج العقبة لم تعترف بالوجود الإسرائيلي على الخليج، ولم تسجل هذا الاعتراف في معاهدة دولية، فخليج العقبة مياه إقليمية عربية، من حق العرب أن يغلقوها في وجه أعدائهم.

ب- المركز القانوني لمضيق تيران :

يبلغ اتساع مدخل خليج العقبة، بين شبه الجزيرة العربية وبين الإقليم المصري، حوالي تسعة أميال، ولكن تعترض مدخله بعض الجزر والصخور، وتجعل المساحة الصالحة للملاحة لا تتجاوز أربعة أميال، وتقع بين جزيرة تيران وشاطئ الإقليم المصري، وعلى هذا فمضيق تيران يعتبر كله واقعا داخل المياه الإقليمية المصرية التي تبلغ اثنى عشر ميلا بحريا، وفقا للقرار الجمهوري الصادر في ١٧ فبراير ١٩٥٨. والحقيقة التي لا تغيب عن أي منصف،

من رجال القانون الدولي، أن الركنين اللذين حددتهما محكمة العدل الدولية ليكــون المــضيق دوليا، وهما: أن يكون المضيق موصلا بين بحرين عامين، وأن يكون العرف الدولي قد جــرى على استعمال هذا المضيق كطريق من طرق الملاحة الدولية، لا يتوافران في مــضيق تيــران، لأن :





نقلا عن : هيكل، الانفجار،ص ٤٦٦

- مضيق تيران يربط بين بحر عام هو البحر الأحمر، وبحر وطني هو خليج العقبة.
- الثابت منذ أقدم عصور التاريخ أن مضيق تيران لم يسبق أن وصف بأنه مضيق دولي.

ج) حق المرور البرئ

طبقا للفقرة الأولى من المادة ١٤ من اتفاقية جينيف Geneva Convention المنعقدة في ٢٩ أبريل ١٩٥٨ – لم توقع مصر على هذه المعاهدة[٧٤] – فللسفن الإسرائيلية حق المرور البرئ في خليج العقبة، ولكن تلك الأحكام لا تطبق إلا في حالة العلاقات السلمية بين الدول. أما في حالة الحرب، فإن الدول تفقد الإفادة من حق المرور البرئ في المياه الإقليمية للدولة التي هى في حالة حرب معها[٧٥].

أما من وجهة النظر البريطانية : فقد نص القانون الدولي، أنه في وقت السلم :

- ✓ سفن كل الدول لها الحق في المرور البرئ خلال البحر الإقليمي لدولة أخرى.
- ✓ المرور برئ طالما أنه ليس ضار بالسلام، أو الصالح العام، أو أمن الدولة الساحلية.
- ✓ الدولة الساحلية لا يجب أن تعوق المرور البرئ خلال البحر الإقليمي.
- ✓ الدولة الساحلية قد تأخذ الخطوات الضرورية في بحرها الإقليمي، لمنع المرور غير البرئ.
- ✓ الدولة الساحلية قد – دون تمييز بين السفن الأجنبية – تعلق حق المرور البرئ في مناطق محددة من بحرها الإقليمي، إذا كان مثل هذا التعليق ضروريا لحماية أمنها.
- ✓ لا يكون هناك تعليق للمرور البرئ، للسفن الأجنبية، خلال المضايق التي تستخدم للملاحة الدولية بين جزء من أعالي البحار وجزء أخر من أعالي البحار، أو البحر الإقليمي لدولة أجنبية.

هنا يتضح انه لا شك في أحقية السفن – من وإلى ميناء إيلات Eilat والموانئ الأخرى في خليج العقبة – في المرور البرئ خلال وقت السلم خلال مضايق تيران، طبقا لهذه القواعد، وبشكل خاص القاعدة الأخيرة التي تنطبق عليها.

كما أن براءة المرور يجب أن يُحكم عليها من حيثما إذا كانت السفينة أثناء مرورها تشكل تهديدا لأمن الدولة الساحلية، وأنها غير مسئولة عما سوف تستخدم فيه حمولتها في النهاية، فإسرائيل من حقها تماما أن تنال المعدات الضرورية للدفاع عن نفسها، والنفط لحاجتها السلمية. ثم إن مصر ليس لها الحق في ممارسة حقوق الدولة التي في حالة حرب، ما لم تكن بالفعل في حالة حرب مع إسرائيل، فبدون إعلان الحرب من قِبل إسرائيل أو مصر؛ فلا تغيير في العلاقات الحالية بين الدولتين.

وعلى افتراض أن مصر غير مخولة للتدخل في حق المرور البرئ خلال مضايق تيران، فما هو الإجراء الذي يجب أن تتبعه الحكومة البريطانية والحكومات الأخرى – بعيدا عن الأمم المتحدة – لإثبات هذا الحق ؟ .

بالقياس على الحكم الذي أصدرته المحكمة الدولية، في حالة قناة كورفو Corfu، فإنه من حق البحرية الملكية أن ترافق السفن البريطانية خلال مضايق تيران، وأن تتصدى بالقوة

لأي محاولة من مصر لمنع المرور. لكن التهديد أو استخدام القوة ضد مصر – في غير هدف ممارسة حق المرور البرئ – ليس من حق البحرية البريطانية[٧٦]. وهو ما سوف تخرقه بريطانيا بالاشتراك مع الولايات المتحدة حينما أرسلت قواتها البحرية إلى البحر المتوسط كرادع لمصر، كما سيتم تفصيله لاحقا.

ولما كانت بريطانيا قد سبق وتعهدت بالدفاع عن حق المرور الحر في المضايق، فإن عبد الناصر بذلك لم يتحدى إسرائيل فقط، بل يتحدى بريطانيا أيضا، ولذا عقد اجتماع طارئ لمجلس الوزراء البريطاني، عصر يوم ٢٣ مايو ١٩٦٧، لتقرير الرد إزاء الأزمة، ومما جاء في الاجتماع : " الموقف الحالي هو أن ج.ع.م. عبأت ٦٠ ألف رجل مع قوة مدرعة كبيرة ودعم جوي كبير على طول حدود سيناء. بالإضافة لجيش تحرير فلسطين في قطاع غزة، هذه القوات أعظم إلى حد كبير وتدريت بشكل أفضل مما كانت عليه في عام ١٩٥٦. من ناحية أخرى، القوات الإسرائيلية أصغر بكثير وهناك إشارات إلى أن إسرائيل غير مستعدة، ومن المحتمل أن يتم تدمير مدنها بالهجوم الجوي في حالة قيام الحرب "[٧٧].

ولذا كان المتوقع أن تقوم إسرائيل بشن حرب وقائية، لاسيما وأنها بعد حرب السويس، اعتبرت أي تدخل بالقوة المسلحة في حرية ملاحتها البريئة خلال خليج العقبة ومضايق تيران، أنه " مبرر للحرب Casus Belli "[٧٨]، لاسيما في حال قطع سبيل الوصول إلى ميناء إيلات، فهو ميناء حيوي بالنسبة لاقتصاد إسرائيل، حيث إن ١٥% من وارداتها مرت خلال هذا الميناء في عام ١٩٦٥، وحوالي ٩٠% من وارداتها النفطية، وحوالي ٤٠% من صادراتها من الفوسفات، ومن ثم أصبحت المشكلة التي تواجه بريطانيا هي: إيجاد وسائل لنصح إسرائيل بعدم القيام بهذه الخطوة[٧٩].

وفي نفس اليوم، اجتمع أيضا رئيس الوزراء هارولد ويلسون، ووزير الخارجية جورج براون، ووزير الدفاع دينس هيلي Denis Healey (١٩٦٤ – ١٩٧٠) . كان من رأي براون القيام بعمل قوي في مسألة المرور الحر في خليج العقبة، ورأى إبلاغ دين راسك Dean Rusk وزير الخارجية الأمريكي (١٩٦١-١٩٦٩) فورا بأن بريطانيا مستعدة للانضمام إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأي قوة بحرية أخرى، على أن لا يوصف ذلك على أن الغرض منه هو مساعدة إسرائيل، لكن من أجل إبقاء مضايق تيران مفتوحة للملاحة[٨٠]. ودعا براون إلى إن الأمل الوحيد لتقييد الإسرائيليين ومنعهم من القيام بحرب وقائية؛ هو إصدار بيان فوري وصريح للهيئة البحرية الدولية، بأنها مصممة على فرض حق المرور البرئ خلال خليج العقبة بالقوة في حالة الضرورة[٨١].

كان رد فعل مجلس الوزراء إزاء تلك الآراء " فزع مطلق Utter Dismay "، فقد حذر البعض من خطورة هذا الاقتراح على الاقتصاد البريطاني الهش : " نحن يمكن أن نودع نشاطنا الاقتصادي[٨٢] We could say good-bye to our own economic activity "

والحقيقة أن هذا ما حدث بالفعل، ففي خطاب لناصر في ٢٦ مايو ١٩٦٧، شن هجوما قويا على بريطانيا ووصفها بأنها عدو للعرب، لأنها تتحيز بالكامل لمصلحة إسرائيل، وكان

تأثير كل من موقف بريطانيا من الأزمة، والدعاية الناجحة من قبل ناصر، كبيرا على المصالح البريطانية في الشرق الأوسط ، فالممثل البريطاني في الخليج السير ستيوارت كراوفورد Sir Stewart Crawford، حذرا بأن الدعم البريطاني لإسرائيل يُعرض التسهيلات التي تلقاها بريطانيا في جزيرة البحرين للخطر(٨٣). كما أخبر صباح الأحمد الصباح وزير الخارجية الكويتي
(١٩٦٣-١٩٩١) السفير البريطاني بأن أي أعمال عدائية من قبل بريطانيا ستؤدي إلى قطع إمدادات النفط، وأوضح بأن " أي مرور مفروض بالقوة (خلال المضايق) سيُعد عملا عدائيا "(٨٤).

على أية حال، كانت مداخلة وزير الدفاع هيلي هى الحاسمة، حيث دارت مشاورات بينه وبين رؤساء هيئات الأركان، مما جعله – وبكل قوة – ضد العمل لتأكيد حرية المرور، لاسيما وأن " السفن التي نحتاج لها موجودة بالبحر المتوسط كما توجد السفن الأمريكية أيضا "، فإذا ما أعلنت بريطانيا عن استخدام القوة، سيغلق عبد الناصر قناة السويس فورا، وسيستغرق وصولها إلى الخليج (خليج العقبة) أياما. وهناك كيف سينتشرون ؟ وستكون من الحماقة أن تتركز السفن الكبيرة في الخليج بدون أخذ شرم الشيخ أولا، والتخلص من المطارات التي يعتمد عليها ناصر، ففيما عدا ذلك ستكون السفن البريطانية هدفا ساكنا. " فالمنهج العسكري الصحيح للاتباع – في حالة الضرورة وعلى ألا نكون في مركز الصدارة – هو وجود قوة صغيرة من كاسحات الألغام – حيث قام المصريون بتلغيم مضايق تيران – وبعض الفرقاطات في خليج العقبة للحراسة ولمهام كسح الألغام، مدعمة من قبل قوات قوية رادعة في شرقي البحر المتوسط مكونة من الأسطول السادس الأمريكي وقوات إضافية من قواتنا وقوات دول بحرية أخرى " (٨٥).

وتفصيل الترتيبات الموضوعة من قبل وزارة الدفاع البريطانية، في ٢٤ مايو ١٩٦٧ هي: **أولا**: حاملة الطائرات فيكتوريوز Victorious التي كانت في طريقها إلى المملكة المتحدة، حجزت على مقربة من مالطة، حيث يوجد بالفعل هناك فرقاطتان هما وتبي Whitby و دنكان Duncan بالإضافة إلى ست كاسحات ألغام. كما أن السفينة ريال Rhyl التي تركت جبل طارق توا متوجهة إلى المملكة المتحدة تم إعادتها أيضا إلى مالطة تدعمها سفينة أخرى هي رفا لينس Rfa Lyness حيث سيكون من المحتمل تشكيل مجموعة عمل في البحر المتوسط تشمل الفيكتوريوز وثلاث فرقاطات ومجموعة لسد العجز. وهذا يمكن أن يُحتجز جنوب قبرص كمساهمة في مجموعة عمل الأمم المتحدة، أو الولايات المتحدة، إذا تطلب الأمر ذلك.
ثانيا: شرقي السويس، حاملة الطائرات هيرميس Hermes وسفنها المساعدة، التي كانت في طريقها إلى سنغافورة، تم احتجازها في غان، حيث سيكون من المحتمل تشكيل مجموعة عمل للانتشار في شمال البحر الأحمر، مكونة من هيرميس وفرقاطتين وسفن لسد النقص. على أنه يجب أن يؤخذ في الاعتبار أنه: من غير المقبول عسكريا أن تعمل حاملة طائرات في مثل هذه المياه الضيقة بدون تحطيم قوات العدو الجوية أولا.

ثالثا: هناك قوة صغيرة من كاسحات الألغام طراز أر إن R N في الشرق الأوسط، التي يمكن نشرها كجزء من قوة دولية لتطهير مضايق تيران "[٨٦].

كما كانت هناك دراسة لدور محتمل أن تقوم به القوات الجوية البريطانية، من قواعدها في مالطة وقبرص، طبقا لتطور الموقف[٨٧]. وإن تم نفي استخدام القوات الجوية البريطانية في إحدى جلسات مجلس الوزراء البريطاني ردا على " ادعاءات من قبل مصر والأردن بأنه قد تم منح إسرائيل غطاءا جويا، من قبل الطائرات البريطانية والأمريكية، ذلك غير صحيح كليا"[٨٨].

ثم تدخل ويلسون محذرا بقوله " يوجد أخطار، لكن يوجد أخطار أيضا إذا لم نفعل شيئا. فالولايات المتحدة ستتدخل بالتأكيد بشكل هائل، وإذا نحن لم ندعمها سوف تلغينا من حساباتها وتدخل احدهم قائلا : " البعض منا لا يريد هذه السياسة "، فرد ويلسون : " البعض منا لا يريد هذه الإعاقة الدائمة ". وكانت وجهة النظر الغالبة لمجلس الوزراء ضد الاقتراح وأجبر ويلسون وبراون على تخفيف مخططاتهما الأكثر طموحا. وقرر المجلس أن يذهب جورج طومسون George Thomson وزير الدولة للشئون الأجنبية (١٩٦٤- ١٩٦٦) إلى واشنطن ليتحقق من وجهات نظر الأمريكيين[٨٩].

فقد كانت وجهة النظر البريطانية ترى أن " الإطاحة بناصر غير محتملة بدون التعاون الكامل للأمريكيين "[٩٠]، كما أنه إذا عملت " البحرية (البريطانية) بالتعاون مع السفن الحربية الأمريكية فإن خطر رد الفعل المصري قد يكون أقل "[٩١].

ومن ناحية الجانب الأمريكي كان اعتماده كبيرا على بريطانيا، فهناك واقعة واضحة الدلالة مؤداها: أن إسرائيل كانت تريد استبدال كمية من الدبابات من طراز سنتوريون Centurion بكمية من طراز أقوى وأحدث هو دبابات تشيفتين Chevtine واحتاجت إسرائيل لهذه العملية إلى مبلغ يتراوح ما بين ٣٠ إلى ٤٠ مليون دولار. وكان جونسون يريد تقديم هذا المبلغ إلى إسرائيل على مسئوليته دون أن يضطر للذهاب إلى الكونجرس Congress لطلب الاعتماد، وبالتالي ينكشف الموضوع. وهكذا تم الاتفاق في اجتماع عقد في مكتب الرئيس حضره وزير الخارجية دين راسك، ووزير الدفاع روبرت ماكنمارا ومستشار الأمن القومي ماك جورج باندي، وممثله الخاص ماير فيلد مان Meyer Feldman (١٩١٤-٢٠٠٧)، ومستشاره الشخصي لشؤون العمل السري في الشرق الأوسط روبرت كومر، على أن يتم توفير المبلغ لإسرائيل عن طريق اتفاق تجاري تم بين الحكومة البريطانية والحكومة الأمريكية[٩٢].

وفي عام ١٩٦٧ قام جيمس أنجلتون James Angelton (١٩١٧ - ١٩٨٧) - وكيل إدارة المخابرات المركزية الأمريكية لشؤون العمليات - بإجراء اتصالات في لندن مع إدارة المخابرات البريطانية، نتج عنها حصول إسرائيل على كل أوراق الخطة البريطانية للضرب الجوي الاستراتيجي الذي قامت به القاذفات البريطانية ضد الطيران المصري عام ١٩٥٦ في محاولة لتدمير الطيران المصري، قبل نزول قوات العدوان في السويس[٩٣].

وكان عزرا وايزمان Ezra Weizman قائد الطيران الإسـرائيلي (١٩٥٨-١٩٦٦) الذي أصبح مديرا للعمليات عام ١٩٦٧، هو الذي استلم الخطة البريطانية، وقال في مذكراتـه إنه لسنوات كان يعيش مع الخطة ويحلم بها ويتمثل تفاصيلها ويدرب رجاله عليها. وقد تـولى مع عدد من مساعديه مهمة ترتيبها لملاءمة الأوضاع المستجدة(٩٤).

وكان أهم بنود الاتفاقية التي توصل لها جورج طومسون مع الأمريكيين: " اسـتمرار العمل لدى الأمم المتحدة من أجل إعطاء دعم كبير - بقدر المستطاع - لمبدأ حريـة المـرور خلال المضايق "(٩٥). كان من غير المحتمل أن تنجح مساعي بريطانيا. فالفرنسيون أوضـحوا بأنهم لا يرون داعيا للعمل خلال الأمم المتحدة، بل وحتى عارضوا اجتمـاع مجلـس الأمـن، واقترح الرئيس الفرنسي شارل ديجول Charles De Gaulle (١٩٥٩- ١٩٦٩) أنه يجـب أن يجتمع ممثلو الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا، ويحاولوا حل مـشكلة الشرق الأوسط. وقد كان دعم فرنسا التقليدي لإسرائيل قد تحول إلى حياد. ذلك الـدعم الـذي تضاءل منذ بداية العقد. فتوقف الفرنسيون عن تقديم المساعدة المطلوبة للإسرائيليين من أجل مشروعهم النووي. وقللت إسرائيل أيضا اعتمادها على الأسلحة الفرنسية، في معظم أجهزتهـا العسكرية، وعوضت ذلك من الولايات المتحدة وبريطانيا(٩٦).

على أية حال، إزاء الاقتراح الفرنسي كان موقف الاتحاد السوفيتي واضحا تماما، كما جاء في رسالة رئيس الوزراء السوفيتي أليكـسي كوسـيجين Alexei Kosygin (١٩٦٤-١٩٨٠) لنظيره البريطاني جاء فيها : " طبقا للمعلومات التي تصل الحكومة الـسوفيتية، فـإن دولة إسرائيل تصعد الموقف العسكري في ظروف متوترة جدا على حدود إسرائيل وسـوريا و ج.ع.م.... نحن نفهم أنه في ظل الظروف الحالية أن إسرائيل ترتكـب هـذا العمـل الأحمـق اعتمادا على صفقة عظيمة Great Deal مع الحكومة البريطانية وهو أمر لا يمكن أن يختلف عليه اثنان. فإذا لم تكن إسرائيل تشعر بأنها تحصل على التشجيع لما تجاسرت علـى تجـاوز الحد. عندما تحدث السيد براون وزير الخارجية عن موقف حكومتكم بشأن الوضع فـي تلـك المنطقة أكد أن بريطانيا العظمى كانت قلقة بشكل كبير بشأن إمكانية حدوث نزاع مسلح وتمنت اتخاذ إجراء لمنعه. وقد دعا وزير الخارجية البريطاني نظيره في الاتحاد السوفيتي لممارسـة تأثيره المشابه نحو ضبط النفس أيضا. إن الاتحاد السوفيتي يؤيد ضـبط الـنفس... لكنـه لا يرضى بإلحاق الضرر بالمصالح الشرعية للدول العربية. الإجراءات التي يتخذونها ذات طبيعة دفاعية... ويظهرون ضبط النفس... ولا يريدون نزاعا عسكريا.وإذا بدأت إسرائيل بالعـدوان، عندئذ نحن سنقدم المساعدة للبلدان ضحايا هذا العدوان "(٩٧).

فرد هارولد ويلسون قائلا : " غرضي هنا ليس مناقشة الصواب أو الخطأ... إننا على أرضية مشتركة للبحث عن السلام وأمام كل منا واجب واضح لبذل كل الجهـد لمنـع تطـور الوضع الذي يمكن أن يؤدي إلى تحد خطير بين القوى العظمى في العالم. لهذا السبب... رحبنا باقتراح الحكومة الفرنسية... ويجب أن يتم هذا في سياق الأمم المتحدة، وذلك بالتشاور بـين مندوبينا الدائمين هناك... وأنا أستحثك على قبول هذا الاقتراح، وتخويل المنـدوب الـسوفيتي الدائم لدى الأمم المتحدة ليدخل في مشاورات مع نظرائه الفرنسي والأمريكي والبريطاني "(٩٨).

ومما يجدر ذكره أن بريطانيا، خلال هذه الأدوار التي لعبتها، كانت لها سياسة لم تحد عنها على الإطلاق " بينما ننشد الوصول إلى تسوية تعطي السفن الإسرائيلية حق المرور البرئ خلال مضايق تيران وخليج العقبة وكذا إعلان دولي (من المفضل أن يكون عن طريق مجلس الأمن... أو في حالة عدم حدوث ذلك يكون من قبل عدد كبير من البلاد البحرية) بحرية الملاحة في هذه المياه، فمن غير المعقول بالنسبة للمملكة المتحدة أن تحاول أن يكون لها مركز الصدارة حتى في تنظيم مثل هذا الإعلان "[٩٩]، " ولهذا السبب فإن كندا[١٠٠] والدنمارك هما اللتان قامتا – نيابة عنا – في طلب الدعوة إلى الاجتماع الأخير لمجلس الأمن "[١٠١]. وجاء رد رئيس الوزراء الكندي مؤكدا لسياسة بريطانيا " على الرغم من الرفض الذي قوبلت به محاولتنا لاتخاذ إجراء بمجلس الأمن، فأنا على يقين من أنه يجب علينا مواصلة الكفاح من أجل الحصول على حل في سياق الأمم المتحدة. فأي عمل خارج الأمم المتحدة سيكون له عواقبه في خلق مشاكل أكبر يصعب حلها أو تفاديها "[١٠٢].

على أنه كان لإسرائيل وجهة نظر أخرى – في مسألة العمل عن طريق الأمم المتحدة – لخصها وزير خارجيتها أبا إيبان Abba Eban (١٩٦٦-١٩٧٤) خلال لقائه مع رئيس وزراء بريطانيا، في ٢٤ مايو ١٩٦٧، حيث قال : " المشكلة في الحقيقة نشأت بتصرف يوثانت الأسبوع الماضي بمنحه للمصريين خطأ سيظل صداه مدويا في التاريخ (يقصد بذلك استجابة يوثانت لطلب مصر سحب قوات الطوارئ الدولية من سيناء). الأمين العام لم يعط الحكومة الإسرائيلية فرصة وفي عشر دقائق ألغى أعمال عشر سنوات" كما أنه سيتيح للاتحاد السوفيتي عند عرض الموضوع على مجلس الأمن استخدام حق الفيتو وبذلك يتوقف أي حل للموضوع"[١٠٣].

وعلى أية حال، يرجع السبب في انتهاج تلك السياسة البريطانية إلى أنه مهما كان تعاطف بريطانيا مع إسرائيل فمصالحها الاقتصادية أساسا في البلاد العربية، وعليها أن تأخذ في الاعتبار هذه المصالح [١٠٤].

وفي عام ١٩٦٧، كان على بريطانيا أن توازن بين أمرين في غاية الحساسية بالنسبة لها، فأمامها إخلاء قواعدها في الشرق الأوسط، مع الاحتفاظ بمصالحها فيه وخصوصا مصالحها الاقتصادية. واندلاع حرب سيفسد عملية الانسحاب البريطاني، ويقوض مصالحها السياسية والاقتصادية أيضا[١٠٥]، فلديها مصالح اقتصادية شاملة في الشرق الأوسط كالنفط، والتجارة، وقوة الجنيه الاسترليني في البلدان العربية، والمرور بحرا وجوا... فأي عمل من شأنه إثارة العداوة العربية، سوف تتحمل المخاطر التالية (والتي ستظهر أيضا في حالة مواصلة ج.ع.م. لسياستها دون أن يكبح جماحها) :

١. إغلاق قناة السويس، وما يترتب عليه من أن وصول بريطانيا بحرا إلى المحيط الهندي عن طريق الرأس Cap وهذا سيؤدي إلى زيادة اعتماد بريطانيا على جنوب أفريقيا كقاعدة دائمة، وخسارة حقوق الطيران والهبوط في جميع البلدان العربية.

ولو فُقدت هذه الحقوق في دول الخليج العربي، ستكون النتائج أن بريطانيا لن تستطيع استخدام طريق السنتو CENTO[١٠٦] إلى الشرق الأوسط والأقصى، مالم تعطيها تركيا والهند (وهو أمر تقريبا مستحيل) هذا الحق.

٢. يمكن ان تكون هناك نتائج، غير مرغوب فيها، تجعل مهمة بريطانيا في جنوب بلاد العرب أكثر صعوبة.

٣. سيتعرض وضع بريطانيا في ليبيا إلى خطر كبير [١٠٧].

ولذا عندما ذكر إيجال آللون Yigal Allon وزير العمل الإسرائيلي (١٩٦١-١٩٦٧) للسفير البريطاني في تل أبيب مايكل هادو: " إن أنجح إنجاز تقوم به المملكة المتحدة هو القضاء على بعض المخاوف الإسرائيلية من النوايا الهجومية المصرية... ذلك يمكن تحقيقه فقط عن طريق أن تعلن كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بأن أي عدوان ضد إسرائيل سيُعتبر عدوانا ضد الولايات المتحدة والمملكة المتحدة نفسهما". فرد السفير البريطاني بقوله: "بأنه يطلب المستحيل He was asking for the moon، وأن أفضل ما يمكن أن يتوقعه هو إعادة توكيد بنود الإعلان الثلاثي والذي كما يعلم مسألة صعبة بالنسبة لنا (بريطانيا)"[١٠٨].

ولخص جورج براون وزير خارجية بريطانيا الموقف بقوله: " هناك حقيقة أننا لا يمكن أن نتجنب بعض أو كل الأضرار السابقة الذكر إذا بقينا سلبيين كليا...، إذا كان هناك نزاع إسرائيلي مصري - حتى لو بقينا خارجه - سنكون في كل الأحوال مؤيدين لإسرائيل في نظر العرب"[١٠٩].

خاتمة :

منذ نهاية العدوان الثلاثي حتى اندلاع حرب الأيام الستة، في ٥ يونيو ١٩٦٧، تمتعت إسرائيل وبريطانيا بعلاقة صداقة تميزت بالتزام بريطانيا المطلق ببقاء إسرائيل وسلامتها. ولم تكتف بريطانيا بإمداد إسرائيل بالأسلحة فحسب، بل شمل تأييد الموقف الإسرائيلي في النزاع العربي - الإسرائيلي في الأمم المتحدة والمنتديات الدولية[١١٠].

كان التخطيط الدولي لخطة اصطياد "الديك الرومي" - هو الوصف الذي استخدمه جونسون في وصف عبد الناصر - دقيقا، كما كان التنفيذ الإسرائيلي للدور المقرر لها فيه على درجة عالية من الكفاءة، فليس هناك شك في أن عبد الناصر مشى إلى الفخ الذي نصب لاصطياده ووقع فيه[١١١].

فعبد الناصر في الخمسينات، قبل السويس، كان معتدلا نسبيا بالنسبة لإسرائيل، حتى إثر تلك الحرب، وضع إسرائيل في أدنى قائمة أولوياته، فقد رفض تلبية نداءات أكثر الزعماء "المتطرفين" لمجابهة فورية مع إسرائيل، في قضية حقوق المياه في المنطقة التي هددت بنشوب الحرب في أوائل الستينات، حيث نصح بالحل بلا حرب،وذلك بسبب انشقاق المعسكر العربي، حقيقة إن هذا الاعتدال النسبي، في مسألة الحرب مع إسرائيل، لم يكن من قبل رغبة من ناحيته لإقامة سلام معها أو للاعتراف بها. فقد كان واضحا من تصريحاته إنه مقتنع أن

المواجهة العسكرية مع إسرائيل حتمية في المستقبل، وبأنه لا يمكن أبـدا أن يعتـرف بدولـة إسرائيل، فقد برر عبد الناصر العديد من أعماله على أنها أهداف لتحطيم إسرائيل، فعلى سبيل المثال: قال في عام ١٩٦٢ " إن تحرير اليمن خطوة نحو التخلص من الصهيونية "(١١٢).

وكان عام ١٩٦٧ هو وقت تنفيذ المخطط الدولي، حيث تم استغلال ما تواجهه مـصر من مشاكل اقتصادية بسبب حرب اليمن، وتوقف مبيعات القمح الأمريكـي بـشروط ميـسرة، وفوق هذا ما صرفته مصر من مبالغ هائلة على مشروعات التنمية بما فيها السد العالي، ولـم تكن قد حصلت بعد على الفوائد المنتظرة لهذه المشروعات.

وتظهر الوثائق الأمريكية أنه، في شهر مارس ١٩٦٧، كانت إسرائيل على وشـك أن تقوم بعملية واسعة لاحتلال جنوب سوريا، ويكون من أثر هذه العملية تفجيـر الموقـف فـي الشرق الأوسط كله. ولكن لم تتحقق تلك الخطة، ولكن تحركات الجيوش المصرية فـي مـايو ١٩٦٧ جاءت بفرصة أكبر. وفي اجتماع لرؤساء أركان الحرب السابقين في إسرائيل، يوم ١٦ مايو ١٩٦٧، كان وزير الدفاع موشي ديان Moshe Dayan (١٩٦٧-١٩٧٣) بوصفه أحـد رؤساء الأركان السابقين مشتركا فيه، قد تنبأ بأن الخطوة التالية لعبد الناصر هى فـي رأيـه إغلاق مضايق تيران. وقررت إسرائيل اتخاذ إجراءات تعبئة جزئيـة يـوم ١٧ مـايو ١٩٦٧ تحولت إلى شبه كلية يوم ١٩ مايو، وكان ذلك قبل يومين من إعـلان قـرار إغـلاق خلـيج العقبة(١١٣).

على أية حال، بعد حرب يونيو التي انتهت بنصر إسرائيلي " مذهل ": راحت بريطانيـا تسلك السبل التي تحد من أضرار هذا النصر على المصالح البريطانية " ففي عام ١٩٥٦، خلال الحرب بين العرب وإسرائيل أخذنا (بريطانيا) عن عمد جانب إسرائيل وتحملنا كراهية شـديدة في البلدان العربية، وعانى وضعنا السياسي من ضرر بالغ، وبسبب اتباع سياسـة الاختفـاء والبعد عن التدخل السياسي السافر إلى أبعد حد ممكن، تعافينا بـسرعة علـى نحـو رائـع، وتوسعت مصالحنا الاقتصادية في المنطقة إلى حد كبير، خلال السنوات الإحدى عشر الماضية وحققت فوائد عظيمة. وفي ١٩٦٧ ولأسباب متفاوتة ما بين رد الفعـل العـام التلقـائي إلـى سياسات ج.ع.م. أصبحنا منحازين كلية للجانب الإسرائيلي لدرجة لا توصف، وقد سـبب هـذا ضررا بالغا لوضعنا في البلدان العربية. في كل من عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٧: كان من الممكـن أن تتعرض مصالحنا الوطنية، والسياسية، والاقتصادية للخطر إذا انهزمت إسـرائيل، وفـرض ناصر هيمنته على العالم العربي، أيضا كان من الصعب بالنسبة لنا الوقوف على الحياد ونحـن نرى إسرائيل تسحق. لكن إسرائيل الآن برهنت على قدرتها، بمجهودهـا، لتـأمين وجودهـا، وضمنت مرة ثانية حقها في المرور خلال مضايق تيـران، وبالـدعم الدبلوماسـي الأمريكـي لإسرائيل في هذه الأمور،لم يعد هناك خطر حقيقي يهدد تلك الحقوق في المستقبل، سواء كـان هناك اتفاقية سلام أم لا "(١١٤).

إلا أن نتائج حرب يونيو ١٩٦٧ كانت كارثية بالنسبة لبريطانيا، حيث أثبتت بما لا يدع مجالا للشك عجز بريطانيا في الشرق الأوسط، وأنها كانت غير قادرة علـى المحافظـة علـى السلام على الرغم من الإنفاق الواسع على القواعد والبنية التحتية التي أنشئت لهذا الغـرض

فقط. علاوة على ذلك فإن هذا التواجد العسكري أخفق في منع قطع النفط العربي بعد الحرب، وتبين أن التواجد العسكري في الشرق الأوسط لم يضمن الهدف الأساسي للسياسة البريطانية فيه وهى الإنتاج والمرور المجاني للنفط إلى بريطانيا[١١٥]. ففي ٦ يونيو ١٩٦٧ قطعت سوريا علاقتها الدبلوماسية مع بريطانيا وقررت وقف شحن البترول أو تحميل أية ناقلة بترول، وفي نفس اليوم أعلنت حكومة الكويت وقف تصدير البترول إلى بريطانيا، وفي ٧ يونيو قررت حكومة ليبيا وقف ضخ البترول ومنع تصديره من جميع موانئ ليبيا إلى بريطانيا، وفي اليوم التالي أعلن العمال الليبيون، في كافة الموانئ والمطارات الليبية في بيان لهم مقاطعة جميع البواخر والطائرات البريطانية وامتناعهم عن تزويدها وخدمتها. وفي ٧ يونيو قررت البحرين وقطر وقف جميع عمليات شحن البترول وخاصة إلى بريطانيا، وفي ١٧ يونيو قام الثوار العرب بنسف أنابيب البترول التي تمد محطة تزويد السفن بالوقود في ميناء عدن، ووقع الانفجار بعد رفض عمال الميناء خدمة السفن البريطانية وإفراغ شحنات ناقلاتها[١١٦].

كما قررت الحكومة السودانية، في ١٣ يونيو ١٩٦٧، مقاطعة جميع السلع البريطانية ووقف جميع العمليات التجارية مع بريطانيا، وفي ٢٢ يونيو سحبت العراق جميع أرصدتها وودائعها من البنوك البريطانية والأمريكية، وتم إيداعها في بنوك دول أخرى[١١٧].

في ذلك الوقت وجهت بريطانيا اهتمامها ناحية إيران، وكان ذلك لعدة أسباب أهمها : " نفطها، واستخدام مجالها الجوي للرحلات العسكرية والمدنية، وأهميتها الاستراتيجية – فهى مع تركيا تشكل مانعا بين الاتحاد السوفيتي والبلدان العربية – التي أبرزتها الأزمة الحالية، أيضا استقرارها مقارنة بالاضطرابات الحالية في الدول العربية. ومن صالحنا (بريطانيا)... أن نبقي علاقة إيران موصولة مع العرب المعتدلين تلك العلاقات التي استطاعت الحفاظ عليها حتى الآن، بالرغم من الضغوط عليها لمنع منح إسرائيل النفط الإيراني... فالشاه نظر له دائما كعدو للعرب الثوريين، وعلاقاته بالزعماء العرب غير الثوريين أفضل بكثير. فسوف يساعدنا في أن يبلغ الزعماء العرب المعتدلين بانطباعه عن مشاعرنا الصديقة نحو بلدانهم، ورغبتنا في إبقاء العلاقات الودية على المدى الطويل "[١١٨].

وفي بداية عام ١٩٦٨ بانخفاض قيمة الاسترليني، قررت بريطانيا الانسحاب من الشرق الأوسط[١١٩].

وهكذا تحقق لبريطانيا ما سعت إليه جاهدة طوال السنوات السابقة على حرب ١٩٦٧، من هزيمة عبد الناصر، وضعف قوة مصر العسكرية، وانتصار إسرائيل.

الهوامـــش

١. وزير الدفاع الأمريكي في الفترة (١٩٦١- ١٩٦٨).

٢. مساعد مستشار الرئيس الأمريكي جون كنيدي John Kennedy (١٩٦١- ١٩٦٣)، ومستشار الأمن القومي في عهد الرئيس الأمريكي ليندون جونسون Lyndon Johnson (١٩٦٣- ١٩٦٩).

٣. كبير مستشاري كنيدي، ومستشار الأمن القومي - السابق لروبرت كومر - في عهد جونسون.

٤. McNamara , Robert , ' Britain , Nasser and the outbreak of the Six Day War ' , Journal of Contemporary History , vol. 35 , no.4 (Oct., 2000) , p. 619.

٥. شاركت بريطانيا وفرنسا مع الولايات المتحدة الأمريكية في إصدار هذا الإعلان الذي سعى إلى دعم الهدوء في الشرق الأوسط بتعهد من الدول الثلاث بالحد من عمليات توريد الأسلحة إلى المنطقة، وتأييد التكامل الإقليمي لكل دول الشرق الأوسط دون تمييز. أنظر:

دان تشيرجي، أمريكا والسلام في الشرق الأوسط، ترجمة : محمد مصطفى غنيم، مراجعة : د / رأفت عبد الحميد، ط١، (دار الشروق، ١٩٩٣)، ص١٧.

٦. McNamara , op.cit.

٧. McNamara , Robert , Britain , Nasser and the balance of power in the Middle East 1952 – 1967 , from the Egyptian Revolution to the Six Day War , National University of Ireland , Maynooth , (Frank Cass , London , Portland , OR, 2003) , introduction.

٨. Ibid.

٩. ينتمي إيمري لأسرة تنحدر من أصل يهودي، وهو رئيس مجموعة النواب المحافظين في بريطانيا الذين اشتهروا باسم " مجموعة نواب السويس ". وكانت تلك المجموعة أبرز قوى الضغط التي تحركت للعمل في أعقاب ثور ة اليمن وكان شعارها " إن عدن لن تلحق بالسويس ". أنظر :

محمد حسنين هيكل، حرب الثلاثين سنة، ١٩٦٧ : سنوات الغليان، ج١، ط١، (القاهرة : مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨)، ص ٦٦٥.

١٠. Public Record Office , PREM 11/2397 – 86890 , (Notes on Middle East sent to Prime Minister by Julian Amery , Parliamentary Under Secretary for War) , private , 8 Sept. , 1958.

١١. Ibid.

١٢. P.R.O.,FO 371/190211 – 87952 , (Political Relations : UK: British Policy Towards UAR.) , Confidential , 5May , 1966

١٣. P.R.O.,FO 371/190211 – 87952 , (Egypt : Unattributable Publicity) , Confidential , 24 March , 1966.

١٤..Ibid

١٥.وثائق الخارجية البريطانية – ملفات القسم المصري، سري، ١٩٥٦/١١/٢٦، J.E. 1015/77 نقلا عن : هيكل، المرجع السابق، ص١١٧.

١٦.نفسه.

١٧.وثائق الخارجية البريطانية، J.E. 1024/15 نقلا عن : هيكل، المرجع السابق، ص ٢٢١.

١٨.وثائق وزارة الخارجية المصرية، ملف: (التقارير الصحفية للسفارة المصرية بواشنطن)، الكود الأرشيفي: ٠٠٧٨- ٠٣٢١٦١، محفظة رقم ١٠٠٧، ملف١، رقم الملف: ١٣/٧/٢٠٣، ج٢١، (التقرير الصحفي الأسبوعي رقم ٤٥، بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٩٥٦، ٤- " سياستنا في الشرق الأوسط " ص٣).

١٩.المصدر السابق، ملف: (صحافة وإعلام : صحافة دولية وداخلية مع الجمهورية العربية المتحدة)، الكود الأرشيفي: ٠٠٧٨- ٠٥٠٣١٦، ملف رقم ١، ٥١١، محفظة رقم ٩٣ ملف رقم ٢، (بشأن : رأي الأوساط الدبلوماسية الأجنبية في القاهرة حول زيارة خوروشوف، بتاريخ ١١يونيه ١٩٦٤).

٢٠.P.R.O. , FO 371/150908 – 80301 , (Alleged Plots Against President Nasser) , Parliamentary Question , 29 Feb., 1960.

٢١.P.R.O. , FO 371/190211 – 87952 , (Record of some observations by Sir G. Middleton , on various aspects of UAR policy) , Secret , 10 Feb. , 1966.

٢٢.P.R.O. , FO 371/190211 – 87952 , Planning Committee , (Policy towards the UAR) , Secret , 8 July 1966.

٢٣.وثائق وزارة الخارجية المصرية، ملف: (التقارير الصحفية للسفارة المصرية بواشنطن عن مصر)، الكود الأرشيفي: ٠٠٧٨- ٠٤١١٢٥، ملف رقم: ١/٨٦/٧٣٢، محفظة رقم ٦٨١ ملف ٦، بتاريخ ٥ أغسطس ١٩٥٧.

٢٤.المصدر السابق، ملف: (التقارير السياسية للسفارة المصرية بواشنطن، مختلفة) ج٤، الكود الأرشيفي: ٠٠٧٨- ٠٤١١١٠، ملف رقم: ٣/٨١/٧٣٢ ج٤، محفظة رقم ٦٧٩ ملف ٣، تحريرا في ٢ فبراير ١٩٥٨، سري جدا.

٢٥..P.R.O. , FO 371/190211 – 87952 , Secret , 27 Jan. , 1966

٢٦.وثائق وزارة الخارجية المصرية، ملف: (فرنسا صحافة وإعلام ج٦)، الكود الأرشيفي: ٠٠٧٨- ٠٤٩٧٠٦، ملف رقم ٥١٧/١٥١ ج٦، محفظة رقم ١٤٤ ملف ٣، تحريرا في ١٦ سبتمبر ١٩٦٥.

٢٧.طه المجدوب (رئيس أركان اللواء الثالث المدرع من الفرقة الرابعة المدرعة عام ١٩٦٧)، هزيمة يونيو: حقائق و أسرار من النكسة حتى حرب الاستنزاف، ج١، (القاهرة: مؤسسة دار الهلال، ١٩٨٨)، ص ص ٦١- ٦٣.

٢٨.P.R.O. , FO 371/125423 – 87774 , (Subversive activities in Egypt : alleged plot to assassinate President Nasser) , JE 1019/1 , Confidential , July 26 , 1957.

٢٩.محمد حسنين هيكل، حرب الثلاثين سنة، ١٩٦٧ : الانفجار، ط١، (القاهرة : مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠)، ص ٨٢١.

٣٠.أمين هويدي، أضواء على أسباب نكسة ١٩٦٧ وعلى حرب الاستنزاف، (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٥)، ط١، ص ٢٦.

٣١. P.R.O. , PREM 13/414 – 88252 , (Relations between UK and Israel : Records of separate – discussions between Prime Minister and US Governor Harriman , Prime Minister Eshkol of Israel , Representatives of UAR National Assembly and Mrs. Golda Meir) , Secret , Sept. 22 , 1965.

٣٢. P.R.O. , FO 371/190211 – 87952 , (Record of some observations by Sir G. Middleton , on various aspects of UAR policy) , Secret , Feb. 10 , 1966.

٣٣. Blackwell , Stephen , ' Pursuing Nasser : The Macmillan Government and the management of British policy towards the Middle East cold war , 1957- 63 ' , Cold War History , April 2004 , vol.4 , Issue 3 , pp. 90 – 91.

٣٤.هيكل، سنوات الغليان، ص ص ٣٢٣، ٣٣١.

٣٥.وثائق وزارة الخارجية المصرية، ملف: (الحالة في لبنان ١٩٥٨ ج٣)، الكود الأرشيفي: ٠٠٧٨ – ٠٤١٢٨٠، ملف رقم: ١٠٣٧/٤٤٠/٥ ج٣، محفظة رقم ٦٩٥ ملف ٢، (بشأن: بلاغ وكالة تاس عن خطط تدخل الولايات المتحدة وانجلترا في شئون لبنان الداخلية)، سري جدا، موسكو في ١٩٥٨/٧/٢٤.

٣٦.المصدر السابق، ملف: (التقارير السياسية للسفارة المصرية بواشنطن، مختلفة) ج٤، الكود الأرشيفي: ٠٠٧٨ – ٠٤١١١٠، ملف رقم: ٣/٨١/٧٣٢ ج٤، محفظة رقم ٦٧٩ ملف ٣، (بشأن: تحليل لموقف أمريكا من ج.ع.م)، بتاريخ ٢ مارس ١٩٥٨.

٣٧. Blackwell , op.cit. , p. 91.

٣٨. P.R.O. , PREM 11/2400 88223 , Secret , (Record of meeting held at No.10 Downing Street at 12 Noon , on July 27, 1958).

٣٩. P.R.O. , PREM 11/2397 – 86890 , 10 Sept., 1958.

٤٠. P.R.O. , PREM 11/2376 – 86890 , (Account by Mr. Julian Amery of interview between Mr. R. Churchill and Mr. Ben Gurion about situation in Middle East) , July 25 , 1958.

٤١. Blackwell , op.cit. , p.89.

٤٢.هيكل، سنوات الغليان، ص ص ١٥٦– ١٥٧.

٤٣.وثائق وزارة الخارجية المصرية، ملف: (التقارير السياسية للسفارة المصرية بواشنطن، مختلفة) ج٣، الكود الأرشيفي: ٠٠٧٨– ٠٤١١٠٩، ملف رقم: ٣/٨١/٧٣٢ ج٣، محفظة رقم ٦٧٩ ملف ٢، تحريرا في ١٨ مارس ١٩٥٧.

٤٤.حددت اتفاقية الحكم الثنائي عام ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا الحدود بين مصر والسودان، وقد ضمت المناطق من دائرة عرض ٢٢ شمالا لمصر وعليها يقع مثلث حلايب داخل الحدود المصرية، ولكن بعد ثلاثة أعوام في عام ١٩٠٢ عاد الاحتلال البريطاني وجعل مثلث حلايب تابع للإدارة السودانية لأنه أقرب للخرطوم منه للقاهرة. أنظر:
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%AB%D9%84%D8%AB_%D8%AD%D9%84%D8%A7%D9%8A%D8%A8
٢٩/ ٦/ ٢٠١٢.

٤٥.وثائق وزارة الخارجية المصرية، ملف: (مقابلات السيد السفير في واشنطن)، الكود الأرشيفي: ٠٠٧٨ - ٠٤١١٠٦، ملف رقم ٧٣٢ / ٨١/ ٣أ، محفظة رقم ٦٧٨ ملف ٦، ١٨ مارس ١٩٥٨، سري جدا.

٤٦.هي اتفاقية أبرمتها الحكومة البريطانية - بصفتها الاستعمارية - نيابة عن عدد من دول حوض النيل في عام ١٩٢٩ مع الحكومة المصرية تضمن إقرار دول الحوض بحصة مصر من مياه النيل وأن لمصر الحق في الاعتراض في حالة إنشاء هذه الدول مشروعات جديدة على النهر وروافده. انظر :
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D8%AA%D9%81%D8%A7%D9%82%D9%8A%D8%A9_%D8%AA%D9%82%D8%A7%D8%B3%D9%85_%D9%85%D9%8A%D8%A7%D9%87_%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%8A%D9%84_1929
٢٩/ ٦/ ٢٠١٢.

٤٧.هيكل، سنوات الغليان، ص ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

٤٨.P.R.O. , FO 371/157827 - 88025 , Confidential , (from Foreign Office to United Kingdom Delegation to N.AT.O. Paris , October 9 , 1961.

٤٩.هيكل، المرجع السابق، ص ٦٣٨.

٥٠.نفسه، ص ٦٥٦.

٥١.P.R.O. , FO 371/174482 - 87972 , Confidential , British Embassy , Cairo , Sept. 18 , 1964.

٥٢.P.R.O. , FO 371/190211-87952, Confidential , (Anglo / U.A.R. relation) , Aug.12 , 1966.

٥٣.وثائق وزارة الخارجية المصرية، ملف: (فرنسا صحافة وإعلام ج٦)، الكود الأرشيفي: ٠٠٧٨- ٠٤٩٧٠٦، ملف رقم ٥١٧/١٥١ ج٦، محفظة رقم ١٤٤ ملف ٣، (التقارير الصحفية ابتداءا من ٥ أغسطس إلى ١١ أغسطس ١٩٦٥)، تحريرا في ١١ أغسطس ١٩٦٥.

٥٤.P.R.O. , FCO 46/97 - 85604 , Secret , (publicity on Egyptian use of poison gas 1967 in Yemen) , from Mr. F. Cooper , C.M.G., Ministry of Defence , Jan. 20 , 1967.

٥٥.هيكل، المرجع السابق، ص ٦٦٣- ٦٦٧.

٥٦.P.R.O. , PREM , 13/414 – 88252 , Secret , (Record of a conversation between the Prime Minister and the Prime Minister of Israel , Mr. Eshkol , at 10 Downing Street on march 19 , 1965.

٥٧.P.R.O. , FO 371/190211 – 87952 , Secret , Jan. 27 , 1966.

٥٨.قرارات وتوصيات وبيانات منظمة الوحدة الأفريقية ١٩٦٣ – ١٩٨٣، وزارة الخارجية، جمهورية مصر العربية، ١٩٨٥، ص ص ٨٥- ٨٦.

٥٩.Gat , Moshe (Head of the political studies department and Professor of Modern History at Bar–Ilan University , Israel) , " Britain on the Eve of the Six Day War : The British effort to end the Egyptian Blockade on the Straits of Tiran " , Review of International Affairs , Spring 2004 , vol.3 , Issue 3 , p. 395.

٦٠.P.R.O. , FO 371/157392 – 88025 , Secret , (Anglo – American talks on policy in Middle East) , April 1961.

٦١.P.R.O. , PREM 13/414 – 88252 , (Relations between UK and Israel : Records of separate – discussions between Prime Minister and US Governor Harriman , Prime Minister Eshkol of Israel , Representatives of UAR National Assembly and Mrs. Golda Meir) , Secret , Sept. 22 , 1965.

٦٢.Moshe , op.cit., pp.395– 396.

٦٣.P.R.O. , FO 371/186426 – 87972 , Secret , (UK Policy in Middle East) , Mr. Stewart to Mr. Hadow (Tel Aviv) , March 29 , 1966.

٦٤.P.R.O. , CAB 164/95 – 85550 , Secret , Note of a meeting between the Prime Minister , the Foreign Secretary and the Defence Secretary , at No. 10 Downing Street , on May 23 , 1967.

٦٥.P.R.O. , PREM 13/414 – 88252 , (Relations between UK and Israel : Records of separate – discussions between Prime Minister and US Governor Harriman , Prime Minister Eshkol of Israel , Representatives of UAR National Assembly and Mrs. Golda Meir) , Secret , Sept. 22 , 1965.

٦٦.وثائق وزارة الخارجية المصرية، ملف: (علاقات بريطانيا مع إسرائيل ج١)، الكود الأرشيفي: ٠٠٧٨ – ٠٠٤٨٥٦٤، رقم الملف:٢١٧/٤١٣ ج١، محفظة رقم ٤٩ ملف ٥ (تقرير عن زيارة جولدا مائير وزيرة خارجية إسرائيل لدول البنلوكس وبريطانيا، في الفترة من ١٩٦٤/٢/٢٥ إلى ١٩٦٤/٣/١٣).

٦٧. P.R.O. , PREM 13/414 – 88252 , (Relations between UK and Israel : Records of separate – discussions between Prime Minister and US Governor Harriman , Prime Minister Eshkol of Israel , Representatives of UAR National Assembly and Mrs. Golda Meir) , Secret , Sept. 22 , 1965.

٦٨. P.R.O. , CAB 128/42 , Secret , Conclusions of a meeting of the Cabinet held on June 1, 1967.

٦٩. P.R.O. , PREM 13/414 – 88252 , (Relations between UK and Israel : Records of separate – discussions between Prime Minister and US Governor Harriman , Prime Minister Eshkol of Israel , Representatives of UAR National Assembly and Mrs. Golda Meir) , Secret , Sept. 22 , 1965.

٧٠. McNamara , Robert , ' Britain , Nasser and the outbreak of the Six Day War ' , p. 622.

٧١. بطرس بطرس غالي، " المجابهة العربية الصهيونية "، مجلة السياسة الدولية، العدد ٩، يوليو ١٩٦٧، ص ٨.

٧٢. Brown , George , In my way , (Harmondsworth , 1971) , p. 136.

٧٣. بطرس غالي، المرجع السابق، ص ص ٧-٨.

٧٤. وثائق وزارة الحربية قبل ثورة يوليو، ملف: (مضبطة الجلسة الثلاثين المعقودة يوم السبت الموافق ٣ يونيو ١٩٦٧)، التاريخ ٤ ديسمبر ١٩٦٧، الكود الأرشيفي : ٠٠٣٩١٨ – ٠٠٧٦، محفظة رقم ٢٩٣ – ملف ١٥ – قطاع ٢ – رمز الوحدة كل ٩ – الرف ٣، ج. ع. م.، الجريدة الرسمية، قسم مجلس الأمة، العدد ١٩.

٧٥. بطرس غالي، المرجع السابق، ص ص ١٠ – ١٣.

٧٦. P.R.O. , PREM 13/1618 – 88313, Secret , (Arab – Israeli dispute: situation following closure of Straits of Tiran. part 2.) , Annex B , Note on legal aspects, A.The Right of innocent passage.

٧٧. P.R.O. , CAB 128/42, Secret , Conclusions of a meeting of the Cabinet held at 10 Downing Street , on may 23, 1967.

٧٨. Barak , Eitan (Assistant Professor of International relations at the Hebrew University of Jerusalem) , ' Between reality and secrecy: Israel's freedom of navigation through the Straits of Tiran , 1956-1967 ' , Middle East Journal , vol.61 , no.4 (Autumn , 2007) , p. 657.

٧٩. P.R.O. , CAB 128/42 , Secret, Conclusions of a meeting of the Cabinet held at 10 Downing Street , on May 23, 1967.

٨٠. P.R.O. , CAB 164/95 , Secret, (United Arab Republic – Israeli crisis 1967 use of the Gulf Aqaba) , Note of meeting between The Prime Minister , The Defence Secretary and the Foreign Secretary , May 23 , 1967.

٨١. Castle , Barbara , The Castle Diaries , 1964 – 70 , (London , 1984) , p. 258.

٨٢. Ibid.

٨٣. P.R.O. , PREM 13/1618 , Crawford (Bahrain) – FO , no.356 , May 26 , 1967.

٨٤. P.R.O. , PREM 13/1618 , Arthur (Kuwait) to FO , no. 197 , May 27, 1967.

٨٥. P.R.O. , CAB 128/42 , Conclusions of a meeting of the Cabinet held on May 25, 1967.

٨٦. P.R.O. , CAB 164/95 – 85550, Secret , Annex , Near East Crisis: Naval Forces. أنظر الملحق.

٨٧. P.R.O. , CAB 164/ 95 – 85550 , Secret , Ministry of Defence to Prime Minister , May 24 , 1967.

٨٨. P.R.O. , CAB 128/42 , Secret , Conclusions of a meeting of the Cabinet held on June 1 , 1967.

٨٩. McNamara , Robert , ' Britain , Nasser and the outbreak of the Six Day War ' , p. 625.

٩٠. P.R.O. , FO 371/186426 – 87972 , Confidential & Guard , British Embassy, Damascus , Nov. 21 , 1966.

٩١. P.R.O. , CAB 164/95 – 85550 , Secret, , Note of meeting between The Prime Minister , The Defence Secretary and the Foreign Secretary , May 23 , 1967.

٩٢. الوثيقة المعنونة برقم ' ٢٣٣٠ – مذكرة للملفات '، مكتبة ليندون جونسون بتكساس في المجموعة ٣ من هذه المكتبة. نقلا عن : هيكل، الانفجار، ص ٤٨٧.

٩٣. نفسه، ص ٤٩٨.

٩٤. نفسه، ص ٧١٣.

٩٥. P.R.O. , CAB 129/130 , Secret , Middle East crisis , memorandum by Foreign Office officials May 29 , 1967.

٩٦. McNamara , Robert , ' Britain , Nasser and the outbreak of the Six Day War ' , p. 626.

٩٧. P.R.O. , CAB 164/95 – 85550 , Confidential , Urgent , from A. Kosygin , Chairman of the Council of Ministers of the U.S.S.R. , to The Prime Minister , May 27, 1967.

٩٨. P.R.O., CAB 164/ 95 – 85550 , Secret , Immediate , Foreign Office to Moscow , from Prime Minister to Mr. Kosygin , May 28, 1967.

٩٩. P.R.O., CAB 128/42 , Secret , Conclusions of a meeting of the Cabinet held on May 30 ,1967.

١٠٠. هى إحدى دول الكومنولث Commonwealth البريطاني.

١٠١. P.R.O., CAB 128/42 , Secret, Conclusions of a meeting of the Cabinet held on May 25,1967.

١٠٢. P.R.O. , CAB 164/95 – 85550 , Secret, Message to The RT. Hon. Harold Wilson , O.B.E. , M.P. Prime Minister of Great Britain from The RT. Hon. Lester B. Pearson , Prime Minister of Canada. May 26, 1967.

١٠٣. P.R.O., CAB 164/95 – 85550 , Confidential , Record of conversation between The Prime Minister and Foreign Minister of Israel , at no. 10 Downing Street , on May 24, 1967.

١٠٤. P.R.O., CAB 128/42 , Secret , Conclusions of a meeting of the Cabinet held on May 30 ,1967.

١٠٥. Gat , Moshe , ' Britain on the Eve of the Six Day War : The British effort to end the Egyptian Blockade on the Straits of Tiran ' , p. 397.

١٠٦. CENTO : Central Eastern Treaty Organization. وقــد كــان الاســم الأصلي:(Middle East Treaty Organization (METO المعروف أيضا باســم حلــف بغداد Baghdad Pact ، الذي تكون عام ١٩٥٥ من قبل : إيران والعراق وباكــستان وتركيــا وبريطانيا. وتم حله في ١٩٧٩. أنظر:
http://en.wikipedia.org/wiki/Central_Treaty_Organization
٢٩/ ٦/ ٢٠١٢

١٠٧. P.R.O. , CAB 129/130 , Secret , Middle East crisis , memorandum by Foreign Office officials May 29 , 1967

١٠٨. P.R.O. , PREM 13/1618 – 88313 , Secret – Guard , Flash Tel Aviv to Foreign Office , May 28, 1967.

١٠٩. P.R.O. , CAB 129/130 , Secret , Middle East crisis , memorandum by Foreign Office officials May 29 , 1967.

١١٠. Gat , Moshe , ' Britain and Israel before and after The Six Day War , June 1967: from support to hostility ' , Contemporary British History , Spring 2004 , vol.18 Issue 1 , p. 54.

١١١. هيكل، الانفجار، ص ص ٧١٤ – ٧١٥.

١١٢. McNamara , Robert , ' Britain , Nasser and the outbreak of the Six Day War ' , pp.621- 622.

١١٣. هيكل، المرجع السابق، ص ص ٣٧٨، ٥٠٣، ٥٧١، ٥٨١– ٥٨٢.

١١٤. P.R.O. , CAB 129/132 , Secret , Arab attitudes and British economic interests in the Middle East , memorandum by The Secretary of State for Foreign Affairs , July 7,1967.

١١٥. McNamara , Robert , Britain , Nasser and the balance of power in the Middle East 1952 – 1967 , introduction.

١١٦. مجلة السياسة الدولية، العدد ١٠، أكتوبر ١٩٦٧، ص ص ١٩٠، ١٩٢– ١٩٣، ١٩٥– ١٩٦.

١١٧. نفسه، ص ص ١٩٣ – ١٩٤.

١١٨. P.R.O., FCO 17/360 – 85604 , Iran and the Arab/Israel problem , June 21, 1967.

١١٩. McNamara , Robert , Britain , Nasser and the balance of power in the Middle East 1952 – 1967 , introduction.

